عزيزي القارئ

العدد المائة

بهذا العدد، تستهل «الثقافة العالمية» مرحلة جديدة من حياتها بعد أن أكملت بهذا العدد أعدادها المائة الأولى. والمرحلة الجديدة - والمائة الثانية - لا تنفصل عن المرحلة الأولى - والمائة الأولى - بل هي استمرار لها، وأمل في الإضافة، وفي الانتقال إلى آفاق أكثر رحابة لذلك الحلم الذي بدأ حتى قبل ظهور عددها الأول قبل أكثر من تسعة عشر عاما.

كانت البداية إذن حلما راود الطليعة الكويتية المثقفة طويلا، في سعيها نحو تواصل أوسع للثقافة العربية مع ثقافات العالم، ونحو فهم أعمق لمختلف تياراتها الفكرية الحديثة. وكان الأستاذ عبد العزيز حسين، المنور الكويتي البارز، وأول رئيس للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب واحدا من هؤلاء الرواد. وعن هذا الحلم، وعن الثقافة العالمية، يقول رحمه الله: «كانت أحد أحلامي، لأنني كنت أريد أن يترجم الفكر الأجنبي الحديث إلى اللغة العربية لمن لا تتاح له الفرصة أو الإمكانية للاطلاع من خلال اللغة الإنجليزية وغيرها على هذا الفكر. وهو ما ينطبق على سنوات حركة الترجمة الكبرى التي عرفها العرب في القرون الأربعة الأولى للإسلام، وعلى تجارب النهضة العربية الحديثة والقصيرة».

وقد صدر العدد الصفري من المجلة في إبريل 1981، وكان شعارها الذي زين الصفحة الأولى «وقديما ترجموا» وفوق هذا الشعار أسطر عدة من نص عربي قديم لجالينوس، مما ترجمه العرب في عصر تسنمهم قمة الحضارة في العالم. وكأن «الثقافة العالمية» أرادت أن تذكرنا بأن كل عصور الازدهار العربي قد اقترنت بازدهار حركة الترجمة والتفاعل المفتوح مع الحضارات والثقافات الأخرى واستلهام ينابيع



الإبداع فيها.

ثم قدمت المجلة تعريفا برسالتها في كلمات موجزة، نشرت في مربع صغير في بداية العدد، جاء فيها: «أنشئت هذه المجلة لتقديم الجديد من تيارات الفكر العالمي في مختلف ميادين المعرفة. طريقها الذي اختارته هو الترجمة من مختلف الدوريات العالمية. وهي ليست متخصصة، والميادين التي تطرقها تتناول: المستقبليات، والتخطيط والتنمية، والآداب، والنظريات الفكرية والعالمية، والشؤون السياسية الكبرى، والتيارات الفنية العالمية، وتطور العلوم الاجتماعية، والاتجاهات الاستشراقية، ودراسات الفضاء والإنسانيات، والشؤون الاقتصادية، والمكتشفات الأثرية والعلمية، وتيارات التربية وتطوير الجامعات، والمشاريع الهندسية. وميزانها الأساسي في اختيار الترجمات هو الجديد والمهم من الفكر العالمي. وهدفها الأخير: إقامة الصلة بين الفكر العربي والأجواء المتطورة للفكر المعاصر».

أما افتتاحية العدد فكانت بقلم الأستاذ أحمد مشاري العدواني، أول رئيس تحرير للمجلة، وأول أمين عام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. وهي كلمة تكشف بوضوح عما كان يهدف إليه المجلس من هذه المجلة، وأي مساهمة أراد أن يقدمها للثقافة العربية. وقال العدواني: «هذه المجلة التي يقدمها المجلس الوطني للثقافة، والفنون والآداب، ويضيفها إلى ما سبق أن قدمه من المشاريع الثقافية، ليست دورية تضاف في الزحام إلى ما يزخر به الوطن العربي من صحف ثقافية، وليست أقلاما فكرية عربية تحاول أن تحمل المصباح وتهدي إلى الصراط. إنها باب جديد من أبواب الثقافة يفتح للفكر العربي المعاصر، ورافد فكري أساسي كان فقده ثغرة من الثغرات الملموسة في كل وقت، وفي كل جانب.

إنها مجلة لمتابعة وترجمة أحدث ما يبدع الفكر الأجنبي المعاصر من علم وأدب وفن وسياسة».

ويوم أقر المجلس الوطني مشروع هذه المجلة وقرر المضي فيه كان يدرك أنه أمام حاجة ثقافية كبرى، وأمام صعوبات كبرى في وقت معا.

فالفكر العربي اليوم محتاج إلى المزيد من مواكبة العصر، في أحدث تياراته، وفي الجديد الثوري من آفاقه في المعرفة والكشوف، ومحتاج - قبل أن يفوت الأوان - إلى إقامة المزيد من الأقنية والجسور بينه وبين تلك التيارات والآفاق العالمية الراكضة. إن المعاصرة هي معركة الفكر العربي اليوم.

على أن قافلة من الصعوبات كانت ولاتزال تقطع طريق المواكبة وتدمر حتى ما قد يوجد من الأقنية والجسور. فآفاق المعرفة اليوم تتسع الاتساع المرعب السريع حتى لا تكاد تُلحق، وهي إلى هذا تتوالد وتتنوع، ففيها كل يوم فتح جديد. ومواطن

الفكر المعاصر عديدة موزعة، ولغاته شتى، ومتابعته بمختلف اللغات متعذرة على الكثيرين. ثم إن نوافذ الوطن العربي على ما يمور به العصر محدودة قليلة مسكينة، والقراءة باللغات الأجنبية وحدها غربة فكرية مدمرة ومع أن عملية التعريب ضرورة قومية فإن اللغة العربية لاتزال تعاني من فقد المصطلح أو نقصه أو عدم استقراره مما يجعل الترجمة الأمينة الدقيقة مهمة تسحق الأقلام.

مع كل أولئك ولعله بسبب كل أولئك يقدم المجلس الوطني إلى دنيا المثقفين هذه المجلة التي تترجم أحدث تيارات الفكر العالمي المعاصر وهي تحمل الطموح الكبير في أن تصبح أحد جسور اللقاء الأساسية مع هذا الفكر، وفي أن تدعم جهود الفكر العربي لوعي العصر والإبداع من خلال ثقافته.

لقد وجدت هذه المجلة لتضيف لبنة أساسية إلى البناء الفكري العربي المعاصر. إنها مجلة ذات رسالة فإن نجحت فيها أو في بعضها فذلك حسبها عملا أو أجرا».

وصدر العدد الأول من مجلة الثقافة العالمية في مطلع شهر نوفمبر 1981. وظلت تصدر مرة كل شهرين منذ ذلك الوقت وحتى العدد 53، عندما توقفت بسبب أحداث الغزو العراقي الغاشم للكويت، غير أنها عادت للصدور مجددا بدءا من العدد 54 في سبتمبر 1992، وعادت للانتظام في وقت لاحق.

وإذا كانت أي مجلة في العالم تعتمد على عدد من المواضيع «القوية»، «تسندها» مجموعة من المتابعات والتعليقات، فإن «الثقافة العالمية» قد تميزت بانتقاء هذه الموضوعات القوية دون غيرها من أهم الدوريات العالمية. وهكذا بدت «الثقافة العالمية» وكأنها «مجلة المجلات».

واعتمدت الثقافة العالمية منذ فترة ليست



بالقصيرة سياسة الملفات. وقدمت للقارئ العربي مجموعة من الملفات المهمة شكلت معا نافذة لا غنى عنها على مستجدات العصر على مختلف الأصعدة: ثورة المعلومات، والعولمة وصدام الحضارات، ومستقبل قضية السكان، وإدارة الأزمات، والتغيرات في شرق أوروبا، ومستقبل أوروبا الموحدة. وفي العلوم كان هناك علوم الفضاء، والاكتشافات الطبية الجديدة، والهندسة الوراثية، ونشأة الحياة على الأرض، وبحوث الدماغ والذاكرة. وفي العلوم الإنسانية والفنون كان هناك النخب الثقافية، والفن السابع في مائة عام، وسينما الألف الثالثة، وصعود وتفسخ الإمبراطورية المغولية، وتاريخ الأدب الإنجليزي، وتساؤلات حول الثورة، والعالم في عيون روما، والموسيقى والإنسان، وموسيقى القرن العشرين، وملف المرأة.

وخلاصة القول: إن الثقافة العالمية، خلال رحلة عطاء امتدت خلال مائة عدد وتسعة عشر عاما، قد قدمت للثقافة العربية خدمة جليلة من خلال نهل المعرفة من منابعها الأصلية لتصبح أحد الأنهر الرئيسية في الثقافة العربية.

ولابد أن نذكر بالتقدير والامتنان كل من أعان على الوصول بهذه المجلة إلى ما حققته من إنجاز: وأبدأ هنا بالراحلين، الأستاذ عبد العزيز حسين، «صاحب الحلم»، والأستاذ أحمد مشاري العدواني، رئيس تحريرها الأول، والدكتور شاكر مصطفى، مستشارها الأول، والأستاذ حسين البودي، سكرتير تحريرها، رحمهم الله جميعا وأسكنهم فسيح جناته جزاء ما قدموه من خدمات جليلة للثقافة العربية. ثم أنتقل إلى الأحياء أمد الله في أعمارهم ووفقهم لمزيد من العطاء والإنجاز، رئيسي التحرير السابقين الدكتور فاروق العمر، والدكتور سليمان العسكري، ومستشار التحرير السابق الدكتور منصور بوخمسين، فضلا عن أعضاء هيئات التحرير المتتابعة، الذين لم يبخلوا على المجلة بوقتهم وعملهم، وقدموا إلينا الرأي والمشورة، والمحررين الذين وصلوا الليل بالنهار حتى تخرج الثقافة العالمية بهذه الصورة المشرفة. كما لا يفوتني هنا أن أقدم شكري وامتناني للطاقم المتميز الذي يقوم بإصدار «الثقافة العالمية» الآن، فعملهم طوال السنوات الماضية يثبت أنهم مؤمنون بالحلم الذي انطلقت منه، وبرسالة التنوير التي اختارتها.

وحسبي أن أذكر بتلك الكلمات الموحية التي جاءت في افتتاحية العدد الأول: «إنها مجلة ذات رسالة فإن نجحت فيها أو في بعضها فذلك حسبها عملا أو أجرا».

رئيس التحرير*

* العنوان الإلكتروني لرئيس التحرير: mrumaihi@kems.net.

أمركة العالم
أم عولمة أمريكا؟

بقلم: جان ـ ماري جيهينو*
ترجمة: حليم طوسون

يرى جان ماري جيهينو أن العولمة انتصار طويل الأمد لأمريكا.

والواقع أن العولمة هي «أمركة للعالم»، أي نشر «الحلم الأمريكي» على نطاق العالم. بيد أنه بقدر ما يشيد الأمريكيون بالعولمة، بقدر ما ترفضها جميع المجتمعات التي تعتبر الذاكرة أساس هويتها وجوهر تلاحمها الاجتماعي. وعليه تواجه الولايات المتحدة مصاعب متزايدة في نشر وجهات نظرها خاصة وأن سياستها الخارجية تبدو مجزأة. على أن كاتب هذا المقال يرى أن للأوروبيين دورا خاصا في إطار جهودهم «للتوفيق بين الذاكرة والعقد»* ، إذا كان المطلوب هو ألا تؤدي العولمة إلى تشنجات ترتبط بالهوية وإلى انقسامات جديدة في العالم.**

العنوان الأصلي للمقال:
Américanisation du monde ou mondialisation de l´Amérique? ونشر في مجلة Politique étranjeré ـ عدد ربيع 1999

* يترأس جان ـ ماري جيهينو مجلس إدارة معهد الدراسات العليا للدفاع الوطني.

** المقصود هنا ذاكرة الأمم ذات الأصول الممتدة على مدى التاريخ، أما العقد فيشير إلى قواعد التفاهم التي توصلت إليها الولايات المتحدة عن طريق مختلف الجماعات التي توافدت عليها خلال القرون الخمسة الأخيرة في غياب الاعتماد على تراث واحد وتراب وطني مشترك ـ المترجم.

لاحظ بيير هسنر أخيراً في مقال لافت للأنظار* استعرض فيه مختلف المؤلفات الأمريكية التي لم تقدم مراجع فكرية تتعلق بالحوار الدولي خلال السنوات العشر الماضية «اللهم إلا إذا وجدت الولايات المتحدة مشقة في تحويل العالم حسب تمنياتها، فليس هناك أي مزاحم لها في تفسير ذلك».

والواقع أن هذه السيطرة الفكرية على الحوار الدولي ليست سوى اللمسة الأخيرة لهيمنة تشمل في آن واحد الجوانب العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية والإعلامية، والثقافية والاجتماعية. فالبنتاجون وول ستريت وميكروسوفت، وسي.إن.إن ليست سوى مختلف أوجه نجاح مطلق دفع هوبرت فدرين، وزير خارجية فرنسا، إلى ابتكار لفظ جديد، فكلمة دولة عظمى لم تعد كافية، فقد أصبحت الولايات المتحدة من الآن فصاعدا دولة فوق عظمى Hyper Puissance.

ومع ذلك تظل المفارقة التي أشار إليها هسنر قائمة: فالعالم يتأمرك ولكن الحكومة الأمريكية تواجه أشد المصاعب لتغليب وجهات نظرها، فحلفاؤها وأعداؤها عنيدون: سواء كانوا بنيامين نتانياهو وكيزو أو بوشي، أو سفوبودان ميلوسوفيتش وصدام حسين، فهم يتابعون ما تبثه سي.إن.إن، وربما يشربون أيضا الكوكاكولا دون أن يدفعهم ذلك إلى قبول ما توعز به واشنطن، فأمركة العالم لا تعني أن النفوذ الأمريكي يسود وحده، خاصة وأن ضروب المقاومة الداخلية التي يهيؤها النظام الأمريكي لا تعوزها القوة، فكثيرا ما يبدو جاليفر ** أسيرا للعديد من ضروب التوازن المؤثرة بمزيد من الفاعلية نظرا لأن غياب تهديد خارجي خطير يجعل من العسير التوصل إلى توافق بين الحزبين في مجال السياسة الخارجية، ويزيد من النفور الشعبي إزاء الالتزامات العسكرية الخارجية: فالشعب الأمريكي لا يقبل بسهولة أن يموت جنوده من أجل أهداف غير مؤكدة، فهذه الإمبراطورية الديمقراطية يعوزها ذلك الجانب الإمبراطوري خاصة وأنها تميل كثيرا إلى النظر إلى الخارج، وكأنه محاكاة لأمريكا، وهو الأمر الذي له ما يبرره أحيانا. فما الداعي إذن إلى الاهتمام بالصورة عندما يكون الأصل في حوزتها؟

وتثير تلك القوة المفرطة الممزوجة بقدر كبير من جوانب الضعف مسألة مدى دوام الوضع الراهن، فهل سيكتب الدوام للنجاح الأمريكي الظاهري، وهل نحن نشهد بعد مرور ألفي عام بدايات إمبراطورية جديدة؟ أم أننا بصدد مجرد عدم توازن مؤقت وفترة «أحادية القطب» نتيجة للانهيار المفاجيء للاتحاد السوفييتي ستنتهي في غضون حوالي عشرين سنة عندما ستؤكد وجودها قوى أخرى جديدة: الصين وأوروبا. فبعد العالم ثنائي القطبية ثم أحادي القطبية، سيصبح العالم أخيرا متعدد الأقطاب.

كيف يمكننا أن نتصور اليوم مدى القوة الأمريكية؟ وإذا كانت أمريكا قد أصبحت من الآن

---

* أمريكا والعالم: النظرية والتطبيق، مجلة Etudes، عدد أكتوبر 1998.

** الشخصية لاذعة النقد في رواية الكاتب الإنجليزي جوناتان سويفت المسماة رحلات جالفر، والتي تتجلى فيها المعاناة من القيم السائدة في المجتمع.

فصاعدا في نفوسنا ورؤوسنا فهل يمكننا أن نزعم أننا سنكون مراقبين خارجيين يعالجون المسألة بالتالي كقضية تخص السياسة الخارجية؟ أليس تفكيرنا المتعلق بطبيعة القوة الأمريكية هو تفكير حول ذاتنا وكياننا، وحول ما نريد أن نكون؟ وإذا كان العالم بأسره يتأمرك، ألن تصبح سياسة الولايات المتحدة «الخارجية» بالضرورة مجرد امتداد لسياستها الداخلية، عوضا عن أن تكون تعبيرا عن مصلحة وطنية تفترض تواجد أمم أخرى في مواجهة أمريكا، واثقة من هويتها الخاصة وتؤدي رسالتها من خلال التداول الكلاسيكي للقوة؟ وهل لايزال هناك مغزى لمفهوم النظام الدولي؟ ألا تفصح الإدانة الأمريكية «للدول الفاسدة» «الإجرامية» عن افتقاد «السياسة الخارجية» التي حلت محلها سياسة الحفاظ على النظام؟ وإ ذا كان بوسع رئيس الولايات المتحدة أن يقرر من جانب واحد شن غارات جوية على بلد له سيادته، وعلى أسس شرعية مشكوك في أمرها، ودون خسارة كبيرة، وذلك في الوقت نفسه الذي تقام فيه دعوى لعزله، أليس ذلك تأكيداً لهيمنة أمريكا المدهشة، ولعدم اكتراثها برأي العالم؟

تتطلب الإجابة عن تلك الأسئلة أولا تحليل معنى العولمة بالنسبة للولايات المتحدة، وبالنسبة لبقية دول العالم لكي نقيم بعد ذلك عواقبها السياسية.

أمركة العالم

العولمة والأمركة ليستا مترادفتين: فعولمة الأسواق تتحقق على يد المدخرين اليابانيين وكذلك على يد المولين الأمريكيين، كما أن هناك العديد من الشركات فوق القومية غير الأمريكية، غير أن الربط الذي يجريه الكثير من الأفراد بين المصطلحين لا يخلو مع ذلك من قدر من الأساس: فرد الفعل الإيجابي الذي تثيره العولمة لدى أغلبية الأمريكيين يتناقض مع القلق الذي تسببه لدى ملايين الرجال والنساء في أوروبا والعالم الثالث، حتى وإن كان يتعين ألا نقلل من رد الفعل العدائي من جانب النقابات الأمريكية التي تخشى منافسة البلدان ذات الأجور المتدنية وتطالب بفرض حواجز وقائية.

ويعبر أولا ذلك التفاوت بين المواقف عن الإحساس الطاغي بأن الولايات المتحدة تحتل المركز في هذا التطوير. فعمليات التنظيم الإجمالية التي تجعل العولمة ممكنة تتحقق بقدر رئيسي عن طريق مراكز اتخاذ للقرارات قائمة في أمريكا، ولنا أن نأخذ في الاعتبار هنا أن شروط لجنة الضمانات والتبادل Securities and Exchange Commission القانونية والتقنية، ومعايير وكالات التقييم التابعة لموديز، ستندارد آند بورز Moody's standard & Poor's موسوعة في غالبيتها برجحان الكفة الأمريكية، علما أن المعايير الأوروبية المتعلقة باستخدام الهاتف جي. اس. ام تعتبر استثناء جديرا بالذكر. وعليه فإن الشعور بالاستبعاد أو سلب الحقوق الذي يمكن أن يتواجد في البلدان التي تفرض عليها معايير تقررت من دون مشاركتها، ليس له وجود في الولايات المتحدة. وعلى النقيض من ذلك، عندما يضطر الأمريكيون إلى القبول بمعيار غريب عليهم، يكون رد فعلهم سلبيا للغاية في الكثير من الحالات، ومشابها عندئذ لردود الأفعال المعادية التي كثيرا ما تثيرها العولمة في بلدان أخرى. وعليه، فإن السهولة التي يتقبل بها الأمريكيون العولمة تعكس أولا في أغلب الأحوال رضاهم الطبيعي النابع من قوة نفوذهم، فالعولمة تكون

مشروعة عندما تعبر عن النفوذ الأمريكي، وتكف عن أن تكون كذلك عندما تسعى إلى فرض نظام قانوني أرقى من النظام الأمريكي. ومن اليسير أن يرى المرء في ذلك التناقض الواضح دليلا على الاستخفاف والصلف، وينوه العديد من خصوم أمريكا بالفظاظة التي يدافع بها الأمريكيون عن مواقفهم أثناء المفاوضات الدولية، باعتبار أن ذلك حق لهم لا نزاع فيه.

واللافت للنظر أن أغلبية الأمريكيين تستهجن وجود أي تناقض في موقفهم وترفض بشدة اتهامهم بالصلف. ويفسر تاريخ الولايات المتحدة الفريد ذلك الخروج الغريب على المألوف، وقد وصف العديد من المراقبين ذلك «الاستثناء» الذي يظل سمة أساسية يتميز بها الطابع الأمريكي. فمنذ وصول حجاج سفينة مايفلاور* الباحثين عن الضوء فوق التل وحتى عهد «الآباء المؤسسين»، تشكلت الولايات المتحدة وحددت هويتها كرد فعل إزاء تهاونات دبلوماسية أوروبا العتيقة باعتبارها أمرا منافيا للضمير. ولما كانت الولايات المتحدة تريد أن تكون قدوة وتؤمن بأنها كذلك، فقد وجدت نفسها بلا أي إحساس بالتورط، في نفس معسكر النظم الدكتاتورية التي تستهجنها، فاعترضت في يوليو 1988 في روما على تشكيل محكمة جنائية دولية، فالحفاظ على كمال القانون الجنائي الأمريكي في رأيها هو خير ضمان لحقوق أي مواطن أمريكي، وهو أفضل بمراحل من إقرار نظام أشمل يتم التفاوض حوله. ولا يعبر ذلك عن لا مبالاة ببقية العالم أو عن انطواء على النفس، ولكن عن الاقتناع بأن أمريكا تساهم بقدر أكبر من الفعالية في تقدم العالم بتمسكها بطابعها النموذجي لا بالخوض في حلول وسط لا تتسم بالضرورة بالكمال.

ويفسر لنا ذلك الاعتقاد الراسخ الموقف الأمريكي المتميز إزاء العولمة: فهي لا ترى فيها قبل كل شيء سوى أنها تعبير عن تفوقها وعن الانتشار الطبيعي والمشروع لنموذجها. ومما لا شك فيه أن العولمة في تقدير الكثير من الأمريكيين «حدود جديدة» تشكل في عالم الاقتصاد امتدادا وتكرارا للتجربة الأمريكية على صعيد العالم من خلال توسعها التدريجي في مجالها: فقد كان تطورها طبيعيا وسلميا لم يعكر صفوه وبصعوبة سوى بضعة هنود حمر عصاة بينما اعتبرته مجتمعات أخرى لها تاريخ مختلف صدمة مباشرة.

لقد نشأت أمريكا من خلال تراكمات متتالية واستكملت شيئا فشيئا حيزها الاقتصادي والسياسي، داخل حدود ظلت متحركة على مدى طويل، ولم تكن الأولوية للأرض، بل لإرادة الرجال الذين كانوا ينظمون بنيتها «بالاندماج» في مقاطعات جديدة كانت تنشأ تباعا مع انتشار العمران في القارة.

ووفقا للثقافة السياسية الأمريكية يعتبر الفرد شخصا مؤسساً، ويعتمد المجتمع السياسي على عقد يقبله طوعا كل شخص، وكل تجمع سياسي ديمقراطي يكون اختياريا، والولايات المتحدة الأمريكية هي خير «تجمع اختياري» يتجدد باستمرار من جانب كل من «اختاروا» أن يكونوا أمريكيين. وتوضح لنا تلك الأولوية للفرد أنه لا يوجد إطلاقا انفصام، من

* وهم مهاجرون طردوا من بلادهم لأسباب دينية - المترجم.

وجهة النظر الأمريكية، بين الديمقراطية السياسية وديمقراطية السوق، فكلاهما نتاج الجمع بين اختيارات فردية، وكل فرد يشارك في سوق الأفكار والسلع بالإدلاء بصوته وبتصرفاته الاقتصادية.

ووفقا لمثل هذا المنظور، لا تكون العولمة سوى الإمكانية المتاحة لبقية البشرية للانضمام إلى صفوف الجماعة المتواصلة الانتشار والمكونة من أفراد أحرار. ويذكرنا ذلك بالفيلم المعنون: وقوع الآلهة على رؤوسها، حيث أشاع سقوط زجاجة كوكاكولا من السماء الارتباك في النظام الطبيعي للأمور، ومع ذلك فلا مجال لحدوث أي ارتباك حسب المفهوم المتفائل للعولمة الذي تدين به أغلبية الأمريكيين، فتغلغل منتجات العولمة المتميزة في قرية تقع في أقاصي بلد من العالم الثالث دليل رمزي لدخول تلك القرية في رابطة السوق الدولية، تماما كما كان وصول السكك الحديدية إلى قرية تقع في الغرب البعيد علامة على تقدم «الحدود» الأمريكية.

وتترتب على ذلك الربط بين التجربة التاريخية المتميزة في الولايات المتحدة وظاهرة العولمة المعاصرة عواقب بعيدة الغور، فهي تدشن النفوذ الأمريكي وتنوء تحت ثقلها العلاقات مع بقية بلاد العالم، كما أنها تلقي الضوء على الخيارات الاستراتيجية الماثلة أمام شركاء الولايات المتحدة.

العولمة بوصفها امتداداً للنموذج الأمريكي

بادىء ذي بدء ليس التفوق الأمريكي ظاهرة عابرة مرتبطة بوضع استراتيجي مؤقت، وهي ليست من صنع الحكومة الأمريكية، وهذا ما نؤكده وسنعود إليه فيما بعد. إنه «الصدى» الناجم عن تجربة الولايات المتحدة التاريخية مع العولمة. وهذا الصدى الذي أشار اليه بيير هسنر في مقاله المذكور آنفا يؤكد الجملة الشهيرة التي سجلها كارل ماركس وجاءت في مقدمة هذا المقال: «الأفكار السائدة في مجتمع ما هي أفكار الطبقة المسيطرة، فهي أفكار سيادتها».

والواقع أن أحد محركات النفوذ الأمريكي في العالم المعاصر يعود بالأخص إلى النموذج المتمثل في تجربة الولايات المتحدة الفريدة والماثل أمام ملايين من البشر في أرجاء العالم: «فالنموذج» الأمريكي له تأثير ثوري وتحريري يتجاوز إلى حد كبير الحرية السياسية المجسدة في المؤسسات الأمريكية. فالتأكيد على أولوية الفرد الفاعل السياسي والاقتصادي في آن واحد يقدم رسالة تحرر قوية التأثير بالنسبة للعديد من عناصر الصفوة الواقعة في أسر البنى الجائرة أحيانا في «مجتمعات الذاكرة» التي شبوا فيها. وقد وفرت الولايات المتحدة من قبل الفرصة لملايين المهاجرين الذين أتيحت لهم خلال القرن التاسع عشر إمكانية الإفلات من البؤس وإقامة مجتمع جديد. والعولمة توفر اليوم أيضا لطبقة متوسطة جديدة فرصة تشكيل مجتمع جديد مرتقب مدفوعة في ذلك بطموحات النجاح الفردي والمادي نفسها. وتسعى الشريحة العليا من تلك الصفوة إلى الحصول بشكل مباشر على المعارف المتزايدة التخصص من الجامعات الأمريكية، مما يتيح لأعضائها إمكانية الانتماء إلى ما أطلق عليه روبير ريش طبقة «محللي الرموز» الذين يروق لهم التعامل مع المعايير التي لم يبتكروها بالطبع، ولكنهم مقتنعون تماما بأن حريتهم تتمثل في ممارسة

تحررهم الاقتصادي بقدر يفوق السعي إلى السلطة السياسية. ولكن هناك، فضلا عن تلك الشريحة المحدودة، ملايين من البشر من بومباي حتى ساوبولو، ومن بانكوك حتى مكسيكو، ومن شانغاي حتى نيجني نوفجورود، الذين يعانون من ضغوط البنى الاجتماعية التي جمدتها التقاليد، ومن صعوبة إقامة مؤسسات سياسية تضم جماعات غير متجانسة، ومن تعسف النظم السياسية المتسلطة، ويرون في العولمة إمكانية تحقيق النجاح الفردي والمشاركة في الوقت نفسه في تجمع موسع يحررهم أحيانا من الحدود الخانقة التي جاؤوا منها.

وتكمن قدرة الجاذبية الأمريكية المدهشة المتمثلة في ذلك التطلع المشترك الذي يخلق نوعا من التواطؤ بين الشعب الأمريكي وجانب كبير من الصفوة في العالم، ومن التقارب التلقائي الذي لايزال لا نظير له على أي حال.

وفي الوقت نفسه، فإن الطابع الخاص بالتجربة التاريخية الأمريكية، وكون أمريكا تعتبر نفسها جماعة اختارت نفسها بقدر أكبر من اعتبار نفسها جماعة لها ذاكرة مشتركة، يفسر ضعف إحساس الأمريكيين بالنزاعات التي يمكن أن تنشأ بين منطق الاختيار ومنطق الذاكرة. ففي العديد من بلدان العالم ينتشر الإحساس بأن منطق العولمة الذي يصدم ضروب التضامن الموروثة، يمثل تهديدا تتعرض له المجتمعات الضعيفة، بينما لا توضع في الاعتبار في أمريكا إمكانية حدوث توتر بين منطق الذاكرة ومنطق الاختيار، فكيف يكون الأمر على هذا النحو في بلد تستند ذاكرته التاريخية المشتركة بالذات إلى اختيار المهاجرين جميعا أن يصبحوا طوعا أمريكيين؟ والولايات المتحدة هي البلد الوحيد الذي تتوافق فيه الذاكرة التاريخية مع الإيمان بأن الجماعة السياسية هي جماعة مختارة في المقام الأول.

وتعطي تلك الخاصية الأمريكية ميزة فريدة في مجال العولمة، وتفسر لنا عدم إحساس شعبها بالتناقض بين الوطنية بل والقومية من جهة وبين العولمة من جهة أخرى. فالهوية الأمريكية أبعد من أن تعاني من تلك الظاهرة، وهي تساندها بل وتوكد يقينياتها الأساسية. ويظل هذا الوضع فريدا في العالم، كما يرسخ التفوق الأمريكي الراهن على أسس أخرى أمتن من القوة العسكرية وحدها.

العولمة تهدد مجتمعات الذاكرة التاريخية

غير أن ذلك النجاح الخارق له مقابل يتمثل في الخلافات والأحقاد التي يثيرها بقدر يتمشى مع اليقينيات التي يعتمد عليها. وتؤدي الصعوبة التي تواجهها أمريكا في تقدير أهمية التضامنات المتوارثة في المجتمعات الإنسانية وتأثير الذاكرة التاريخية إلى عدم تفاهم متزايد بين الذين يجدون في المجتمع الكوكبي المرتقب استجابة لحاجتهم لهوية وبين الآخرين والأكثر عددا الذين يقاسون من القرارات التي تفرض عليهم من الجانب الآخر ومن عجزهم عن التحكم بأنفسهم في مصيرهم.

وظهر صدع جديد يفسر ما أورده صامويل هنتنجتون* في مقال له في مجلة فورين أفيرز، وتوسع فيه بعد ذلك بحجم كتاب عن «صدام

* «صدام الحضارات» صامويل هنتنجتون، فورين أفيرز، المجلد 72، العدد الثالث، صيف 1993.

الحضارات». فالعولمة صدمة عنيفة بالنسبة لكل المجتمعات البشرية التي كانت الذاكرة عنصرا أساسيا في الهوية والترابط الاجتماعي. ولا يقتصر ذلك الوضع على دول العالم الثالث وحدها، فهو ينطبق أيضا على بلدان متقدمة للغاية مثل اليابان: ففاعلية النظام المغلق على نفسه ـــ وهو نوع من القرابة الثقافية بين الصفوة كان ييسر انتقال المعلومات في صفوفها وكذلك التسويات المرنة ـــ تصبح عقبة، وغياب المعايير المتميزة بشفافيتها، والفساد وما يكتنفه من عتامة يشكل بالنسبة لنظام منفتح على العولمة عوائق أمام التحول السريع الذي ينظر إليه كعملية تجانس عبر القوميات. وتفصح أزمة اليابان الممتدة، وتدهور علاقاتها مع الولايات المتحدة التي يثير سخطها تباطؤ هذا البلد في التكيف مع مقتضيات العالم المنفتح عن فروق عميقة ومستديمة. ولا ترجع المصاعب التي شابت العلاقات بين الولايات المتحدة واليابان إلى تكتيكات خاطئة فقط، أو إلى التقارب المتسارع من جانب الولايات المتحدة مع الصين، فهي تعبر أيضا عن توتر أعمق بين منطقين، وعن مفهومين لبناء المجتمع. فالولايات المتحدة بمجتمعها المختار واليابان بمجتمعه المعتمد على الذاكرة والطقوس يمثلان على ما يبدو صيغتين تقعان على طرفي نقيض.

وكتب صامويل هنتنجتون بعد سنتين بالكاد من نشوب حرب الخليج، مذكرا بأن «الغرب» ليس الحضارة الكونية «التي وصفها ف.س نايبول، فنوّه بتجانسه واعتبره أحد أقطاب عالم المستقبل المدعو إلى مواجهة بقية العالم ». وقد صرح بهذا الصدد في مجلة «فورين أفيرز» بأن «الغرب ضد بقية العالم» the West versus therest .

ويمحو هذا العرض الانغلاق القائم بين الولايات المتحدة وحلفائها «الغربيين» الأوروبيين بالأخص، ففي أوروبا يظل التوازن بين جانبي الخيار والذاكرة في المجال السياسي مختلفا تماماً عن وضعه في الولايات المتحدة، وهو يتجلى في مواقف متعارضة في الكثير من الأحوال فيما يتعلق بالثقافة والتضامن: فالحرص على الحفاظ على الروابط المتوارثة عبر التاريخ يتوازن مع الإيمان بحرية الأفراد في الاختيار ويحد من غلوائها. وهذه الفروق الثانوية في المجال الاستراتيجي عندما كانت الديمقراطية معرضة للتهديد، تصبح أخطر عندما لا يكون من المطلوب من الدول الأوروبية أن تتخذ موقفا سلبيا إزاء حروبها السابقة وإزاء التهديد السوفييتي، بل أن تتخذ موقفا إيجابيا بخصوص مشروع ديمقراطي يحدد موضعها، فعندئذ يصبح ما يميزها عن أمريكا ملحوظا بقدر أكبر ولا يمكن تجاهله.

وبناء على ذلك تترتب على التطابق الوثيق بين تجربة الولايات المتحدة التاريخية والعولمة الجاري تنفيذها الآن نتائج متضادة، فهي توفر من ناحية ميزة استراتيجية حاسمة للولايات المتحدة إذ إن أسلوب التفكير الأمريكي يقرر من جهة من الآن فصاعدا بنية العلاقات بين ملايين من البشر في أرجاء العالم، كما أن التنويه بالطابع الفريد للتجربة الأمريكية يثير من جهة أخرى بالنسبة لجميع المجتمعات البشرية الأخرى التي تستند هويتها إلى حد كبير على ذاكرتها، قضية مدى التوافق بين الحفاظ على هويتها وبين العولمة. والردود التي تقدمها تلك المجتمعات يمكن أن تتراوح بين العداء الشديد من جانب من يرفضون «أمركة»

العالم جملة وتفصيلاً، وتحفظ اليابان، والترددات الأوروبية بخصوص طبيعة العلاقات عبر الأطلسية.

وعليه، قد يغري ذلك المرء بتعديل الصيغة التي طرحها صامويل هنتنجتون وتحويلها إلى «أمريكا ضد بقية العالم» ، وهو ما يتفق مع الشعار المناهض لأمريكا المنتشر إلى حد كبير في العالم الثالث، ولكن هذا التبسيط يكون مسرفا في تقديراته من جهتين: فهو يتجاهل كون الانغلاق الوارد ذكره آنفا لا يفرق بين الأمم، بل يتغلغل في المجتمعات، إذ إن العولمة تتيح في الواقع للأسطورة الأمريكية أن تمارس مختلف ضروب الإغراء على الصفوة، خاصة في بلدان العالم النامي، فهي تهيىء لها هوية أخرى يمكن أن تعزلها في الوقت نفسه عن مجتمعها الأصلي، كما أن العولمة تؤدي هي أيضا إلى تحويل الولايات المتحدة نفسها. فالنفوذ الأمريكي الذي يواجه ردود الأفعال الناجمة عن نجاحه العالمي لا يقدم صورة أكثر تماسكا بالمقارنة مع المجتمعات التي تقوض بنفسها بنياتها التقليدية، فانتشار هذا النفوذ على نطاق العالم، يغير من طبيعة النموذج الذي تطرحه.

سياسة خارجية أمريكية مجزأة

تشهد العلاقات بين الولايات المتحدة مع بقية العالم تطورا جديدا يختلف جوهريا عن علاقاتها السابقة معه. والواقع أن أمريكا تمكنت طوال الجزء الأكبر من تاريخها من توفيق إيمانها بالفرد مع كونها تجمعاً سياسياً متميزاً، وذلك دون مواجهة مصاعب كبيرة. وكان بوسعها في القرن التاسع عشر وهي لاتزال دولة ذات أهمية ثانوية، ألا تهتم ببقية أرجاء العالم الأخرى دون أن تتخلى عن مبادئها، إذ كان العالم كله يتوجه إليها عن طريق الهجرة، فكانت وفية بذلك تجاه رسالتها العالمية. وقد أدى تزايد نفوذها في منعطف القرنين التاسع عشر والعشرين إلى اندفاعها نحو العالم، إذ سعى تيودور روزفلت إلى تحويلها إلى قوة إمبريالية كلاسيكية، وأراد وودرو ويلسون أن يجعلها عضوا مثل القوى الأخرى في «عصبة للأمم» ، فسلكا طريقين متعارضين لإدارة العلاقة الجديدة التي تعين على أمريكا أن تقيمها مع بقية العالم، غير أن كلا منهما تباعد عن صميم التراث الأمريكي، ولم يتبعهما في ذلك دائما مواطنو بلدهما. والواقع أن الالتزام السياسي الأمريكي طوال القرن العشرين كان بمثابة رد فعل أساسا. وقد زال حاليا العدو الكبير الذي كان يبرر ابتعاد أمريكا، ولكن اندماجها في العالم لم يعد يسمح لها بترف الانطواء، كما كان الحال في القرن التاسع عشر. لقد أصبحت الولايات المتحدة جزءا من العالم، ولم يعد بإمكانها الانعزال عنه أو جعله صورة كاملة لها، بالتخلص من السمات التي لاتزال تشكل تحديا لنموذجها ولمبرر وجودها.

ومن العسير إدارة ذلك الوضع غير المسبوق والداعي بالتالي إلى التوصل إلى تسويات، مما يجعل المشاركة الأمريكية في شؤون العالم غير متمشية مع المعايير التقليدية المتعلقة بالسياسة الدولية، فقد أضحى ارتباط أمريكا ببقية العالم محكوما بقدر أكبر بشبكة منشآتها العديدة وجماعات أصحاب المصالح والعلاقات الشخصية التي عقدها جانب من مواطنيها مع العالم، بالمقارنة مع الحسابات الاستراتيجية لقادتها

ووفقا لتحالفاتها. وترجع فاعلية النفوذ الأمريكي في مجال العولمة، إلى لا مركزيتها المفرطة، وإن كان ذلك يجعل إدارته السياسية أصعب وشبه مستحيلة، بينما تستدعي المشاكل السياسية دائما حلولا سياسية.

يسمح ذلك التواصل الواضح بين التجربة الأمريكية والعولمة بتجاوز الحدود ويتيح لها إمكانية الانطلاق بلا روية حتى أنه يتعارض مع التعبير عن المصلحة القومية الأمريكية التي تسعى إلى التوصل إلى منهج سياسي على صعيد الولايات المتحدة يجمع بين تطلعات مواطنيها ويعبر عن ترابط المجتمع السياسي الأمريكي. والواقع أن فراغ «النظام العالمي الجديد» الذي أشادت به إدارة بوش، وعدم وضوح المفاهيم التي تحكم نشاط إدارة كلينتون الخارجية ليسا نتاج قصور فكري أمريكي إذ إن خبرتها الدولية لاتزال إحدى أوراق أمريكا الرابحة، ولكن الصعوبة تكمن في إمكانية تعبئة أغلبية المواطنين لأمد طويل حول مشروع يتعلق بالسياسة الخارجية، فرفض المخاطرة بحياة الجنو الأمريكيين، وتزايد العداء لنشر القوات في الخارج، والتقلص المستمر لتعرض وسائل الإعلام لقضايا السياسة الخارجية، إنما يعبر عن التطور الذي طرأ على مفاهيم الرأي العام المدفوع بحكم منطقه بألا يترك لقادته السياسيين سوى إمكانية الإقدام على تنفيذ عمليات قصيرة وحاسمة. وإحساس العالم بأن السياسة الخارجية الأمريكية تتجزأ، وتشبه أحيانا سلسلة من ضربات الطبول التي تفتقد التنسيق الأوركسترالي بينها ليست انتقادا لإدارة كلينتون بقدر كونها إدراكا للضغوط التي باتت تنوء بها السلطة التنفيذية الأمريكية. ويبدو أن الديمقراطية الأمريكية أصبحت لا تتوافق أكثر فأكثر مع مسؤوليات أمريكا الإمبريالية.

وفي الوقت نفسه، تنمو العلاقات عبر القومية المذكورة آنفا وتحتل الحيز الذي تخلت عنه السياسة على ما يبدو. وتروج جماعات مختلفة بمزيد من النجاح لأولويات خاصة حتى باتت السياسية الخارجية معرضة لأن تصبح جمعا لتلك الضغوط لا استخلاصا لمحصلتها الخاضعة للسيطرة، فعندما غيرت الولايات المتحدة موقفها من قضية التوسع في عضوية حلف الأطلسي، كان من العسير تحديد نصيب الرؤية الاستراتيجية في العلاقات مع أوروبا الشرقية وروسيا، ونصيب ضغوط جماعات المهاجرين المجريين والبولنديين. وتثار قضايا مماثلة منذ أمد طويل حول استراتيجية الولايات المتحدة تجاه الشرق الأوسط. وفيما يتعلق بالعلاقات مع الصين تختلط مصالح أصحاب العمل مع الحسابات السياسية، بل وحامت الشكوك حول تأثيرها على مسار الانتخابات الأمريكية.

وتعبر تلك الالتباسات عما يتجاوز التطابق المنظم بين المصالح الضرورية والشرعية في دولة ديمقراطية، والولايات المتحدة لا تفلت هي أيضا من إعادة تشكيل الجماعات البشرية حسب منطق الاختيار لا منطق الذاكرة. وإذا كان التقارب بين التجربة الأمريكية والعولمة الذي أشرنا إليه من قبل يعفي الأمة الأمريكية من الإحساس بالحرمان الذي يصيب بلداناً أخرى، إلا أن الولايات المتحدة تتحول شيئا فشيئا إلى تجميع للعديد من الجماعات الخاصة التي توحدها بالطبع أسطورة مشتركة، ولكنها تسعى إلى تحقيق أهداف تفتقد أكثر فأكثر التناسق بينها. فالسياسة الخارجية تغدو بطريقة منطقية تماما في عالم متأمرك امتدادا لسياستها الداخلية، وهي معرضة مثلها

للنزاعات، وقد يترك التطلع إلى التوصل إلى توافق سياسي خارجي مكانه لجمع من السياسات الخاصة المقررة بحيث تلقى رضا قدرا كافيا من المصالح لكسب أصوات الأغلبية السياسية.

أوروبا، حليفة أمريكا، في مواجهة العولمة

هكذا يبدو النجاح الأمريكي أعمق مما يتصوره أو يرجوه كل من يرونه نتاجا لتصور استراتيجي خاص، وأكثر تعرضا في الوقت نفسه للزوال لأن امتداد النموذج الأمريكي على صعيد العالم يكشف في الوقت نفسه عن جوانب ضعفه وجوانب قوته.

والواقع أن إيمان مؤسسي الولايات المتحدة الرائع بحرية البشر دفعهم إلى الاعتماد على رهان سياسي يقضي بأن التجمع البشري يمكن أن يكون تجمع اختيار، عن طريق عقد مبرم بين أفراده. واحتاج الأمر أيضا إلى قدر كبير من الحظ لكي يفوز ذلك الرهان، وأن يتدعم المجتمع الأمريكي تدريجيا بفعل تاريخه الفريد، لكي يصبح أيضا مجتمع ذاكرة دون أن يفقد مع ذلك تطلعه الأصلي لأن يظل مجتمع اختيار.

ويعرض هذا النجاح المدهش الأمريكيين أحيانا لخطر تجاهل هشاشة التجمعات البشرية والطابع الاستثنائي للتجربة الأمريكية. ويهيىء الحكم الأمريكي آمالا جديدة لملايين من البشر بانتشاره اليوم على نطاق العالم بأسره، ولكن قوته الثورية الحقيقية تقضي على التوازن الذي يعتمد عليه السلام الاجتماعي في العديد من البلاد، فتواجد بنى سياسية تعود شرعيتها في المقام الأول إلى التاريخ يشكل عنصر استقرار ومنبع هوية، كلاهما أساسي. وعلى نقيض التجربة الأمريكية، كانت الأولوية للتراب (الوطن) ولم ينشأ التجمع السياسي من خلال حرية الأفراد في الاختيار، كما لا يوجد تعادل بين سوق السلع وسوق الأفكار السياسية، فالسوق الكوكبية لا تخلق جماعة كوكبية.

ومن الجلي أن الأوروبيين لديهم رؤية سياسية أقرب إلى الرؤية الأمريكية بالمقارنة مع شعوب العالم المختلفة، فهم يؤمنون، شأنهم شأن الأمريكيين أنه لا يوجد مجتمع ديمقراطي لا يعتمد على حرية انتساب كل مواطن له بمقتضى عقد، وهم يشاركون أمريكا في اقتناع أساسي يبرر استمرار الحديث عن «الغرب» الذي يفرض على أوروبا أن تكون حليف أمريكا في عملية العولمة. غير أنهم يستخلصون من تاريخهم المأساوي دروسا سياسية أخرى: فالتجمع من خلال التعاقد لا يمكنه أن يحرم نفسه بلا مخاطر من أسس الذاكرة، كما أن القضية السياسية الأساسية تتمثل الآن في التوفيق بين العقد والذاكرة، وبين التطلع الرشيد والكوني إذن باعتباره من صميم المقتضيات الديمقراطية والتطورات التاريخية الخاصة المجسدة في جماعات قومية مختلفة.

وسيكون للابتكار السياسي الذي تسعى إليه حاليا الوحدة الأوروبية، ولطبيعة العلاقات التي ستنمو بينها وبين الولايات المتحدة بهذا الخصوص أهمية حاسمة بالنسبة للنفوذ الأمريكي. وإذا تمكنت أوروبا وأمريكا من القيام معا ببناء مؤسسات العولمة ومن التوصل إلى توازن بين المنطق القومي والمنطق المتعدي القومية، سينعم العالم بانطلاق عولمة سينظر إليها كتطور مشروع، وعلى العكس فإن عجزهما عن تحقيق ذلك سيفصل بينهما من خلال مواجهات يمكن أن يتحول فيها شجب أمريكا إلى عامل ترابط بين المجتمعات التي تتعرض هوياتها الخاصة للتهديد، بينما ستتخلى أمريكا المجزأة في جماعات مصالح ضيقة أكثر فأكثر عن خير ما لديها من طابع عام يمكن أن يعم العالم كله.

تأملات
في الحروب الثقافية

بقلم: يوجين جودهارت*

ترجمة: عاطف أحمد

منذ ما يزيد على مائة عام، حينما كانت الثورة الصناعية آخذة في تغيير وجه إنجلترا، إن لم يكن روحها؛ ألقى «جون هنري نيومان» عدة محاضرات حول «فكرة الجامعة». وحدد فيها خصائص العادة العقلية التي تتشكل من خلال التعليم الليبرالي بأنها تتسم «بالحرية، والإنصاف، والهدوء، والاعتدال، والحكمة»(1) ولما كان العقل التنويري ينظر إلى تقدم المعرفة على أنه يقوم على التخصص المتزايد في مختلف فروع المعرفة، كمقابل لتقسيم العمل في مجال الصناعة؛ توقع نيومان أن يعتبر رجعيا لكونه يتبنى موقفا معارضا لمبدأ تقسيم العمل دفاعا عن العقل الليبرالي. على أن المسألة بالنسبة إليه لم تكن مسألة إما/أو. فعلى الرغم من أنه لم ينكر مكانة تقسيم العمل في المجال الأكاديمي، إلا أنه كان يخشى حقيقة على العادة العقلية الثمينة التي تشكلت من خلال التعليم الليبرالي أن تضيع في خضم انتصار الفروع المعرفية المنفصلة، وهي القضية التي كان مصمما على الانتصار لها.

العنوان الأصلي للمقال: Reflections on the culture wars ونشر في مجلة Daedalus Vol 126, No4

* يوجين جودهارت، أستاذ العلوم الإنسانية في جامعة برانديز.

على أن التخصصية، خاصة في مجال العلوم الطبيعية، تسارع معدلها منذ زمن نيومان، وأصبحت الهوة بين العلوم الطبيعية وبين الإنسانيات أكثر اتساعا من ذي قبل. لكن ذلك لم يكن مصدر التهديد الذي يواجهه العقل الليبرالي الذي أصبح فريسة لصراعاته الداخلية ذاتها. إذ لم يكن السبب هو عدم تحاور فروع المعرفة المختلفة مع بعضها البعض، الأمر الذي خشيه نيومان. بل على العكس من ذلك فإننا نجد فرضيات معينة تنتقل من علم إلى آخر وتؤدي إلى تكون موقف عقلي بين ـ مبحثي: فرضيات من مثل أن التجديد والتقليد قوتان متعارضتان، وأن الموضوعية حزب من الوهم.

فقد أصبح ينظر الى التقليد على أنه اليد الميتة للماضي، وعلى أنه عقبة في سبيل اكتساب أية معرفة جديدة. أما الموقف المضاد لدعوى الموضوعية فهو أكثر تعقيدا. إذ هو يعبر عن وجهة نظر ترى أن كلا منا ينظر إلى العالم من داخل نطاق تحدده زاوية معينة للرؤية وأن ادعاء أي منا أن نظرته تمثل الحقيقة الموضوعية، إنما هو ادعاء يقوم على فرضية استبدادية. ويترتب على ذلك أن دعوى الموضوعية إنما تخفي وراءها غالبا مصالح خاصة لجماعة (طبقة، جماعة عرقية،.. إلخ) متحكمة أو تحكمت في الطريقة التي نعرف بها العالم.

وقد نشأت جماعات هوية متنوعة في مواجهة الطرق المستقرة للمعرفة. ورغم أن مثل تلك الجماعات (النساء، الشواذ جنسيا، السود، وغيرها) لا تجد سوى تمثيل هامش في المجال الأكاديمي، وفي المجتمع ككل؛ فإنها تبنت منظورات نظرية جديدة فيما يختص بالمسائل السياسية، والمؤسسات الاجتماعية، والعلاقات المرتبطة بالنوع الجنسي، والتفضيلات الجنسية، وتجربة الأدب. وقد أصبحت النظرية نفسها متماهية مع تلك المنظورات الجديدة، حتى أن الذين يعارضون مثل تلك المنظورات يجدون أنفسهم معارضين للنظرية في حد ذاتها. على أن الصراعات الحقيقية لا تحدث بين الفروع المختلفة للمعرفة بقدر ما تحدث داخل الفرع المعرفي الواحد. وموضوع هذا المقال هو المعركة التي تجري حول فرضيات مثل تلك التي سبق ذكرها (التقليد ضد التجديد؛ والموضوعية ضد المنظورية – أي النسبية المعرفية) مستهدفا إلقاء نظرة انتقادية على الطريقة التي تتم بها صياغة تلك المتعارضات. وآمل أن أتمكن من إيضاح كيف أن المصطلحات ذاتها التي تستخدم في تلك الحرب لا تؤدي إلى تشويه الموضوعات المطروحة فحسب بل هي تضمن أيضا ألا تؤدي تلك المعارك إلى أي شيء ذي قيمة.

(1)

يذكرنا جيرالد جراف وميشيل وارنر في كتابهما «أصول الدراسات الأدبية في أمريكا» بأن المجادلة كانت دائما جزءا حيويا من الحياة الأكاديمية. لكن ما لدينا اليوم ليس مجادلة بل حرب. والذين يقومون بدور الشرير في هذه الدراما ـ كما يريدنا جراف ووارنر أن نعتقد ـ هم حراس الثقافة التقليديون الذين يتبنون «مفهوما رعويا وغامضا عن الدراسات الإنسانية في محاولة منهم لإضفاء قيم ذات طابع إنساني على مجال للعمل وللأمور العملية كان دون ذلك سيصبح متداعيا.. فمثل هذه القيم تخفي بطريقة مريحة حقيقة أن الدراسات الإنسانية كانت دائماً موضع صراع وأنها لم تكن أبدا محصنة ضد اختراقات النزعة الصناعية» (2). ووفقا للصورة التي قدمها جراف ووارنر، فالتقليديون الذين يتبنون ذلك الموقف، يصبحون عنيفين في دفاعهم ضد من يكشف غموض أقوالهم. فما يجعل الفورانات الحالية ضد

الاتجاهات الحديثة في الدراسات الادبية غير مجدية هو أنها تعتبر، في نهاية الأمر، بمثابة شكاوى من وجود عدم اتفاق (3). وجراف يريد، كما يدل عنوان كتابه الأخير «ما بعد ثقافة الحروب»، أن يتجاوز وضعية الحرب القائمة. إلا أن صياغاته إنما تعكس ضغوط المعركة. فهو يؤيد نوعية الجدالات التي يرى أنها ميزت مجال الدراسات الإنسانية منذ البداية لكنه في الوقت نفسه ينكر شرعية الاختلاف على أولئك الذين لديهم نظرة مختلفة لذلك المجال. فهل كل الشكاوى ضد كاشفي غموض المفهوم الدعوي للدراسات الإنسانية «فورانات»؟ ألا يمكن وصفها بأنها اختلاف في الرأي؟ فالسيناريو الذي وضعه جراف يجعل كشف التقليد الدعوي اختلافا في الرأي بينما يجعل الدفاع عنه «فورانا» (وأنا هنا أضع جانبا مسألة ما إذا كان تعبير «المفهوم الدعوي للدراسات الإنسانية» يمثل بدقة وجهات نظر أولئك الذين هم موضوع عملية كشف الغموض).

ولعل كلمة «حرب» فيما يتعلق بأحداث تقع داخل المجال الأكاديمي، تعتبر مبالغة الى حد ما. على أن التيار المضاد للتقليد يعتبر هو التيار الفائز إلى حد كبير. صحيح أن هناك أصواتا أكاديمية قوية ساخطة على ذلك، لكنها تمثل أقلية مميزة وغير موحدة على أي نحو كان. أقول ذلك وفي ذهني نقاد مثل هارولد بلوم، وفرانك كيرمود، وروبرت ألتر. وقد أصبح العمل البحثي في إطار التنظيم الجديد يمضي بصورة روتينية، كذلك، وهو أمر متوقع، فقد فقد بعضا من حدته الجدالية التي تميز بها وقت حدوث التمرد. وإذا كانت ثمة حرب هناك، فستكون قائمة، في الجزء الأكبر منها، بين من هم داخل المجال الأكاديمي وبين من هم خارجه. وكل من وليم بينت، ودينس دسوزا، وهيلتون كريمر، هم من بين غير الأكاديميين الذين هاجموا المجال الأكاديمي وتعرضوا هم أنفسهم للهجوم منه.

ولعل جراف ووارنر مصيبان في وصفهما للموقف الحالي بأن الفرقاء فيه لا يمارسون اختلاف الرأي بينهم بروح يسودها الاحترام المتبادل. فتعبير «الفوران» لا يبعد كثيراً الصواب في وصف الجو العام لكثير من المواجهات الثقافية الجارية، لكن جراف ووارنر يصبحان منحازين بصورة بعيدة عن الإنصاف حينما ينسبان «الفورانات» أساسا للجانب المحافظ. فالواقع أن المثقفين الراديكاليين مثلهم مثل المحافظين يستبدلون الازدراء بالمحاجة. والجدال لا يكون مثمرا إلا إذا جرى في جو من الاحترام المتبادل بين الخصوم، وهو أمر لا يتحقق إلا إذا كانت الحجج التي يقدمها أي من الجانبين تستحق هي نفسها الاحترام. وليس ثمة وجهة نظر معينة من بين وجهات النظر المتعارضة المحددة للصراع الحالي (والذي يدور بين أنصار العالمية وأنصار التعددية الثقافية، ودعاة الموضوعية ومعارضيها، والمدافعين عن القواعد المقننة ومنتقديها)؛ يمكن القول إنها تفتقد المصداقية بحكم تكوينها ذاته. فهناك تعبيرات أكثر أو أقل إثارة للإعجاب لكل وجهة نظر، وإذا كان على الجدال أن يكون مثمرا، فإنه يجب على الخصوم أن يستجيب كل منهم على أقوى الصياغات لوجهة النظر المضادة.

ويصف جراف، على نحو متكرر، الدفاع عن العالمية «التي يتبناها الأستاذ الجامعي، الرجل والأكبر سنا» بأنه «قد دفع بأجيال من الطلاب إلى حالة من السبات». إلا أنه، في إيضاحه للأمر، وجدنا أن الأستاذ الجامعي الرجل تحول إلى سيدة من غير الأساتذة الجامعيين، هي: لين شيني، الرئيس السابق لمؤسسة «الهيئة القومية للدراسات الإنسانية»، والتي يرى جراف

أن استعمالها «لعبارات بالية» من مثل: «من الذي يعنيه أن تكون إنسانا» أو «أن تعرف الفرح وتحتفظ رغم ذلك بالهدف» و«أن تكون قادرا على الحكمة وعلى الحمق»؛ يمكن أن يصبح أمرا مشوقاً «إذا وجدت من يرد عليها من أمثالها، أي من السيدات ذوات النزعة النسوية صغيرات السن» (4). وقد تكون عبارات لين شيني بالية، لكن المماهاة بين هذه العبارات وبين الاستدلال على فكرة العالمية، يجعل المرء غير منصف إزاء الإمكانات المحتملة التي تنطوي عليها مثل تلك الفكرة. فأي مناقشة جادة لدعوى العالمية يجب أن تتعامل مع أقوى الصياغات المدافعة عنها: ان لم تكن لدى أفلاطون وديكارت وكانط، فعلى الأقل، لدى أولئك المثقفين التقليديين الذي استلهموا فكرهم من أولئك الرواد. فثمة فائدة تعود عليك من اتخاذك خصما قويا هي أن أفكارك ذاتها يمكن أن تواجه تحديات وأن تزداد قوة خلال تلك العملية.

وهناك فائدة أخرى تعود عليك من اتخاذك خصماً قوياً هي أن أفكارك ذاتها يمكن أن تواجه تحديات وأن تزداد قوة خلال تلك العملية وهناك فائدة أخرى تعود عليك من ذلك، هي اكتشاف نقاط الضعف وأوجه القصور في وجهة نظرك نفسها. فمواجهة خصم قوي يصبح تدريبا على النقد الذاتي، فجون ستيوارت ميل، البنتامي التوجه، درس في مقاله عن كولريدج، الفكر الاجتماعي والسياسي المحافظ، لا ليثبت تفوق الليبرالية عليه، بل ليعرف ما الذي يمكن للنزعة المحافظة، في أقوى صورها، أن تعلم الليبراليين. ودافع «ميل» إلى ذلك إنما كان إدراكه للقصور الأساسي في الموقف الفكري لأستاذه. ذلك أن بنتام، أخفق في أن يستمد الضوء من عقول الآخرين، وقد أصبح ميل، أثناء أزمته العقلية ، مدركا بحدة لجوانب القصور وعدم الكفاءة الكامنة في فهمه مثلما هو الحال بالنسبة لتكوينه الانفعالي. واستنتج ميل من هذا الاكتشاف، أن النقد الذاتي يجب أن يكون هو أساس التكوين العقلي، وأصبح التعلم لديه بمثابة صراع مع الذات، وإرادة للتفكير ضد القناعة الذاتية.

وفكرة الحرب الثقافية في حد ذاتها مضادة لنموذج التعلم كممارسة للنقد الذاتي (وهو النموذج الذي اقترحه ميل في مقالاته حول بنتام وكولريدج). فالمحارب يلجأ لجميع الأسلحة التي تمكنه من إحراز النصر. وفي المجال الثقافي تتشكل هذه الأسلحة من الكلمات والأفكار. والمحارب الثقافي يركز الانتباه في كلمات وأفكار خصمه، لا بهدف التعلم منها، بل ليكتشف نقاط الضعف فيها والتي يمكن له استغلالها لمصلحته. وتصبح الأساليب الثقافية هي الهجوم والدفاع. بل إن صياغة الموضوعات التي يدور حولها الخلاف، تضمن في حد ذاتها، ألا ينصت أي طرف إلى الطرف الآخر. فحتى جراف، الذي بمقدوره أن يكون سخيا ومنصفاً في عرضه للأفكار، يسلب بوضوح الطرف الذي لا يتعاطف معه حق التعبير عن رؤيته، من خلال الطريقة التي يصوغ بها مصطلحاته الأساسية.

فلنأخذ على سبيل المثال مفهومه عن القوى المتعارضة داخل المجال الأكاديمي.

فهناك من ناحية، التقليد الثابت، ومن ناحية أخرى هناك التجديد والابتكار. «فالجامعة الحديثة استقرت منذ البداية على رسالة متناقضة بعمق. فالمتوقع من الجامعة هو أن تحافظ وتنقل وتحتفي بتقاليدنا، لكن يفترض فيها في الوقت نفسه أن تنتج معارف جديدة» (6). وفي موضع آخر يتحدث جراف هو وميشيل وارنر عن أن «سلطة التقليد تكمن في كونه موروثاً وليس متشكلا من خلال المناقشات، وفي أن قيمه المحددة تعتبر بديهيات. لكن النقد الأدبي

الأكاديمي وجد نفسه، تاريخيا، يعاني من احتياجات متعارضة هي بناء فرضيات قابلة للمناقشة من ناحية، والمحافظة على تراث معياري من ناحية أخرى» (7). ووجهة النظر التي ترى أن هناك تعارضا متأصلا بين التقليد وبين المعارف الجديدة (والتي تجعل رسالة المؤسسة الأكاديمية، بالتالي، متناقضة) إنما تقوم على افتراض أن التقليد شيء ثابت أو نصوص متحجرة لا تصلح أن تكون مصدرا لأفكار جديدة.

وقد ميز دافيد دامروش، في مقال حديث حول «الحضارة»، بين «المحافظة على الثقافة ونقلها» وبين «إنتاج المعرفة»، وهو التمييز الذي ظل إلى وقت قريب مناظرا للتمييز بين الإنسانيات وبين العلوم الطبيعية. ونحن نجد هنا أن ثمة خلطا غير نقدي قد حدث بين عملية الحفظ وعملية النقل بحيث أصبح النقل مجرد تكرار للماضي بدلا من أن يكون، مثلما هو الحال، توسطا أو غرسا للماضي في ظروف الحاضر الجديدة. فكل توسط أو غرس يحدث تغييرا من حيث إنه يمنح ثقافة الماضي نظرة جديدة، إن لم يقم في واقع الأمر بتحويلها، الأمر الذي يؤدي إلى التمييز بين النقل وبين إنتاج المعرفة. ودامروش يربط بين إنتاج المعرفة وبين «النموذج التحليلي النقدي»(8). لكن ما ليس واضحا هنا هو كيف يتأتى لتفسير ما لأحد النصوص، من بين تفسيرات أخرى، وأيا ما كان يتمتع به من احترام أو إجلال؛ أن يتم التمييز بينه وبين تفسير تحليلي أو انتقادي من حيث القدرة على إنتاج المعرفة. فما الذي يوجد في التكوين الداخلي للطريقة الانتقادية (الشكية) بحيث يجعلها مصدرا للمعرفة الجديدة؟ إذ يمكن للمرء أن يتصور تفسيرا شكيا للاتجاهات الجديدة يؤدي إلى إعاقة تقدم المعرفة.

والتعارض بين التقليد والتجديد مستمد من العلوم الطبيعية، حيث نجد أن تجاهل إنجازات الماضي لا تشكل عقبة أمام الاكتشاف العلمي. لكن نموذج العلوم الطبيعية لا ينطبق على الإنسانيات، حيث الاكتشافات من مرتبة مختلفة وحيث تعبير «الاكتشاف» بمعنى «إنتاج ومعرفه جديدة» قد لا يكون ملائما للدراسات الإنسانية. فكما لاحظ دافيد بروموويتش «فإن الاكتشاف المعرفي في مجال الإنسانيات قد ينتج بين الحين والآخر ومعرفة جديدة. وهذا واحد فقط من الأشياء المثيرة التي تفعلها. إذ يمكن لها أيضا (عن طريق ترتيب جديد للوقائع) أن تساعد على خلق تبصرات جديدة لجيل بأكمله. كما يمكن لها أيضا «بحدة تفسيرية ما» أن تلعب دورا حافزا لاكتشاف جديد أو لاستثارة التفكير(9). وإنه من قبيل السخرية أو الأحجية أن يستعار نموذج العلوم الطبيعية إلى الإنسانيات في الوقت الذي أصبح فيه المقال العلمي للمعرفة الموضوعية، موضع شك عميق في مجال الإنسانيات.

والتقليد يتضمن التغير والاستمرارية كليهما. إذ تدور داخله مناقشات حول معناه كما تنشأ مفاهيم جديدة حول مغزاه. فلا التقليد الماركسي ولا الفرويدي شكل تراثا ثابتا للمفكر الذي ابتدعه. وت. إس. إليوت، وهو أكثر الحداثيين انتماء للنزعة المحافظة، فهم العلاقة بين التقليد وبين الموهبة الفردية على أنها علاقة جدلية بين التغير والاستمرارية. فحتى جعل الشيء جديدا ينطوي على تقليد ما كما أشار هارولد روزنبرج في مقال له صاغ فيه عبارة «تقليد الجديد». على أن التقليد كما يفهمه جراف ودامروش، يشبه وجهة النظر التي يعزوها بيتر إلى وليام بينت والتي ترى أن التقليد هو «منظومه متوارثة من المعارف ـ تنطوي هي نفسها على قيم مفارقة معينة ـ اكتسبت شكلا ثابتا، ويجب الحفاظ عليها ونقلها، بواسطة المدرسين والطلاب، بإخلاص

وإجلال» . لكن، فيما يبدو لي، يقترب أكثر من حقيقة التقليد حينما يتحدث عنه بوصفه «تكويناً ثقافياً مرتبطاً بالتاريخ، انبنى على قراءات وتفسيرات وتمييزات قام بها أفراد ومؤسسات ثقافي في الزمن التاريخي». والنظر إلى التقليد على أنه ثابت يطمس حقيقة أن التقاليد لا تشكل التفسيرات الفردية فحسب بل تتشكل هي نفسها من خلال تلك التفسيرات»(10)، ولو تفهم طرفا الصراع أن كلا منهما يستند إلى مرتكزات مختلفة في التقليد، لاتخذ الجدال بينهما منحى مختلفا تماما. فقد يجد المثقف الراديكالي أن تفهمه للتقليد يمكن أن يثري وجهة نظره الخاصة. كما قد يجد المثقف المحافظ نفسه مضطرا للتأكيد على ما هو حي في فهمه للتقليد. فلا شيء جديدا وذا قيمة يمكن أن ينتج دون أن يكون ذا أصل في تقليد ما. وكما يقول تزفتان تودوروف» فهدف التعليم الليبرالي الإنساني إنما هو تكوين عقلية نقدية ومتسامحة في وقت واحد. والسبيل إلى ذلك إنما هو التمكن من تقليد ما» (11).

و«التقليد» ليس هو التعبير الوحيد الذي يساء فهمه في الحرب الثقافية. فمثلما يوضع التقليد في مقابل التجديد، يوضع أيضا مصطلح «الموضوعية» في تضاد مع «المنظورية» (النسبية المعرفية). وبينما يعبر الأول عن وجهة نظر محافظة، يعبر الثاني عن وجهة نظر راديكالية أو ليبرالية. فدعاة الموضوعية يتبنون فكرة العالمية ويؤكدون على عمومية الثقافة، بينما دعاة المنظورية يتبنون فكرة التعددية الثقافية ويؤكدون على التنوع.

والمراقب الخارجي لتلك الصراعات قد يجد غرابة في أن اليسار الثقافي يعتبر نفسه متماهيا مع النظرة المضادة للعالمية. رغم أن واحدا من مؤسسي النظرة المحافظة الحديثة هو الرجعي جوزيف ديستر، هو الذي قال إنه «لا يوجد شيء اسمه (إنسان) في هذا العالم. فقد شاهدت خلال حياتي: فرنسيين، وإيطاليين، وروس.. إلخ. لكن فيما يتعلق (بالإنسان)، فأنا أعلن أنني لم ألتق به طوال حياتي؛ فإذا كان له وجود، فذلك أمر لا أعرفه»(12). فأفكار مثل الموضوعية والعالمية والعمومية - أي تراث النزعة التقدمية للتنوير - قد أصبحت - سخرية من التاريخ - موضع شك اليسار الفكري، وأصبح ينظر إليها على أنها أقنعة أيديولوجية تبرر المصالح الخاصة للثقافة السائدة.

فقد أصبحت النزعات «ضد - العالمية» و«ضد - الموضوعية» و«ضد - الجوهرية» بمثابة شعارات تتبناها حركة فكرية معاصرة دون تفكير. فقد كتب أحد الأساتذة المتميزين يقول: إن ضداتي (جمع ضد)، مثلما هو الحال بالنسبة لمعظم الزملاء الذين أحترمهم، لا تخطىء. فأنا ضد - الأسسية anti - Foundationalism، وضد - الجوهرية anti - essentialism، وضد العالمية anti - universalism. وأنا لا أعتقد أن ثمة أية إمكانية لوجود وجهة نظر تأتي من اللامكان لتجعل المرء يتجاوز عرضية الأحداث»(13). على أن هذا القول هو بمثابة إعلان انتماء حزبي يفتقد التردي، كما أنه سوء فهم لوجهة نظر الخصم. فالأسسية ليست هي مسألة الوصول إلى مكان ما من اللا مكان. وعلى ما يبدو، فإن احترام الزملاء لا ينبني على سماتهم العقلية بل على موقعهم من درجات الطيف السياسي - الثقافي، بل إن ثمة عدم احترام ضمني هنا لمفكرين من وزن ديكارت وكانط وتشومسكي. ويجب ملاحظة أن النزعة ضد - العالمية لم تمض دون تحديات داخل اليسار. فقد أشار تودجيتلن، في كتابه الحديث: «أفول الأحلام المشتركة: لماذا دمرت الحروب الثقافية أمريكا»، إلى العواقب

الاجتماعية والسياسية الوخيمة التي تترتب على سياسات الهوية ذات الطابع النضالي:

«إن المسألة بالنسبة لليسار مثلما هي بالنسبة لباقي أمريكا، ليست مسألة التعرف على تعددية الجماعات الأمريكية، ولا على تنوع الطوائف الأمريكية، ولا على تباين الخبرات الأمريكية. فمثل هذه الظواهر توجد طالما يعتقد الناس أنها موجودة، المسألة هي مسألة نسبة. فماذا يكون اليسار دون وجود عموميات، حتى لو كانت افتراضية؟ فإذا لم يكن هناك قوم واحد بل أقوام متعددة فقط، فلن يكون هناك يسار»(14).

وأود أن أصحح الجملة الأخيرة فأقول: فلن تكون هناك إنسانية.

والمكانة سيئة السمعة التي تحتلها «الموضوعية» كما تكشف عن نفسها في الجدالات الدائرة، هي في رأيي، نتيجة للطريقة الغامضة التي تفهم بها الكلمة فحتى في عمل متميز مثل كتاب بيتر نوفيك: «ذلك الحلم النبيل: مسألة الموضوعية والدراسات التاريخية الأمريكية»، فإننا نجده يصوغ «المسألة» بطريقة تجعلنا نكاد لا نفهم كيف يمكن لمثقف حصيف أن يتبنى النزعة الموضوعية. وفيما يلي وصف نوفيك المتعاطف مع الاتجاه المضاد للموضوعية في الستينيات:

«لقد أصبحت التمييزات بين القيمة والواقع، وبين النظرية والملاحظة: موضع تساؤل في المجالات البحثية الواحد تلو الآخر. فاتخاذ وضعية النزاهة والحيادية أصبح يبدو بصورة متزايدة أوهاماً عتيقة. فلم يعد شيئا بديهيا أن نعتبر عمل العالم أو الباحث الأكاديمي تمثيلا دقيقا لما هو «قائم هناك». والأكثر من ذلك، وعلى وجه العموم، فإن فكرة الحقيقة المحددة والموحدة داخل العالم الفيزيائي و الاجتماعي، والتي يمكن الاقتراب منها إذا لم يتم التوصل إليها في نهاية المطاف؛ أصبح ينظر إليها، من قبل أعداد متزايدة من الباحثين، على أنها أفكار وهمية»(15).

وعلى الرغم من أن نوفيك يكتب كمؤرخ، وأن أقواله تعبر بدقة عن أفكار الآخرين، إلا أنه يتقبل تلك الأفكار دون موقف نقدي. فالأقوال المحملة بالقيمة لا تستبعد الموضوعية. فحب الإنسان للعدل لا يحول بينه وبين البحث الموضوعي عن عدم العدل، نزاهة القاضي هي وسيلته للارتفاع فوق التميز حتى يكتشف الحقيقة ويطبق العدالة. كذلك يمكن للإنسان أن يؤمن بفكرة إمكان تحقق الموضوعية دون أن يكون عليه أن يؤمن بفكرة «الحقيقة المحددة والموحدة»، تماما مثلما يمكن له أن يكون منظوريا وأن يتبنى فكرة أن الأقوال يمكن الحكم عليها موضوعيا بالصواب والخطأ، من خلال زاوية محددة للنظر. (أي أن الموضوعية والمنظورية ليستا متعارضتين بالضرورة، كما يذهب نوفيك في موضع آخر من الكتاب). لقد أصبحت «الموضوعية»، لسوء الحظ، علامة على مجموعة من الأفكار (الحقيقة الموحدة أو المطلقة؛ الواقع المحايد قيميا، الملاحظة المتحررة من المنظورية) ليست لازمة عن فكر الموضوعية.

والواقع أن الموضوعية أو الاحتكام إليها أمر لا يمكن تجنبه في أي حلقة نقاش تطرح فيها الأفكار للحوار والجدل. إذ ما لم يكن الأمر كذلك لتعذر قيام أي مشروع معرفي. فطالما كانت الخلافات غير قابلة للحل عن طريق الاحتكام إلى العقل أو الواقع، فما الذي يجعل شخصا ما يتحمل عناء الدخول في جدال فكري؟ (نوفيك نفسه ينسب ضمنيا الموضوعية لنفسه حين يتحدث في مقدمة كتابه عن أنه يجب أن يكون غير منحاز ومتجردا إذا كان عليه أن يكون مقنعا) (18).

ووجهة النظر المضادة للموضوعية تبدأ من حقيقة أن الموضوعية مسألة يصعب الوصول إليها، ومن هذه النقطة يتم القفز مباشرة ودون مبرر إلى استنتاج أنها نموذج مثالي مستحيل وغير مطلوب، والسبب في كونها غير مطلوبة هو أنه يتم الخلط بينها وبين الحقيقة المطلقة ذات المضامين السلطوية، وهو استنتاج متناقض من حيث إن قمع البحث عن الحقيقة الموضوعية هو أحد مظاهر الاستبداد، أوسيانيا» في رواية جورج أورويل «1984»، يديمون حكمهم عن طريق الحيلولة بين المتمردين والمنشقين المحتملين وبين التوصل إلى الحقائق الخاصة بالماضي والحاضر والتي يمكن لها أن تكشف كذب وفساد أولئك الحكام. والحقيقة التي ينطوي عليها تبصر أورويل حول العلاقة بين الحقيقة الموضوعية وبين الحرية، لا تؤكدها فقط الأمثلة المتطرفة (مثل ألمانيا النازية والاتحاد السوفييتي) بل تؤكدها الأنظمة الاستبدادية في كل مكان. أما بالنسبة لعدم حساسية نظرية ما بعد الحداثة والنظرية الثقافية لليسار لهذه الحقيقة، فلا يملك المرء إلا أن يخمن أسبابها. فهل يمكن أن تكون الحرية ذاتها التي يتمتع بها مجتمعنا هي التي جعلت من الممكن أن يعتبر وجودها أمرا مفروغا منه بحيث يؤدي ذلك إلى الاستخفاف بالشرط الذي يجعل هذه الحرية ممكنة؟

وأنا على يقين من أن ريتشارد رورتي، أقوى الفلاسفة المعاصرين المتبنين للنظرة المضادة للموضوعية، سوف يهاجمني لما سأقوله عنه. فهو كمدافع متحمس عن التضامن، يقدر الحاجة إلى الفهم المشترك ويستعيض عن الموضوعية بفكرة البين ـ ذاتية:

«نحن ننكر أن البحث عن الحقيقة الموضوعية هو بحث عن التناظر مع الواقع، وندعو ـ بدلا من ذلك ـ إلى أن نعتبر أن هذا البحث هو بحث عن أوسع اتفاق بين ـ ذاتي ممكن» (19).

لكن كيف يمكن لمثل هذا الاتفاق أن يتحقق دون الاحتكام الموضوعي للواقع حينما يتطلب الأمر ذلك؟ لقد اقتبست النص السابق من مقال يدور موضوعه حول الحرية الأكاديمية وافتراضاتها الفلسفية. «يعتقد الفلاسفة الذين يقفون إلى جانبي أننا إذا توقفنا عن تقديم تعليلات معرفية وقدمنا بدلا منها تعليلات سياسية ـ اجتماعية فإننا سنكون أكثر أمانة وأكثر صفاء ذهن. فنحن نعتقد أن البحث الموضوعي المنزه عن الفرض لن يستمر فقط في ظل تبني وجهات نظرنا الفلسفية بل سيستمر أيضا في صيغة نقية تلبي ما هو منشود منها»(20).

وأنا لا أفهم معنى تقديم «تعليلات سياسية ـ اجتماعية» سوى أن يكون ذلك بمثابة تقديم أوراق اعتماد جماعتك السياسية إلى ذوي الانتماءات الفكرية المشابهة بحيث تثبت لهم كيف أن كلماتك وأفعالك تخدم قضية معينة. أما كيف يمكن لذلك أن يخدم البحث الموضوعي المجرد فإنه يبدو غير واضح على الإطلاق. فإذا لاحظنا أن رورتي يعتبر الموضوعية وهما، فإنه يبدو من قبيل اللامسؤولية العقلية أن يستولي على لغتها لعرض وجهة نظره ثم يعود فيؤكد أنه بذلك قد نقاها مما يشوبها. بينما هو في الواقع قد نسفها. (وفكرة رورتي عن التعليل السياسي ـ الاجتماعي هي صيغة مخففة من فكرة فوكو حول الترابط الذي لا ينفصم بين السلطة والمعرفة. على أن فوكو، خلافا لرورتي، يتخلى بالكامل عن فكرة الحياد المعرفي).

ولست أود هنا أن أسجل نقاطا ضد رورتي بقدر ما أود بيان صعوبة، إن لم يكن استحالة، تجنب دعوى الموضوعية حتى بالنسبة لمن هو أقدر من سواه على الإقناع بالفكرة المضادة للموضوعية. فبدلا من مواجهة المسألة، فإنهم

يتجنبونها وينقلونها من مسألة كيف تعرف العالم إلى مسألة النضال السياسي. وإيفلين فوكس كيلر توافق رورتي بقولها:

«رورتي على صواب: فمحاولات اللجوء إلى الإبستمولوجيا خروج عن الموضوع: بل هي في الحقيقة مضللة ومعوقة للإنتاج. فالأزمة التي نواجهها اليوم واقعية بما فيه الكفاية، لكنها لاتتعلق بالجدالات حول وضعية أو مكانة الحقيقة الأنطولوجية بقدر ما تتعلق بالوقائع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الجارية. ومصطلحات مثل «الموضوعية» و«الصواب السياسي P.C» أصبحت بمثابة أسلحة في النضالات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي نجد أنفسنا منغمسين فيها»(21).

فعلى الرغم من أن كيلر تود تجاوز الحروب الثقافية، إلا أن صياغاتها للمسائل تسهم في إشعالها. فهي بكتابة كلمة «الحقيقة» بحروف كبيرة، فإنها توحد، وإن بطريقة مستترة، بين مفاهيم الموضوعية وبين النظر إلى الحقيقة باعتبارها شيئا مطلقا، ثم هي بوضعها كلمتي «الموضوعية» و«الصواب السياسي» بين شاولتين، فإنها تشير بوضوح إلى من تعتبرهم مدانين. وهي لا تقر في أقوالها بأن الكلمات بين الشاولات يمكن أن تكون أسلحة لدى الطرف الآخر. إذ هي تقر بأنها منغمسة في النضالات لكنها لا تشير بقدر كاف إلى طبيعة الدور الذي تلعبه.

وما «بعد الحداثة» هو الاسم الذي تتخفى وراءه سياسات الهوية (السياسات القائمة على العنصر أو على خصائص النوع الجنسي Gender، أو على التفضيلات الجنسية، أو على الانتماء الطبقي). والمنظورية (أي النظرة المضادة للموضوعية وللعالمية) تزودها بأساسها المعرفي، لكنها تدعى أنها أكثر من مجرد نظرية خاصة، وأنصار ما بعد الحداثة، لكونهم ورثوا سلطة النظرية عن ما بعد البنيوية، يفسرون أي هجوم على نظريتهم الثقافية على أنه هجوم على النظرية في حد ذاتها، ونحن نجد هنا أيضا صياغة مغرضة للمسألة.

لكن علينا أن نعترف أولا بما هو صحيح في ذلك الاتهام. فهناك بعض النقاد يكتبون من موقع التحيز ضد النظرية، وهو تحيز يعود، فيما مضى، إلى ماثيو أرنولد الذي لم يكن يثق في أي تفكير منهجي في مجال الدراسات الإنسانية وكان يؤكد على المرونة والليونة في ممارسة التفكير النقدي، وبالنسبة لـ«ت. إس. إليوت» كان المطلوب الوحيد هو القدرة على الفهم والاستنتاج، أما ف. ر. ليفيز، فقد وجد أخيرا، بعد تاريخ طويل من العداء الحاسم للتأمل النظير في قضايا الأدب،إن ما يمكن تسميته بالنظرية المضادة للنظري antitheoretical هي التي تتواءم مع وجهة نظره الخاصة. فقد منحه عمل ميشيل بولاني، الذي تعرف إليه عن طريق مارجوري جرين، ما كان يطلبه: مفهوما في المعرفة (سماه بولاني «مفهوم ضمني») يسمح للحرس أن يمارس التأثير في عملية النقد.

والورثة المعاصرون لأرنولد وإليوت وليفيز، هم نقاد إنجليز مثل دنيس دونوج وكريستوفر ركس، ممن يدافعون عن استكشاف مناطق قراءة متحررة من النظرية تتجلى فيها مسرات النص ومعانيه الخاصة(22). لكن حتى هؤلاء، لا يستطيعون في عصرنا النظري أن يتجنبوا مواجهة النظرية. فكما يذهب النظريون، ولهم الحق في ذلك، لا يستطيع أحد أداء عمل عقلي دون أن يكون لديه، بوعي أو دون وعي، افتراضات وتضمينات ذات طابع نظري. فحتى ليفيز، شعر بضرورة أن يمعن النظر فيما كان يفعله بوصفه ناقدا. لكن ذلك لا يعني بالطبع أن النقاد مجبرون على الانتماء إلى نظرية ما، أو، كما يقال هذه

الأيام، على أن «ينظروا» الممارسة العملية التي يقومون بها. فقد يرغبون، عن حق، في مقاومة الصياغة النظرية لأعمالهم حتى يحتفظوا بالشعور بالحرية والمرونة وتعقد الموضوع. فالاستخدام الواعي للنظرية قد يكون عائقا، حيث إن ما يميز النقد غير النظري هو الصوت الشخصي للناقد، طبعا على افتراض أن الناقد صاحب شخصية. أما النظرية ما بعد الحداثية، فهي لعدم اعتقادها في وحدة الذات، استبعدت بنجاح الصوت الشخصي. فالناقد ما بعد الحداثي يدخل في خطاب لا يتميز فيه أسلوبه عن أسلوب الآخرين. كما لو كان الخطاب هو الذي يكتب لا الشخص.

على أن نقاد النظرية المعاصرين ليسوا جميعا معادين للنظرية كنظرية. فما يجده البعض مثيرا للأسى هو افتقاد التنظير للدقة والإتقان ولجوئه لعبارات غامضة يتخفى وراءها. وقد كتب الفيلسوفان بول بوجوسيان وتوماس ناجل، في تعليقهما على قضية سوكال (حيث بعث الآن سوكال، العالم الفيزيائي بجامعة نيويورك، مقالا حول العلم حاكى فيه على سبيل السخرية تعبيرات النظرية ما بعد الحداثية، إلى محرري مجلة ما بعد حداثية هي «النص الاجتماعي» «Social text»، فما كان من المجلة إلا أن أخذت المقال مأخذ الجد وقامت بنشره) ينتقدان المستوى الفج والتافه لما يقبل على أنه محاجة فلسفية.. والدور المحوري الذي يناط بمثل هذه المحاجة أن تلعبه(23). إذ يبدو أنه يكفي للكاتب أن يجيد استخدام الرطانه الخاصة بخطاب أيديولوجي معين حتي يقنع جمهور المتعاملين مع ذلك النوع من الخطاب بأن ما كتب ينطوي على شيء ما أو على الأقل أنه ليس لغواً. كذلك فقد كشفت قضية سوكال عن سوء الاعتقاد المسبب للحرج لدى المحررين ما بعد الحداثيين لمجلة «النص الاجتماعي» الذي حملوا سوكال مسؤولية عدم قدرتهم على التمييز بين النص الأكاديمي الأصيل وبين المحاكاة الساخرة له. على أن الموضوع الحقيقي الذي هو موضوع انتقاد نقاد الفلسفة من مثل بوجوسيان وناجل، ليس هو ما إذا كان التنظير عملا يستحق القيام به وإنما هو يتعلق بقيمة ما يقبل على أنه نظرية. فالسؤال بالنسبة لهما ليس عما إذا كان علينا أن نمارس النظرية أم لا، بل عن مستوى ونوعية ما يعتبر نظرية.

وقد دارت الحروب الثقافية داخل مجال الإنسانيات، وإلى درجة أقل، داخل العلوم الاجتماعية ـ حول المفاهيم المختلفة الخاصة بالمباحث ذاتها. ومشكلة سوء الفهم القائم بين العلم وبين الإنسانيات والتي تحدث عنها سي. ب. سنو في كتابه الصغير حول «الثقافتين» منذ عقود مضت؛ قد شهدت تطورات مهمة. فقد ذهب سنو إلى أن دارسي الإنسانيات يجهلون المعرفة العلمية جهلا شنيعا ولا يبالون بها. على أن منظري ما بعد الحداثة، قد حددوا ـ كما لو كانوا يجيبون على سنو وإن كان بعد وقت طويل ـ الصراع القائم بين العلم والإنسانيات بأن وضعوا موضع التساؤل المبادئ الأساسية للمعرفة العلمية إمكانية المعرفة الموضوعية وخاصتها التقدمية. فمن ناحية أصبحت «دراسات العلم» في ظل ما بعد الحداثة تسعى لتقويض ما تراه ما بعد الحداثة على أنه رضاء غير مبرر عن الذات من قبل الجماعة العلمية تجاه الطابع الموضوعي والتقدمي للمعرفة العلمية. ومن ناحية أخرى، فقد استفز العلماء والفلاسفة بسبب المحاجات الموجهة ضد الموضوعية، وبسبب الفجاجة التي تصاغ بها تلك المحاجات. والرطانة ما بعد الحداثية، والتي غالبا ما تتسم بالغموض، تؤكد استحالة الحقيقة الموضوعية

(سواء من الدرجة الدنيا أم العليا) دون أن تتعامل بصورة موفقة مع الموضوعات التي تشكل معالم فكر الفلاسفة المختصين ممن تلقوا تدريبهم في حقل الفلسفة التحليلية. والنظريات ما بعد الحداثية لم تلق تحديا بسبب أن دقة التنظير لم تتم بدرجة كافية في مجال الإنسانيات، بحيث أصبحت أية مبادرة للتنظير يقوم بها بعض ممن لديهم إلمام بالنظرية، تعتبر دائما شيئا مفيدا.

وتؤدي الصياغات المضللة والمغرضة للموضوعات إلى استبعاد طرف أو آخر من المشاركة في الجدل عن طريق جعله غير متاح له أن يقول أشياء معينة يجب أن تقال. وهذا أمر يحدث خاصة في الأمور التي هي أقرب إلى السياسة المباشرة منها إلى الإبستمولوجيا. فالنقاد الأيديولوجيون، مثلا، لديهم مجال يومي لكشف الدوافع الكولونيالية وعناصرها الرئيسية في النصوص وفي المؤسسات، والذين يريدون الدفاع عن تلك النصوص والمؤسسات يجدون أنفسهم في صعوبة مزدوجة. فمن الذي يريد أن يدافع عن إمبريالية مكشوفة؟ فالموقف المألوف هنا هو نفي تهمة الإمبريالية عن طريق إنكار وجودها أو علاقتها بالموضوع، أو التقليل من أهميتها. لكن أية محاولة للحديث عن فوائد الكولونيالية تعتبر خارج النطاق المسموح به. وأتذكر هنا لقاء مع أحد الأساتذة الجامعيين الهنود من ذوي الميول الماركسية، عبر خلاله عن ازدرائه للدارسين الغربيين من المشتغلين بما يسمى «بالدراسات ذات المصادر الثانوية» (Subaltern studies) والذين يدينون الإمبريالية وتراثها في الهند بصفة دائمة دون أن يعرفوا الحقائق الفعلية الخاصة بها، فقد كان البرهميون لا الكولونياليون الإنجليز هم الذين حافظوا على استمرار النظام الطائفي، وكان الإنجليز هم الذين أوجدوا فرص التعليم للجماعات المهمشة. وطبقا لما قاله الأستاذ الهندي، فإن رحيل الإنجليز لم يحسن من وضع الجماعات المهمشة، ولا من حالة أولئك الذين يحتلون أدنى درجات السلم الطائفي، بل على العكس، فقد ازدادت أحوالهم سوءا. فنحن لا نخدم الحقيقة حين ننكر الوقائع، ولا نخدم الإمبريالية حين نذكر تلك الوقائع.

كيف نشأ الموقف الراهن؟ لقد تليت مرة ومرات، حكاية راديكاليي الستينيات الذين دخلوا المجال الأكاديمي في السبعينيات والثمانينيات وحولوا نشاطهم الثوري إلى نظريات في التفسير. فحينما خسروا معاركهم السياسية في بواكير السبعينيات (حيث أصبح المناخ السياسي والاجتماعي عموما محافظا أكثر فأكثر) حولوا طاقاتهم إلى الساحة الأكاديمية. وأصبحت الكتابة في مجال الإنسانيات هي الأرض التي تدور عليها المعارك السياسية. وأصبحت الأعمال الأدبية تقرأ الآن لا لقيمتها الفنية ولا لما تنطوي عليه من حكمة بل لما تتضمنه من دوافع أيديولوجية.

وقد ثبت أن المعارضة داخل المجال الأكاديمي أقل مناعة من القوى المحافظة للمجتمع عامة ولبنياته السياسية. فالعواطف الأخلاقية والعقلية التي أوجدت «النقد الجديد»، على سبيل المثال، فقدت قوة دفعها، ودارسو الأدب الإنجليزي استنفدوا موضوعاته.

وقد أدت التيارات البنيوية والتفكيكية والنقد الأيديولوجي، والتي تركزت على الأصل العرقي وعلى خصائص النوع الجنسي، وعلى الطبقة؛ إلى خلق طاقة جديدة وحالة من الإثارة في المجال الأكاديمي. ولم تلق سوى مقاومة ضئيلة لأن المؤسسة الأكاديمية فقدت روح التمرد. وما أصفه الآن لا ينطبق على جميع المجالات الأكاديمية، فأنا أعتقد أن كثيرا من مؤسسات التعليم العالي

في بلدنا لم تشهد تحولات أكاديمية وبالتالي لاتزال توجد أماكن تسود فيها تقاليد التعليم القديمة. لكن مثل تلك التحولات حدثت في المؤسسات القائدة ذات التأثير غير المتناسب معها والذي يمتد ليس فقط إلى المجال الأكاديمي بل إلى الحياة الثقافية عموما. فما يحدث في ييل أو جون هوبكنز أو دوك يجذب انتباه وسائل الإعلام ويشكل مدركات قطاع واسع من الجمهور حول ما يجري داخل المجال الأكاديمي.

وعدم التسامح الفكري داخل وخارج المجال الأكاديمي يجد تفسيره في تسييس الخطاب الأكاديمي. فحين تشغل السياسة فضاء الخطاب بكامله لا تعود بحاجة إلى إقناع الآخرين بصحة أفكارك استنادا إلى العقل (أي المنطق والدليل). بل لا يعود باستطاعتك إقناع الجانب الآخر نظرا لافتراض أن ما يحدد وجهة النظر المعارضة إنما هو المصالح، مستترة كانت أم معلنة، والتي لا تقبل الاحتكام إلى العقل. فالجدالات الفكرية تصبح مواجهات لفظية متعالية يسعى كل طرف فيها إلى أن يثبت صحة وجهة نظره دون أن يهتم بالتوصل إلى اتفاق مشترك. وبينما الاختلافات بين ذوي الاتجاه الفكري المتشابه يمكن أن يعلن عنها (سواء بين المحافظين أم بين الراديكاليين)، فإننا نجد أن الحوارات المعقولة بين الأطراف المتعارضة غاية في الصعوبة، إن لم تكن مستحيلة، بالتحديد لأن «الاجتماعي - السياسي» وليس «الاستدلال المعرفي» (بتعبير رورتي) هو مناط التفسير اليوم.

(2)

وفي المجال الذي أنتمي إليه وهو الدراسات الأدبية، يحتل النقد الأيديولوجي مكان الصدارة. والنقد الأيديولوجي هو نوع من التأويل المتشكك والذي يشكل واحدا من مصادر الحرب الثقافية.

وليس ثمة شيء أكثر عدوانية من محاولة كشف أوهام يفترض وجودها لدى الآخرين، وكما كتبت سلفا فإن «الحوار أو الجدال الحقيقي يصبح مستحيلا، لأن الأرضية المشتركة بين كاشفي الأوهام وبين الطرف الآخر ليست هي الطبيعة الإشكالية للحقيقة (أو الشعور بعدم اليقين فيما يختص بأين توجد الحقيقة) بل هي الاختلاف بين الحقيقة والوهم. فحينما يدعي شخص لنفسه امتلاك الحقيقة ويصبح على يقين من أن الآخرين من أصحاب وجهة النظر المعارضة هم أسرى الوهم، فإن هذا الشخص من المحتمل أن يصبح مستبدا». وهنا تظهر المفارقة: فالذين على يقين من أن الآخرين واهمون، يسمون أنفسهم بأنهم ضد - التأسيسية وضد - الجوهرية وضد - العالمية. وأنهم متشككون في كل دعاوى الموضوعية. فمن أين إذن يأتي يقينهم حول أوهام الآخرين؟ يبدو أنه يأتي من قناعتهم بأفضليتهم الأخلاقية في مجال النضالات الثقافية والسياسية فإذا كانت الأوهام أو التعمية تخفي دوافع السيطرة، فإن المهمة الأخلاقية للنقد تصبح تعرية تلك الدوافع.

وعلى خلاف المنظوريين الذين يميلون إلى الشك في كل دعاوى الموضوعية، يراوغ نقاد الأيديولوجية في الإجابة عن سؤال الموضوعية. فهم يتبنونها في عملية كشفهم للأوهام، لكنهم في الوقت نفسه يشاركون المنظوريين إحساسهم بتأثير الانحيازات والمصالح الشخصية في كل وجهات النظر. ويمكن للنقد الأيديولوجي أن يصبح نشاطا ذا قيمة إذا هو أدرك حدوده، وميز بين ما يتطلب كشف الأوهام وما لا يتطلب ذلك. أما في الممارسة الحالية داخل المجال الأكاديمي، فقد أصبح ذلك النوع من النقد بمثابة انشغال متسلط بالعواقب الوخيمة.

وقد كانت إحدى العواقب لذلك النوع من

الانشغال في مجال الدراسات الأدبية هو اختفاء ممارسة النقد الجمالي. حتى أن بعض الدارسين الذين ارتبطوا بالنقاد الأيديولوجيين يشيع لديهم إحساس بالفقد أو بعدم الارتياح. وفيما يلي شهادة جورج ليفين في مقدمة لكتاب عنوانه «الجماليات والأيديولوجيا»:

«تطلب مني هذا الكتاب وهذه المقدمة أن أواجه مباشرة توجساتي الخاصة حول كيف سيبدو تعلقي العاطفي بالأدب بالنسبة للناقد الثقافي الذي أعتبر نفسي متحالفا معه. وقد افتتحت هذا الكتاب بلغة مشوبة بالعاطفة والتسامي والحس الجمالي آملا أن أتمكن من حماية هذه السمات، التي أتاحت مثل تلك المشاعر المتناقضة والخصبة، من أن تصبح حطاما باعتبارها مثالا معمى للجميل. فليكن إليوت ضد السامية وما هو أكثر سوءا. وليكن أرنولد مناصرا للحكم الاستبدادي ومحبا للوجاهة الاجتماعية. لكني لن أكون شيئا من دون كتاباتهما. وهذا، وأنا أدرك ذلك، يضعني ويضع هذا الكتاب موضع شك»(25).

فهذه الفقرة تكشف في رأيي أكثر مما يريد ليفين، فماذا علينا أن نفعل إزاء حلفاء يرتابون في دوافع ناقد أدبي يستخدم اللغة العاطفية والمتسامية والجمالية؟ «فدواعي القلق» لدى ليفين حول اتخاذه موقفا جماليا في مواجهة زملائه ذوي الدوافع الأيديولوجية، قوية لدرجة أنه لا يستطيع تجنب الإقدام على المساومة في صياغاته مثلما يتضح في حديثه مثلا عن: «فضاء صغير جدا من اللعب الحر والتجرد من المصلحة» (26). (لماذا صغير جدا؟) إلى الدرجة التي تجعله يقر عمليا بعدم جدوى جهوده.

«يجب أن نميز بين طموحنا نحو موقف مثالي متجرد من المصلحة مستحيل التحقيق، وبين الجهد المبذول، في مواقف معينة، لمقاومة الإقحام السياسي للمصالح الشخصية. وذلك حتى نظل، في تلك المواقف، منفتحين على المعرفة المتجددة بالبدائل المحتملة وحتى نتجنب عواقب التحزب الساذج.. فحتى لو كان المثال الفكري للفضاء الحر لدى أرنولد وبلوم مجرد يوتوبيا، وكان من شأنه في النهاية أن يعمّي ويخفي القوى الحقيقية، فإن فكرة أن الجامعة ليست أو لا يجب أن تحاول أن تكون مختلفة اختلافا أساسيا عن المؤسسات السياسية الحزبية، هي فكرة لا يقبلها عقل»(27).

ويمكن لنا أن نتساءل عن عكس ذلك: أليس مما لا يقبله عقل أن نحاول الارتفاع فوق حالة الحرب (أي فوق «المؤسسات السياسية الحزبية») إذا قبلنا أن يكون المثال العقلي للفضاء الحر تعمية؟ فإذا كنت تسعى للدفاع عن مسألة مثل الطموح إلى التجرد من المصلحة فإنه من قبيل الانهزام الذاتي أن تصف ما تطمح اليه بأنه «مستحيل التحقيق» أو أنه «معمى في نهاية المطاف» أو أنه «إخفاء للقوى الحقيقية».

وربما كان من المناسب هنا الحديث عن العبارة المثيرة للجدل وهي عبارة «الصواب السياسي»*. إذ يكثر الجدل حول ما إذا كانت موجودة، ومدى تحقق هذا الوجود، وحول مضمونها إذا كانت موجودة فعلا، وعلى من تنطبق. ورأيي الشخصي

* «PC» اختصار لتعبير «الصواب السياسي» Political Correctness:
وقد سادت هذه العبارة في أكثر من 130 جامعة أمريكية عام 1991. وارتبطت بقواعد معينة للتعبير خاصة عن موضوعات تتصل بالعنصرية أو التحيز ضد الجنس الآخر ومسائل أخرى. وكان من لا يلتزم بتلك القواعد يعتبر مدانا أخلاقيا. ومن هنا ما أثارته لدى البعض من سخرية وانتقاد على أساس أنها نوع من فرض الرقابة على الفكر. وهي في الأصل تعبير عن مجموعة مواقف ليبرالية تجاه التعليم والمجتمع تتطلب أن يكون الأفراد ذوي حساسية تجاه أية تحيزات عنصرية أو جنسية وذوي وعي بالبيئة والحفاظ عليها - المترجم.

أن عبارة «الصواب السياسي» لا يجب أن تطبق على وضع ما أو نظرية ما بل تطبق على طريقة التعبير عن ذلك الوضع أو تلك النظرية. وإيفلين فوكس كيلر على صواب في رفضها «للاستدعاء السهل لمقولة الصواب السياسي كتعبير مختزل عن ما بعد الحداثة، والبنيوية الاجتماعية، والنسوية، والتعددية الثقافية»(28)، لأنه من المحتمل بالنسبة لمن ينتمي إلى أحد تلك التيارات أن يكون منفتحا تجاه النقد وعازفا عن فرض وجهة نظره على الآخرين، ومن الصحيح أيضا أن من يهاجمون ما بعد الحداثة يحتمل أن يتبنوا نوعا خاصا من الصواب السياسي ويسعون إلى فرضه على الآخرين، والنقاد غير المحافظين، غالبا، هم من يظهرون حدة تنم عن عقلية مغلقة لا تتفق مع دعاويهم عن التجرد الشخصي. والصيغ المتطرفة لمذهب ما، أيا كان موقعه السياسي أو الثقافي، تميل إلى أن تبلور صيغة خاصة بها من الصواب السياسي، قد لا يكون تأثيرها متناسبا مع حجم مؤيديها الفعليين، ومثل تلك الصيغ لها طرقها في مطاردة التعبيرات المعتدلة أو المعقولة من ما بعد الحداثة مثلا. وهذا هو ما يشي به قلق ليفين.

ومقولة «الصواب السياسي» تنطوي على إرهاب ما، لأنها تجعل من تهاجمه في وضع غير محترم من الآخرين. وبطبيعة الحال، فهناك دائما احتمال أن تكون الخبرة التي تتأسس عليها تلك المقولة وهمية أو بارنوية، وأن تكون غير منطبقة على وقائع القضية. لكن الدليل يبدو دافعا حينما يجد بعض من يتعاطفون مع نظرية معينة أن ثمة مشكلات مع هذه النظرية، فيشعرون بالخوف أو القلق من أن يسيئوا إلى أولئك الذين يتبنون تلك النظرية دون شعور لديهم بأن ثمة تناقضات فيها.

ولعل من الجدير بالملاحظة أن دعوى الجمالي في عدد من المقالات التي تحتويها مختارات ليفين يتم التعبير عنها بطريقة دفاعية. وأن الشك الأيديولوجي يلاحق حتى أفضل المقالات فيها. كذلك نجد بيتر بروكس في مقال رفيع المستوى عنوانه «ماذا حدث للشاعرية؟» يقتبس فقرة من أحد التاريخيين الجدد البارزين يطلب فيها من المشتغلين بالدراسات الأدبية أن يختاروا واحدا من بين نموذجين اثنين: حيث يقول: البحث النقدي والتعليم في مجال الإنسانيات إما أن يكون مجرد بديل أكاديمي للممارسة السياسية والاجتماعية المعارضة أو أن يكون مثالا أكاديميا أصيلا لتلك الممارسة». وكان رد بروكس عليه مثيرا للإعجاب وإن لم يكن مألوفا: العبارات التي صيغ بها ذلك الاختيار تخلق نوعا من الميلودراما الأكاديمية، إذ تضع الجامعي في وضع يصبح فيه عديم التأثير ومسلوب القوة في مواجهة بطل مقاومة ذي قوة رجولية. فحتى لو أردنا أن نتحالف مع الأخير، وأردنا أن نرفض بصورة قاطعة فكرة الناقد كما لو كان شخصا من العصر الفيكتوري دمث الأخلاق يبشر بالاعتدال والتعقل؛ فيمكن أن نجد أن تلك الصيغة للاختيار قد أصبحت ألعوبة في يد اعدائنا، وأنها تؤدي إلى نسف قدرتنا على أن نتكلم عن الأدب بأي درجة من الخصوصية»(29).

والتعارض في الأسلوب بين بروكس وبين الباحث التاريخاني الجديد وحده يجب أن يجعل من الواضح أمامنا فيمن نثق. وليس ثمة الكثير ليضاف إلى تشخيص بروكس القاطع لزيف الخيارات المطروحة. لكن ما يثير الفزع هو أن القطعية هنا يشوبها نوع من الرضوخ الذي لا ضرورة له على الإطلاق: حتى لو أردنا أن نتحالف مع الأخير (أي مع البطل المقاوم ذي القوة الرجولية): لماذا، بعدما أوضحه بروك من زيف صياغات «التاريخاني الجديد»، يريدنا أن نتحالف مع الأخير؟

ولماذا الانشغال بالتحول إلى «ألعوبة في يد

أعدائنا»؟ وبروك، في اقتباس له من نفس الناقد سيئ الحظ، يلاحظ أن «المرء يشعر أن ذلك يعني بالفعل الاختباء بعيدا عن عيون أمثال لاين شيني أو هيلتون كريمر أو دينس دسوزا، أو أي من النقاد الحديثين في مجال الإنسانيات الأكاديمية، لأن موقفه يؤكد بسهولة صحة نظرتهم المتطرفة إلى المجال الأكاديمي باعتباره قد أصبح ساحة للتآمر من جانب راديكاليي الستينيات كبار السن، وهي نظرة تخفف من خطورتها فقط حقيقة أنهم لا يستطيعون التصويب مباشرة. وإذا كان ذلك الموقف يؤكد صحة نظرتهم فكيف تكون تلك النظرة متطرفة؟ إنه قلق الحرب الثقافية.

وربما يبدو من قبيل تصيد الأخطاء وإظهار عدم الامتنان من جانبي أن أخطئ بروكس فيما هو عموما مقال ممتاز. لكن امتياز بروكس كناقد هو بالتحديد ما يجعل القارئ يتعجب من التحالفات التي اختارها.

فإذا كانت لديه أسبابه في ألا يرتبط بشني أو كريمر أو دسوزا، فما هي أسبابه في تحالفه مع الذين يدعون كشف معميات الجمالي بطريقة فجة؟ فمع مثل أولئك الأصدقاء، من الذي يحتاج إلى أعداء؟ (وليفين، كما أوضحت، يبدو أنه وقع في المأزق نفسه)، والتفسير الوحيد هو أنه، في حالة الحرب، يشعر المرء أن عليه أن يختار جانبا، وأنه لا يوجد فيما يبدو سوى جانبين علينا أن نختار أحدهما.

والتوتر أو النزاع بين الأيديولوجيا وبين الجماليات يرتبط مباشرة بإمكانية تحقق الموضوعية، لأن الجماليات في صياغاتها الكلاسيكية (شافتزبري وكانط وشيلر مثلا) تستند إلى دعوى التجرد الشخصي. وكما لاحظ جيروم ستولنتز، ملخصا التقليد الجمالي، فإننا ندرك الجمالي حينما يكون موضوعا للانتباه المتعاطف والمتجرد.. نتأمله من أجل ذاته (كما في) «منظر الصخرة»، «صوت المحيط»، «ألوان اللوحة» (30). والنقاد الأيديولوجيون يتحدون دعوى التجرد الشخصي على أسس يجب أن تأخذ بجدية. فإذا كانت أنشطتنا مدفوعة بالمصالح، وهي النظرة التي تبدو معقولة لدى نيتشه ووليم جيمس من بين آخرين، فإننا لن نكون راضين عن أنفسنا اذا افترضنا وجود حالة التجرد الشخصي. لكن لدينا مرة أخرى مشكلة كيف يصاغ الموضوع. فماذا نعني بالتجرد أو عدم التجرد من المصلحة؟ النقاد الأيديولوجيون يميلون إلى فهم المصلحة بمعناها المرتبط بالطبقة أو الجماعة على اعتبار أنها تخدم الذات أو الدائرة الاجتماعية التي تعتبر الذات جزءا منها. لكن المصلحة يمكن أيضا أن توجه مباشرة إلى قضية العدالة أو إلى منفعة الإنسانية، وبهذا المعنى يمكن فهمها على أنها تطمح إلى حالة من التجرد الشخصي محمل بالقيمة. والتجرد من المصلحة، مفهوم بهذا المعنى، وإن كان غير شائع، إلا أنه محتمل.

على أن النقاد الأيديولوجيين حينما يفسرون المصلحة على أنها تعني المصلحة الشخصية الضيقة، فإنهم يركزون على الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي تنشأ في إطارها وجهات نظر معينة. على أن المسألة هي ماذا نستنتج من معرفة هذه الأوضاع. هل مما يكشف وهم النظرية الجمالية لشافتزبري أن نعرف أنها نشأت من إحساس لديه «بالإبعاد» و«الانقسام الذاتي» الذي أدت إليه لديه الثورة الإنجليزية؟

تقول ليندا داولنج: من هنا سيكون من المستحيل بالنسب للنبلاء أن يعيشوا بأسلوب حياة أرستقراطي كان يعتبر في الماضي، أي على طريقة ما قبل القرن السابع عشر، طبيعيا وعاديا تماما (وإشكاليا).

ونبلاء من مثل شافتزبري، الذي تسلمت عائلته مقاليد السلطة والرفعة وسط التيارات المهتزة

والخطرة لمرحلة «الاستعادة»* كان عليهم فيما بعد أن ينزووا في الظل وأن يعيشوا أوضاعا يفقدون فيها مكانتهم وألقابهم وعضوية المجلس النيابي، وحيث يدركون أنفسهم بوصفهم يعانون الآن معاناة الشعب» (31).

على أن هذه الفقرة التي تصف الظروف التي أحاطت بشافتزبري وجعلته يتبنى يوتوبيا التأمل الجمالي، وتجرده من الشعور بعدم الاستقرار في وضعه الاجتماعي؛ لا تفقد أفكاره مصداقيتها. وقد يكون من الصحيح أن انتقال شافتزبري المزدوج من السياسي إلى الأخلاقي ثم إلى الجمالي سوف يضفي كثيرا من الغموض، في السنوات المتأخرة، على الدور الأيديولوجي لكتاباته في مؤازرتها لإضفاء الشرعية على السياسة القائمة على البرلمانية التي يدعو إليها «الويج»** (32). لكن عمل شافتزبري أثر في أعمال كانط وشيلر، وفي النقاد الاجتماعيين الفكتوريين (فاتجاههم يشي بمفهوم أرنولد حول الثقافة) ولا يمكن اختزال تأثيره إلى السياسة البرلمانية للويج.

وقد اقتبست هنا من لندا داولنج في كتابها القصير الممتاز «ابتذال الفن: الفيكتوريون وديمقراطية الجمال» (وهو مقال لا يزيد على مائة صفحة) وهي تضرب فيه أمثلة على ما يثير الإعجاب، وإن كان نادرا، في التفسير الأيديولوجي. وفرضها للظروف التي تنشأ فيها الأفكار الجمالية وإن كان يفيد في فهم دوافع تلك الأفكار إلا أنه لا يجعلها تتحيز في حكمها على قيمتها. ونظرتها إلى الأفكار ذاتها نظرة مركبة. فهي تقدر فيها ما تتضمنه من نقد أخلاقي للبيئة الاجتماعية خاصة في مناقشتها لما كتبه شيلر بعنوان: «حول التعليم الجمالي للإنسان». وهي تشتبك مع الأفكار على مستوى فلسفي أكثر منه على مستوى أيديولوجي حينما تتابع، هي سبيل المثال، ألاسدير ماكنتاير فيما ذهب إليه من أن رفض شافتزبري «للأفكار الأرسطية التقليدية الخاصة بالطبيعة الإقليمية وغاية الكائنات البشرية (واعتماده على العواطف الطبيعية للفرد) أدى إلى أن يصبح من المستحيل التوصل إلى تفسير تقليدي للفضائل» (33). وعمل «داولنج»، والذي تأثرت فيه بالتيارات الأيديولوجية السائدة في المجال الأكاديمي، يعرض لإمكانية وجود التجرد الشخصي، وهو الموضوع الذي أثار المناقشة.

وهناك دروس يمكن استخلاصها من تفسيرها للتقليد الجمالي. فمنذ البدايات الأولى، كان هناك توتر بين تأكيده على التميز (والنخبوية بالتالي) وبين تطلعه إلى أن يكون بمثابة القاعدة الروحية للديمقراطية، أي أن يكون تعبيرا عن «الحس العام» بتعبير شافتزبري. فهذا التوتر واضح في مفهوم أرنولد الأرستقراطي حول التميز الثقافي من ناحية، ونظرته للثقافة باعتبارها قوة تسعى إلى «التخلص من الطبقات» من ناحية أخرى. فأرنولد يسعى إلى مقرطة المجتمع على أساس المصطلحات الثقافية الرفيعة. لكن الديمقراطية لا تتواجد دون مشاركة الجماهير والذين تسود لديهم الثقافة الشعبية، والذين قد لا يكونون «على اتصال بمجال القيم المتعالية» (34) حيث يمكن أن يوجد الجمال أو الذين قد يجدون الجمال في مصادر غير المجال المتعالي (في الثقافة الشعبية مثلا). فإذا كان الحس الجمالي هو امتلاك القوة ليس فقط للتعبير عن الجمال بل أيضا لتغيير الواقع (وجهة نظر شيلر)، فهو لا يستطيع أن يفعل ذلك دون موافقة الناس، وإلا أصبح صورة أخرى من صور الاستبداد. ونحن، في المجال الأكاديمي، ورثة هذا التوتر الذي لم يتم حله، والذي قد لا يكون حالة غير مرغوب فيها، طالما أننا نفهم أنه ليس باستطاعتنا حله. فالمبدأ سيظل دائما تحت ضغط، إذ هو يقاوم ويتكيف مع التغير في الوقت نفسه . ولكن الخطر أن يتحول التوتر إلى حرب. حيث يسعى الخصماء إلى

* «Restoration» تشير إلى عودة الملكية إلى إنجلترا عام 1660، حينما رجع إليها شارلز الثاني بدعوة من البرلمان - المترجم.

** Whig حزب سياسي بريطاني تكون في النصف الثاني من القرن السابع عشر، وكان له فيما بعد، تأثير كبير في السياسة حيث كان يدعو إلى ملكية محدودة ويؤكد على البرلمانية وقد تحول في أواسط القرن التاسع عشر إلى الحزب الليبرالي - المترجم.

حله بطريقة أو أخرى.

وطالما ظل ذلك التوتر غير محلول، فسوف يستمر الجدال. وأنا لا أتوقع (ولا أعتقد أنه شيء مرغوب فيه) أن نعود إلى زمن، متخيل إلى حد كبير، حيث كان الواجب الأكاديمي هو تأمل الخصائص الجمالية للعمل الفني بمعزل عن الاعتبارات السياسية، والتاريخية، والأخلاقية - وهو ما دافع عنه حديثا هارولد بلوم في كتابه «المبدأ الغربي». لكن ما أود أن أراه في العودة إلى ممارسة النقد الجمالي مترافقة مع مفهوم أوسع للكيفية التي تتشكل بها السياسة والتاريخ في المجال الأكاديمي الأدبي، بينما تميل حاليا المنظورات السياسية والتاريخية إلى أن تكون من خصائص اليسار الثقافي.

وكون أن السياسة موجودة في الفن وأن ثمة تناولا سياسيا له أمر لا يحتاج إلى أن يصبح هدفا لكاشفي الأوهام الذين يبحثون عن دوافع السيطرة داخل الفن. ففي عصرنا الديمقراطي يجب أن نكون قادرين على تقدير ما هو قيم في التصور الخاص بالمفهوم الأرستقراطي للحياة في أعمال الشعراء الإغريق القدماء وفي التطلعات الروحية في التصورات الدينية لدانتي وميلتون. فما هو معاد للتصور الفني ليس هو التاريخ أو السياسة بل هو المفاهيم ضيقة الأفق والمغرضة للتاريخ والسياسة. ويجب علينا أن نستعيد تلك الفكرة عن الثقافة التي تمنحنا نقطة امتياز في نقد ما هو فاسد ومنحط في الحياة السياسية والاجتماعية المعاصرة. والمبحث الجديد الخاص بالدراسات الثقافية يتيح المجال لممارسة النقد الأيديولوجي لما يبدو أنه مزاعم خاصة بالثقافة الرفيعة. وقد تم إلى حد كبير تبني قضية الثقافة الرفيعة من قبل المحافظين الجدد خارج الجامعة ذوي الصوت العالي مما أضفى على تلك القضية طابعا متشيعا أساء إلى روحها. واليمين واليسار كلاهما يستثير صراخ الآخر. وقد لخص روبرت هوجز باقتدار الموقف الحالي بقوله: «لقد انحصر المثقفون الأكاديميون: الراديكاليون والمحافظون كلاهما، داخل حالة من الجنون المتبادل بلغ حده الأقصى وعمل الطرفان على إدامته، وأصبح الشخص الوحيد الذي يكرهه كل منهما أكثر من الآخر هو من يطلب منهما أن يتخففا من غلوائهما» (35).

تمثل الحاجة التي تنطوي عليها مقالتي هذه مجهودا متواصلا من جانبي يهدف إلى إعادة تحرير أفكار معينة داخل حقل الإنسانيات أصبحت سيئة السمعة: الموضوعية؛ التجرد الشخص؛ التقليد؛ والتقييم الجمالي. ذلك أني أعتقد أن فقدانها المصداقية يمثل نقيصة في المجال الأكاديمي. إذ يجب أن تصبح تلك الأفكار ملكية عامة لكل الباحثين أيا كان مذهبهم السياسي أو الثقافي - يمينا أو يسارا أو وسطاً - وإن كان ذلك لا يعني أنه كان شيئا سيئا أن توضع تلك الأفكار تحت ذلك النوع من الضغوط التي أرغمتها على أن تعاد صياغتها وأن تصبح أكثر قوة.

على أن الموافقة على ضرورة الحوار العقلي حولها لا تعني الموافقة على كل شيء بشأنها، لكن مثل ذلك الحوار يمكن أن يخلق إمكانية التغلب على حالة «البلقنة» الأكاديمية التي تجري حاليا والتي تجعل كل طرف يبحث عمن يتوافق معه فكريا أو يعد نفسه لدخول معركة مع العدو.

ملاحظات

[1]John Henry Newman, "Knowledge Its Own End" in John Henry Newman, *The Idea of a University* (London: B. M. Pickering, 1852).

[2]Gerald Graff and Michael Warner, *The Origins of Literary Study in America* (New York: Routledge, 1989), 8.

[3]Ibid., 13.

[4]Gerald Graff, *Beyond the Culture Wars: How Teaching the Conflicts Can Revitalize American Education* (New York: Norton, 1992), 52.

[5]John Stuart Mill, "Bentham," in Gertrude Himmelfarb, ed., *Essays on Politics and Culture* (Gloucester, Mass.: Petersmith, 1973), 92.

[6]Graff, *Beyond the Culture Wars,* 7.

[7]Graff and Warner, *The Origins of Literary Study in America,* 11–12.

[8]David Damrosch, "A Past We Can Live With," *Civilization* (April-May 1997): 77.

[9]David Bromwich, *Politics By Other Means: Higher Education and Group Thinking* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1992), 106.

[10]Peter Brooks, "What Happened to Poetics?" in George Levine, ed., *Aesthetics and Ideology* (New Brunswick, N.J.: Rutgers University Press, 1994), 11.

[11]Tzvetan Todorov, "Crimes Against Humanities," *The New Republic* (3 July 1989): 30.

[12]See Stephen Holmes, *The Anatomy of Antiliberalism* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1993), 14.

[13]Levine, ed., *Aesthetics and Ideology,* 11.

[14]See Todd Gitlin, *The Twilight of Common Dreams* (New York: Metropolitan Books, Henry Holt & Co., 1995).

[15]Peter Novick, *That Noble Dream: The "Objectivity Question" and the American Historical Profession* (New York: Cambridge University Press, 1988), 523.

[16]See ibid., 596.

[17]See Alan B. Spitzer, *Historical Truth and Lies About the Past* (Chapel Hill, N.C.: University of North Carolina Press, 1996).

[18]Novick, *That Noble Dream,* 12, 14.

[19]Richard Rorty, "Does Academic Freedom Have Philosophical Presuppositions?" in Louis Menand, ed., *The Future of Academic Freedom* (Chicago, Ill.: University of Chicago Press, 1996), 21.

[20]Ibid., 27.

[21]Evelyn Fox Keller, "Science and Its Critics," in ibid., 211.

[22]See Denis Donoghue, "The Joy of Texts," review of *The Pleasures of Reading in an Ideological Age*, by Robert Alter. *The New Republic*, 26 June 1989, 17.

[23]*Lingua Franca* (July/August 1996): 60.

[24]Eugene Goodheart, *The Reign of Ideology* (New York: Columbia University Press, 1996), 19.

[25]Levine, ed., *Aesthetics and Ideology,* 11.

[26]Ibid.

[27]Ibid., 14.

[28]Keller, "Science and Its Critics," in Menand, ed., *The Future of Academic Freedom,* 204.

[29]Brooks, "What Happened to Poetics?" in Levine, ed., *Aesthetics and Ideology,* 158.

[30]Jerome Stolnitz, *Aesthetics and the Philosophy of Art Criticism* (Boston, Mass.: Houghton Mifflin, 1960), 34–35.

[31]Linda Dowling, *The Vulgarization of Art: The Victorians and Aesthetic Democracy* (London and Charlottesville, Va.: University of Virginia Press, 1996), 4.

[32]Ibid., 13.

[33]Ibid., 10.

[34]Ibid., 61.

[35]Robert Hughes, *The Culture of Complaint: The Fraying of America* (New York: Oxford University Press, 1993), 79.

الاتحاد الأوروبي والعولمة

بقلم: فيليب جونزاليز

ترجمة: سعد زهران

غالبا ما ينظر للاتحاد النقدي الأوروبي باعتباره مسؤولا عن تخفيض الإنفاق على الشؤون الصحية، ومعاشات المتقاعدين، والتعليم، والبنية الأساسية في الدول الأعضاء. وكثيرا ما نسمع أن نسب البطالة المتزايدة في القارة الأوروبية ليست إلا نتيجة قيود العملة الموحدة «اليورو» التي كانت تفرضها بروكسل ثم فرانكفورت. وبطائفة من الحجج التبسيطية والديماغوجية التي يستخدمها كل أنواع المناضلين القوميين الجدد، سواء من اليسار المزعوم أو اليمين الحقيقي، فإنهم يكسبون كل يوم أرضا جديدة من مؤيدي التوحيد الأوروبي. ومن المفارقات أنه ونحن في ظروف البديل الوحيد لها هو دفع عملية التوحيد السياسي لمواجهة التحديات الجديدة للعولمة، فإن الخوف الذي تثيره العولمة يقوي الاتجاهات القومية الضيقة.

العنوان الأصلي للمقال: European Union and Globalization ونشر في مجلة Foreign Policy عدد صيف 1999.

ومن يعتقد من بيننا أن الوحدة الأوروبية هي الحل وليست المشكلة يمكن ألا يحققوا تقدما في الجدل الدائر إذا لم ننجح في تحديد أهدافنا والتعريف بها على نحو جاد ومفهوم. علينا، إن أمكن، أن نسوق حججنا على نحو يتجاوب مع الحالة العامة للأمم الأوروبية بعد هدم سور برلين وسقوط الكتل الأيديولوجية. علينا أن نكون قادرين على شرح الدور المنوط بنا في زمن العولمة الذي جاءت به الثورة التكنولوجية، وبخاصة في مجالي المعلومات والتكنولوجيا الحيوية. علينا أن نكون قادرين على إثبات أننا نستطيع التجاوب مع نظام إنتاجي في مرحلة تغيير يتميز بعمالة أقل، وتعاظم تمركز الشركات والمنشآت، والتدفق الطليق لرؤوس الأموال، وعلينا كذلك أن نضمن الأمن لأوروبا بمحاولة التوصل إلى توازن دولي جديد يتجاوز المواجهة التقليدية التي كانت بين قوتين عظميين متنافستين.

ولكن قبل أن تتقدم عملية التوحيد الأوروبي خطوات جديدة إلى الأمام، علينا أن نطرح بعض الأسئلة، التي يسهل طرحها، وإن كانت الإجابة عنها ليست بالسهولة نفسها: من نحن — الأوروبيين؟ وما الذي نريد أن ننشئه معا؟ وكيف نكفل ونضمن الحريات في الساحة التي أوجدناها؟ وكيف نؤمن لأنفسنا دورا سياسيا وأمنيا في السياق الجديد للعولمة؟ وما المؤسسات التي نحتاجها لننهض بالمهام التي نختارها؟

الآباء المؤسسون للوحدة الأوروبية

ومن أجل أن نفهم الحاجة لتقوية الاتحاد الأوروبي EU وتوسيعه، اسمحوا لي أن أحكي شيئا من خبراتي السابقة في المجلس الأوروبي. في 1985، حين كانت واحدة من أطول فترات «عدم التفاؤل بالوحدة الأوروبية» تقارب الانتهاء، قررنا أن نعدل الاتفاقات والمعاهدات القائمة، بعد نحو ثلاثين عاما من إبرام اتفاقية روما التي خلقت السوق الأوروبية المشتركة — التي وسعت الاتحاد الجمركي ليشمل الزراعة وكثيرا من القطاعات الصناعية — رأينا أن الوقت قد حان لعمل قفزة نوعية في عملية بناء أوروبا، ومن ثم ولد الاتفاق الأوروبي الوحيد، الذي ألزم الدول الأعضاء فتح حدودها أمام التحرك الحر للعمل ورأس المال والسلع. وهكذا أوجدنا بالفعل ما كان قائما طوال ما يقرب من ثلاثين عاما تحت اسم الجماعة الأوروبية EC.

بين 1986 و1992، تطور هذا الكيان إلى سوق داخلي واحد لا تفصل بين مكوناته حدود، ومع تطور هذا السوق الداخلي، اتفقنا على أن نرفع بشكل محسوس الاعتمادات البنيوية المطلوبة لإحداث التوازن بين مستويات التنمية المختلفة.

في هذه الأثناء، ظهر على الساحة الرئيس السوفييتي ميخائيل غورباتشوف وبدأ المسرح العالمي يتغير، وفي 1989، سقط سور برلين. والحق، أن الهاربين من «الفردوس الشيوعي» هم الذين هدموه وأبدت الدول الغنية في شمال ووسط أوروبا الرغبة في الدخول في الجماعة الأوروبية EC على الرغم من الشكوك شبه الميتافيزيقية التي كانت تساورهم في هذا الشأن، هذا، بينما الدول التي كانت المعجزة الشيوعية قد أفقرتهم، شرعت في التزاحم على الأبواب، وهي على يقين من أن أحوالها ستتحسن إن دخلت.

وأفضت بنا السوق الداخلية للجماعة الأوروبية إلى التفكير في الاحتياجات الجديدة للمشروع الأوروبي والإعداد لتوسيعه، وهكذا أصبح بمقدورنا استشراف الثورة التكنولوجية التي كانت ستعقب الثورة الصناعية الثانية، وبتوقيع معاهدة الاتحاد الأوروبي في ماستريخت عام 1992، حققنا تقدما في أربعة مجالات، الوحدة

الاقتصادية والنقدية، والسياسة الخارجية والدفاعية المشتركة، وسياسات الشؤون القانونية والداخلية، والمواطنة الأوروبية.

واعتمدنا التلاحم كمبدأ يقوم عليه الكيان الأوروبي الجديد. غير أن هذا المبدأ فسر على نحو محدد يتناقض مع آفاقه الحقيقية ويحبطها فمثلا، عند تحديد الهوية المدنية للمواطن، أضفنا ميثاقا اجتماعيا رفضه المحافظون في بريطانيا، وإن كانت قد قبلته الحكومة العمالية الجديدة فيما بعد.

وبمولد الكائن الجديد، أدركنا، نحن، «الآباء الأوروبيين المؤسسين»، أن مهمة بناء الوحدة الأوروبية تدخل مرحلة جديدة. فالكائن الذي كان يتشكل ـ على نحو غير كاف في نظر البعض، أو على نحو مغالى فيه في نظر الآخرين ـ كان شيئا مختلفا عن الجماعة الأوروبية EC، وإن كان يحتويها ـ وظهرت الحاجة لتعميد الكائن الجديد وإعطائه اسما، ولم تكن تلك مهمة سهلة:

الوحدة الاقتصادية والنقدية: «وهي حتى الآن نقدية أكثر منها اقتصادية» اعتبرت جزءا من السياسات المشتركة للجماعة الأوروبية EC، واعتبرناها ركيزتنا الأولى، والآن، أصبحت الوحدة النقدية حقيقية ناضجة وواعدة لا يمكن الرجوع عنها، تتعاظم الحاجة لسياسة اقتصادية للجماعة الأوروبية. وإن لم يحدث هذا، ستحبط كل الآمال.

السياسة الخارجية والدفاعية المشتركة: استمرت شؤونها تدار فيما بين الحكومات، على الرغم من اسمها، فاعتبرناها ركيزة ثانية خارج نطاق السياسات المشتركة، وتحققنا من أن الخلافات بين السياسات الخارجية لدولنا كانت أكبر نقاط ضعفنا. وبسبب التناقضات بيننا في الساحة العالمية، كنا «عملاقا تجاريا وقزما سياسيا» غير أن دولنا لم تكن مهيأة بعد لاتخاذ خطوات محددة إلى الأمام في هذا الاتجاه، اللهم إلا تنسيقا أوليا ومهزوزا بين الحكومات.

سياسات الشؤون القانونية والداخلية: تنبع من فهم أعمق من جانب الحكومات الأوروبية لحقيقة أن الجريمة «التي لا تعرف حدودا، بل إنها تستفيد من إلغاء الحدود بين دول الجماعة الأوروبية» يجب أن تحارب بكفاءة. ونحن ندرك هذه المشكلة، ومع ذلك لم نتمكن من الاتفاق على أي شيء أكثر من نوع من التنسيق الجبان بين الحكومات، وهكذا أوجدنا الركيزة الثالثة.

المواطنة الأوروبية: كانت هذه المواطنة اقتراحا يهدف إلى إقناع رجال أوروبا ونسائها بأن كل ما نصفه لن يكون له معنى إلا إذا اعتبرنا أوروبا ملكا لمواطنيها، وعلى الهوية القومية والمواطنة الأصلية أن تتواءم مع هذه الفكرة. قصدنا أن نضيف الهوية الأوروبية ككسب إضافي يتمتع به الأوروبيون الذين يساهمون في مشروع مشترك.

وإذ فرغنا من الجدل، أسمينا الكائن الذي خلقناه «الاتحاد الأوروبي EU». وسواء من كان منا داعية للفيدرالية، أو الكونفدرالية، أو معارضا للفيدرالية، أو مجرد مؤيد لإقامة منطقة للتجارة الحرة ـ فإننا لن ندرك أننا كنا نبني شيئا جديدا، شيئا مختلفا. فليس الاتحاد الأوروبي EU، وربما لن يكون أبدا كيانا فيدراليا بالمعنى الذي نفهمه بمنظور نظريات توزيع السلطة في إطار الدولة القومية. لم نكن نحاول ـ كما ما زلنا حتى الآن لا نحاول ـ أن نكون «الولايات المتحدة الأوروبية». فالاتحاد الأوروبي ليس كيانا كونفدراليا، ولا هو حتى يشبه ولو من بعيد «دولة وحدوية».

ولكن، لا يكفي أن نعرّف الاتحاد الأوروبي بالسلب، كان يلزم أن نحدد ماهية الاتحاد

الأوروبي، وإلا فلن يفهمنا أحد، ومن ثم، فإننا، مثل أطفال محبين للاستطلاع يسألون آباءهم، سألنا أنفسنا (نحن الآباء المؤسسين للاتحاد الأوروبي) ما هذا الذي ابتدعناه؟

ولنا أن نتخيل الصعوبات التي صادفناها عندما حاول دعاة الاتحاد الأوروبي، والمتشككون في الوحدة الأوروبية، وغيرهم من الاتحادات السياسية المختلفة من 12 دولة أوروبية التعريف بالمخلوق الجديد. وأخيرا قررنا أن الاتحاد الأوروبي هو «اتحاد شعوب».

وإذ أنهكتنا المحاولة، تعين علينا أن نسكت الطفل المثير للأسئلة، لأننا صادفنا مزيدا من الصعوبات في محاولة الوصول للإجابة عن السؤال التالي: ما الذي نعنيه باتحاد شعوب؟

إن عولمة الاقتصاد، والحركة المتزايدة لرؤوس الأموال، والثورة التكنولوجية، وبخاصة في المعلومات، التي غيرت الهياكل الإنتاجية، وتسببت في البطالة البنيوية، وأجبرت الشركات على إعادة الهيكلة المستمرة - كل هذا خلق آفاقا جديدة. لقد أصبحنا بالفعل في قلب هذا العصر الجديد، وإن كنا مازلنا نشعر بوطأة الماضي، وأصبح المسرح معدا لظهور أنبياء نهاية الزمان، والكاشفين عن أسرار ما ستأتي به الألفية الثالثة، والرجعيين الذين يرغبون في إعادة التاريخ إلى الوراء بحثا عن يقينيات لا وجود لها.

ودون أن نقلل من قدر الآباء المؤسسين للجماعات الأوروبية الأولى، نستطيع أن نقول إن المهمات التي تصدوا لها في الخمسينيات والستينيات كانت أسهل. في البدايات الأولى، في زمانهم، كانت مثل السلام هي التي تشكل أوروبا، بعد أن كادت تدمرها حربان عالميتان خلال نصف قرن. لم يكن من الصعب الوصول إلى اتفاق على أن إنتاج الفحم والصلب، وهما المادتان الخام اللازمتان للحرب، يجب توحيده في هيئة مشتركة واحدة «الجماعة الأوروبية للفحم والصلب»، والاتفاق كذلك على أن الطاقة الذرية، وهي مصدر الخطر الجديد على السلام، يجب أن توضع تحت إشراف هيئة أخرى (الجماعة الأوروبية للطاقة الذرية).

وحيث إن هاتين المؤسستين أسستهما ست دول متجانسة إلى حد معقول، فإن تبني سياسات مشتركة حول القضايا المذكورة أعلاه كان أمرا سهلا، كما كان من السهل تقبل اقتراحات محددة لعلاج المشكلات المطروحة. بل إن التهديد الشيوعي - «الدولة الشمولية» - جعلت المهمة أكثر سهولة، هذه العوامل جميعا جعلت من الممكن العمل وفقا للمنهج الوظيفي لجان مونيه: تقدم خطوة واحدة للأمام عندما يكون الوقت مناسبا.

غير أن هذا النهج لم يعد من الممكن تطبيقه الآن، بسبب الطبيعة المركبة، والعمق، والمدى الذي بلغه اتحاد يضم الآن خمسة عشر بلدا. في أثناء التطور فوق القومي لمجموع دولنا القومية، أصبحت الديمقراطية النيابية تفتقر إلى المعايير وقواعد العمل اللازمة. وستصبح عملية اتخاذ القرار أكثر تعثرا وإزعاجا عندما يتوسع الاتحاد ليضم، كما هو متوقع، 25 بلدا.

بمنظور التطورات التاريخية، نعني تلك التي أحدثتها الخطوات الكبيرة بصدور القانون الأوروبي الموحد «السوق الداخلي» وإبرام معاهدة ماستريخت «التي تتضمن الوحدة النقدية الأوروبية»، مع التحديات التي أمامنا، كيف يمكن تحديد المعالم والتعريف بمشروع أوروبا التي نريدها؟ كيف يمكن الإجابة عن الأسئلة المهمة التي تركناها معلقة: ماذا نعني باتحاد الشعوب، ولماذا نحن بحاجة إليه؟

وإقرارا بأن التوسع عملية لا رجوع عنها، أصدر المجلس الأوروبي «أجندة 2000» وهي وثيقة تشرح التحديات الثلاث التي تواجه الاتحاد الأوروبي

EU. أولا، حيث إننا نتوقع انضمام ملايين جديدة من «المواطنين» الأوروبيين، تقرر الوثيقة أننا يجب أن نتبنى سياسة زراعية مشتركة وندعمها، كما نتبنى وندعم سياسات مشتركة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية. ثانيا، يجب أن نحدد معايير دقيقة لقبول أعضاء جدد في الاتحاد الأوروبي، تقوم على الالتزام بالمبادىء الديمقراطية، وحكم القانون، وقدرة الدول المعنية على إدماج التشريعات الأوروبية القائمة في صلب نظامها السياسي الداخلي. وثالثا، يجب أن نتبنى إطارا لنظام مالي يتيح للدول الأوروبية أن تتماشى مع القفزات التنموية الجارية في الاتحاد الأوروبي، على نحو لا يترتب عليه إفلاس ميزانياتها.

وما يشغلني اليوم ويثير اهتمامي، هو هل يستطيع القادة الأوروبيون، الواقعون عادة تحت ضغوط البرامج «الانتخابية» القومية، أن ينفذوا هذه الالتزامات بأمانة؟.. وأعتقد أنه حتى لو نفذت بنود أجندة 2000 بجملتها، فإن ثمة أشياء ستظل مفتقدة. ففي التحليل الأخير، ينبع عدم الرضا من حقيقة أننا لم نجب بعد عن السؤال الأساسي، فلا يزال مجموع أجزاء الأجندة قاصرا عن توضيح ماهية أوروبا التي نريدها، وبتعبير آخر، لا تمدنا أجندة 2000 بتعريف واضح لمشروع أوروبي، بالتحديد في إطار العولمة.

تحديات العولمة

في رأيي، إن جوانب العولمة الأكثر صلة بموضوعنا، التي تتفاعل مع، وتؤثر في، جميع الحقائق القومية والإقليمية، هي ثورة المعلومات وعولمة النظام الاقتصادي، وعولمة النظام المالي.

تتفاعل هذه العناصر، وتؤثر تأثيرا كبيرا على الساحة الوحيدة التي تطبق فيها الديمقراطية النيابية، والسيادة القومية. والهوية: نعني الدول القومية. ومن الملاحظ بوضوح أن مساحة المناورة في مجال سياسة الاقتصاد الكلي قد انكمشت إلى حد كبير. يمكن أن نتجادل حول مستويات الدخل والإنفاق اللازمة لتحقيق توازن معقول، ولكن من الصعب أن ننكر الحاجة لتحقيق مثل هذا التوازن. وتذكرنا أسواق رأس المال بشكل مثير بعدم الثقة في تلك السياسات الاقتصادية التي تفشل في الحد من التضخم أو السيطرة على العجز. والخلافات بين اليمين واليسار السياسي تعتمد، أولا وقبل كل شيء، على كيفية التلاعب بالدخل والإنفاق لتحقيق النتائج المرجوة للاقتصاد الكلي، وليس على النتائج نفسها.

تعاني البنية الحقيقية للدولة القومية أزمة ذات مخرجين. نشاهد أولا تحركا نحو بنية «فوق قومية»، كما هو الحال في العلاقات بين الاتحاد الأوروبي والكتلة التجارية لأمريكا اللاتينية، Mercosur، وذلك لاكتشاف إجابة شافية لتحديات العولمة والاقتصادات المفتوحة، وهي أزمة تدفعنا إلى أن نتواءم مع الحقائق الجديدة وإلا ووجهنا بنتائج أكثر دراماتيكية.

وفي الوقت نفسه، نرى حركة نحو بنية «في الإطار القومي»، تتمثل في توزيع داخلي جديد للسلطة في الدولة القومية. وحين نتحدث عن الدور الجديد للدولة فإننا نعني الدور الجديد الذي ستلعبه القوى السياسية التمثيلية. فاليوم، لا نكاد نجد أحدا يحن للدولة الشمولية التي تلفظ أنفاسها الأخيرة، بل إن الأغلبية لا ترحب بالدولة الشعبوية «المتضخمة» التي تتدخل في كل شيء. فالشعوب لم تعد تحتمل الكيانات البيروقراطية الثقيلة الغليظة، والسياسيون يعون هذا جيدا. وفي الوقت نفسه، نرى القطاع العام ينسحب من الأنشطة الاستثمارية المبادرة لعدم توافر الكفاءة. وأصبحت الخصخصة أكثر من مجرد اتجاه، وفي هذا المناخ يتحدد الدور الذي تلعبه السياسة في

الواقع الجديد. والجدل الحاد الدائر حول دور الدولة سيفضي إلى تحديد الفرص المتاحة للناس، ومستقبل القطاع الخاص، وما يسمى بدولة الرفاه، واستمرارية نموذج التنمية والتطوير الاقتصادي في إطار ثورة المعلومات، وحينئذ يمكن أن تتوافر ظروف مواتية لتقوم دولة رشيقة قوية تنافس دولة ضعيفة فاقدة الحيوية.

إن حركة رؤوس الأموال هي السمة الأكثر وضوحا للوضع الدولي الراهن، تدور الأموال في العالم وكأنما هي في نادي قمار عالمي حيث لا توجد قواعد ملزمة، والأعمدة الثلاثة التي قام عليها النظام المالي العالمي منذ الحرب العالمية الثانية (صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ونظام اتفاقات الدفع) انهار ثالثها، وأصبح النظام المالي العالمي مضطربا على نحو متزايد. وعموما، فإن إجراءات السيطرة المالية والاقتصادية التي تطبقها الدول على الصعيد الوطني تصبح عديمة الفعالية بل وتؤدي إلى نتائج عكسية. وقد كان للأزمات المالية العالمية التي تفجرت أخيرا آثار مروعة، ولم يظهر تيار يواجه المواقف بالقوة الكافية، وقادر على تقديم إصلاحات معقولة على الصعيد الدولي. تهدد الأزمة الآسيوية بالتحول من وباء عارض إلى مرض دائم، وعلى الرغم من أن الانهيار المالي الآسيوي كانت له آثاره المحسوسة في أمريكا اللاتينية وروسيا، وأثار عددا من القضايا والمشكلات والاحتجاجات، إلا أن هذا لم يترجم إلى اقتراحات محددة، وإذا كانت ما تسمى بدول المركز قادرة، في الوقت الراهن، على درء خطر الأزمة بغير عناء حيث إنها تلقي أعباءها على كاهل الدول الهامشية النامية، إلا أن معدلات النمو قد بدأت في الانخفاض بالفعل، ويمكن أن تحدث خسائر في الأصول إذا لم تصحح الأوضاع في المناطق التي ضربتها الأزمة.

وإذا كانت العولمة، كما أعتقد، تغير حقائق النظام الإنتاجي في المجتمع الصناعي، كما تغير السلطة السياسية على الصعيدين القومي والعالمي، وكذا العلاقات الاجتماعية. فما العمل في أوروبا؟

إن المشكلة التي تواجه القادة الأوروبيين لا تقتصر على مجرد التعبير بوضوح، والاستجابة لتحديات أجندة 2000، وهما أمران مرتبطان ارتباطا لا ينفصم، وإنما يجب أن نتفهم تماما هذه التحديات، ولن نتمكن من ذلك إلا إذا حددنا عناصر المشروع الأوروبي.

في الوقت الراهن، لم تحقق أوروبا إلا الوحدة النقدية، بينما لا توجد في الحقيقة أية سياسة اقتصادية. وعلى الرغم من الظهور المشجع للعملة الأوروبية الموحدة (اليورو)، فإن الافتقار إلى سياسة اقتصادية موحدة يمكن أن يعرض أوروبا عند حدوث أزمات اقتصادية في المستقبل لمخاطر صدمات اقتصادية متفاوتة وغير متماثلة، ونحن مجردون من الأدوات التي تمكننا من التعامل معها بكفاءة.

لا تزال المناقشات الدائرة حول توسيع الاتحاد الأوروبي تتعلق بمسائل مبدئية أكثر من تعرضها للحقائق، فليس ثمة من هو على استعداد للإجابة عن ثلاثة أسئلة بسيطة: من يجب أن يدخل الاتحاد؟ ومتى؟ وكيف؟ يقول البعض إن الجميع يجب أن يدخلوا، وأن ليس ثمة ترتيب بعينه لدخول أعضاء جدد، وأن هذا لن يكلفنا شيئا، وبعبارة أخرى لا يوجد من يريد أن يجيب بجدية عن هذه الأسئلة.

مرة أخرى، نكرر أن وضع تعريف وتحديد «لأوروبا» يظل المشكلة الأولى والأهم التي تكمن خلف نقائص أجندة 2000 وصعوبات تطبيقها، وإلى أن نعالج هذا الأمر سنظل غارقين في عدم الاقتناع وعدم اليقين. نحن بحاجة إلى أن نعرف ونحدد شكل التمثيل السياسي الذي

يتطلبه مشروع قادر على مواجهة تحديات العولمة.

إذا كان ما نحتاجه لتنمية هويتنا المشتركة والجمعية، في إطار الحدود الأوروبية، ومن أجل مواجهة تحديات العولمة هو مجالات فوق قومية، فلنشرع في تعريف وتحديد الشكل الجديد للتمثيل السياسي الذي يتطلبه مثل هذا المشروع. ثمة أربعة أوجه أساسية يجب التركيز عليها للتحرك في اتجاه يكمل المهمات التي بدأناها لدعم الوحدة الحقيقية لأوروبا: أولا، يجب أن نسأل أنفسنا إلى أي حد نرغب في المساهمة المشتركة في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية؟ ويفضي بنا هذا التساؤل إلى تحليل دقيق ومحايد للسياسات التي تشكل الدعامة الأولى للاتحاد الأوروبي، من أجل أن نقرر ما يجب إضافته أو الاستغناء عنه. وأثناء هذه العملية علينا أن نحلل محتوى السياسات المشتركة المتضمنة في معاهدة روما، والقانون الأوروبي الموحد، واتفاقية ماستريخت.

ثانيا: ما الذي نريد أن يكون مشتركا بيننا في مجال القانون والأمن من أجل أن نضمن استمرار تمتعنا بالحريات التي حققناها؟ أحيانا أستخدم المثال الصارخ التالي لشرح انشغالات الناس في هذا المجال: هل يمكن أن يفكر أحد مرشحي العمودية في هيئة ناخبين من خمسة آلاف شخص في الاستغناء عن حماية الشرطة المحلية أثناء أدائه في العمل العام؟ إن كل سلطة تمثيلية في الإطار الإقليمي ــ وهو ذات الإطار الذي يتمتع فيه الناس بحرياتهم ـــ يجب أن تضمن هذه الحريات من خلال الشرطة وإدارات تنفيذ القانون وفقا لنظامها القانوني.

ثالثا: ما الذي نريد أن يكون مشتركا بيننا في مجال السياسة الخارجية والدفاعية من أجل أن نضمن أن يكون الدور الذي نلعبه في العالم متوافقا مع واقعنا، من المنظور الاقتصادي، والتجاري، والثقافي؟

على الرغم من أن ثمة مناقشات لا تنتهي حول سياساتنا الخارجية والدفاعية المشتركة، فإننا يجب أن نعترف أننا لم نخط سوى خطوات قليلة في هذا الاتجاه، إن قوة الاتحاد الأوروبي الاقتصادية والتجارية ودوره المعتبر في التعاون الدولي لا تتسق على أي نحو مع أدائه السياسي الضعيف في عملية صناعة القرار على الصعيد الدولي. ولتحقيق التقدم في هذا المجال علينا أن نبني رصيدا لأعمال مشتركة في المجالات التي لنا فيها مصلحة بما في ذلك النهوض بأشكال من الفاعلية في المجالات الدفاعية. وتلقى الأحداث الجارية في كوسوفو أضواء على الطبيعة المتغيرة للنزاعات والسياسة الخارجية، نحن بحاجة لأن يكون للاتحاد الأوروبي مؤسساته القادرة على الاستجابة الجمعية لتحديات الدبلوماسية الجديدة.

رابعا: ما هي المؤسسات التي نحتاجها لكي تكون لنا أداة تنفيذية تتسم بالفاعلية، والشفافية، والديمقراطية؟ إن المشكلة المتعاظمة التي تتعثر فيها المناقشات حول الإصلاحات المؤسسية المطلوبة، هي أننا اعتبرناها مناقشات تدور من أجل المناقشة، متجاهلين غالبا تحديد أهدافها الواقعية العملياتية ومتجاهلين سمتها التنفيذية، وبالتالي، أعتقد أنه لا يمكن تحقيق تقدم في تشكيل الإصلاحات المؤسسية إلا إذا حددنا الإشكاليات السابق ذكرها للمشروع الأوروبي، وبمجرد أن نعرف المشروع الذي نريد تطويره معا، سيكون من الأسهل أن نحدد الأدوات والوسائل اللازمة لتحقيقه.

منذ مفاوضات اتفاقية ماستريخت، ونحن نواجه مشكلة اقتسام السلطة (تذكر ما ذكر أعلاه عن أزمة الدولة القومية) والإصلاحات المؤسسية

(تذكر عدم الرضا عن اختلال التوازن الديمقراطي)، تضخمت كل هذه المشكلات بسبب التوسع المرتقب والخلافات الحادة المتعاظمة حول حجم وتوزيع الاعتمادات المالية المطلوبة.

عندما أقترح إعادة التفكير في أوروبا، فإنني أحاول إحداث تغيير في الطريقة التي ننظر بها إلى الوضعية الراهنة، وإعادة ترتيب أفكارنا لتجنب إثارة مناقشات حول المؤسسات والبيروقراطية، في وقت لم تتضح فيه بشأن ما نريد أن ننجزه معا.

لقد اشتركت في عدد لا يحصى من اللقاءات التي تناقش المبدأ الشهير، مبدأ من يكون تابعا لمن، وهو المبدأ الذي ينادي بأن التشريعات لا يجب أن تطبق على الصعيد الأوروبي إلا إذا كانت أكثر فاعلية من التشريع على الصعيد القومي، ولم يحدث أبدا أن اتفقت الدول الخمسة عشر الأعضاء في الاتحاد الأوروبي على أي القضايا يجب أن تعالج بشكل مشترك، وأيها يجب أن تظل في اختصاص حكومات الدول الأعضاء وحدها.

وعندما نتفق على المجالات التي نريد أن نطورها معا، فإن المناقشات التي تدور حول الإصلاح المؤسسي سيكون لها معنى جديد، خاصة إذا أخذنا في الاعتبار أن طريقة أداء الديمقراطية النيابية التي اعتدنا عليها، لا يمكن أن تبطلها ديمقراطية الاتحاد الأوروبي، فالمواطنون الأوروبيون يستطيعون بسهولة أن يتابعوا ويراقبوا أداء المؤسسات التمثيلية على الأصعدة القومية والمحلية، ولكن لا تلبث الحيرة أن تتملكهم وهم يرقبون مؤسسات الاتحاد الأوروبي لأن رموزها مختلفة. ولنكرر ما هو واضح: على الجهات التنفيذية والتشريعية أن تقوم بدورها بالطرق الأكثر وضوحا للناس.

إن أكثر ما يثير قلقي، هو موضوع توزيع السلطة، وفي رأيي أن السؤال الأول في المشروع الأوروبي ليس هو كمية السلطة التي تنتقل إلى المركز، ولكن نوعية المهام التي تضطلع بها كل دولة لتكون أكثر فاعلية. وفي هذا الصدد، فإن معيار الفاعلية هو تقوية الالتحام والوحدة على نحو يشعر كل منا بأنه جزء من المشروع المشترك. ويجب ألا يلقى هذا المعيار كثيرا من المهام على المركز الأوروبي في بروكسل، وإنما يجب أن توكل إليه مهمات التلاحم. لن تستطيع السياسة النقدية أن تحسن الأداء على المدى البعيد إلا إذا اتبعنا سياسة اقتصادية مشتركة. كذلك، لن تستطيع أعمال البحث والتطوير المبعثرة والمتكررة أن تمكننا من أن نلحق بالقدرات التكنولوجية الأمريكية، وسياساتنا الخارجية المشتركة ستكون دون مستوى التوافق مع سياساتنا التجارية، إذا كانت السياسات التجارية تصاغ في بروكسل، بينما السياسة الخارجية تصاغ في الدول الأعضاء.

إذا لم نحدد نموذج الديمقراطية الأوروبية الذي نريد أن نمنحه لشعوبنا، والمهمات التي نريد أن ننهض بها معا، مع احترام هويات شعوبنا، فإننا لن نستطيع أن نعالج بنجاح مشكلات البطالة والبيئة والثقافة. إن شعوبنا تتطلع لرؤية قادة سياسيين عندهم مشروع لأوروبا، غير أن صانعي السياسة الأوروبيين لم يحددوا بعد هذا المشروع. وأرى أنه لا يجب أن نعود إلى الماضي فنعلن أننا محبذون للمشروع الفيدرالي، أو الكونفدرالي، بل الأحرى بنا أن نتطلع للقرن الحادي والعشرين، وأن نعطي مضمونا لاتحاد شعوب، دون أن نحيي المساجلات القومية والوطنية للقرن التاسع عشر. إن استطعنا ذلك، فإننا سنخطو خطوات كبيرة للأمام من أجل بناء أوروبا جديدة، أوروبا قادرة على أن تحقق مكاسب كبيرة من الفرص التي تتيحها العولمة.

نحو اتحاد أكثر اكتمالا

أحدث اتفاقات صاغت معظم السياسات التي يشارك فيها الأوروبيون هما: اتفاقية ماستريخت الموقعة عام 1992، واتفاقية أمستردام الموقعة عام 1997. وثمة كثير من السياسات الاقتصادية للاتحاد الأوروبي حظيت، أخيرا، باهتمام وسائل الإعلام، وتدابير أخرى أقل شهرة، وإن كانت تؤثر في الحياة اليومية للأوروبيين على نحو لا يقل دراماتيكية عن العملة الأوروبية الموحدة (يورو).

والبنود التي روجعت في سياسات التوظيف والسياسات الاجتماعية في الاتحاد الأوروبي تطبيقا لاتفاقيتي ماستريخت وأمستردام يمكن أن يكون لها أكبر الآثار على حياة الأوروبيين. فقد نصت اتفاقية أمستردام على أن يكون خلق فرص عمل جديدة سياسة رسمية للاتحاد، وحددت استراتيجية مشتركة للدول الأعضاء لتحسين التدريب المهني وتقديم مساعدات لإقامة مشروعات اقتصادية. والسياسات الاجتماعية التي نصت عليها اتفاقية ماستريخت - حرية الانتقال، ظروف عمل أفضل، أجور عادلة، حماية التأمين الاجتماعي، المساومة الجماعية، المساواة بين المرأة والرجل في التعامل، الرعاية الصحية، وتوفير الأمن في أماكن العمل - هذه السياسات أصبحت متضمنة في تشريعات الاتحاد الأوروبي طبقا لاتفاقية أمستردام، بعد أن صادقت عليها حكومة حزب العمال في المملكة المتحدة.

ومن بين التطورات التي جرت في السياسات المتعلقة بالشؤون الداخلية والعدالة: خلق هيئة للشرطة الأوروبية Europol، وقوة بوليسية للاتحاد الأوروبي. صحيح أن دوريات هذه القوة لا تطوف في شوارع لندن أو برلين وهي تحمل البنادق والقيود الحديدية، ولكنها تفضل — مثلا — إقامة مكاتب لها في لاهاي لرصد وتعقب الأنشطة غير المشروعة، مستخدمة قاعدة بيانات كمبيوترية، من أحدث وأكفأ ما عرفته القارة الأوروبية في هذا المجال، وتوفر المعلومات التي تخزن في هذا الموقع المركزي وتتابع نشاط مهربي المخدرات ولصوص السيارات وتجار الرقيق المحدثين ومهربي المواد الذرية والإرهابيين (هذا العام الأخير). الأمر الذي يمكن ضباط هيئة الشرطة الأوروبية من تنسيق جهود هيئات الشرطة الوطنية في الدول الأعضاء في مكافحة الجريمة.

وأصبح التنقل الحر للمواطنين الأوروبيين من دون جوازات سفر، أصبح حقا يكفله القانون بعد أن أقر الاتحاد اتفاقية شنجن Schengen في أمستردام. ويرى النقاد أن ثمة قصورا في رقابة الشرطة الوطنية على الأشخاص الذين يعبرون الحدود، ولكن المحبذين للتنقل الحر يرون أن الحدود المفتوحة تسهل مهمة الضباط والموظفين المعينين في إجراء عمليات رقابة أو تفتيش انتقائي فعالة ـ «انسحبت بريطانيا وإيرلندا من هذه الاتفاقية عام 1997، ولاتزال الدولتان غير راغبتين في التخلي عن الرقابة على حدودهما بطريقتهما الخاصة».

وعلى الرغم من التقدم الذي تحقق في صياغة كثير من السياسات الأوروبية المشتركة، إلا أن شؤون الدفاع والسياسات الخارجية لاتزال أمورا من الصعب الوصول فيها إلى صياغات قاطعة. وفي ماستريخت استحدثت «السياسة الخارجية والدفاعية المشتركة»، كشبكة تربط رجال الدولة المسؤولين عن صياغة قرارات الاتحاد الأوروبي الخاصة بالشؤون الدفاعية والسياسات الدولية. كذلك منح المسؤولون في الاتحاد الجناح العسكري للجماعة الأوروبية، المعروف باسم اتحاد أوروبا الغربية ـ منحوه مهمة تنفيذ قرارات وعمليات الاتحاد التي تتضمن شؤونا دفاعية. منذ ماستريخت، حقق الاتحاد الأوروبي بعض النجاح في صياغة سياسة خارجية مشتركة، وفي هذا الصدد يشير المسؤولون، بفخر، إلى فرض عقوبات اقتصادية على إيران ردا على الحكم بالموت على الكاتب سلمان رشدي، وقرار الاتحاد بإرجاء اتفاقية المشاركة مع موسكو بعد الغزو الروسي للشيشان.ورغم ذلك، فإن الإخفاقات فاضحة، وأبرز مثال على ذلك ما يؤكده المنتقدون من أن الاتحاد فشل في الإقدام على عمل لإيقاف التطهير العرقي في البوسنة - إلى أن أخذت الولايات المتحدة الخطوة الأولى. واستخدام القوة العسكرية لتنفيذ أو دعم السياسة الخارجية أمر غير هيّن، (هذا إن وجدت هذه السياسة أصلا)، ولم تستخدم لتنفيذ سياسة دفاعية أوروبية إلا نادرا، بل إن ذلك لم يحدث في الواقع إلا مرة واحدة، وذلك من خلال الدور الذي قام به اتحاد أوروبا الغربية لفرض العقوبات في البوسنة. ويأمل الأوروبيون في أن يفضي تنفيذ الشروط الأساسية لاتفاقية أمستردام ـ تعيين مندوب سام للشؤون الخارجية والدفاع، وإعطاء هذا المسؤول وحدة للإنذار المبكر وجهازا للتخطيط السياسي ـ إلى أن تكون للسياسة الخارجية والدفاعية المشتركة أداتها الفاعلة والقادرة. غير أن القرار الخاص بتعيين هذا المندوب (أو هذه المندوبة) لايزال يجري ترحيله مرة بعد أخرى في اجتماعات مسؤولي الاتحاد الأوروبي. وفي الوقت الراهن، يبدو أن ثمة من يتربص لعرقلة التقدم في مجال السياسة الخارجية والدفاعية المشتركة، بينما المسؤولون في الاتحاد مشتبكون في مصارعة توسيع الاتحاد وتمويله. والحق أنه اشتباك مع مستقبل سيطرة الاتحاد على ذاته.

فيليب جونزاليز

الاتحاد: المجموع والمكونات

بقلم: ستانلي هوفمان*

تتلخص الأهداف الأصلية للوحدة الأوروبية في تحقيق السلام والازدهار: لا حروب جديدة بين الدول المشاركة، وخاصة بين فرنسا وألمانيا، وكذا تحقيق الوفرة والرفاه المشترك. لقد تحقق الهدف الأول، ومازال الهدف الثاني في سبيله للإنجاز، وإن يكن في ظروف جديدة تماما. بدلا من إعادة بناء المجتمعات الصناعية، فإن أوروبا يجب أن تلج مجتمع الخدمات وتكنولوجيا المعلومات. وتواجه القارة تحديين هائلين، الأول هو البطالة، والثاني هو الأزمة الديموجرافية الناجمة عن زيادة نسبة المسنين، وما يترتب عليها من رفع تكلفة الرعاية الصحية والمعاشات. وفوق كل هذا، تأتي العولمة التي تقلل نسبة خصوصيات القوميات الأوروبية، وتحجم صلاحيات العمل السياسي على الصعيدين الوطني والأوروبي، وذلك بسبب استقلالية السوق عن الإرادات الوطنية.

أضف إلى ذلك، أن الأساليب الأصلية للمشروع الأوروبي لم تعد تتمتع بالصلاحية نفسها كما كانت، فالنهج البراغماتي الذي أرساه جان مونيه عند البدء ترك الشكل والآفاق النهائية لأوروبا ـــ عن قصد ـــ مفتوحة وغير محددة. كان التقدم يتحقق خلال فعاليات الديمقراطية، ولكن مع توسع الأطر والمؤسسات التشريعية والقانونية للاتحاد الأوروبي لتغطي بلادا ومجالات متزايدة، تصبح الاستراتيجية حمالة الأوجه غير مرغوب فيها، ونحن اليوم بصدد تناقضات صارخة ناجمة عن سعي الحكومات لحماية ما تبقى من سلطتها والحفاظ على شيء من حرية المناورة، بينما تشارك هذه الحكومات في نظام لنوع مجمع سيادة مشتركة وأنشطة منسقة.

بعبارة أخرى، يحتاج الاتحاد الأوروبي إلى تحديد مجموعة جديدة من المهام وإعادة النظر في المؤسسات الديمقراطية، وعلى الأعضاء أن يحسموا أمرهم إن كانوا يريدون تحقيق «سلطة مدنية» لأوروبا تقتصر سياساتها الخارجية على الشؤون التجارية، وتوكل سياساتها الدفاعية لحلف الناتو (أي الولايات المتحدة)، أو أن تكون ثمة سلطة أوروبية كاملة، لها دبلوماسية وسياسة دفاعية واحدة، ويبدو أن دول الاتحاد تسير خطوة خطوة في اتجاه تحقيق الاختيار الثاني، حيث يجب أن تكون المهمة داخل أوروبا هي المواءمة بين الكفاءة والقدرة على المنافسة في المجال الاقتصادي مع مراعاة معتبرة للبعد

---

* ستانلي هوفمان، مدير برامج دراسات فرنسا المعاصرة في مركز ميندا دي جونزبرج للدراسات الأوروبية ـــ جامعة هارفارد وعضو في هيرز ترير فوريزبوليس.

الاجتماعي (لأن مراعاة البعد الاجتماعي ضرورة لتحقيق العدالة، وكذلك فإن عدم مراعاته يمكن أن يفضي ــ على خلاف أمريكا ــ إلى انفجارات اجتماعية). وفي هذا الصدد، فإن مشكلة عدم مرونة سوق العمل أقل من مشكلات العقبات العديدة التي تقف في وجه المبادرات الاستثمارية، وغياب حراك قوة العمل، وكذلك مشكلات التداخل المتعاظم للاختصاصات والصلاحيات التي لها من يدافع عنها بشراسة.

وتتطلب تلك المهام إجراء تغييرات مؤسسية شاملة وعميقة تهدف بالدرجة الأولى لخلق «مجال حقيقي للعمل الأوروبي».

ذلك أن كل ما نتوفر عليه الآن مجتمع مدني أوروبي غير متوازن (حيث حقق النشاط الاقتصادي حضورا عبر قومي أكثر من العمل أو البحث العلمي) وكذا خلق مجالات للعمل الوطني. ويجب أن تكون الانتخابات للبرلمان الأوروبي لا على أساس وطني، وإنما أن تكون اختيارا بين فئات وتصنيفات عبر قومية من المرشحين (مرشحين عبر قوميين). وعلى الرغم من كثرة عدد اللغات الأوروبية فإنه يجب أن تجري مناقشات أكثر فأكثر حول القضايا الأوروبية في الصحافة وعلى شاشات التلفزيون والإنترنت. وبمرور الوقت، على المؤسسات المركزية أن تتطور في اتجاه نظام برلماني تصبح فيه المفوضية الأوروبية مسؤولة أمام البرلمان، ويصبح المجلس الأوروبي بمثابة مجلس شيوخ، وربما يتشكل حينذاك مجلس ثالث يضم مندوبين عن البرلمانات الوطنية.

ويمكن أن تفضي عملية إعادة التشكيل هذه إلى ما أسماه فيدريكو مانشيني، القاضي الإيطالي في محكمة العدل الأوروبية: «اتحاد الدول الأوروبية»: وهي دولة عبر قومية وإن تكن ليست أمة واحدة، حيث ستظل بقية الأمم والكيانات الوطنية والأوروبية القديمة. وسيكون هذا الكيان بناء دوليا مبتكرا، ففي الماضي كان على الاتحادات الفيدرالية ــ لكي تنجح ــ أن تقوم إما على قومية واحدة أو على مشروع لتحقيق هوية قومية واحدة ــ وإلا فإنها ستكون معرضة للتحلل «كما في الاتحاد السوفييتي ويوغسلافيا»، وإن كان ثمة مشروع اتحاد أوروبي يحاول تقليد الولايات المتحدة الأمريكية، فإن ذلك سيلقى معارضة من دول أعضاء «مثل فرنسا وبريطانيا» تقوم فيها الدولة بدور فعال في إمداد مواطنيها بالخدمات المادية والإشباع السيكولوجي، ومن ثم، فسيكون الاتحاد المنشود دولة خفيفة Light State، دولة لها موارد محدودة وعدد قليل من الموظفين والمسؤولين، غير أن «اتحادا لدول قومية» ـ حسب تعبير الرئيس السابق للاتحاد الأوروبي «جاك ديلور» سيكون ابتكارا حقيقيا ويمكن أن يكون كافيا للنهوض بمهماته المتنوعة.

لمزيد من المعرفة

من أجل تحليل جيد لفشل الاتحاد الأوروبي في خلق سياسة خارجية ودفاعية مشتركة، انظر جان زيلونكا، **Euro-paralysis: why Europe is unable to ACT in international polities (New York: st. Martin's Press 1998).**

حيث يلاحظ زيلونكا أن الأوروبيين أحيانا لا يؤيدون سياسات الاتحاد الأوروبي لأنهم يشعرون أنهم لا يسيطرون حقيقة عليها. ويرى أن الاتحاد الأوروبي يحتاج إلى تحديد خيارات استراتيجية عن هدفه، ووظيفته، ومجاله الإقليمي، ومن أجل رؤية معارضة، انظر كارمن سميث:

The Making of EU foreign policy: The case of Eastern Europe (New York: st. Martin's Press 1999)

يقول سميث إن الاتحاد الأوروبي لديه مشروع لسياسة خارجية مشتركة تجاه ست دول من بلدان الكتلة الشرقية السابقة - بلغاريا، جمهورية التشيك، المجر، بولندا، رومانيا، سلوفاكيا — وأن الاتحاد الأوروبي حاليا في وضع ملائم ليشمل أوروبا الشرقية في خططه من أجل التوسع.

يعتقد المتفائلون أن التوسع والاندماج الأوروبي سينشر السلام والتناغم في القارة، إلا أن مارتين فلدستين يحذر من أن أوروبا ذات الثلاثمائة مليون مواطن والقدرة العسكرية المستقلة، قد تكون معرضة لقيام الصراعات بسهولة، وذلك في مقالة:

"The EMU and international conflict" (foreign Affairs, November/December 1997).

" EMU: Taking a Gable" (International Affairs, January 1998)

يرى بيير جاك أن الاتحاد النقدي محفوف بالمخاطر لكنه في التحليل الأخير، مغامرة جديرة بالاهتمام، كما يحث الدول الأعضاء على بذل ما يستطيعون من جهود لإنجاحه. وتتضمن المهام التي قد تواجه الدول الأعضاء، اجتياز إصلاحات بنيوية، والعمل على تنسيق السياسات الاقتصادية على نحو أفضل، يرى تيموثي جارتن آسن في مقاله:

"Europe's Endangered Liberal Order" (Foreing Affairs, March/April 1998)

إنه بعد عام 1989، ركز القادة الأوروبيون جهودهم على التوحيد الفيدرالي لغرب أوروبا، بينما تجاهلوا شرق أوروبا، والآن يجب على النظام الليبرالي الأوروبي أن يسعى لمد الليبرالية والأمن من الغرب إلى الشرق.

ناقش العديد من الخبراء قضايا أساسية مؤثرة في الاتحاد الأوروبي، وذلك في مجموعة من المقالات والمناقشات بعنوان:

Should the EU be redesinged? (Brussels: Philip Morris institute for public Research, 1999)

يشارك فيها مارتي أهتيساري، رئيس فنلندا، جون بروتون، رئيس وزراء إيرلندا السابق، فرانسيسكو روسوليلو الرئيس السابق للاتحاد الفيدراليين الأوروبيين، جورج فاسيليو الرئيس السابق لقبرص.

على غرار الجولة الموجهة في أروقة البيروقراطية الأوروبية، يمكن أن تجد في **Europa** واحدة من مواقع الشبكات الرسمية لوفد مفوضية الاتحاد الأوروبي إلى الولايات المتحدة، ومن يستعرض الإنترنت سيجد روابط مع كل الوكالات المتخصصة للاتحاد الأوروبي، وأيضا معلومات أساسية في القضايا الرئيسية مثل قضية التوظيف، والحقوق المدنية، والوحدة النقدية.

للاتصال بمواقع الشبكات المناسبة، وأيضا للحصول على فهرس شامل لمقالات **Foreign policy** المرتبطة بهذا الموضوع.. يمكن ذلك من خلال: **www.foreignpolicy.com.**

الأعراق ووسائل الإعلام والمجتمع المدني

بقلم: رونالد ن. جاكوبز

ترجمة: بدر الرفاعي

يتناول هذا المقال الجدل النظري الدائر بشأن منابر الاتصال من خلال النظر من خلال منشور العرق ووسائط الإعلام. ويفسر تاريخ المنابر العلنية السوداء في الولايات المتحدة لماذا لا يمكن لاستراتيجيات الدعاية للجماعات المهمشة أن تركز على الإعلام «السائد» والمنابر المسيطرة وحدها، بل إن من الضروري أن يشمل ذلك مشاركة فعالة في - بل وزرع - منابر علنية بديلة. لقد كان للصحافة السوداء، تاريخيا، ثلاث وظائف مهمة: توفير ساحة للجدل والتطوير الذاتي، ومراقبة الصحافة السائدة، وزيادة التعريف بالسود في المجتمع المدني الأبيض. ولأن تسامح وشمولية المجتمع المدني تتحقق في ظل أجهزة إعلام متباينة ومتنوعة، فإن الأزمة الحالية التي تشهدها الصحافة السوداء هي أزمة للمجتمع المدني الأمريكي. وعلى العاملين في الإعلام «السائد» تقع مسؤولية التصدي لهذه الأزمة بالإقرار بأهمية المنابر الإعلامية البديلة وزيادة اندماجها في الصحافة الأفرو - أمريكية.

العنوان الأصلي للمقال:

Race, Media and Civil Society ونشر في مجلة International Sociology عدد سبتمبر 1999.

مراجعة : زكي خبيز

في 28 مايو 1997، مات جون سنجستاك عن عمر يناهز الرابعة والثمانين. وعلى مدى ستة عقود كان سنجستاك مالكا ورئيسا لتحرير صحيفة شيكاغو دفندر Chicago Defender، أهم وأشهر الصحف الأفرو ــ أمريكية على الإطلاق. وقد كان رحيل سنجستاك حدثا مهمًا في عالم الصحافة الأمريكية، حيث كتب برنت ستابلز نعيا في النيويورك تايمز في حوالي 1400 كلمة، ناعتا سنجستاك بـ «شارلز فوستر كين الصحافة السوداء». لكن موت سنجستاك لم يكن أكثر من مجرد بداية للقصة. ففي ديسمبر 1997، قامت شركة نورثرن ترست، المتصرفة في ممتلكات سنجستاك، بعرض الصحيفة للبيع، لتسديد ضرائب عقارية مستحقة قيمتها 4 ملايين دولار. وبعد الاتصال بكل من المستثمرين الأفرو ــ أمريكيين والبيض، فإن البنك لم يتعهد إلا بالسعي لتحقيق «قيمة عادلة لحملة الأسهم». وقد ترتب على هذا أزمة في أوساط الصحافة السوداء، مع إصرار الأغلبية على الإبقاء على الصحيفة بيد الأفرو ــ أمريكيين. وفي كلمة المحرر، أعلنت شيكاغو دفندر بأنه ليست هناك نية لبيع الصحيفة، وأن أسرة سنجستاك قد تعهدت بالحفاظ على الصحيفة وأن التقارير حول بيعها «مختلقة تماما». وبعد عدة شهور، أبعدت الأسرة نورثرن ترست عن الإشراف المالي على الممتلكات، لتضع حدا للمخاوف المتعلقة باحتمال وقوع الصحيفة تحت سيطرة البيض.

ما الذي يعنيه بقاء شيكاغو دفندر بيد الأفرو ــ أمريكيين؟ السؤال، في اعتقادي، يصب في قلب الجدل الحالي بشأن المجتمع المدني والمنبر العلني، وبصفة خاصة أولئك الذين يؤمنون بأن المجتمع المدني يقوم على تعددية وسائل الإعلام، ولاعقلانيتها في بعض الأحيان، ونضاليتها في غالب الأوقات، وتناولها للمسائل الثقافية بقدر ما تتناول القضايا السياسية. وعندما قدم هابرماس (1989) مفهوم المنبر العلني منذ ما يقرب من أربعين عاما، كان معنيا بتفسير لماذا تغير النموذج المعياري للسياسة خلال القرنين 17 و18، إلى حد حلول النقاش العام المفتوح محل سرية النقاش البرلماني. وقد فسر هذا التحول في السياسة باعتباره نتيجة للتطور الذي طرأ على المنبر العلني البرجوازي، الذي يرى فيه منبرا لأشخاص مخصوصين يتجمعون بصورة علنية، يطالبون بإبعاد منبر الخطاب العلني عن تنظيمات الدولة ويطالبون الدولة بإشراكهم في الحوار المتصل بقضايا الشرعية السياسية والاهتمامات العامة. وفي رؤيته للمنبر العلني كفضاء سياسي، بالأساس، يمكن أن يسهم في تحدي السلطات العامة والمشاركة فيها وتنظيمها، يؤكد هابرماس على الاتصال المباشر، والخطاب العقلاني والساحة السياسية الواحدة.

وإذا ما اقتصر الأمر على تجاهل هابرماس للمجالات العلنية غير البرجوازية وغير السائدة والأكثر توجها نحو الهوية، فإن القول بتعددية المنابر العلنية لا يمثل تحديا ذا شأن، لأن الاعتراف بهذه التعبيرات العلنية الأخرى من شأنه أن يقدم صورة أكثر تفصيلية لمجتمع مدني أكثر تمايزا. لكن التحدي الذي تطرحه المنابر العلنية التعددية أكثر جذرية من هذا، لأنه يفترض أن المجتمع المدني ذو طبيعة تمزيقية لايمكن التغلب عليها عبر التوجه نحو مجال علني ذي طابع اندماجي (Keane, 1995:8). وقد صرح هابرماس (425 :1992) بالشيء نفسه تقريبا في أحد المؤتمرات التي عقدت في 1998، عندما كتب يقول «ستظهر **صورة مختلفة** إذا أقر المرء **منذ البداية** بالتعايش بين المنابر العلنية المتنافسة وأخذ في اعتباره آليات عمليات الاتصال المعزولة عن المنبر العلني السائد».

وإذا كانت هناك، على الإطلاق، حالة تدلل على وجود منابر علنية منفصلة منذ البداية، فلاشك أن هذه الحالة هي التاريخ الأفرو ــ

أمريكي. فالمنابر العلنية المنفصلة ومؤسسات الاتصال تشكلت في أوساط الأحرار السود في أوائل القرن السابع عشر، وتشمل أبرز الأمثلة جمعية الاتحاد الأفريقي في نيوبورت، برود إيلاند (1780)، والجمعية الأفريقية الحرة بفيلادلفيا (1787)، والأسقفية الميثودية الأفريقية، وكنيسة صهيون الأسقفية الميثودية الأفريقية، والمدرسة الخيرية المقدسة، والمدرسة الأفريقية الحرة رقم 2. ومن هذه المنابر العلنية المنفصلة للعمل الاجتماعي جاءت الصحافة السوداء، والتي تأسست في عام 1827. وقد صدرت حوالي 40 صحيفة سوداء مختلفة على الأقل قبل نشوب الحرب الأهلية، وكان هناك إقرار عام، بين الزعماء الأفرو ـ أمريكيين، على أن تأسيس صحافة قومية سوداء كانت القضية التالية الأكثر إلحاحا..

ولا يعتبر تاريخ المنابر العلنية الأفرو ـ أمريكية والصحافة السوداء منعزلة أو استثنائية، حيث تشير العديد من الدراسات التاريخية إلى وجود التجمعات غير البرجوازية وغير الذكورية، بل و«غير الرسمية». ومنذ القرن الثامن عشر كانت هناك المنابر المبتذلة، وتجمعات للنساء ومجموعة كاملة من المنابر العلنية التي كانت تجذبها «المهرجانات العامة» بأكثر مما تجذبها الخطب الجادة. وتزامن مع حركة النساء في سبيل الحصول على حق التصويت، في القرن التاسع عشر، ظهور صحف نسائية قومية وإقليمية ومحلية توضح مبادئ حقوق المرأة وتقدم رؤية لنوع جديد من تنظيم ووسائط الاتصال (Steiner, 1993). وقد تألفت صحافة الطبقة العاملة مع نهاية القرن من مئات الصحف بعشرات اللغات (Bekken, 1993). وما تشير إليه هذه المنابر البديلة ووسائل الاتصال البديلة هو أن التفسير الذي يقدمه هابرماس لصعود المنبر العلني البرجوازي «معالجة تجريدية للغاية مستمدة من الثقافات السياسية التي كانت قد تشكلت بالفعل مع نهاية القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر» (Eley, 1992: 307). فالمجتمعات المدنية الحقة تشتمل دوما على منابر جمعية وجزئية.

لقد كانت هناك حاجة تاريخية قوية، ذات أبعاد ثلاثة، للصحافة السوداء: 1ـ توفير وعاء للحوار والتطور الذاتي، 2ـ ضبط الصحافة السائدة، 3ـ زيادة اهتمام المجتمع المدني الأبيض بالسود. فلم يكن من الممكن للأفرو ـ أمريكيين أن يركنوا إلى الصحافة «السائدة» آنذاك لنشر الصوت الأسود أو تبني قضايا السود دون تفضل. وقد كانت معظم صحف الشمال ضد العبودية ومع العتق، لكن مواقفها كانت مراوغة من خلال الترويج لحكايات تفضل السياسيين البيض على دعاة الإلغاء من السود. وحتى في تعاملاتهم مع حلفائهم من دعاة الإلغاء البيض، غالبا ما كانت أصوات الزعماء السود معزولة ومهمشة، وهو ما كان يعبر عن الحاجة الملحة إلى أوعية سوداء مستقلة للتعبير. وفي الوقت الذي كانت فيه الصحافة البيضاء المنادية بالإلغاء تتلقى الجانب الأكبر من التبرعات المبكرة من الأفرو ـ أمريكيين، فقد تراجعت، في نهاية المطاف، تغطيتها لأخبار السود لصالح التقارير المتعلقة بأنشطة دعاة الإلغاء من البيض، وقد نشط وليام لويد جاريسون بهمة لإحباط المحاولات الأولى لتأسيس صحف سوداء، مثل الأمريكي الملون Colored American، ونجم الشمال North Star (Pride and Wilson, 1997). وبتأسيس صحافة سوداء مستقلة، أصبح بمقدور الأفرو ـ أمريكيين ضمان فضاء للتمثيل المستقل: ليس فقط لمراوغة الهويات وأشكال التضامن الشائعة، وإنما للتوصل كذلك إلى مقولات تتفاعل بإيجابية مع المجتمع المدني الأبيض.

وفي مجتمع مدني يتألف من منابر علنية متداخلة ومتصلة ببعضها ومتنافسة، ويحتمل دائما بقائها متشظية وغير متصلة بدرجة أو بأخرى، فإن وسائل الاتصال ـ والإعلام الخبري بصفة خاصة

ـــ تكتسب أهمية متزايدة للغاية. ويقر دو توكوفيل (120 :1969) بذلك عند وصفه للمجتمع المدني الأمريكي في القرن التاسع عشر، مشيرا إلى أن عدد الصحف كان مرتبطا بشدة بعدد المنظمات، وهو ما يعني ضمنا أنها لم تكن ذات منبر علني مفرد. ويتضاعف اليوم باستمرار عدد الصحف العامة، علما أن الصحف التي يقل توزيعها عن 100 ألف نسخة تشكل 40 في المائة من إجمالي توزيع الصحف في أمريكا (Bogart, 1989: 23). وكان من شأن ظهور محطات الكابل التلفزيونية وتقنيات الاتصال الجديدة إسهام قوى جديدة في جعل أجهزة الإعلام أكثر شعبية عبر «البث الضيق النطاق»، الذي يقسم أجهزة الإعلام إلى أقسام تسويقية أصغر وأكثر تخصصا بصورة مستمرة. والأرقام المتصلة بشرائح السوق، إن وجدت، تقلل بالفعل من أهمية «وسائل الاتصال» الصغيرة. وكل منظمة تطوعية تقريبا لها نشرتها الإخبارية الخاصة ونسبة كبيرة منها الآن لها مواقع على شبكة الإنترنت. وهذه الفضاءات الإعلامية الأصغر، التي يتجاهلها هابرماس تماما في نقده الجماهيري للثقافة، تقدم مواقع يجري عليها ابتكار وتقديم خبرات جديدة، وتناقش فيها معان جديدة وتكتسب الشعبية، وتقتل فيها بحثا أشكال جديدة من المواثيق السياسية. وبعبارة أخرى، فإن هذه المواقع تعد مصادر محتملة للتغيير الاجتماعي، وتزيد في الوقت نفسه من احتمالات التفاعل السياسي بين الأطراف المختلفة والحفاظ، في الوقت نفسه، على الاستقلال السياسي لهذه الأطراف.

وسائل الإعلام والمنابر العامة

إذا كان هناك تداخل دائم بين وسائل الإعلام والمنابر العامة، صورة يصعب معها الفصل بينها، فإن من المهم التوصل إلى تمييز تحليلي لها. ويشير مفهوم المنابر العامة إلى نوع خاص من الممارسة التي يشهدها المجتمع المدني: ممارسة النقاش العلني المتصل بالمسائل ذات الاهتمام العام. وهذا النقاش يمكن أن يتم في منابر عامة مثل قاعات الاجتماعات والجامعات، أو الفضاء الشخصي لمنزل أي إنسان، أو الفضاءات «الفعلية» للنشر أو التلفزيون أو الإنترنت. وما يحول نقاشا إلى منبر عام هو تكونه من أشخاص خصوصيين يشتركون في حوار علني حر حول قضايا ذات اهتمام عام ومتحررين من الخوف من رقابة الدولة أو القسر. أما وسائل الإعلام فتتألف من أي فضاء يجري فيه نشر معلومات على قدر من الأهمية على قطاع من الجمهور (Stevens, 1988: 9). وشأن المنابر العامة، فإن أجهزة الإعلام يمكنها ممارسة النشر الخاص أو العام أو كمنابر «فعلية»، وهي تحوي مسائل ذات اهتمام عام. لكن بينما تتجه المنابر العامة بالأساس نحو نشر النقاش، فإن وسائل الإعلام تتعامل في توزيع معلومات مفسرة بصورة تفصيلية. ومن المؤكد أن المعلومات التي تنشر تتضمن نقاشات المنابر العامة، لكنها تتضمن أشياء أخرى كذلك.

ومن الواضح أن هناك حالات كثيرة كان في وسائل الإعلام شيء آخر غير كونها منبرا عاما. وبينما ينبغي أن تشهد المنابر العامة جدلا بين أفراد بعينهم، فإن أجهزة الإعلام غالبا ما تصدر تقارير انتقائية حول النقاشات الفعلية. هذا هو الحال بالنسبة لـ«المسامع sound bites» التلفزيونية، التي تحرم الجمهور من السياق الكامل للأحداث التي سبقت عرض القضية. فالصحفيون كثيرا ما يكتبون قصصا يتصلون في سبيل إعدادها بعدد من المصادر كل على حدة ثم يقومون بتنضيد تعليقات هذه المصادر وتقديمها كحوارات «فعلية» لم تحدث على الإطلاق. وكثير من القصص الإخبارية لا تكون هناك نية لتقديمها كحوارات على الإطلاق، بل تبدو كشروح تقريرية

أو تقارير متصلة بحدث. وأي من هذه الأمثلة لا يمكن اعتبارها نقاشات منابر عامة صحيحة.

لكن هناك الكثير من الأمثلة كانت الوسائط الإخبارية خلالها منابر عامة. فعلى صفحات الصحف وفي صور التلفزيون الرقمية، يشارك أفراد حقيقيون في وصف ومناقشة والتعليق على قضايا عامة مهمة. وفي المؤتمرات الصحفية، على سبيل المثال، يصدر سياسيون وكذلك ممثلون لمنظمات تطوعية بيانات تتعدى البيانات العامة التي سبق وصدرت عن غيرهم، ويجيبون عن أسئلة. وهذا مثال على المنبر العام المنظم لصالح وسائل الإعلام. وبعبارة أخرى، فإن وسائل الإعلام تنظم منابر عامة لحسابها، تتألف غالبًا من شخصيات إعلامية، وعدد من السياسيين، وبعض ممثلي المنظمات التطوعية، وغيرهم من المواطنين العاديين. وبرامج تلفزيونية مثل، مثل حوارات لاري كنج في شبكة CNN، وبرنامج News's Nightline في شبكة ABC، تفعل هذا بصورة يومية. وموضوعاتها تتغير من ليلة لأخرى وتحدد الاهتمامات العامة الجارية فحواها. وعلى سبيل المثال، فقد قدم تيد كوبل خلال الاضطرابات الأهلية التي شهدتها لوس أنجلوس عام 1992، حلقة من Nightline تضمنت حوارًا مع أعضاء عصابات الشوارع في لوس أنجلوس، وهناك حلقة أخرى جرى تصويرها في مقر الكنيسة الميثودية الأفريقية الأولى على هيئة نقاش مع سياسيين سود وشخصيات بارزة ومواطنين (Jacobs, in press). وفي حالات كهذه، فإن جهاز الإعلام يقدم ساحة لأفراد يناقشون مسائل ذات اهتمام عام ويقوم بإذاعة هذا النقاش على ما يتراوح بين 10 ــ 20 مليوناً من المشاهدين.

ولاشك أن وسائل الإعلام هذه تشكل منابر عامة منقوصة، لأنها لا توفر سوى اتصال جزئي منظم، معد سلفا. لكن لا ينبغي المبالغة في تقدير هذا النقد. فمن الوجهة الإحصائية، لا توفر المنابر العامة جميعها سوى اتصال محدود، والحال كذلك فإن كل المنابر العامة منقوصة. لكن أجهزة الإعلام مفتوحة من حيث المبدأ أمام أي شخص. ومحررو هذه الأجهزة يحاولون باستمرار توسيع مساحة المشاركة الإعلامية من خلال رسائل المحرر، و«لقاءات رجل الشارع»، وغير ذلك. وإذاعة «الاتصالات الهاتفية» خلال برامج التلفزيون والراديو الإخبارية تعد محاولة أبعد لتوسيع المشاركة (Crane, 1995). حتى البرامج التي يكون الجمهور طرفا فيها talk shows يمكن اعتبارها وسيلة لتوسيع المشاركة في مساحات التداول الإعلامي، على الرغم من عدم وجود أي تشابه بينها وبين عملية تشكيل الإجماع العقلاني التي يعالجها هابرماس (gamson, 1998). ورغم محاولات ممثلي الدولة، فقد ثبت عجزهم عن السيطرة التامة على وسائل الإعلام، وكما لاحظ طومسون (1995:141) في هذا الصدد، فإن «العجز عن السيطرة على ظاهرة المشاهدة سيطرة تامة تشكل مصدر قلق دائم للزعماء السياسيين». ويعود السبب في هذا إلى أن المواطنين ومنظمات وقادة الحركات الاجتماعية أصبحوا على علم تام بروتين العمل الصحفي بحيث يمكنهم تغليف أنشطتهم بطرق تجعلها أقرب إلى الأخبار. وينطبق الشيء نفسه على الأعداد المتزايدة من مصوري الفيديو الجوالين، الذين يضمنون استمرار «الثغرة الإخبارية» مفتوحة ونافذة بما يكفي لتكون منبرا عاما يتطلع إليه الكثيرون كوسيلة للمشاركة (Jacobs, 1996a: 377-81).

وبالإضافة إلى توفير فضاءات علنية لمناقشة المسائل ذات الاهتمام العام، تسهم أجهزة الإعلام في صياغة المنابر الأخرى إلى حد كبير. فهذه الأجهزة تقدم رصيدا مشتركا من المعلومات والثقافة، التي يعتمد عليها المواطنون في نقاشاتهم اليومية مع غيرهم. والنقاش لكي يتم يحتاج إلى حصيلة مشتركة من المعرفة بين أطراف النقاش، وأجهزة

الإعلام هي أفضل المرشحين للوفاء بهذه الحاجة (Calhoun, 1991-Scannel,1989). فهناك 68 في المائة من الجمهور الأمريكي يشاهدون برنامجا إخباريا على الأقل في يوم بعينه، بمتوسط 58 دقيقة (Bogart, 1989: 237). وهناك 54 في المائة من البالغين يقرؤون صحيفة يومية بانتظام، و88 في المائة يقرؤون الصحيفة مرة في الأسبوع على الأقل (Bogart, 1989: 79). وعبر إقامة مساحة غير محددة، يمكن من خلالها التعبير عن الأفكار واستقبالها من قبل متلقين يفوقون الحصر ومنتشرين باتساع العالم، استطاعت وسائل الاتصال الحديثة بالفعل توسيع المنتدى العام.

وبالنسبة لكثيرين من المواطنين هناك، من ثم، هناك صلة تجريبية قوية بين الإعلام الخبري والنقاشات الجماهيرية. وهابرماس نفسه يعترف بأهمية هذا الاتصال عند مناقشة النشأة التاريخية للمنبر العلني البرجوازي، ملاحظا كيف أن المقالات المكتوبة في دوريات القرن الثامن عشر كانت جزءاً لا يتجزأ من المناقشات التي كانت تدور في المقاهي وغيرها من المنابر العام. واليوم، هناك إقرار عام بأن معلومات الإعلام من أهم الأدوات التي يستخدمها الناس عند تناولهم للقضايا ذات الاهتمام العام (Gamson, 1992). والبحث المؤسس لهذه العلاقة يشير إلى الطرق التي من خلالها تحقق النصوص الإعلامية انسياب المواد الثقافية من المنتج إلى المتلقين، الذين يستخدمون النصوص الإعلامية، بالمقابل، في حياتهم لتشييد عالم ذي معنى والتوصل إلى إطار ثقافي مشترك يجعل التبادل الذاتي ممكنا. إن وسائط الاتصال لا تحقق تدفقا أحادي الاتجاه من النص إلى متلق سلبي، بل «تدفق ثنائي الخطوة» حيث يقوم الأفراد بدمج نصوص الإعلام في شبكاتهم وبيئاتهم الاجتماعية القائمة (Katz and Lazarsfeld, 1955-Liebes and Katz, 1990-Morley,1980). وفي الوقت الذي لم تنجح فيه وسائل الإعلام في فرض الموضوع الذي يفكر فيه الناس، فإن الإعلام الخبري نجح بشكل ملحوظ في تشكيل ما يفكرون فيه ويتداولون بشأنه (McCombs and Shaw,1972-Iyengar and Kinder, 1987). ومن ثم، فإن الإعلام الخبري يجد طريقه في غالب الأحوال إلى الحوارات المتصلة بين المواطنين حول المسائل ذات الاهتمام العام.

وبفضل الحضور القوي للإعلام الخبري في المجتمع المدني المعاصر، تجد المنظمات والجماعات نفسها أمام معضلة: ضرورة تحقيق التوازن بين حماية استقلاليتها الثقافية وبين المشاركة في مناقشات وأفكار أشكال الاتصال الأخرى. وفي سبيل حماية الاستقلال الثقافي، فهي بحاجة إلى التوصل إلى فضاءات للنقاش، أصغر وأكثر تخصصا، يكون لها قدر كبير من السيطرة عليها. وهذا يستدعي إعلاماً خبرياً أصغر وأكثر «تخصصا»، مثل الصحافة الأفرو — أمريكية، تلعب دورا في إقامة مجتمع مدني أكثر انفتاحا وشمولا. ومن ناحية أخرى، وفي سبيل التأثير في الرأي العام والسياسات العامة، فإن المنظمات بحاجة للمشاركة في ساحات عامة كبيرة، سيطرتها عليها محدودة أو غير قائمة على الإطلاق. لهذا، فهي بحاجة لوضع استراتيجيات لتحقيق الانتشار في وسائل خبرية أكبر مثل ABC News, Los Angeles Times, New York Times. بتعبير آخر، فإن مجتمعا مدنيا يواجه حاجات جماهيرية متعددة هو بحاجة إلى نظام إعلامي يتألف من وسائل إعلام متعددة. ومن دون وسائل إعلام أصغر تتمتع بقدر كبير من السيطرة عليها، فإن المنظمات تعتمد بقدر كبير على المتطلبات العلمية لصحفيي الإعلام «السائد» وأولوياتهم. ومن دون الاتصال بوسائط إعلامية أكبر فإنهم يفقدون القدرة على التأثير على جدول أعمال الجمهور الأوسع.

الاتصال والمشاركة غير المتكافئين في الإعلام

ليس من الصعب أن نفهم أهمية أن نكون على «اتصال» access بالإعلام الخبري «السائد». فأجهزة الإعلام الكبرى تتيح مجالا كبيرا لتغيير الرأي العام عبر تحديد المسائل التي يتناولها الناس على الأرجح. والاتصال بأجهزة كهذه على قدر كبير من الأهمية في حال تطلعت المنظمات إلى كسب جماهيرية عريضة أو حتى مجرد مساحة للتأثير في الرأي العام. فعبر عملية تحديد جدول الأعمال وترتيب الأولويات، عادة ما تستحوذ الموضوعات والقصص التي يبثها الإعلام الخبري السائد على اهتمام الناس وتكون موضع حديثهم. وفي مجتمعات يستبد بها الاهتمام بقياسات الرأي، فإن الإعلام السائد يصيغ أيضا أولويات هذه الاستطلاعات، وتكون في حال إعلان نتائجها أبعد أثرا حتى من القصص والموضوعات التي تنشر في الصحف (Dearing, 1989). وتأثير ترتيب الأولويات هذا يكون أكبر على الموضوعات الجديدة التي لم يسبق مناقشتها على نطاق واسع (MacKuen and Coombs, 1981). وبالنسبة للمنظمات التي تسعى إلى التأثير في السياسات العامة والرأي العام، وبصفة خاصة المنظمات الصغيرة الساعية إلى طرح قضايا جديدة للنقاش في غالبية مساحات العمل العام، فإن أثر ترتيب جدول الأعمال هذا يجعل إغراء الظهور في أجهزة الإعلام «السائد» إغراء لا يمكن مقاومته.

إن تحقيق الانتشار عبر وسائل الإعلام الخبري الكبيرة وسيلة جيدة أيضا بالنسبة للمنظمات من أجل الوصول إلى مواقع السلطة السياسية والمشاركة في صياغة السياسات العامة. وقد نجح الإعلام الخبري «الكبير»، أكثر من أي من أشكال الفضاء العلني الأخرى، في الحلول محل الأحزاب السياسية كأفضل وسيلة اتصال بين القادة السياسيين و«الشعب». ففي ذات اليوم، هناك أكثر من مليون شخص يقرؤون New York Times, Los Angeles USA Today. وهناك ما بين 10 — 20 مليونا يشاهدون ABD News, CBS News, NBC News كل ليلة (Ansolabehere et al., 1993). وهذه المنظمات الإخبارية، إقرارا منها بقوتها السياسية، تخصص ما بين خمس إلى نصف المتاح لها من مساحة الأخبار للأخبار السياسية (6). وقد أسفر هذا عن خلق دائرة مغلقة، حيث أصبح السياسيون والعاملون في الصحافة «السائدة» أكثر انتباها لبعضهم البعض. وقد أصبحت المهارة في التعامل مع الإعلام موهبة ضرورية للسياسيين، الذين يسعون بهمة لاكتساب الحظوة لدى كبار كتاب الشؤون السياسية: عن طريق البقاء على صلة دائمة بهم، ومدهم بحصيلة وافرة من المواد الصحفية والأخبار وإبلاغهم بأهم الأحداث خلال اللقاءات الصحفية اليومية أو الأسبوعية (Graber, 1993: 288-321). ومدى نجاح أي منظمة في طرح قضاياها من خلال سي. بي. نيوز أو نيويورك تايمز مرهون أكثر بطرح هذه القضايا على جدول أعمال مناقشات الكونجرس.

والمشكلة تكمن في أن الاتصال بالإعلام السائد متراصف stratitified. وهذا التراصف لصيق بكل عملية من عمليات العمل الصحفي، لأن الروتين العملي اليومي للصحفيين يفضل المجموعات السائدة على المجموعات الثانوية. وهذا التراصف يعمل على مستويات مختلفة عديدة. وعلى سبيل المثال، ولأن الأحداث عادة ما تحظى باهتمام كبير إذا وقعت أثناء فترة دوام الصحفي، فإن المنظمات غير المحترفة والفقيرة الموارد تبدأ من موقف الخسارة المؤقتة. فحيث إن أعضاءها يقضون بالضرورة دواما كاملا في أعمالهم، فإن هذه المنظمات تضطر إلى عقد اجتماعاتها ليلا أو خلال

عطلة نهاية الأسبوع، وهو ما يضعها خارج ساعات دوام الصحفي وبعيدا بصورة مؤقتة عن عملية إنتاج الأخبار. وبشكل أكثر عمومية، فإن الصحفيين عادة ما ينظرون إلى الحدث باعتباره خبرا ذا أهمية عندما يكون هذا الحدث متناسبا مع شيفرات الأخبار المعتادة (يطلق عليها في غرفة الأخبار «الرقائق»)، أو عند إمكان إدخال الحدث ضمن قصة يجري تغطيتها. وعملاء العلاقات العامة خبراء في معرفة كيفية وضع أحداثهم في الإطار السليم وعادة ما ينجحون في تحقيق الاتصال بالإعلام لصالح منظماتهم. والمنظمات التي لا تتمتع بعناصر علاقات عامة جيدة تصاب بخسارة واضحة في هذا الصدد. وأخيرا، فإن الصحفي غالبا ما يكون في موضع الطفيلي بالنسبة لمصادره. ومن هنا، فإن الصحفي الطموح لديه دافع مهني لتبني مصادر ذات مكانة كبيرة. وعوامل مثل هذه تجعل من الصعب دائما على منظمات الأقلية تحقيق الصلة بإعلام الأغلبية.

المشكلة الأخرى المتعلقة بتحقيق الاتصال المتكافئ بالإعلام الإخباري «السائد» هو أن هذا الشيء الذي يسعون وراءه، أي تحقيق الصلة، دائم التغير وعرضة للتأثر. فالعمل الإخباري لا تشكله الرغبة في التعبير عن كل الأصوات أو تغطية القضايا التي تحوز أكبر الاهتمام، بل إن ما يحفز الصحفيين هو الرغبة في تقديم أفضل قصة (Jacob s, 1996a, Darnton, 1975). وهذا يعني أن الإعلام الإخباري (والمنابر العامة، في السياق) تشكله الروايات بأكثر مما يشكله «الخطاب العقلاني ــ النقدي». والعاملون في مجال الإعلام الخبري يفهمون الأحداث عن طريق وضعها ضمن قصص، تتألف من أحداث وممثلين، ولها بداية ووسط وخاتمة. والحقيقة أن هذه النزعة القصصية تسمح لهم بإنجاز جانب كبير من إنتاج الأخبار في وقت معرفتها نفسه. وتعتبر الأحداث أخبارا تستحق الأهمية عندما يستقر الرأي على الاعتراف بها كعناصر في حبكة القصة. إنها تكتسب شرعيتها كأحداث ذات أهمية من خلال القصص التي تروى للمحررين ومديري الأخبار. وهي تكتب أو تمثل، أو كلاهما، وفقا لعناصر جنس استقبالها وقصها، كأن تكون رومانسية أو تراجيدية أو كوميدية أو ساخرة.

وبالطبع، فإن الاتصال الطارئ للإعلام ليس شيئا سيئا دائما بالنسبة للجماعات المهمشة. فعندما تتحول الأحداث إلى أنواع خاصة من القصص، فمن الممكن أن يفتح هذا إمكانات الإعلام أمام الأفراد والجماعات الذين غالبا ما يجدون صعوبات جمة في تحقيق الانتشار. وقد حدث مثل هذا التوسع في مساحة الإعلام «السائد» خلال الأيام القليلة التي تلت الاضطرابات التي شهدتها لوس أنجلوس عام 1992 (Jacobs, 2000). فبعد صدور حكم المحلفين بالبراءة في قضية ضباط البوليس المتهمين بضرب رودني كينج كما سجله شريط للفيديو، كان رد الفعل الأولي في غالبية أجهزة الإعلام الخبري هو الصدمة واستنكار الحكم، والغضب وانتقاد «محلفي وادي سيمي العنصريين». وطالما ظل تركيز الإعلام على قضاة وادي سيمي، ظل مفتوحا كذلك أمام أصوات أفراد ربما لم يعبروا عن أنفسهم من قبل عبر المنابر العامة السائدة: أعضاء عصابات وسكان شوارع لوس أنجلوس الداخلية ونشطاء في العمل الاجتماعي، كلهم أصبح صوتهم مسموعا عبر برنامج آ. بي. سي الإخباري الليلي Nightline، ووصفهم مضيفهم تيد كوبل بـ«الفصاحة» و«التأثر» و«العاطفة المشبوبة». ولسنا بحاجة للقول إن هذا الصوت جاء في سياق محدد للغاية ومخطط، ولن يكون من شأنه زيادة الصلة بينهم وبين آ. بي. سي مستقبلا. فصلة هؤلاء الأفراد بالإعلام السائد ارتبطت ارتباطا مباشرا بقصة رودني كينج، وانتهت بمجرد انتهاء القصة.

وإذا كان من المؤكد أن الصلة بالإعلام الخبري «السائد» شرط مسبق وضروري للمنظمات الساعية

للانتشار، فهو شرط ليس بالهين على أية حال، ولا ينبغي التقليل من أهميته. وباعتباره باحثا حقوقيا، يرى مونرو برايس (209 :1995) أن مبادئ الوصلة لا تسمح سوى بـ «سطح بناء لحرية الخطاب يمزج كلام الحكومة المعسول عن عدم التدخل وبين الإيهام بأن المرويات ــ قصص الحياة الطيبة ــ توزع بالعدل على رواتها». وتكمن المشكلة في أن الوصلة لا تضمن تقديم روايات ذات طبيعة تعددية تعبر عن المجموعات المعزولة تاريخيا. والروايات العامة التي يجري تداولها في المنابر العامة السائدة، وتنزع إلى الاحتفاظ بأدوار البطولة للجماعات السائدة في المجتمع، خالقة بذلك بيئة عامة لصالح الجماعات السائدة على حساب الأقليات (Jacobs, 1996b).

إن الجماعات السائدة، رغبة منها في خلق «إجماع نشط»، تؤسس لمنابر عامة تضم الجماعات المهمشة، لكنها تفعل هذا في ظل قواعد متحركة تخدم الجماعات السائدة. وتاريخيا، فإن تأسيس «خطاب علماني نقدي» و«موضوعي» كمجاز منظم للمنبر العام البرجوازي والإعلام الخبري «السائد» قد تم إنجازه عبر ازدواجية تضمر تجريد الجماعات المعزولة من شرعيتها. وقد تحققت أشكال العزل عبر خطاب ينتقد النشاطات «غير المنضبطة» و«الغوغائية» للطبقة العاملة، والجنسانية والرغبات «الطبيعية» للمرأة، والكسل والسلبية «المتأصلة» في غير البيض (-Eley, 1992 Jacobs, 1998). وبتعبير آخر، صاغه ألكسندر (1994 ,1992) بطريقة مقنعة للغاية، فإن خطاب المجتمع المدني قد تطور من خلال ازدواجية سميوطيقية يمتزج فيها معيار التضمين بمعيار العزل، ويحتاج فيها مثال الفضيلة المدنية إلى مثال مضاد للبديل المدني. وباعتباره صورة من صور الإغلاق closure الاجتماعي، يحقق الخطاب المزدوج صالح الجماعات السائدة عبر كونه مفتوحا رسميا ومغلقا بصورة غير رسمية. فمن حيث المبدأ، من حق أي شخص أن يدخل منبرا عاما سائدا، لكن ما يحدث عمليا هو أنه يتم تحديد «من هم داخل» و«من هم خارج» والتعرف عليهم عن طريق التصنيفات الخفية والمحكمة للشفرة المزدوجة، والتي عن طريقها يتم توزيع الأدوار على المشاركين بصورة غير عادلة. وهكذا، على الرغم من أن المنابر العامة البرجوازية قامت على أساس مبادئ العقلانية والعلنية والديمقراطية المنفتحة، فإنها ــ حسب ما تقول نانسي فريزر (114 :1992) ــ «الساحة، وملعب التدريب، وأخيرا قاعدة القوة لشريحة من البرجوازية ترى نفسها كـ «طبقة كلية»، تتأهب لإعلان أهليتها المؤكدة لممارسة الحكم». وباختصار ، فإن مشكلات الهيمنة الثقافية متأصلة في المنابر العامة السائدة، بصرف النظر عن مدى انفتاحها رسميا.

وظيفة المنابر العامة المضادة للهيمنة وأزمة المجتمع المدني الراهنة

إن العزل وانعدام المساواة والأضرار الرمزية ليست بالأشياء القابلة للاستئصال من المنابر العامة. إنها ــ كما يشير ألكسندر (1998) بحق ــ ترسبات معادية لما هو مدني وتشكل جزءا مهماً من أي مجتمع مدني تجريبي. ولهذا السبب، فإن المجموعات الخاضعة بحاجة إلى ما تطلق عليه فريزر (1992:123) «المنابر العامة المضادة الثانوية» من أجل «التوصل إلى ــ ونشر ــ خطابات مضادة لصياغة تفسيرات مضادة، تنطلق من هوياتها ومصالحها واحتياجاتها». وبسبب صياغتها البسيطة، فإن استراتيجيات انتشار الجماعات الهامشية لا يمكنها أن تركز فقط على الإعلام «السائد» والمنابر المهيمنة، وإنما يجب عليها أن تأخذ في اعتبارها المشاركة النشطة في منابر عامة بديلة، وزرعها. فهذه المنابر العامة البديلة تتيح ساحة

لمقاومة آثار الهيمنة، من خلال وضع روايات بديلة تضم أبطالا مختلفين وحبكات مختلفة.

وتاريخيا، اتجهت جماعات الأقلية نحو المنابر العامة البديلة والإعلام البديل كوسيلة للتعويض عن استبعادها من المنابر السائدة. ففي فضاءات الاتصال البديلة هذه، تتوصل الجماعات إلى اكتشاف مصالح مشتركة، وتقيم حوارات يمكن أن تشكل تواصلا أكثر فاعلية مع المجتمع المدني، وتتيح فضاءات تداولية يمكن أن تؤدي إلى تنشئة قادة جدد للعمل العام. وعلى الرغم من أن تجارب العزل كانت الدافع وراء المشاركة في هذه المنابر البديلة، إلا أنه كان هناك أيضا الأمل في أن يتمكن الحوار والبلاغة الجديدة من الاستحواذ على اهتمام المنابر السائدة وتغيير الرأي العام. وفي هذا الأمل، لم تختلف جماعات الأقلية عن غيرها من المنظمات التطوعية، فكل المنظمات، كما يلاحظ دو توكوفيل، «يداعبها الأمل في جذب الأغلبية إلى صفها، ومن ثم الصعود إلى أعلى درجات السلطة باسمها».

لقد كانت خبرة العزل والأمل في المشاركة مستقبلا هي ـ تحديدا ـ التي صاغت الصحافة السوداء في بداياتها الأولى. ويرى فردريك دوجلاس أنه لو كان السود الأحرار قد نجحوا في إقامة مؤسسات عامة ناجحة لتمكنوا من الوصول بصورة أفضل إلى كل من البيض والسود الذين كانوا «خارج» منابر الاتصال الأفرو ـ أمريكية خلال أوائل القرن التاسع عشر. وما يشير إليه دوجلاس هو دور مزدوج للصحافة السوداء والمنبر العام: (1) إيجاد إطار للنقاش والتطوير الذاتي، (2) زيادة مساحة رؤية السود في المجتمع المدني الأبيض (Brecey et Al., 1970: 51; Bell, 1969: 316-17). بتعبير آخر، فإن الصحافة السوداء قامت على أساس حماية الاستقلال الثقافي بالقدر الذي يسمح بالمزيد من التداخل العام الناجح. وهذا الدور المزدوج للصحافة السوداء، الذي يميز معظم «المنابر العامة» البديلة، كان ملمحا معياريا لكل الصحف السوداء المعبرة عن هذه الأقلية. وكما يرى جون روسوورم، في إحدى افتتاحيات فريدمز جورنال Freedom's Journal عام 1827، فإن «نشر المعارف النافعة بين إخواننا في سبيل تحسين أوضاعهم الأخلاقية والدينية، ينبغي أن يقابل بالاستحسان الجم من جانب كل أصدقاء الإنسانية» (Russworm, 1970: 24). كانت المشكلة تكمن في عدم معرفة المجتمع الأبيض بأوضاع السود معرفة حقيقية، وكان السبيل الوحيد لتصحيح هذا الوضع هو إقامة منابر سوداء، فاعلة ومقدامة، للحوار وصياغة موقف. وهكذا، كان إنشاء صحافة قومية سوداء يعتبر حلا لأمراض المجتمع الأسود، والمجتمع الأبيض، وللأمة ككل.

لكن المطلبين المزدوجين، التداخل والاستقلالية، لا يلتقيان دوما بسهولة، فتاريخ الإبعاد عن المنابر العامة السائدة والإعلام «السائد» يعقد من تاريخ «المنابر المضادة»، الأصغر والأكثر خصوصية التي يقرها فريز. والحقيقة أن أكثر مفارقات تاريخ الصحافة الأفرو ـ أمريكية في القرن العشرين هي أن الصحف السوداء كانت الأقوى فيما بين عامي 1900 ـ 1950، وهي الفترة التي شهدت الفصل السكني الإجباري وتجاهل الصحافة «السائدة»، ثم تواصل تقهقرها منذ ذلك الحين. ففي شيكاغو ونيويورك كان هناك صحف سوداء يزيد توزيعها على 100 ألف نسخة، خلال النصف الأول من القرن. وعلى المستوى القومي، بلغ توزيع الصحف السوداء خلال عام 1945 أكثر من المليونين أسبوعيا، وكانت صحيفة سوداء جديدة تظهر كل ثلاثة شهور (Wilson, 1997: 153). ويلخص ثورجود مارشال قوة الصحافة السوداء في 1954 عندما يلاحظ أنه «من دون صحافة الزنوج لم يكن للمنظمة القومية لتقدم الملونين NAACP أن ترى النور».

وكلام مارشال يحمل معنيين. من ناحية، الصحافة السوداء تتيح فضاء لصياغة مقولات

تتصل بالاندماج والحقوق المدنية التي يمكن أن تجد طريقها فيما بعد إلى فضاءات الاتصال العلنية للمجتمع المدني الأبيض. هذه هي الصورة المعيارية للمنابر العامة المضادة، التي يفترض فيها أن تزيد من الاندماج بين المنابر والحفاظ على الاستقلالية في آن واحد. لكن المنظمة القومية لديها إعلام خبري آخر يمكنها الاعتماد عليه غير الصحافة السوداء. فقبل الستينيات، كانت نسبة الأفرو ــ أمريكيين في الصحافة اليومية تقل عن واحد في المائة، وكان من النادر أن تتجاوز الصحافة العرقية نسبة الواحد في المائة من إجمالي الصحافة «السائدة» (Johnson et Al, 1971;Martindale, 1986). وببساطة تامة، فإن قادة الدعاية الأفرو ــ أمريكيين الوحيدين الذين يمكن التعويل عليهم هم أولئك القادمون من الصحافة السوداء.

وفيما بين عامي 1950 ــ 1970، تزايد الاهتمام بالأفرو ــ أمريكيين والقضايا الأفرو ــ أمريكية من جانب الصحافة «السائدة» تزايدا كبيرا. وفي الوقت ذاته، بدأ عدد من القادة الأفرو ــ أمريكيين يميلون إلى الاعتقاد بأن الاندماج العرقي من شأنه إزالة الحاجة إلى صحف سوداء منفصلة، قائلين إن على الصحافة السوداء أن تكافح في سبيل اختفائها (Wolseley, 1990: 302). وعلى الرغم من أن إعلان هدف إنهاء الصحف السوداء كان قائما على أساس التعهد بالاندماج في صحافة «سائدة»، فإن ذلك لم يقترب من التحقق على أرض الواقع. وحتى بعد توصية لجنة كيرنر في عام 1986 بزيادة عدد الصحفيين الأفرو ــ أمريكيين في صحف الحواضر، فإن النسبة لم تتجاوز 3,9 في المائة عام 1971، وهي في ركود أو تراجع منذ ذلك الحين (Weaver and Wilhoit, 1996: 11). وتزايدت الأخبار المتصلة بالأفرو ــ أمريكيين والموضوعات الأفرو ــ أمريكية بالنسبة الهزيلة نفسها، إلى حوالي 4 في المائة من مجموع مساحة أعمدة صحافة اليوم «السائدة» (Martindale, 1986). وهناك استثناءات تحدث بالطبع أثناء الأزمات العرقية، لكن أشكال التغطية في مثل هذه الحالة تكشف عن آثار الهيمنة البيضاء، مثل قصر أدوار البطولة على البيض. وحين لا يمكن العثور على أبطال من البيض يقصون نهايات رومانسية للأزمة، فإن الصحافة السائدة تميل إلى التراجيديا في تغطيتها (Jacobs, 2000). ومن الواضح أن أي محاولة للاندماج في الصحافة «السائدة» لم تكتمل في أحسن الأحوال.

في الوقت نفسه، شهدت معظم الصحف السوداء تراجعا سريعا في توزيعها، بنسبة 50 ــ 75 في المائة تقريبا. وهذا التراجع له أكثر من مصدر: بالإضافة إلى فكرة أن النضال في سبيل الاندماج ينبغي أن يقابله الالتزام بمنبر وحيد، فقد تزايد التراجع في الإقبال العام على الصحف (بصورة غير معلنة في معظم الأحوال) نتيجة ظهور الأخبار التلفزيونية، وعجز الصحف السوداء عن إصدار طبعات يومية ناجحة (باستثناء المثال البارز لشيكاغو دفندر)، وهو ما أصبح يرتبط أكثر بسرعة إيقاع الحياة الذي يميز عصر الإعلام الحديث، بالإضافة إلى ارتفاع تكلفة التوزيع الناجمة عن تشتت مواقع السكن بالنسبة للطبقة الوسطى السوداء. وأزمة التوزيع هذه هي التي غذت جانبا كبيرا من القلق على مستقبل شيكاغو دفندر، على الرغم من أنها لاتزال مجزية كمشروع اقتصادي.

لكن ماذا عن القول بأن الصحافة الأفرو - أمريكية لن يكون لها ضرورة في مجتمع مندمج اندماجاً كاملا؟ إن الصحافة الأفرو ــ أمريكية لم يكن في نيتها، على أية حال، أن تكون بديلا عن المشاركة في إعلام الأغلبية. بل إنها قامت لتشجيع الحوار المتواصل حول القضايا ذات الاهتمام العام، من أجل التوصل إلى مبادئ الاندماج النهائي في المنابر العامة الأخرى. فالهدف كان مواصلة الحوار والنقاش والإبقاء على إمكانية توسيع النقاش ليشمل

مشاركين جددا ومواقع جديدة. وهذه، فوق كل شيء، القيمة الأسمى للمجتمع المدني، بصرف النظر عن عدد المنابر العامة التي يشملها: اتصال الحوار، مد الحوار المستمر إلى روايات ونقاط خلاف جديدة، وتوسيع مجال المحتوى الحقيقي لأشكال التضامن القائمة. وليس من الضروري أن يتوصل المتحاورون إلى اتفاق على كل القضايا ذات الاهتمام المشترك. فهذا أمر مستحيل في مجتمع متعدد الثقافات. والأهم هو استمرار الحوار. وكما يرى ابن حبيب (1992:38)، فإننا «عندما نحول عبء الاختبار الأخلاقي الخاص بأخلاقيات الاتصال من الإجماع إلى الحوار الأخلاقي المستمر، فإننا نشرع في التساؤل لا عن المسموح به وغير المسموح به أخلاقيا في الخطاب العملي، بل عن المسموح به، وربما الضروري، لاستمرار وتدعيم الحوار الأخلاقي فيما بيننا. إن التركيز على الاتفاق العقلاني متواضع الآن، لكنه أكبر فيما يتصل بتدعيم تلك الممارسات المعيارية والعلاقات الأخلاقية التي من خلالها يجري تقبل الاتفاق باعتباره طريقة حياة يمكن أن تستمر وتزدهر».

والنقطة هنا هي أن المجتمع المدني إذا أريد له أن يكون فضاء منظما حول فكرة «التضامن الشامل»، كما تقترح ألكسندر (1991)، فإن الأمر يحتاج إلى جغرافية اتصال يمكنها تحقيق انفتاح الحوار المتواصل على روايات ونقاط اختلاف جديدة. وبسبب مشكلات الهيمنة الثقافية والاتصال غير المتكافئ، فإن ذلك لا يتحقق إلا في ظل مجموعة مختلفة ومتعارضة من وسائل الاتصال ـــ الكبير منها والصغير، الشامل والمتخصص. ولهذا السبب ينبغي النظر إلى أزمة الصحافة السوداء الراهنة كأزمة للمجتمع المدني الأمريكي.

إن القول إن كل من المنابر الكبيرة والصغيرة لها مكانها ليس جديدا بالطبع. لكن من المهم عدم دمج المنابر الصغيرة، والحرص على التفاعل المباشر وجها لوجه. فمن المؤكد أن التفاعل المباشر بين المنابر العامة ذات الوجود المادي كان مهما في الماضي من أجل تكوين الهويات وأشكال التضامن المشتركة. لكن قوة هذا النوع من التضامن تتزايد اليوم في علاقته المباشرة مع كمونه. بتعبير آخر، فإن قوة شيء مثل الصحافة السوداء ليس مرتبطا ارتباطا مباشرا بعدد قرائها. فقوتها المحتملة كامنة في علم الناس بوجودها، ويتبقى إدراكهم لإمكان قراءتها. والحقيقة أنه في أثناء الأزمات العرقية، مثل اضطرابات واتس ورودني كينج، فإن مبيعات الصحف السوداء تتصاعد، حيث يطرح الأفرو ـــ أمريكيين «المنظور الأسود»، ويضعونه في مقارنة مع القصص التي يقرؤونها في صحف مثل نيويورك تايمز، ثم يتابعون مناقشته (Jacobs, in Press). وشيء كهذا كان من الصعب حدوثه لو أن صحيفة مثل شيكاغو دفندر كانت مملوكة لروبرت مردوخ أو غيره من أقطاب الإعلام «السائد». وكان الاعتراف بهذا سببا للإحساس بالأزمة الذي أحاط بموت سنجستاك. وحسب تعليق ناشر صحيفة ميتشيجان سيتيزن (أحد الصحف الأفرو ـــ أمريكية الصادرة في ديترويت)، فإن «هذه الصحف... عليها أن تبقى بيد أي شخص ينتمي إلى العرق نفسه، لأن التاريخ يخبرنا إننا إذا لم تتضافر جهودنا في سبيل تسجيل قصصنا، فإنها سوف تصبح عرضة إما للتلاعب أو الإهمال»(Chicago Sun-times, 1998: A55).

إن على الإعلام الخبري «السائدة»، الواعي بدوره العام في تدعيم أركان المجتمع المدني، أن يستجيب لأزمة الصحافة السوداء باتخاذ خطوات فعالة لتحقيق المزيد من الاندماج بين وسائل الإعلام. ولا أقول إن يصبح مركز نشاط الإعلام الخبري «السائد» هو ضبط ومراقبة الصحافة الأفرو ـ أمريكية، وإن كان ينبغي توافر بنية تحتية تمكن هؤلاء الصحفيين من مراقبة الصحافة السوداء بصورة أكثر فاعلية، خاصة في أوقات

الأزمات العرقية. وهذا من شأنه زيادة التغطية الجدلية والعمل على فتح الروايات الإخبارية «السائدة» عن العرق أمام نقاط خلاف لم يسبق أن تطرقت إليها. كما ينبغي تشجيع التنويع في أساليب تغطية الأزمة والإعلان الواضح عن التعهد المتين للأفرو ــ أمريكيين بالتناول المنفتح للقضايا العرقية. وتقديم الدعاية عن الصحف السوداء يساعدها على البقاء بل وزيادة توزيعها. وباختصار، فإن هذا من شأنه توفير المصادر اللازمة للمؤسسات الصحفية كي تدرك رصيدها المدني الكامن باعتباره مؤسسات الاتصال الرئيسية للمجتمع المدني.

المراجع

Alexander, Jeffrey C. (1991) 'Bringing Democracy Back in: Universalistic Solidarity and the Civil Sphere', in C. Lemert (ed.) *Intellectuals and Politics: Social Theory in a Changing World*, pp. 157–76. Newbury Park, CA: Sage.

Alexander, Jeffrey C. (1992) 'Citizen and Enemy as Symbolic Classification: On the Polarizing Discourse of Civil Society', in M. Fournier and M. Lamont (eds) *Where Culture Talks: Exclusion and the Making of Society*, pp. 289–308. Chicago, IL: University of Chicago Press.

Alexander, Jeffrey C. (1994) 'Modern, Anti, Post, Neo: How Social Theories Have Tried to Understand the "New World" of Our Time', *Zeitschrift für Soziologie* 23(3): 165–97.

Alexander, Jeffrey C. (1998) 'Civil Society I, II, III: Constructing an Empirical Concept from Normative Controversies and Historical Transformations', in J. Alexander (ed.) *Real Civil Societies: Dilemmas of Institutionalization*, pp. 1–19. London: Sage.

Ansolabehere, Stephen, Behr, Roy and Iyengar, Shanto (1993) *The Media Game: American Politics in the Media Age*. New York: Macmillan.

Baker, Keith (1992) 'Defining the Public Sphere in Eighteenth-Century France: Variations on a Theme by Habermas', in C. Calhoun (ed.) *Habermas and the Public Sphere*, pp. 181–211. Cambridge, MA: The MIT Press.

Bekken, Jon (1993) 'The Working-Class Press at the Turn of the Century', in W. Solomon and R. McChesney (eds) *Ruthless Criticism: New Perspectives in U.S. Communication History*, pp. 151–75. Minneapolis: University of Minnesota Press.

Bell, Howard (1969) 'National Negro Conventions of the Middle 1840s', in A. Meier (ed.) *The Making of Black America*. New York: Atheneum.

Benhabib, Seyla (1992) 'In the Shadow of Aristotle and Hegel: Communicative Ethics and Current Controversies in Practical Philosophy', *Situating the Self: Gender, Community and Postmodernism in Contemporary Ethics*, pp. 23–67. New York: Routledge.

Bogart, Leo (1989) *Press and Public*, 2nd edn. Hillsdale, NJ: Lawrence Erlbaum.
Bracey, John H., Jr, Meier, August and Rudwick, Elliot, eds (1970) *Black Nationalism in America*. New York: Bobbs-Merrill.
Brubaker, Rogers (1992) *Citizenship and Nationhood in France and Germany*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
Calhoun, Craig (1991) 'Indirect Relationships and Imagined Communities: Large-Scale Social Integration and the Transformation of Everyday Life', in P. Bourdieu and J.S. Coleman (eds) *Social Theory for a Changing Society*, pp. 95–121. Boulder, CO: Westview Press.
Crane, Diana (1995) 'Reconceptualizing the Public Sphere: The Electronic Media and the Public', in C. Honegger, J. Gabriel, R. Hirsig, J. Pfaff-Czarnacka and E. Poglia (eds) *Gesellschaften im Umbau*, pp. 175–95. Bern: Seismo.
Darnton, Robert (1975) 'Writing News and Telling Stories', *Daedalus* 104(2): 175–93.
Dearing, James (1989) 'Setting the Polling Agenda for the Issue of AIDS', *Public Opinion Quarterly* 53: 309–29.
De Tocqueville, Alexis (1969) *Democracy in America*, 2 vols. New York: Doubleday.
Eley, Geoff (1992) 'Nations, Publics, and Political Cultures: Placing Habermas in the Nineteenth Century', in C. Calhoun (ed.) *Habermas and the Public Sphere*, pp. 289–339. Cambridge, MA: The MIT Press.
Fraser, Nancy (1992) 'Rethinking the Public Sphere: A Contribution to the Critique of Actually Existing Democracy', in C. Calhoun (ed.) *Habermas and the Public Sphere*, pp. 109–42. Cambridge, MA: The MIT Press.
Gamson, Joshua (1998) *Freaks Talk Back: Tabloid Talk Shows and Sexual Nonconformity*. Chicago, IL: University of Chicago Press.
Gamson, William (1992) *Talking Politics*. Cambridge: Cambridge University Press.
Garnham, Nicholas (1990) *Capitalism and Communication: Global Culture and the Economics of Information*. London: Sage.
Graber, Doris A. (1993) *Mass Media and American Politics*, 4th edn. Washington, DC: Congressional Quarterly.
Habermas, Jurgen (1989) *The Structural Transformation of the Public Sphere*, trans. Thomas Burger. Cambridge, MA: The MIT Press. (Originally published 1962.)
Habermas, Jurgen (1992) 'Further Reflections on the Public Sphere', in C. Calhoun (ed.) *Habermas and the Public Sphere*, pp. 421–61. Cambridge, MA: The MIT Press.
Iyengar, Shanto and Kinder, Donald (1987) *News That Matters: Agenda-Setting and Priming in a Television Age*. Chicago, IL: University of Chicago Press.
Jacobs, Ronald N. (1996a) 'Producing the News, Producing the Crisis: Narrativity, Television, and News Work', *Media, Culture and Society* 18(3): 373–97.
Jacobs, Ronald N. (1996b) 'Civil Society and Crisis: Culture, Discourse, and the Rodney King Beating', *American Journal of Sociology* 101(5): 1238–72.
Jacobs, Ronald N. (1998) 'The Racial Discourse of Civil Society: The Rodney King Affair and the City of Los Angeles', in J. Alexander (ed.) *Real Civil Societies: Dilemmas of Institutionalization*, pp. 138–61. London and Thousand Oaks, CA: Sage.

Jacobs, Ronald N. (2000) *Race, Media, and the Crisis of Civil Society: From Watts to Rodney King*. Cambridge: Cambridge University Press.

Johnson, Paula, Sears, David and McConahay, John (1971) 'Black Invisibility, the Press, and the Los Angeles Riot', *American Journal of Sociology* 76: 698–721.

Katz, Elihu and Lazarsfeld, Paul (1955) *Personal Influence*. Glencoe, IL: The Free Press.

Keane, John (1984) *Public Life and Late Capitalism: Toward a Socialist Theory of Democracy*. Cambridge: Cambridge University Press.

Keane, John (1991) *The Media and Democracy*. Cambridge: Polity Press.

Keane, John (1995) 'Structural Transformations of the Public Sphere', *The Communication Review* 1(1): 1–22.

Landes, Joan (1988) *Women and the Public Sphere in the Age of the French Revolution*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Liebes, Tamar and Katz, Elihu (1990) *The Export of Meaning: Cross-Cultural Readings of Dallas*. New York: Oxford University Press.

McCombs, Maxwell and Shaw, Donald (1972) 'The Agenda-Setting Function of the Press', *Public Opinion Quarterly* 36: 176–87.

MacKuen, Michael B. and Coombs, Steven L. (1981) *More Than News: Media Power in Public Affairs*. Beverly Hills, CA: Sage.

Martindale, Carolyn (1968) *The White Press and Black America*. New York: Greenwood Press.

Morley, David (1980) *The Nationwide Audience: Structure and Decoding*. London: British Film Institute.

Price, Monroe E. (1995) *Television, the Public Sphere, and National Identity*. Oxford: Clarendon Press.

Pride, Armistead S. and Wilson, Clint C. (1997) *A History of the Black Press*. Washington, DC: Howard University Press.

Russworm, John (1970) 'Too Long Have Others Spoken For Us', in J. Bracey, A. Meier and E. Rudwick (eds) *Black Nationalism in America*, p. 24. New York: Bobbs-Merrill. (Originally published 1827.)

Ryan, Mary (1992) 'Gender and Public Access: Women's Politics in Nineteenth-Century America', in C. Calhoun (ed.) *Habermas and the Public Sphere*, pp. 259–88. Cambridge, MA: The MIT Press.

Scannell, Paddy (1989) 'Public Service Broadcasting and Modern Public Life', *Media, Culture and Society* 1: 135–66.

Steiner, Linda (1993) 'Nineteenth-Century Suffrage Periodicals: Conceptions of Womanhood and the Press', in W. Solomon and R. McChesney (eds) *Ruthless Criticism: New Perspectives in U.S. Communication History*, pp. 38–65. Minneapolis: University of Minnesota Press.

Stevens, Mitchell (1988) *A History of News*. New York: Viking Press.

Thompson, John B. (1995) *The Media and Modernity*. Stanford, CA: Stanford University Press.

Tuchman, Gaye (1978) *Making News: A Study in the Construction of Reality*. New York: Free Press.
Tucker, Kenneth H. (1996a) *French Revolutionary Syndicalism and the Public Sphere*. Cambridge: Cambridge University Press.
Tucker, Kenneth H. (1996b) 'Harmony and Transgression: Aesthetic Imagery and the Public Sphere in Habermas and Post-Structuralism', *Current Perspectives in Social Theory* 16: 101–20.
Weaver, David H. and Wilhoit, G. Cleveland (1996) *The American Journalist in the 1990s*. Mahwah, NJ: Lawrence Erlbaum.
Wolseley, Roland (1990) *The Black Press, U.S.A.* Ames: Iowa State University Press.

Biographical Note: Ronald Jacobs is Assistant Professor of Sociology at the State University of New York at Albany. His work, which has appeared in the *American Journal of Sociology*, *Sociological Theory* and *Media, Culture & Society*, focuses on the relationship between civil society and the media. His book, *Race, Media, and the Crisis of Civil Society: From Watts to Rodney King*, will be published next year by Cambridge University Press.

Address: Ronald N. Jacobs, Department of Sociology, University at Albany, State University of New York, Albany, NY 12222, USA.
[email: rjacobs@csc.albany.edu]

الصراع المقبل على تدفقات رأس المال

بقلم: روبرت ويد*

ترجمة: محمد يونس

يكمن المحك الرئيسي - الذي يثبت أن المرء يتمتع بذكاء من الدرجة الأولى - يكمن على حد تعبير سكوت فيتز جيرالر في القدرة على تبني وجهتي نظر متعارضتين دون أن يفقد المرء صوابه.

وفي حالة الاقتصاد المتقلب في عصرنا هذا فإن مثل هذه القدرة ضرورة لكي يحتفظ المرء بصوابه بل وبقائه. ففي أحد الأيام يخفض بنك الاحتياطي الفيدرالي أسعار الفائدة ويرتفع مؤشر داوجونز بمقدار 350 نقطة ويحمل التالي أنباء عن اضطراب في البرازيل فينخفض المؤشر. وبعد أسبوع يبدو أن الوضع في سبيله للاستقرار، إلا أن آلان جرينسبان رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي في الأسبوع التالي يبلغ مجموعة من الخبراء الاقتصاديين العاملين في الشركات أنه - وهو المتابع لمجريات الاقتصاد على مدى خمسين عاما - لم ير مثيلا للصدمات التي يمر بها العالم اليوم.

وفي قصة «ساحر أوز» عبرت دوروثي عن فكرة مماثلة لتوتو حين قالت: «أشعر بأننا لم نعد في كنساس» وربما لو عبر عن ذلك جون مانيارد كيتر لصاح قائلا: «نحن نعيش في «زمن غير عادي»»، زمن تحظى فيه الفرضية التقليدية عن استمرارية الوضع القائم إلى أجل غير مسمى بقدر أقل من القبول، على الرغم من أنه لا توجد أسباب واضحة لتوقع تغيير محدد، زمن تتقلب فيه مشاعر السوق (نتيجة لذلك) بين التفاؤل والتشاؤم دون مسوغ، رغم عدم وجود أساس راسخ ومشروع بمعنى ما أو أساس مبني على الحسابات». وبتعبير أبسط، زمن تطور فيه لدى المستثمرين ثقة قوية في التوقعات الاقتصادية، وعندما تثبت مجريات الأمور أن هذه الثقة لم تكن في محلها يفقدون الثقة في مثل هذه الممارسات ليدخلوا بذلك في «زمن غير عادي». وعند هذا الحد تتقلب المشاعر صعودا وهبوطاً دون أن يكون لذلك أساس على الإطلاق. ويكون هذا التقلب للمشاعر أكبر قدراً في عالم الأوراق المالية الثانوية أو ما يعرف باسم «المشتقات»، تلك الأوراق التي نعرف الآن أنها تضاعف في الواقع حجم المخاطر التي كان من المفترض أنها تأمننا منها.

العنوان الأصلي للمقال: The Coming fight over Capital Flows ونشر في مجلة Foreign Policy عدد شتاء 1998 - 1999.

* أستاذ العلوم السياسية والاقتصاد السياسي الدولي في جامعة براون ومؤلف كتاب «التحكم في السوق» الصادر في برنستون عن مطبعة جامعة برنستون عام 1990.

الطريق الثالث

في الأزمات غير العادية ينصت الناس للأنبياء، ويستلهم السياسيون النبوات. ولا يكاد يمر أسبوع دون أن تشيد إحدى الشخصيات العامة لاسيما في أوروبا والولايات المتحدة بالطريق الثالث القادم، طريق «ما بعد الأيديولوجية» المفضي إلى الاستقرار والتقدم. والطريق الثالث يبشرنا بأنه يرسم الخريطة التي توضح نهجاً يقع بين ليبرالية السوق والعدالة الاجتماعية، لتمدين السوق دون إحلال حكومة ضخمة محله، فهو يهدف إلى إعطاء قدر من الثقة بأن الأمور تحت السيطرة في المقام الأول وأنها تسير في الاتجاه الصحيح.

يقول توني بلير رئيس الوزراء البريطاني وأحد المنظرين الرئيسيين للطريق الثالث: «نحن نحتاج إلى الاستقامة المالية وإلى دور مختلف للحكومة كداعم لا كعائل. لم يعد يلزمنا العكوف على نماذجنا القديمة وأعتقد أن بوسعنا أن نصوغ سياسة تليق بالقرن الواحد والعشرين». وعندما كان يقوم بزيارة للصين في أكتوبر عام 1998 أصبح هو ورئيس الوزراء الصيني تشو رونجي صديقين حميمين بعد أن جمع بينهما الاتفاق في وجهة النظر حول الطريق الثالث، وأبديا مظاهر صداقة متبادلة لم تشهد العلاقات بين البلدين مثلها منذ تفجر الخلاف بينهما حول هونج كونج عام 1992.

ولكن النماذج القديمة التي عمد الطريق الثالث إلى القضاء عليها فرضت خيارات صعبة على أقل تقدير في قضايا مثل خفض الضرائب والإنفاق وإعادة التوزيع، في حين أن الطريق الثالث لا يفترض مثل هذه الخيارات فهو قادم من أرض الأسطورة التي يمكنك فيها أن تأكل رغيفك وأن تحتفظ به في الوقت نفسه، فهو لا يتجاهل فحسب التناقض بين تخفيض الضرائب لمصلحة الطبقات الوسطى والمزيد من الإنفاق الحكومي لتحسين ظروف معيشة الفقراء، بل يستحضر أممية أعيد لها الشباب تحل التناقض بين مصالح رأس المال الدولي ومصالح الشعب العامل. ويتحدث المدافعون عن الطريق الثالث عن الحاجة إلى المزيد من «الشفافية» أو الإفصاح عن المعلومات فيما يختص بالتمويل الدولي، غير أن كلامهم قليل عن ضرورة الحد من مقدار التمويلات التي توجه إلى أنشطة المضاربة، وعن وقف تلك العاصفة التي هبت على الاقتصاد العالمي لتعصف ببنوك وبلاد بأكملها.

ويشترك الطريق الثالث مع مدرسة السوق الحرة في الاعتقاد بأن هناك نهجا نموذجيا أفضل يصلح لجميع الدول ضمن نظام مالي عالمي يخضع فيه الجميع للقواعد نفسها. ومع ذلك فإن العالم مازال خاضعا، لا للخيارات الصعبة المتعلقة بتوزيع الدخل والسلطة بين رأس المال والعمل فحسب، بل للخلافات الصارخة بين الأمم في أهدافها الاقتصادية ومصالحها. وعلى الرغم من دعوة القادة السياسيين للطريق الثالث فإن كلا منهم ينتهج في الخفاء طريقه الخاص.

ولدى مواجهة الأزمة الاقتصادية في آسيا والانخفاض المطرد للنشاط الاقتصادي على المستوى العالمي برزت خلافات عميقة بين الولايات المتحدة من جانب وآسيا وأوروبا من جانب آخر. وتنصب هذه الخلافات على نحو مباشر على المخطط الأمريكي الرامي إلى إيجاد نظام مالي عالمي جديد، وعلى القيادة الأمريكية للاقتصاد العالمي.

فالولايات المتحدة تعتقد أولاً أن الاضطراب المالي الراهن في آسيا وأمريكا اللاتينية وروسيا

له أسبابه الداخلية، لاسيما فساد النظام المصرفي الذي يؤدي إلى سوء تخصيص الموارد وأبعادها عن الاستخدام الأمثل، ويطلق تعبير «رأسمالية الأصدقاء أو الأقران» على مثل هذه العلل الداخلية التي تصيب الاقتصاد، ويميل صندوق النقد الدولي إلى الاتفاق مع التشخيص الأمريكي، ومن ثم فإنه يطلب المزيد من الانفتاح الرأسمالي كشرط لتقديم قروض إنقاذ كبيرة لكل من أندونيسيا وكوريا الجنوبية وتايلاند.

ولا تتفق آسيا والاتحاد الأوروبي مع وجهة النظر هذه، وفي المقابل يعتقد أن الأزمة الآسيوية ترجع في جذورها إلى التحرر الاقتصادي المفرط الذي قامت به حكومات المنطقة إبان التسعينيات، وهي الإصلاحات التي شجعها صندوق النقد الدولي.

فقد سمحت هذه التحولات بمضاربة ضخمة فاقمها التدفقات الرأسمالية الناتجة عن الاستثمار في سوق الأوراق المالية وسوق العقارات والصناعة. وكان معظم هذه التدفقات في صورة قروض للشركات المحلية. فخلال الاندفاع المتعجل لرفع القيود المالية حدث تضخم في الدين الخاص للجهات المقرضة دون تنسيق أو تنظيم سواء من جانب الدول المقرضة أو المقترضة. لقد كان «جزاء» تحرير رأس المال هو الانهيار المروع، ويرى الأوروبيون والآسيويون نتيجة لذلك أن الحلول الأطول أمداً تتطلب أن تكون الأسواق الدولية مشمولة بعمق بقواعد وقيود تحددها هيئات حكومية وهيئات متعددة الأطراف.

ومن ناحية ثانية فإن الولايات المتحدة تقترح نظاماً ماليا عالميا جديداً يرتكز على الشفافية والمحاسبية وعلى معايير عالمية موحدة والحد من نطاق «الأضرار المعنوية» وعلى حرية حركة رأس المال. أما الاتحاد الأوروبي فإنه يقترح بحذر نظاماً ماليا عالميا جديداً يتم فيه تقسيم العالم إلى مناطق نقدية، كل منطقة منها تتمتع بدرجة من الحماية، من خلال قيود حكومية على حركة رأس المال - وتحظى هذه الفكرة أيضاً بتأييد في آسيا، وتقلل الولايات المتحدة من أهمية هذا التقارب في وجهات النظر حول هذه الاقتراحات بين أوروبا وآسيا.

والسياق الذي يجري فيه هذا التقارب هو تردي الاقتصاد العالمي، فما بدأ على أنه أزمة في تايلاند في يوليو عام 1997، أصبح أزمة آسيوية بحلول نهاية هذا العام. فالتحول المفاجئ إلى النمو السلبي في منطقة كانت من أكبر مناطق العالم نمواً أدى إلى موجة متناقضة تفشت في الاقتصاد العالمي مما نجم عنه آثار دورية ضارة في مناطق أخرى، وثبت أن المركب الذي يجمع بين التضخم والديون والتكامل بدرجة عالية وبين الأسواق الدولية مركب متفجر. فالتدفقات المالية الدولية دون قيود، والأرصدة المالية الضخمة في صناديق التحوط Hedge funds والعملات، أصبحت عرضة لهجمات المضاربة، مما يؤدي إما إلى تخفيضات حادة في قيمة العملات أو زيادات في أسعار الفائدة من شأنها أن تؤدي إلى انكماش الاقتصادات المحلية. فالمستثمرون يرون الآن الخطر محدقاً بهم من كل جانب وانسحابهم من أحد الأسواق يؤدي إلى انسحابهم من أسواق أخرى. وفي غضون ستة أسابيع فقط بين منتصف يوليو وأواخر أغسطس 1998 انخفضت مؤشرات البورصات في الأسواق الناشئة بما يزيد على 30 في المائة.

وفي آسيا، احتكر صندوق النقد الدولي تقريبا جهود الإنقاذ، وكان هذا بدوره يدار من قبل وزارة الخزانة الأمريكية. واستغل الصندوق سيطرته على معونات الإنقاذ في الحصول على نوعين من التغيرات السياسية في الدول التي تأثرت بالأزمة.

أولهما تقييد الطلب المحلي باستخدام أسعار فائدة أكبر، وخفض الإنفاق الحكومي، وفرض ضرائب أكثر قسوة بهدف جعل العملة أكثر استقراراً مما ييسر على الدول سداد ديونها. وثانيهما هو إنجاز إصلاحات تحررية في المالية وفي إدارة الشركات وأسواق العمل. ومارس الصندوق ضغوطاً على الحكومات على نحو خاص لحملها على تسهيل حركة رأس المال دخولاً وخروجا من بلادها (أو بمعنى آخر تحرير حساباتها الرأسمالية) وذلك على الرغم من أنه أكد عشية الأزمة أيضا على الدعم المتكامل للتنظيم المالي والإشراف على المالية.

وتعرضت استراتيجية الصندوق للانتقاد من مختلف الاتجاهات السياسية. ومنذ الربع الثاني من عام 1998 اتجهت الحكومات الآسيوية لتخفيف برامج التقشف الصارمة التي أوصى بها الصندوق. وزادت من الطلب المحلي وفرضت قيوداً على حرية تنقل رأس المال عبر الحدود الوطنية. وتسارع هذا الاتجاه في أغسطس وسبتمبر إلى حد جعل صحيفة وول ستريت جورنال تصفه بأنه حركة ارتجاعية مفاجئة تشكل «أخطر تحد حتى الآن لفكر السوق الحرة التقليدي الذي تم تبنيه على نطاق عالمي منذ انتهاء الحرب الباردة». وفي غضون ذلك خرج عدد من القادة الأوروبيين عن مسارهم المألوف وتنصلوا من خطط الولايات المتحدة لإقامة انتعاش عالمي ونظام مالي عالمي جديد. والواقع أن المؤرخين عندما يعيدون النظر في أواخر صيف عام 1998 فربما يرون تماماً أنها تمثل نقطة ارتكاز في الاقتصاد الدولي منذ نهاية الحرب الباردة.

خلافات تستعصي على الحل

إن التباطؤ الاقتصادي الكبير قد أدى إلى بروز خلافات في السياسات بين الولايات المتحدة وآسيا وأوروبا. ولكن ما المصالح الكامنة وراء الاختلاف بين خطط الولايات المتحدة الخاصة بالاقتصاد وبين خطط الدول الآسيوية والأوروبية؟

الولايات المتحدة

إن للولايات المتحدة اهتماماً قويا بالحفاظ على حرية حركة رأس المال على النطاق العالمي وتوسيع نطاق هذه الحرية. ولقد أحرز تحرير التجارة تقدماً في العقد الماضي إلى حد جعل تحرير رأس المال يحل محله ليحتل المكانة الأولى في قائمة أولويات السياسة الاقتصادية الخارجية للولايات المتحدة، ويرجع ذلك في جانب منه إلى أن الولايات المتحدة تحتاج إلى استيعاب مدخرات دول العالم الأخرى، وهذا أمر سوف يكون أيسر في حالة كون أسواق العالم المالية بينها درجة كبيرة من الاندماج والتكامل. ذلك أن معدل الادخار الأمريكي منخفض للغاية بالمعايير الدولية. فمعدل مدخراتها الإجمالي منسوب إلى إجمالي ناتجها المحلي، يأتي في ذيل القائمة بين الدول الصناعية الرئيسية (بما فيها بريطانيا)، كما أن معدل مدخرات الأسرة فيها منسوباً إلى دخلها القابل للتصرف منخفض عن الدول الصناعية إلى حد بعيد. ولكي تحافظ الولايات المتحدة على مستوياتها المرتفعة من الاستهلاك والاستثمار يتعين عليها أن تقترض من سائر دول العالم الأخرى. أما البديل - وهو تمويل الاستثمارات عن طريق زيادة المدخرات المحلية - فإنه يتطلب تخفيضاً حادا في الاستهلاك (بما يسمح بمزيد من المدخرات) الأمر الذي يتسبب في ركود واسع النطاق.

وفضلا عن ذلك فإن بنوك وول ستريت

وشركات السمسرة فيه ترغب في توسيع نطاق مبيعاتها عن طريق التجارة في الأسواق الناهضة، التي كانت تشهد قبل حدوث الأزمة معدل نمو أسرع لأسواقها المحلية. ولكن الضوابط المفروضة على رأس المال ومختلف أنواع المعوقات الأخرى في هذه الأسواق تحول دون حدوث مثل هذا التوسع، فلا غرابة في أن الشركات الأمريكية ترغب في إزالة هذه المعوقات أو القيود. ويقف وراء شركات وول ستريت المدخرون وأرباب المعاشات الذين يرغبون في ضمان إيداع مدخراتهم في الاستثمارات التي تغل عائدات أكبر.

وختاما فإن من أكثر الأسباب جوهرية التي تجعل الولايات المتحدة تحتاج إلى أسواق غير مقيدة هو الآثار الأوسع نطاقا التي تنتج عن حرية انتقال رأس المال على الاقتصاد السياسي الوطني للدول الأخرى. ففي مصلحة الولايات المتحدة أن يسير العالم وفقا للقواعد الأمريكية في مجال المالية الدولية والشركات متعددة الجنسيات، والهدف من ذلك هو جعل العالم بأسره يتبنى الترتيبات المتمثلة نفسها في سيطرة حملة الأسهم وأسواق العمل المتحررة والضرائب المنخفضة ودولة الرعاية التي يكون وجودها في أضيق الحدود وهي الترتيبات التي تتمتع بها الشركات الأمريكية في الداخل. فالشركات الأمريكية يمكنها، والحالة هذه، أن تتحرك على نحو أيسر من مكان إلى آخر وأن تتنافس مع الشركات الوطنية أو الإقليمية على قدم المساواة بقدر أكبر. وهذا الهدف مهم على نحو خاص في آسيا، لأن نظام علاقات السوق طويلة الأمد الآسيوي وكذلك رأس المال الصبور (بمعنى أن المستثمرين أكثر استعدادا لانتظار العائدات لمدة أطول) تضع الشركات الأمريكية في وضع أضعف إلى حد كبير.

وتعتبر الولايات المتحدة حرية تحرك رأس المال بمثابة الإسفين الذي من شأنه أن يجبر اقتصادات الدول الأخرى على التحرك في اتجاهها. والواقع أن الأزمة الآسيوية تأكيد بشع على أن سياسة التحري المالي وانفتاح الحسابات الجارية للدول تجعل من الصعب بدرجة أكبر الحفاظ على ترتيبات العلاقات طويلة الأمد والسياسة الصناعية الوطنية التي تسود الاقتصاد السياسي الآسيوي.

وبعبارة أخرى هناك التقاء كبير في المصالح بين وول ستريت والشركات متعددة الجنسيات فيما يختص سياسة انفتاح الحسابات الجارية على المستوى العالمي. واستجابة لذلك فإن وزارة الخزانة الأمريكية تقود حملة تهدف إلى حمل المؤسسات الاقتصادية والمالية الدولية على تشجيع تحرير رأس المال. ومن قبيل هذه الجهود أيضا عملية إعادة النظر في دستور صندوق النقد الدولي أو بنود اتفاقية الصندوق بحيث ينص على التزام الدول تحرير حساباتها الجارية كشرط للعضوية. ومن بين جهود الحملة أيضا اتفاقية الخدمات المالية في إطار منظمة التجارة العالمية، فكثير من الدول النامية لاسيما في آسيا عارضت هذه الاتفاقية عندما جرى التفاوض بشأنها عامي 1996 و1997. ثم جاءت الأزمة التايلاندية، وبحلول ديسمبر تخلى القادة الآسيويون عن اعتراضاتهم ووقعوا على اتفاقية تفتح سوق الأسهم والتأمين والمصارف في بلادهم أمام الشركات الأجنبية، حيث لم يكن أمامهم بديل لذلك. فإما أن يوقعوا أو لا تقبل الولايات المتحدة وصندوق النقد الدولي على المساعدة في الخروج من الأزمة.

ومنذ صيف عام 1998 عندما بدأت الأزمة تنتشر وتقترب من البيت الأمريكي حدث تحول في النقاش في الولايات المتحدة إلى حد ما.

فحتى ذلك الحين كانت فكرة فرض ضوابط على رأس المال فكرة مرفوضة باعتبارها من أفكار اليسار المهووس. أما الآن فهناك مجالات تعبر عن التيار الرئيسي السائد مثل «فورشن» و«بيزينس ويك» تقيم هذه الفكرة وما لها ما عليها. وأصبح من المقبول على نطاق أكثر اتساعا القول إن الموجة الانكماشية لن تنحسر دون القيام بعمل للحد من تحركات رأس المال. فالذعر يمكن أن يكتسح في طريقه حتى «الأساسيات» والأسواق المذعورة تحتاج إلى السدود والتحصينات وغير ذلك من وسائل التحكم لكي تتفادى أضرار الموجة الانكماشية الوشيكة. ولكن على الرغم من تغير لهجة النقاش في الولايات المتحدة فإن الموقف الرسمي الأمريكي مازال على حاله كما أن المعارضة من جانب وول ستريت لفرض ضوابط على رأس المال قوية.

آسيا

علمت الأزمة الحكومات الآسيوية إلى أي حد هو خطر أن تفتح اقتصاداتها أمام تدفق التمويل قصير الأجل دخولا وخروجا. فقد فرضت ماليزيا قيودا على أسعار الصرف في أول سبتمبر1998 ردا على هجمات المضاربة على عملتها واستنزاف احتياطاتها النقدية. واستهدفت هذه القيود أو الضوابط أيضا تمكين الحكومة من خفض أسعار الفائدة وتوسيع نطاق الطلب دون أن تنخفض العملة الوطنية «الرنجيت» إلى الحضيض، وفي أغسطس وسبتمبر فرضت حكومة هونج كونج التي كانت تعد مثالا للحكومة المدافعة عن السوق الحرة، فرضت قيودا على مختلف أشكال التعاملات التي تنطوي على مضاربة على دولار هونج كونج وعلى الأسهم في بورصتها في مواجهة الهجمات الشرسة من صناديق التحوط Hedge Funds. وضمن تدابيرها الدفاعية اشترت الحكومة 6 في المائة من الأسهم المطروحة في السوق لكي تحافظ على الأسعار عند مستوى مرتفع، كما اشترت حصة «وطنية» ضخمة في شركات هونج كونج الخاصة وأصبحت أكبر حائز للأسهم في منطقة هونج كونج. وعمدت حكومة تايوان في أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر إلى التدخل ضد المضاربين، وإلى الحد من تدفق التمويلات من البلاد وإليها. كما أن الحكومة اليابانية فكرت جديا في فرض ضوابط على رأس المال في اليابان وباركت فرض هذه الضوابط في مختلف أنحاء آسيا. وفي سبتمبر عام 1998 قال أيسوكي سكاكيبارا نائب وزير المالية للشؤون الدولية أن حكومته ترجو من مجموعة السبع ونادي الدول السبع الصناعية الكبرى أن يعيدا النظر في السياسات الرامية إلى تحرير رأس المال. وأعربت الصين أيضا عن مساندتها لهذه التطورات.

وكان رد فعل صندوق النقد الدولي والولايات المتحدة هو الانتقاد الشديد لذلك، وقال ميشيل كامديسو المدير العام للصندوق أن الضوابط التي فرضتها ماليزيا على أسعار الصرف «خطيرة وضارة في الواقع». وقال روبرت روبن وزير الخزانة الأمريكي «إن الإجراءات التي اتخذتها ماليزيا أمس تقلق الولايات المتحدة... ومن الواضح أن هذه ليست الطريقة التي نرى أنها أفضل السبل المفضية للنمو الاقتصادي والاستقرار مع مضي الزمن». وصرح آلان جرينسبان في تعليق له على مخاطر فرض قيود على رأس المال قائلا: «إن الاستقرار النسبي في الصين والهند، وهما بلدان يفرضان قيودا على تدفقات رؤوس الأموال الأجنبية، جعلهما

بمعزل عن الاضطرابات المالية الهائلة التي تحدث في الوقت الراهن، وقد حدا ذلك بالبعض إلى استنتاج أن الحرية النسبية لتدفق رأس المال ضارة بالنمو الاقتصادي وتؤثر على مستويات المعيشة. ومثل هذا الاستنتاج خاطئ قطعا. ولاشك أن رئيس بنك الاحتياطي الفيدرالي يستخدم لهجة حادة وتنطوي على مبالغة حين يقول إن هذا الاستنتاج «خاطئ قطعا».

إن الحكومات الآسيوية ترى أن فرض قيود على رأس المال وسيلة لمنع اقتصاداتها من الانحدار في هوة عدم الاستقرار نتيجة للتدفق السريع لرأس المال دخولا وخروجا. ومثل هذا المنع ضروري جدا نظرا لأن المنطقة تفتقر إلى الخبرة في التعامل مع أسواق رأس المال الدولية كما أن التنظيم القانوني لقطاع المصارف فيها والإشراف عليه يتسمان بالضعف... والخبرة وفاعلية الإشراف يستغرقان سنوات لإرسائها. وفضلا عن ذلك هناك سبب مباشر لفرض قيود على حركة رأس المال، فالحكومات الآسيوية تنتهج سياسات التوسع المالي والنقدي لكي تواجه تباطؤ النمو. وهي تخشى من أن تواجه المزيد من انهيار العملة - حينما تنتاب المستثمرين مخاوف من التضخم أو من انخفاض أسعار الفائدة فيندفعون للخروج الفوري - ما لم تفرض قيود على حرية خروج رأس المال من البلاد.

وفضلا عن ذلك فإن تعاظم اتجاه آسيا لفرض قيود على حركة رأس المال يرتكز على يقين لدى الآسيويين بأن اقتصاداتهم في غنى عن الاعتماد على مدخرات دول العالم الأخرى. فهم من أكثر الدول ادخارا في العالم (حيث يبلغ معدل ادخارهم المعهود 35 في المائة من إجمالي الناتج المحلي أو ما يزيد على ذلك مقارنة بمعدل الادخار الأمريكي الذي يبلغ 15 في المائة). وهم لا يمكنهم حتى استثمار مدخراتهم المحلية فما حاجتهم لمزيد من المدخرات التي تأتي من الخارج.

كما أن مفاهيم الآسيويين عن مصالحهم يلعب الاستياء من نشوة الأمريكيين بالانتصار دورا في تشكيلها. ولقد حذر رئيس الوزراء الماليزي محاضر محمد شعبة من مخاطر عودة استعمار القوى الأجنبية. ولاحظ هنري كيسنجر أنه حتى «أصدقاؤنا الآسيويون الذين أكن احتراما لآرائهم المعتدلة يرون أن آسيا تواجه حملة أمريكية ترمي إلى كبح المنافسة الآسيوية».

أما بالنسبة للحد الذي بلغته الشركات الأجنبية في عملية اقتناصها للصفقات في آسيا فلم يتضح بعد، غير أن كثيرا من الناس في المنطقة يعتقدون أن عملية تحول الممتلكات كبيرة للغاية، وكان الدافع وراءها مشاعر عبر عنها رئيس أحد المصارف الاستثمارية التي تعمل من لندن قائلا: «إذا كان هناك شيء يستحق في الأمس مليار دولار وأصبح الآن يستحق 50 مليار دولار فإن ذلك يبعث على الشعور بالاستفزاز تماما». أو ربما كان وراءها تلك المشاعر التي عبر عنها خبير الاستثمار أندرو ميلون حين قال منذ أكثر من خمسين عاما «في الانكماش تعود الأصول إلى ملاكها الحقيقيين».

أوروبا

كانت الخلافات مع أوروبا واضحة في رد فعلها على عرض الرئيس بيل كلينتون للخطوط العريضة للاستراتيجية الأمريكية لكبح الأزمة المالية التي يتسع نطاق انتشارها. في 14 سبتمبر 1998 اقترح كلينتون إصلاحا شاملا للأنظمة المالية الفاسدة في جميع أنحاء العالم، ومكافأة الدول

التي تحرز تقدما جيدا بسيولة نقدية سخية من صندوق النقد الدولي وغيره من قنوات التمويل. واقترح أيضا خفضا منسقا لأسعار الفائدة من جانب الولايات المتحدة وأوروبا لدعم التوسع في الاقتصاد العالمي. وفي اليوم التالي حذر ثلاثة من أعضاء البوند سبنك الألماني من الخفض المنسق لأسعار الفائدة من جانب الدول الأوروبية. وأعرب مسؤولون فرنسيون من بينهم وزير الخارجية عن اتفاقهم مع هذا الرأي. وقال بعض القادة الأوروبيين أن الولايات المتحدة أكثر عرضة للعدوى بالأنفلونزا الآسيوية الأمر الذي يعني ضمنا أنهم لا يخشون العدوى.

ويعكس الرفض الأوروبي - لاسيما الألماني - للتعاون مع الولايات المتحدة في إجراء تخفيض منسق لأسعار الفائدة الانشغال الأوروبي بالتضخم. غير أن انتخاب حكومة الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ألمانيا في نهاية سبتمبر 1998، أتى إلى السلطة بأناس أكثر انشغالا بخفض البطالة من اهتمامهم بخفض التضخم. وبدأ الموقف الألماني بشأن ضرورة رفع أسعار الفائدة في اللين. ونتيجة لذلك فإن أولويات الحكومة الألمانية تبدو الآن أكثر شبها بموقف نظيرتها الاشتراكية في فرنسا. وتقاربهما فيما يتعلق بالتوسع في الطلب وتوفير فرص عمل قد أديا إلى توتر جديد داخل أوروبا بينهما وبين البوند سبنك والبنك المركزي الأوروبي اللذين يواصلان الالتزام بالحد من التضخم.

وزادت الحكومة الألمانية معارضة الاتحاد الأوروبي لتحرير رأس المال شدة. ويشعر المسؤولون عن السياسة الأوروبية بالقلق من هشاشة النظم المالية الأوروبية في مواجهة التدفقات الحرة لرأس المال لاسيما عندما تتحول السياسة إلى التوسع في الطلب. فالنظم المالية في القارة تهيمن عليها البنوك، ونصف هذه البنوك حكومية أو يتلقى دعما حكوميا وتأتي أرباح هذه البنوك في معظمها من دخل الفائدة (في حين أن البنوك الأمريكية في المقابل تحصل على أرباح أكبر من المعاملات التجارية مثل التعاملات في مقايضة الأصول الرأسمالية والمشتقات أو الأوراق الثانوية). وانفتاح هذه النظم على تحركات رأس المال بحرية من شأنه أن يؤدي إلى تقليص دخول البنوك من الفائدة ومن ثم يحرمها من تحقيق أرباح. ومن المعتقد أن هذه البنوك تعاني من تراكم الديون المعدومة، كما أن هناك قدرا من الافتقار للشفافية والإفصاح عن المعلومات المالية الأوروبية مما يجعل من الصعب الحكم على نوعية هذه الديون.

ويمكن أن تمثل هشاشة النظم المالية الأوروبية خطرا على اليورو الذي أطلق في مطلع العام الماضي، حيث ينظر الأوروبيون إلى اليورو والاتحاد النقدي على أنهما تتويج لعملية إعادة بناء دامت نصف قرن فيما بعد الحرب. كما أنهم ينظرون إليه أيضا في المقام الأول على أنه مشروع سياسي وهم مستعدون لدفع تكاليف اقتصادية باهظة للحفاظ عليه، تكاليف يهون من شأنها بعض المعلقين الأمريكيين في غالب الأحيان. وهم يبذلون كل ما يملكون من جهد للحفاظ على استمرار اليورو والاتحاد النقدي في مواجهة الأزمات العالمية الراهنة بما في ذلك وضع ضوابط لمنع حدوث طفرة في تدفقات رأس المال.

كما أن الأوروبيين يضعون في حسبانهم أن سياسات فرض قيود على حركة رأس المال واستقرار اليورو من شأنهما أن يجعلا اليورو عملة احتياطية أكثر جاذبية من الدولار. وحينئذ فإن أوروبا سوف تكتسب وزنا أكبر وتكون قراراتها أكثر حسما بالنسبة للاقتصاد العالمي.

وفضلا عن اهتمام الأوروبيين بأنفسهم فإن قادتهم أكثر استعدادا من نظرائهم الأمريكيين للاعتراف بالضرر الناتج عن التحرك السريع

لرأس المال ودوره في الأزمة الآسيوية ومن ثم مساندة الدعوة لأن تكون القيود على حركة رأس المالي جزءا لا يتجزأ من بنية النظام المالي العالمي الجديد. والواقع أنه بعد قليل من اتخاذ السلطات في هونج كونج قرارها بالتدخل في أسواقها باركت الحكومة البريطانية - أقل الحكومات الأوروبية «أوروبية» - هذا التدخل وعلقت على ذلك قائلة « نحن نتعاطف مع قلق هونج كونج فيما يختص بالآثار التي تخلفها التدفقات الكبيرة والسريعة على الأسواق المالية من تشوهات وعدم استقرار». ولأن لديهم سجلا أطول مدى من الذكريات فإن الأوروبيين مازال ماثلا في أذهانهم أن معظم دول منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية كان لديها حتى الثمانينيات ضوابط مفروضة على رأس المال. ونظرا لحداثة التخلص من مثل هذه القيود على رأس المال في الدولة الغنية فإن ذلك يجعل من الصعب القول إن القيود على رأس المال ضارة بطبيعتها بالنمو.

وعلى مستوى أوسع نطاقا فإن معظم الزعماء الأوروبيين في الوقت الراهن يميلون إلى الاعتقاد بالتحكم في السوق. وبعد فوز الحزب الاشتراكي الديمقراطي في ألمانيا أصبح 13 من 15 حكومة في الاتحاد الأوروبي من يسار الوسط. وأصبح من المقبول الآن مشاركة رئيس الوزراء الفرنسي ليونيل جوسبان في إعلانه أن « الرأسمالية هي ألد أعداء نفسها. والأزمة التي نشهدها تعلمنا ثلاثة أمور: أن الرأسمالية مازالت غير مستقرة، وأن الاقتصاد سياسي، وأن الاقتصاد العالمي يتطلب فرض القيود والضوابط».

ولهذه الأسباب مجتمعة فإن القادة الأوروبيين يميلون لمعارضة الاندفاع الأمريكي صوب إقامة نظام عالمي يقوم على الأسواق الحرة. وهم يعارضون الخطط الأمريكية في مجالات أخرى كذلك. وفي الاجتماع السنوي للبنك الدولي وصندوق النقد الدولي في مطلع أكتوبر 1998 دعا الزعماء الأوروبيون إلى أن تكون اللجنة المؤقتة للصندوق هي الهيئة المركزية لمناقشة المبادرات الجديدة بالنسبة لإدارة الاقتصاد العالمي والاتفاق عليها (يذكر أن تسيير الأمور اليومية للصندوق هو مسؤولية مجلس المديرين الذي يضم مسؤولين من مستوى أقل من الدول الأعضاء في حين أن اللجنة المؤقتة ذات مستوى أعلى وتضم وزراء المالية في الدول الأعضاء).

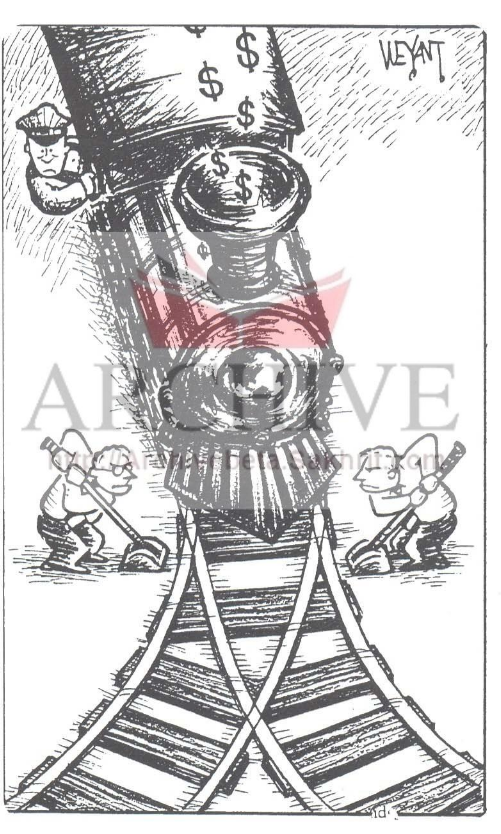
والدعوة الأوروبية تعارض ضمنا الخطة الأمريكية لرفع مستوى أهمية مجموعة الدول الاثنتين والعشرين في إدارة الاقتصاد العالمي وهذه المجموعة تضم دولا صناعية ونامية اختارتها الولايات المتحدة. وليس ذلك من قبيل المصادفة لأن الأوروبيين يتمتعون بتمثيل أفضل في اللجنة المؤقتة. كما أن الأوروبيين واليابانيين كان إسهامهم قليلا من صفقة الإنقاذ التي تم ترتيبها في أكتوبر 1998 للبرازيل حيث إنهم رأوا أن هذه المشكلة مشكلة أمريكية، والولايات المتحدة بدورها كانت ترغب في أن يلعب صندوق النقد الدولي دورا أكبر.

هل هو عالم واحد ورأسماليات متعددة؟

هناك مساحة هائلة انفتحت أمام المعارك السياسية، وإذا استمر الانكماش، وإذا ما رفع الأوروبيون واليابانيون حصتهم من خلال الحديث جديا عن مشروع مارشال جديد والقيام بعمليات شطب للديون كأساس جديد لمقاومة الانكماش في العالم فإن الولايات المتحدة من المنتظر أن تقدم تنازلات تكتيكية بشأن فرض قيود طوارئ على حركة رأس المال على اعتبار أن ذلك أهون الضررين. لكن الخلافات في المصالح خلافات حقيقية والولايات

المتحدة - ممثلة في وزارة الخزانة وول ستريت والشركات متعددة الجنسيات - سوف تواصل الضغط من أجل تحرير الأسواق على الصعيد العالمي بعدما تنتهي الحالة الطارئة.

ويرى بعض المراقبين من ذوي الميول اليسارية أن هناك تحولا تتضح معالمه تدريجيا عن فكرة الأسواق الحرة وأن هذا التحول يجري على قدم وساق. وعلى حد تعبير جون جراي أستاذ الفكر الأوروبي في كلية لندن للاقتصاد فإنه «في غضون عام أو نحو ذلك سوف يتعذر عليك العثور على شخص واحد يعتقد بأن السوق الحرة أسلوب رشيد في إدارة اقتصاد العالم».. وإذا حدث انهيار في وول ستريت ودخل الاقتصاد الأمريكي في ركود عميق فإن ذلك ربما يثبت أن ما يقوله جراي صحيح وإذا حدث العكس - أو حالما تكون نهاية مثل هذا الركود في وقت قريب بادية للعيان - فإن ذلك سوف يثبت خطأ قوله. والواقع أن اهتمام الولايات المتحدة بتحرير أسواق رأس المال أكثر نشاطا مما يقتضيه رأيه هذا ضمنا.



ومع ذلك لم يتضح بأي حال أن الولايات المتحدة سوف تكون الفائزة في ظل الخريطة السياسية التي شهدت تغيرا. ولقد أدت الأزمة الراهنة إلى تآكل شرعية فكرة إقامة نظام سوق عالمية متكاملة واحدة، ولا يقتصر ذلك على آسيا وأوروبا بل يشمل أيضا قطاعات نشطة سياسيا داخل المجتمع الأمريكي. ومع سير الأمور في هذا الاتجاه فإن ذلك يتيح لنا فرصة لإقامة نظم ومؤسسات تسمح لنا مستقبلا بأنواع مختلفة من الرأسماليات الوطنية أو الإقليمية التي تزدهر جنبا إلى جنب بدلا من التجمع حول نموذج أساسي واحد للرأسمالية.

ولقد كان نظام بريتون وودز الذي أقيم بعد الحرب يهدف إلى استقرار الاقتصاد الوطني والازدهار الاقتصادي الوطني في كل بلد لا إلى تعظيم تدفق التجارة الدولية وتدفق رأس المال على المستوى الدولي، وأثبت هذا النظام جدواه في حينه. وأعادتنا «ثورات» تاتشر وريجان في الثمانينيات إلى طريق السوق العالمية الحرة التي كانت قائمة في مطلع القرن العشرين. وردتنا السوق العالمية الحرة إلى حالة الاضطراب التي شهدتها فترة ما بين الحربين العالميتين: فخلال الثمانينيات والتسعينيات أفضت بنا إلى نمو اقتصادي أبطأ وإلى تفاوتات بين الناس تنمو بمعدلات سريعة، وأفضت بنا الآن إلى أزمة يقارنها عدد كبير من الناس في أنحاء العالم بالكساد الكبير في الثلاثينيات. وإذا كنا نتمتع بالحكمة فإن علينا أن نسعى في الوقت الراهن إلى إعادة إنشاء نظام عالمي يسمح بازدهار أشكال متعددة من الاقتصاد السياسي الوطني.

الديمقراطية وبدائلها في نظام عالمي للحكم

بقلم: ميبل بيريزين*

ترجمة: د. شهرت العالم

مراجعة : أحمد خضر

تمتد الديمقراطية والدولة - الأمة (nation - state) الحديثة امتدادا متماثلا في المكان والزمان. وتطرح العولمة في الميدان الاقتصادي، فضلاً عن تغير الحدود وانهيارها في الميدان السياسي، تحديات عديدة أمام الدولة - الأمة والممارسة الديمقراطية. وتتخذ الآن المواطنة، والهوية، والمجتمع المدني معاني جديدة عندما تواجه تغيرات سياسية واجتماعية، واسعة النطاق. كما أن العرقيات (ethnos) - وهي التعبير عن الخاص - تهدد، كتوجه ثقافي، التزام الديمقراطيات (demos). وتكمن المشكلة الرئيسية التي تواجهها الديمقراطية على المستوى العالمي في ظهور بدائل أخرى - القومية العرقية، العنف والفظاظة. ويستكشف هذا المقال كيفية ظهور العرقيات من الديمقراطيات، وإمكانات الحد من ذلك، علاوة على طرح نقاش معياري بشأن الولاء الديمقراطي والمساواة الاجتماعية.

---

* العنوان الأصلي للمقال: Democracy and its Others in Global Polity، ونشر في مجلة International Sociology عدد سبتمبر 1999.

* ميبل بيريزين أستاذة علم الاجتماع بجامعة كاليفورنيا، ومؤلفة كتاب «صنع الذات الفاشية: الثقافة السياسية في إيطاليا؛ ما بين الحربين»، وكتبت العديد من المقالات حول الفاشية وسياسات الثقافة.

وتدور كتاباتها الراهنة حول المشاركة المدنية والأشكال الجديدة للسياسية في أوروبا.

المكان في السياسة

كثيرا ما يحتل كتاب ألكسيس دي توكوفيل (Alexis de Tocqueville) - بعنوان «الديمقراطية في أمريكا» (Democracy in America) - موقعاً مركزياً في النقاش الدائر حول الديمقراطية والممارسة السياسية. ونادراً ما يلحظ الباحثون الذين يستشهدون بتوكوفيل أنه يبدأ بحثه بوصف «الشكل الخارجي لأمريكا الشمالية» (de Tocqueville, 1990: 17-25). إن قرار توكوفيل ببدء بحثه عن الديمقراطية بالمكان و - بشكل تقليدي - الجغرافيا، يعكس اعتقاده بأن المكان، كما وجده في أمريكا الشمالية واستدل عليه في الممارسة السياسية، يعد مكونا أساسيا من مكونات «نوعية الظروف العامة» (de Tocqueville, 1990: 3).

وانطلاقا من تلميحات توكوفيل ، فإن العولمة، سواء كمفهوم أو كواقع للحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية المعاصرة، تجبرنا على التساؤل حول الآثار الناجمة عن تغيير الحدود الإقليمية على الممارسات الديمقراطية والوجدان الديمقراطي. ونجد أن تصور هيرشمان (Hirschman, 1970) بشأن «الخروج، الصوت، والولاء»، يمثل أداة إطارية مناسبة للمعضلات التي تطرحها العولمة أمام المعاصرة. إن الديمقراطية، بمنحها «الصوت» للمواطنين، من المفترض أن تسفر عن «الولاء» لنظام الحكم المعرف قانوناً وللممارسات الديمقراطية. إن غياب «الصوت» أو خنقه يسفر إما عن عدم الولاء أو الخروج. كيف نتحدث عن «الخروج، والصوت، والولاء» في لحظة تشهد فيها الحدود الإقليمية تغيراً، كما هو الحال في أوروبا المعاصرة، أو انهياراً، كما هو الحال في أوروبا الشرقية السابقة؟ كيف يمكن لإنسان يمتلك «الصوت» في نظام للحكم يمر بمرحلة انتقالية متعاظمة، أو يشعر بمشاعر «الولاء» لكيان يتسم بالشمول والضبابية مثل كوكب الأرض؟ ما نوع الممارسة السياسية الممكنة عندما يكون خيار «الخروج» متاحاً لكل فرد؟

ويعالج هذا المقال، قضية الديمقراطية والثقافة في الفضاءات السياسية أينما تكون الحدود في حالة تغير متواصل(1). إن العرقيات باستعارة الكلمة من ويبر (Weber, 1978: 389)، تمثل «الإيمان» بمسألة «صلة النسب والارتباط الروحي للجماعة». وتعتبر «الذكريات» الجماعية لمختلف السلوكيات والمواقف الاجتماعية - مثل «عملية الاستيطان والهجرة» - بمثابة اختبارات قاسية للأنساب، والعرقيات مدركة من حيث الأصل، وليست بدائية أو بيولوجية - حتى إذا ما ادعت الجماعات العرقية فيما بعد أنها «طبيعية». إن الديمقراطية كنظرية سياسية تعود إلى أرسطو، والديمقراطية كممارسة مؤسسية تعد ظاهرة سياسية حديثة - بعد عام 1789 - ترتبط ارتباطاً تكاملياً بتطور الدولة - الأمة المقيدة إقليمياً. أما الدولة المدينية الديمقراطية الحديثة، فتحكم بين المطالب المتضاربة لمجتمع المشاركة ومجتمع الذاكرة داخل المجتمع السياسي للدولة - الأمة. وقد كانت الثقافة القومية المشيدة بمثابة المادة اللاصقة لمشروعات الدولة في أوروبا في القرن التاسع عشر، حيث أصبح «الفلاحون» هم «السادة الفرنسيين» و «اخترعت» «التقاليد» (Weber, 1976, Hobsbawn, 1983).

لم تكن الديمقراطية قضية إشكالية في العلم الاجتماعي الأمريكي والأوروبي في فترة ما بعد الحرب. فقد كانت التعددية والتحديث الإطارين التحليليين المركزيين لخطاب العلم الاجتماعي. كانت الديمقراطية أمرا جيداً، أما نقيضتها - التوتاليتارية - كما تجسدت في فاشية ما قبل الحرب وستالينية ما بعد الحرب - فقد كانت

أمراً سيئاً(2). ومع ابتعاد أعوام العشرينيات والثلاثينيات زمنياً، وتقلص توتر الحرب الباردة، تضاءل الاهتمام بالعلم الاجتماعي(3). إن جيلاً جديداً من الباحثين الدوليين - شارك عديدون منهم في السياسة الطلابية في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات - قد بدأ تدريجياً وببطء في وضع الديمقراطية، فضلاً عن المجتمع المدني والهوية والحركات الاجتماعية الجديدة، على جدول أعمال العلم الاجتماعي (على سبيل المثال: Mouffe and Laclu, 1985, Keane, 1988, Barber, 1984, Cohen, 1985, Cohen and Rogers, 1983).

لقد لحق التاريخ بهذه المصطلحات، إذ أخذت تبرز في النظرية الاجتماعية والسياسية. فقد أدت أحداث 1989 في أوروبا الشرقية السابقة والصين، وفي معاهدة ماستريخت لعام 1993 في أوروبا، إلى شيوع استخدام هذه المصطلحات قبل الاتفاق حول المفاهيم. لقد كانت المقولات والأحداث تتغير بالتزامن مع ما أنتجه فيلق العلماء الاجتماعيين من مقالات ورسائل علمية للإمساك بزمام اللحظة التاريخية.

بعد مرور 10 سنوات على الأحداث، استمرت المقولات الاسمية بحيث أصبحت مألوفة أكثر من الدقة التحليلية. وتعد أزمة الدولة - الأمة والهوية والمواطنة والمجتمع المدني،هي إطار المناقشات المعاصرة حول العولمة والديمقراطية والثقافة السياسية. كما أن قضية الهوية السياسية - قضية كيف يمكن للمرء أن يعرّف الذات ويصنفها في الفضاء السياسي - قد برزت على نحو خاص، على ضوء ما شهدته الدولة - الأمة من تجزئة أو إضعاف. إن المواطنة وهي البوابة الموصلة إلى العضوية في نظام الحكم - تعد شكلاً قانونياً ومحسوساً من الاندماج، وعادة ما تمثل محور النقاشات الدائرة حول الهوية الوطنية. ويعتبر المجتمع المدني ومجال العمل العام ساحة للخطاب الديمقراطي والممارسة الديمقراطية. كما تثير التحديات المطروحة أمام الهيئة القانونية للدولة - الأمة مسألة أنطولوجية حول أين ننتمي - إنه فضاء الممارسة السياسية.

ويحاول هذا المقال تشذيب مفاهيم الهوية والمواطنة والمجتمع المدني والديمقراطية على ضوء الأحداث التاريخية. وفي الجزء المتبقي من هذا المدخل، سوف أتناول هذه المصطلحات تفصيلاً، وأناقش كيف تسهم مقالات هذا العدد في النقاش وتعمل على توضيحه.

الهوية السياسية - من نحن؟

إن الهوية، بوصفها هوية، هي مسألة جديدة نسبياً ينشغل بها علم الاجتماع الكلي Gmacrosociology، كما أن أبعادها، كمفهوم تحليلي، لاتزال حديثة العهد(4) ولا مناص من الهوية من أجل إدراك الذات، كما أنها تحتل موقعاً مركزياً فيما يتعلق بالمشاركة في نماذج الفعل الاجتماعي الهادفة. إننا نمتلك جميعاً هويات مستقلة عن كيفية بنائنا لأنفسنا، سواء بشكل ضيق أو واسع. الذات والآخر، الذات والموضوع - إن إدراك الاختلاف يبدأ من فترة مبكرة من الحياة(5). والهوية بعد لا مفر منه بالنسبة للحياة الاجتماعية. وبهذا الصدد يجادل الفيلسوف السياسي ويليام كونوللي (William Connolly, 1991: 158) قائلاً: «كل فرد يحتاج إلى هوية، وكل أسلوب مستقر للحياة يسفر عن دعاوى للهوية الجماعية».

تطرح الهوية، أولا وقبل أي شيء، تشابهاً وتطلب إقراراً بما يصطلح تيلور (Taylor, 1989: 36) على تسميته «المجتمع المحدد». وتستلزم البنية الاجتماعية للهويات الإقرار بالعلاقات الاجتماعية

التي تغلف الذات والمشاركة فيها، تلك العلاقات التي يشعر الأفراد خلالها بأنفسهم باعتبارهم متطابقين مع الآخرين. والهويات ليست جوهرية وليست مبنية بنقاء، بل متعددة لكن دونما انفصام (Calhoun, 1994a: 9-36)، يرتبط الأفراد بعلاقات مع كثير من المجتمعات ذات الذوات المتشابهة ويستقون المعاني منها. إننا جميعاً نمتلك هويات عامة وخاصة. تشتمل الهويات العامة على المواطنة أساساً، وتصبح الهويات المدعومة مؤسسياً عبر المنظمات القانونية للدولة - الأمة الحديثة والسوق. إن المصلحة والنظرة العقلانية هما اللذان يحكمان هذه الهويات، وتنشأ الهويات الخاصة، في أنقى أشكالها، كعلاقات قرابة. كما أن التقاليد، بالإضافة إلى العاطفة، يمدان هذه الهويات بالمعلومات.

إن الهويات الثقافية - الهويات الدينية والوطنية والإقليمية والإثنية - هي الأكثر سلاسة، وقد تكون عامة أو خاصة، بناء على السياق التاريخي. ونجد أن الديمقراطية تميل إلى تشريع الهويات الدينية والإقليمية والإثنية خارج نطاق المجال العام، والاستحضار الانتقائي للأبعاد المثيرة للوجدان بشأن القومية من أجل دعم الدولة - الأمة(6). أما الهويات الثقافية، فترتكز على المعاني - معاني الممارسة الدينية، والوطن، والانتماء للجماعة. كما أنها تمتلك القدرة على توليد، وقد ولدت بالفعل، حساً عاماً ونضالية عامة يتسمان بالقوة.

إن تعددية الهويات المتاحة لا تفترض أنها تحمل معنى واحداً بالنسبة للذين يشتركون فيها. ونجد أن كثيراً من الهويات «ظرفية» - باستخدام تعبير كونوللي (Connolly, 1991: 173) - أي متعلقة بالظروف. وتنتمي الهويات إلى تصنيف يضم أشياء يصفها تيلور (Taylor, 1989: 63) بأنها «فوق جيدة» (Hypergoods) - أي أشياء تتسم بقيمة أكبر نسبياً بالنسبة لنا عن الآخرين. إننا نمر بخبرة بعض الهويات باعتبارها «فوق جيدة»، والبعض الآخر نمر بخبرته باعتباره «ظرفياً» في الأساس (Berezin, 1997: 19-30, 1998). لقد استخدمت مصطلح «تراتبية الهوية التي نشعر بها» من أجل تصور مفهوم التصنيف الوجداني الذي نتقاسمه على المستويين الفردي والجماعي.

تمثل الهويات السياسية نوعاً من الهوية الثقافية المعرضة، على نحو خاص، للتماس. وتتجزأ الهويات السياسية إلى هويات محلية وإقليمية ووطنية (راجع بهذا الصدد: Agenew and Brusa 1999)، علاوة على هويات أيديولوجية (راجع بهذا الصدد: Cohen 1985, Benezin, 1997). وتتسم الهوية بازدواجين مبنيين داخلها، ثبت أنهما يمتزجتان عند استخدامهما في التحليل السياسي. الهوية (Identity) باللغة الإنجليزية تحمل معنى التطابق، إنها اسم وفعل، مفرد وجمع، ما هي، ومع من تطابق؟ من أنا، ومن نحن؟ وتختلف الهوية الشخصية والهوية السياسية. من أنا تصبح من نحن؟ من هو واحد منا ومن ليس واحداً منا؟ وعلاوة على ذلك، تتسم الهوية بصفة أنطولوجية وإبستمولوجية (Somers, 1994). إنها وصفية بالنسبة لحالة الوجود، كما أنها مقولة للمعرفة الاجتماعية والتصنيف. وفي عالم مثالي، تدمج الهويات السياسية الرابطة الوجدانية والمقولات المؤسسية، العبارتان «أنا فرنسي» و«نحن فرنسيون» سوف تصبحان عبارتين أنطولوجية وإبستمولوجية.

وعادة ما تتبوأ الهويات السياسية الموقع الثاني بالنسبة للهويات الخاصة التي يجري الشعور بها على نحو أعمق. فالشعور بالهوية السياسية يتطلب إعادة ترتيب وجداني لـ «تراتبيات» الهوية - وبهذه الكيفية، ينبغي أن تكون الهويات السياسية جزءاً من المشروعات، أو الهوية، الوطنية المستمرة. ولكن الهويات السياسية -وخاصة المتدفقة، كما هي

ممثلة في هذه المجلة - تثبت أنها أكثر صعوبة في وجه الواقع الإمبيريقي. ويدعم الرواة الشعبيون الهويات السياسية من كل الأنواع (Alexander and Smith, 1993). ونجد أن الأراضي المقيدة جغرافياً، حيث انهارت الأنظمة الراسخة، فضلا عن الدول - الأمم المشيدة منذ زمن بعيد وتواجه تدفق المهاجرين، إنما تشترك في تشابه جوهري - إنها تفتقد السرد القصصي المشترك المتماسك، ولو كان خيالياً، للهوية الوطنية والانتماء(7). وبإيجاز، فإن غياب، أو تخفيف، المعاني والثقافة الوطنية المشتركة يجبر الدول - الأمم على إعادة كتابة قواعد الانتماء الوطني، فضلا عن إعادة بناء أو إصلاح الحكم والعضوية مؤسسات الرسميين(8).

المجتمع المدني والديمقراطية

تستلزم الهوية السياسية في الدول - الأمم الحديثة إثارة قضايا المواطنة والعضوية. كما تتطلب الدول - الأمم الحديثة وجود بنية تحتية ثقافية لضمان بروز الالتزام تجاه نظام الحكم الوطني بين «تراتبية» الهويات التي يجري الشعور بها. وترتبط جميع النظم السياسية بشكل ما من أشكال السياسة الرمزية. فاللغات الوطنية والأدب الوطني ونظم التعليم، فضلاً عن المتاحف والآثار والموسيقى، تسهم في الحفاظ على روح الانتماء الوطني حية (على سبيل المثال: (Mukerji, 1997, Corse, 1997,Bonnell, 1997, Spillman, 1997).

تعد ثقافة الخطاب المدني سمة خاصة للسياسة الديمقراطية القوية. ويعد المجتمع المدني الفضاء الاجتماعي الذي يصوغ المواطنون خلاله هوياتهم السياسية الديمقراطية ويطرحون القضايا بوضوح في الخطاب العام. وكلمة «الاجتماعي» هنا تعني مجالا يتراوح من المؤسسات القائمة خارج السوق والدولة إلى تصورات أكثر صرامة تركز على الأسرة وما يصطلح ألكسيس دي توكيفيل على تسميته «المؤسسات الاجتماعية الوسيطة».

وتمتد جذور المجتمع المدني، كمفهوم نظري، إلى هيجل وجرامشي .كما أن كتاب هابرماس، بعنوان «التحول الهيكلي للمجال العام» (Habermas, 1989)، كان نقطة البدء لكثير من أطروحات خط البحوث. إن ما يفصل الممارسات الديمقراطية الحديثة عن الممارسات السياسية السابقة، وفقا لهابرماس، يتمثل في وجود مجال منفصل، ليس الدولة ولا الكنيسة، يشكل فيه الأفراد الجمهور ويناقشون الأفكار والممارسات السياسية. ونجد المثل الأعلى لهابرماس بشأن المجال العام متمثلاً في مقهى القرن الثامن عشر، والصالون، ونهضة الصحافة الحرة. وتكمن مساهمته المتفردة في تخصيص فضاء صريح تتطور خلاله الممارسات والقيم الديمقراطية(9).

وتقوم الديمقراطية والمجتمع المدني على توجيهات تاريخيا وتحليلياً نحو الجماهير المتباينة بما لديها من فرص أساسية في الصوت، علاوة على قيود الصمت (Calhoun, 1993b). وقد أصبحت ميادين ووسائل إعلام الخطاب العام أخيراً بؤرات للعمل الإمبيرقي على الصعيد العام. وتجادل كالهون في كتابها بعنوان «ليس الآلهة ولا الأباطرة» (Neither Gods Nor Emperors) - وهو تقييم سوسيولوجي لمظاهرات ميدان تيانانمين في الصين عام 1989 - طارحة أن التعبئة تعزز التزاماً بالمجتمع المدني وتخلق هويات جديدة وتدعم الديمقراطية، حتى وإن أخفقت الحركات ذاتها. أما زاريت (Zaret, 1996)، فيشرح نشأة «الالتماسات» في إنجلترا في القرن السادس عشر، ويحدد موقع أصول المجال العام في الأثر

الذي تركته الطباعة على ممارسات العصور الوسطى بشأن تقديم الالتماسات للسلطات المحلية. كما يطرح زاريت أن كثيرا من النقاشات الدائرة حول المجال العام قد أخفقت في النظر عن كثب إلى أشكال الاتصال السياسي المتاحة. كان «الالتماس» مفتوحا لجميع الطبقات الاجتماعية، موضحاً الجذور الشعبوية للمجال العام، وطارحاً ما لديه من إمكانات ديمقراطية أكبر من تلك التي يمكن أن يطرحها ناقدو الحداثة. وتدور مساهمات تشان (Chan) وچاكوب (Jacobs) وسيورتينو (Sciortino)، في هذا العدد من مجلة «إنترناشيول سوسيولوجي»، حول قضية الصوت والجماهير في سياقات متنوعة واسعة.

يطرح ألكسندر (Alexander: 1994, 1996, 1998)، خلال مجموعة من مؤلفاته، مفهوماً للتضامن مع مقاربة المجتمع المدني. ويجادل أن أعضاء نظام الحكم يمرون بخبرة الانتماء كسلسلة من المقولات الثنائية التي تبني الخطاب السياسي حول الأحداث والقضايا باعتبارها إما جيدة أو سيئة. وتؤدي هذه الخطابات إلى توليد بعد مهم للمجتمع المدني، وإن كان لا يتم التصريح به – إنه الشعور بالانتماء والمجتمع. إن الصياغات النظرية لألكسندر تدعم ما طرحته في موضع آخر بشأن البعد الوجداني للمواطنة (Brezin, 1998, 1999).

تحتل قضية العضوية في نظام الحكم موقعاً مركزياً بالنسبة للنقاشات الراهنة حول الهوية والمجتمع المدني. وتمثل المؤسسة القانونية للمواطنة البؤرة التحليلية (راجع على سبيل المثال: Somers, 1993)، وعادة ما تمثل الهجرة البؤرة الإمبيريقية (راجع على سبيل المثال: Soysal, 1994, Brubaker1992)، وسواء قبل المرء تعريف مارشال (T. H. Marshall, 1964: 71-134) – الذي يعتبر المواطنة حقاً للأشخاص الذين يعيشون في دولة – أمة – أو قبل النظريات المراجعة الراهنة، فإن المواطنة تمثل الأداة القانونية التي من شأنها تقنين للهويات والعضوية الوطنية – السياسية. إن المواطنة هي شكل الهوية الثقافية، وأيضا القانونية. ومع كل فإن الأدبيات المتطورة التي تزاوجها مع الهوية إنما تركز فقط، على نحو ثانوي، على العمليات الرمزية والمؤثرة التي تقوم النظم بترتيبها لتوليد المشاعر المتعلقة بعضوية الدولة – الأمة.

والمواطنة مقولة وجدانية وأيضا قانونية. وإن لم يكن الأمر كذلك، لم تكن البطاقات الخضراء قد وجدت، ولم يكن الأشخاص الذين لديهم خيار امتلاك مواطنة جديدة احتفظوا بالمواطنة في بلدانهم الأصلية. وبإيجاز، تثير المواطنة مشكلة تجربة الانتماء الوطني التي نشعر بها، فضلا عن مشكلة الاندماج القانوني. ويعد نقاش النساء المسلمات حول ارتداء الحجاب في فرنسا مثالاً قوياً حول الرغبة في البقاء مسلمات في فرنسا (Beriss, 1990). وباستخدام صياغة بينيديكت أندرسون (Benedict Anderson, 1991: 7)، تلك الصياغة التي أصبحت مألوفة الآن، فإن الدولة – الأمة الحديثة ليست سوى «مجتمع متخيل» يخلق روح «الأخوة» التي تخلق بدورها شعوراً من «الارتباط» بالدولة في شكل «حب الأمة» (Anderson, 1991: 141, 143). إن الدولة – الأمة هي كيان ذو شقين: مؤسسي ومفهومي. الدولة هي «مهمة الحكم» وتركز على الكفاءة البيروقراطية والدعاوى الإقليمية، والأمة هي مهمة خلق ارتباط وجداني بالدولة(10). إن مصطلحات ألكسندر تتيح تخصيصاً أدق لأطروحة ألكسندر. فالمجتمع المدني النابض بالحياة، والذي يتسم بالشمول ويتيح المشاركة المفتوحة، إنما يولد عمليات التضامن التي تتيح للدولة أن تشرع في مهمتها المزدوجة المتمثلة في الحكم وإثارة الوجدان – وهكذا تضمن نشاط

المواطنين وولاءهم.

إن عملية إعادة الصياغة التي قمت بها تظل قائمة، فقط إذا ما ظلت الدولة الناشئة إقليمياً، وعلى الأقل غالبية عضويتها، متماسكة ثقافياً وجغرافياً - أي إذا ما قبل «الناس» بارامترات الأمة وأيضا الدولة. تشديد ألكسندر على التضامن يؤكد البعد الوجداني للمشاركة ومع كل، فإن تصوره للازدواجيات العملية المطمورة في الشيفرات الثنائية للخطاب المدني يؤكد احتمالات الخبرة السياسية والاجتماعية. وهذه «الشيفرات» تميزها «المرونة» وتقيم الارتباط وإعادة الارتباط مع نفسها استجابة للأحداث التاريخية (Alexander and Smith, 1993: 158 - 9) فالشيفرات هي أشكال ثقافية مستجيبة لتنوع المضمون (11). إن الإمكانات المزدوجة المطمورة في صيغة الشيفرات التي طرحها ألكسندر - الإمكانات التي تمزج العام والخاص، الخير والشر - تتيح إدراكاً كاملاً للتناقضات المتضمنة في الممارسات السياسية الحديثة. إذا كان الخير يمكن أن يولد الشر والعكس، فليس مثيرا للدهشة إذن أن «القرن العشرين القصير» هو «عصر التطرفات» (Alexander, 1994). وإذا ما تغير السكان أو تغير الإقليم خلال عمليات الهجرة الجماعية أو الحروب أو المعاهدات الاقتصادية، ينفتح فضاء المجتمع المدين وتظهر الأصوات غير الديمقراطية والديمقراطية في ساحة العمل العام. والمجتمع المدني ليس مدنياً دائماً، بمعنى التزامه بالممارسات والمشاعر الديمقراطية، كما يطرح مثال Friedland حول القومية الدينية (Stamatov, forthcoming).

«أزمة» الدولة القومية - أين ننتمي؟

إن الديمقراطية والمجتمع المدني يفترضان وجود الدولة - الأمة باعتبارها الموقع الحديث للانتماء السياسي. فإذا تعرضت الدولة القومية للخطر، عندئذ يتحول سؤال من نحن إلى أين ننتمي؟ أين موقعنا في الخطاب المدني والمطالبة بالحقوق والاعتراف بها إذا ضعفت أو تلاشت الفضاءات السياسية المقيدة قانوناً؟ لقد أفلتت مفاهيم الهوية والمواطنة والمجتمع المدني من مراسيها في غياب دولة - أمة سليمة لم تمس بأذى.

وتثير مجلات مثل «دايدالوس» (Daedalus, 1995) تساؤلاً متشائماً: «أي مستقبل للدولة؟». ويعلن الباحث وصول لحظة ما بعد القومية أو العالمية، مع تفوق حقوق الأشخاص على حقوق المواطنين (على سبيل المثال: Soysal, 1994. Meyer et al., 1997). ولا ينبغي أن يصبح المرء «ما بعد قومي» أو «ما بعد حداثي» لقبول فكرة أن الأمة، وبالاستدلال، الدولة - الأمة، هي احتمالية الحداثة (Brubaker, 1996: 16) إن الدولة - الأمة كترتيب مؤسسي تعين حدود شكل خاص تاريخياً من أشكال التنظيم السياسي الذي يتخطى عالمية العقلانية البيروقراطية (الدولة) وخصوصية الشعوب والثقافات المبنية والمعترف بها الآن (الأمة). والقومية في تنويعاتها العرقية والمدنية يجري تقليديا تصنيفها داخل الدولة - الأمة التي تضم ثوراناً للوجدان السياسي غير ملائم - إلا عند تشريع الوجدان في الحرب الدولية.

إن عرضية الدولة - الأمة لا تصلح للتحقق من فرضية العولمة، ولا تنتقص من انخراط الدول - الأمم في أنشطة مفيدة باسم أعضائها. كما لا يقتنع كل المحللين بتوقفها عن النشاط (راجع على سبيل المثال: Smith, 1996: 147-60). يطرح مان (Mann, 1997) في مقاله حول الاقتصاد السياسي والعولمة قضية مقنعة تتمثل في أن الأبعاد

الثقافية الأساسية للدولة - الأمة - أو تلك التي عادة ما يطرحها المتنبئون بالانحدار - أي البيئة وما بعد الحداثة، مبالغ في تقديرهم حتى من زوايا هيكلية محضة. أما ما إذا كان المرء يقبل الصيغة القوية أو الضعيفة لإطار العولمة، فلا تزال هناك قضايا نظرية وعملية مهمة يطرحها تغير، إن لم يكن تلاشي، الدولة ـ الأمة. وفي الأغلب، مع استثناء سنوات العشرينيات والثلاثينيات في أوروبا، قامت الدولة ـ الأمة أيضا بحماية الممارسات والمؤسسات الديمقراطية. وتتناول مقالات هذا العدد السؤال التالي: ما هي الكيانات التشاورية التي سوف تحمي الديمقراطية إذا ما تغيرت، إن لم تكن تلاشت، الدول ـ الأمم التقليدية؟

إن أوروبا، الحداثة وما بعد الحداثة، هي الموضوع الذي تركز عليه غالبية البحوث حول الدولة ـ الأمة والديمقراطية. لقد أدى انهيار الكتلة السوفييتية ومعاهدة ماستريخت إلى نبذ بعض الحدود الإقليمية وأجبرنا على إعادة تعريف الآخرين. فإعادة ترسيم الحدود تجبرنا على أن نسأل ما إذا كنا سنشهد أوروبا ذات تعددية ثقافية مع تعريف موسع للمواطنة وصيغ جديدة للمشاركة، أم سنشهد تراجعا إلى «الشوفينية العرقية» (راجع: Patterson, 1977) والعنف اليميني (راجع Kramer, 1996: 215 - 53) لقد بدأت الأحداث في الانكشاف، وأضحت جميع الإجابات مؤقتة.

تمثل التعددية الثقافية (Kymlicka, 1995) الراية الثقافية التي دارت في ظلها النقاشات المتعلقة بالمواطنة والهوية والديمقراطية. إن التعددية الثقافية، في السياق الأمريكي الشمالي، تنشد سياسة «الاعتراف» (Taylor, 1994) وتجادل من أجل تثبيت الجماعات العديدة، على المستوى العام، داخل الحدود المعرفة ثقافيا ـ السود، والنساء، وممارسو الجنسية المثلية، والعرقيون.

أما في حالة أوروبا، فيدور نقاش حول كيفية إدماج المهاجرين الجدد، أو غير الجدد بهذه الكيفية، داخل ثقافات الدول ـ الأمم القديمة المهيمنة، أو كيفية التأقلم مع عملية إضفاء الطابع الأوروبي التي يطالب بها الاتحاد الأوروبي. واستجابة لتغير الحدود، يقدم هابرماس (Haberms: 1990, 1994) تقييما معياريا لإمكانات المواطنة العالمية. ويطرح ضرورة أن تتسم سياسات الهجرة بالليبرالية، وتتسم الثقافة السياسية للدول ـ الأمم القائمة بالمرونة الكافية، سواء بالنسبة لوجودها على أساس رؤيتها، أو بالنسبة لإدماج أشكال ثقافية جديدة. إن «العالم» ـ والكلمة مجازية ـ يحكم صياغة هابرماس، إنه يأمل في أن تبشر الألفية بالمواطنة العالمية مع توفر نظام عالمي للاتصالات السياسية. يلتزم هابرماس بالديمقراطية العالمية مع وجود مجتمع للخطاب العالمي.

يضع هابرماس مصطلح «ثقافة» محل مصطلح «جماعات». إن موقفه يتجاهل صعوبة المصالحة بين سياسات الاعتراف وحقوق الجماعة وبين الديمقراطية ـ العالم أو خلافه. وتميل الديمقراطية، كمجموعة من الممارسات السياسية، إلى حماية العضوية المرتكزة على الحقوق الفردية. وكما جادل أوفي (Offe, 1998)، لا تؤدي الديمقراطية وظيفة جيدة لدى التفاوض بشأن حقوق الجماعات الثقافية. فمطالبات الأقلية بالاعتراف والاحترام المرتكز على العضوية في الجماعة تجعلها عرضة للنتائج غير الديمقراطية. إن صعوبة تعريف الجماعات والتخصيص الدقيق دائما للجماعاتية يتحيز للعرقيات وليس الديمقراطيات وبصورة مفارقة، فإن تركيزاً على حقوق الجماعة بهدف إنتاج ديمقراطية أقوى إنما يميل نحو المركزية العرقية والديمقراطية الأضعف، حتى داخل الدول ـ الأمم الراسخة.

وتتضح هذه النقطة. من خلال مناقشة سيورتينو (Sciortiono) للعصبة الشمالية لإيطاليا. لقد نجحت الدول ـ الأمم تاريخيا في منح الحقوق الفردية وخلق فضاءات ثقافية طيعة لاحتواء الأيديولوجيات غير الديمقراطية. ومع ما تتعرض له الدولة ـ الأمة من خطر، فإن «أين ننتمي» يمكن أن يصبح قريتنا أو مدينتنا أو إقليمنا مع جماعتنا، وتتزايد إمكانات التعصب في مواجهة الممارسات والمشاعر الديمقراطية (Walzer, 1997).

الديمقراطية وبدائلها

إن التفاعلات المعقدة بين الديمقراطيات والعرقيات، بين العالمية والخصوصية، بين التضمين والاستبعاد، وبين الخير والشر، والتي تشكل بنية الممارسة والخطاب السياسيين المعاصرين، تمثل بؤرة تركيز مقالات هذا العدد، تتناول المقالات، منفردة أو مجتمعة، قضايا الهوية والمواطنة والخطاب والديمقراطية التي أثرتها. ترتكز المقالات الثلاثة الأولى على فرضية التغير الحادث في طبيعة الدولة ـ الأمة، وما يتطلبه ذلك من إعادة التفكير في قضايا المواطنة والهوية والديمقراطية. إن كوهين (Cohen) وإنتريكين (Entrikin) ومونكلر (Munkler) يبحثون في معنى العضوية في عصر الحدود المتغيرة. كما يثيرون تساؤلات بشأن كيفية قيام صناع السياسة بإعادة كتابة قواعد الانتماء الوطني بأسلوب عادل وديمقراطي. ومن بين المقالات الثلاثة، يتسم مقال كوهين بطابع فلسفي. وعلى الرغم من أن بؤرة تركيزه الضمنية هي أوروبا، فإن قوته الدافعة ذات طابع عالمي. أما إنتريكين ومونكلر، فيأخذان الاتحاد الأوروبي كنقطتهما البؤرية.

تجادل كوهين أن النموذج المعاصر للمواطنة يقضي ضمنا أن تجتمع الحقوق والهوية والمشاركة بأسلوب غير إشكالي في دولة الرفاه القومية الديمقراطية. أما العولمة، وغيرها من الاتجاهات السياسية الأخرى، فقد جزأت المكونات الثلاثة لمبدأ المواطنة وأكدت التناقضات الكامنة بينها. إن انشقاق مبدأ المواطنة يمد بفرصة لزيادة العدالة الاجتماعية عن طريق ربط الحقوق بالشخص وليس بالعضوية في نظام حكم قومي بعينه. وجدير بالذكر أن المبدأ الرئيسي للديمقراطية، «الحكم الذاتي» الذي يتضمن الحكم على غير المواطنين، يعني أن الأشخاص الذين يمتلكون حقوقا هم جماعة أصغر من جماعة الأشخاص المعرضين لقوانين نظام حكم معين. وتستمر أهمية المكون الديمقراطي لمبدأ المواطنة، وتستمر قوته التقريرية الشرعية على معايير العضوية. ينبغي أن تعمل المبادىء الليبرالية للعضوية على ضبط ممارسة القوة التقريرية واحترام الحقوق الشخصية.

ترفض كوهين الصيغ القوية بشأن «زوال الدولة ـ الأمة وأطروحة العولمة. ومع كل، فإنها تشير عن حق إلى أن الدولة ـ الأمة كمؤسسة ثقافية ـ قانونية ومصدر للهوية السياسية لم تعد مهيمنة. إنها تطرح أن المجتمع المدني أصبح الآن مجتمعا فوق ـ قومي (أي متخط للحدود أو السلطة القومية)، ولكن وجود الحقوق ما وراء الحدود لا يطرح البتة ضرورة ترك المبادىء الديمقراطية للمنظمات فوق ـ القومية. وتطرح كوهين ضرورة أن نتجاوز الاختيار المضلل والزائف بين نماذج المواطنة الكوزموبوليتانية الليبرالية والجمهورية المدنية، وأن تقبل نموذج «ما بعد حداثي» من شأنه أن يعيد تشكيل الأبعاد الثلاثة للمواطنة على مختلف مستويات الانتماء ـ الإقليمية والقومية وعبر القومية ـ يقدم فرصة لتعزيز كل من العدالة والصوت.

إن قوة مساهمة كوهين في هذا العدد من

«إنترناشيونال سوسيولوجي» تكمن في قدرتها على تأطير جميع القضايا بأسلوب يكشف عن التناقضات والإمكانات داخلهم. يتناول مونلر وإنتريكين قضايا مشابهة تتعلق بالهوية والمشاركة السياسية، مع تركيز أكثر حدة على الاتحاد الأوروبي. إنهما يتفقان على أن الدولة ـ الأمة تواجه تحديا، إن لم تكن ماتت، ويتفكران مليا في مستقبل الديمقراطية في أوروبا فوق ـ القومية. ويطرح مونكلر أن زواج الأمة والدولة كان زواجا تاريخيا وليس ظاهرة طبيعية. فالأمة والدولة كيانان منفصلان ارتبطا في مشروعات الدولة ـ الأمة بالقرن التاسع عشر. ويوضح تحليل مونكلر التاريخي أن الدولة كانت منطقة البيروقراطيين، والأمة كانت مشروع المثقفين. وتستجيب هاتان المجموعتان إلى احتياجات مختلفة، عقلانية وغير عقلانية. لقد ظل هذا التمايز محجوبا حتى عام 1989ـ وهو ما يمكن أن يطلق عليه عصر الدولة ـ الأمة. إنها تتخذ سمة جديدة عندما تتغير الدعاوى الإقليمية للدولة ـ الأمة. ووفقا لما يقوله مونكلر، فإن الاتحاد الأوروبي يمثل تحدياً ثقافيا وسياسيا. لقد قام الاتحاد الأوروبي ، تكنيكيا، بتطليق الدولة من الأمة، وأجبر مواطني الدول ـ الأمم الراسخة على مواجهة ارتباطاتهم أو هوياتهم، كأوروبيين أو مواطنين وطنيين. ويجادل مونكلر أن الاتحاد الأوروبي سيكون عليه تكرار عملية القرن التاسع عشر من أجل خلق «هوية أوروبية» خاصة. والسؤال المطروح هو ما إذا كانت ارتباطات الدولة ـ الأمة «القديمة» سوف تعمل ضد تشكيل هوية أوروبية، وتنتج مشاعر قومية تشتمل على الممارسة الديمقراطية.

ويشكل التمايز بين الأمة والدولة أساس كثير من مقالات هذا العدد، وتحدد مساهمة مونكلر الخطوط العريضة لتطبيقه. يتخذ إنتريكين أيضا الاتحاد الأوروبي حالة للدراسة. إنه يميز بين المكان والفضاء ويوضح تفاعلا دقيقا بين الاثنين. المكان مماثل للفضيلة والحكم الأخلاقي الخاص، والفضاء يماثل العدالة وعالمية الحقوق. وليس من قبيل المصادفة أن العولمة وخطاب حقوق الإنسان عادة ما يظهران مترادفين. والمكان هو المجتمع ـ الأراضي التي نسكنها مرتبطة بالذاكرة والثقافة. إنه حقل الممارسة السياسية والمشاركة المدنية. إننا نمر بخبرة المكان كموقع محلي ونتخيله في الحداثة كأمر قومي. أما العولمة، فتطرح تهديدا كامنا للممارسة الديمقراطية لأنها تحول المكان إلى فضاء. لقد كان المكان، أو المجتمع، ومازال، جوهريا بالنسبة للممارسة الديمقراطية، إذ يثير مشاعر الجذور والارتباط. والفضاء يفتقد المحتوى الثقافي، إنه نحيف ثقافيا، وهنا تكمن مخاطره.

ومع الإشارة إلى أوروبا الجديدة وما يحيط بها من نقاشات، يطرح إنتريكين، كاستعارة، هيمنة السوق. تمثل أوروبا حلم البيروقراطي ـ فضاء من «مجموعة من الفرص»، حيث يتحرك الفاعلون العقلانيون بحرية عبر الحدود مع زيادة ما يحصلون عليه من منافع. ومع التزام قليل بالمكان، فإن مثل هؤلاء الفاعلين لن يبالوا، نسبيا، بأشكال الممارسة السياسية ـ طالما لا توقع الفوضى في السوق. وإذا كان الفضاء موضوعا لـ«النحافة» الثقافية، فإن المكان موضوعا لـ«الامتلاء» الثقافي المفرط. يميل المكان نحو ضيق أفق التفكير والمركزية العرقية، ويمكن أن يعزز النبضات غير الديمقراطية. ويطرح إنتريكين مفهوما جديداً لـ«المكان الكوزموبوليتاني» الذي يدمج أفضل ملامح المكان والفضاء. ويجادل جون ديوي أن المرء يحتاج إلى ارتباطات محلية، أو إحساس ممتلىء بالثقافة، من أجل المشاركة السياسية، ولكن المرء يحتاج أيضا إلى تخيل كوزموبوليتاني، أو القدرة على تخيل عالم خارج الذات المعينة،

من أجل ضمان ديمقراطية قوية. إن الاتحاد الأوروبي والمشكلات الثقافية التي يطرحها تثير قضايا شفافة قد حجبتها الدولة ـ الأمة ومفهومها عن المواطنة.

تنشد مساهمات كوهين ومونكلر وإنتريكين الرؤية المستقبلية والإمكانات الديمقراطية ـ الديمقراطيات تقيد العرقيات. وتوضح مقالات فريدلاند وسيورتينو وتشان ما يحدث عندما تنهار المشاعر والممارسات الديمقراطية ـ العرقيات تستعبد الديمقراطيات. يركز مقال فريدلاند على القومية الدينية. ويطرح أن القوى التي تجعل الدين جماهيريا تقدم شكلا بديلا للمجتمع المدني. لقد حطم الإصلاح البروتستانتي الرابطة الوثيقة بين الدين ونظام الحكم. وقد كانت البروتستانتية غالبا مطلبا رئيسيا للدولة ـ الأمة الغربية الحديثة التي لم ترغب في المنافسة من أجل الولاء في كنيسة فوق ـ قومية. إن خصوصية المذهب الديني والممارسة الدينية قد أجبرت استبعاده من المجال العام مباعدة بين الاعتراف غير الخاص والعاطفة العامة. إن فصل الكنيسة عن الدولة كان ظاهرة أوروبية فريدة، إذا كانت أديان أخرى عديدة في العالم مقيدة بـ«أن لم تكن دولة ـ أمة»، فعلى الأقل إمبراطورية. ويعد الإسلام نموذجا كلاسيكيا في هذا المضمار.

إن استبعاد الدين عن المجال العام قد نجح نسبيا في دولة ـ أمة لم تمس، حيث تتوافق حدود الدولة مع الخصوصيات الثقافية والنظم الاقتصادية، لكنه كان أقل نجاحا في الفضاء العالمي. إن عدم تبلور العولمية (globlism) ذاتها كحقيقة اقتصادية وترتيب سياسي يجبرنا على إعادة دمج العام والخاص، أو إعادة التزاوج بين الدين والدولة ـ الأمة. ويشير فريلاند عن حق، فيما يسميه «قوة الحب السوسيولوجية»، إلى أن القومية الدينية تعطي أولوية للأسرة، وليس الديمقراطية أو السوق. فالأسرة هي المصدر النهائي لدمج العام والخاص لأنها وحدة مؤثرة وقانونية في آن واحد. وبدلا من أن تمثل الأسرة ببساطة «ملاذا في عالم عديم الرحمة»، فإنها تقدم أيضا نموذجا بديلا لدولة زائفة لمن ليس له دولة. ويجادل فريلاند أن الشركات متعددة القومية والجماعات الدينية تعد، في فضاء تتزايد عالميته، الأصوات الجماعية الوحيدة المتروكة في المجال العام العالمي، تنشد الشركات متعددة القومية الأسواق، والدين ينشد الثقافة. أما القومية الدينية، فإنها «تعيد قصص» الأمة في صوت خاص مع تفضيل للعرقيات.

المقالات الثلاثة الأخيرة في هذا العدد هي دراسات حالة تسبر غور الأحداث التي تحدت المجتمع المدني والديمقراطية. يركز مقال سيورتينو على العصبة الشمالية الإيطالية، مع توضيح استخدامها للرطانة العرقية والمدنية من أجل إعادة تشكيل ميدان السياسة. تتحدث العصبة بلغة القومية العرقية والمدنية، تلك اللغة التي نجحت في نشر التقسيم ديمقراطي / غير ديمقراطي. وقد نجحت العصبة، عن طريق حفاظها على توجهها الأيديولوجي غير الشفاف نسبيا، في كسب دائرة أنصار كبيرة إلى حد يكفي لبذل قوة على السياسة الإيطالية. كما ذاع صيتها في أواخر أعوام الثمانينيات كصوت معارض في السياسة الإيطالية. كان منهاج عملها يدعو إلى الحكم الذاتي الإقليمي، ورفض «الجنوب» وتثبيت الشمال. إن مشاريعها المسرحية ـ المهرجانات السنوية في القرون الوسطى ـ ودعوتها لجعل لهجة اللومبارديين جزءا من اللغة العامية، فضلا عن السلوكيات الغريبة لقائدها أومبرتو بوسي، قد طرحت أنها لا تمثل تهديداً خطيراً للترتيبات السياسية الإيطالية الراسخة. لقد بدأت مصداقيتها السياسية في النمو في باكورة أعوام

التسعينيات، وأضحت مع حلول عام 1994 جزءا من التحالف الإيطالي الحاكم. وفي عام 1996، أسست العصبة أمة بادانيا «الجديدة»، وهددت بالانسحاب من إيطاليا. كانت المطالبات الأساسية للعصبة اقتصادية. فقد كان الشماليون الصناعيون متعبين من إعادة توزيع نقود الضرائب على الجنوب الفاسد. وكانت الرطانة تتسم بطابع ثقافي وعنصري.

يوضح مقال سيورتينو كيف تمكنت العصبة من تطوير خطاب للقومية المدنية والعرقية لكسب الدعم. وفي داخل الشمال، طالبت بادانيا بتمثيل الإيطاليين «المدنيين» الأشخاص الذين يقومون بعمل شاق ويعملون في التجارة الصغيرة ويدفعون الضرائب. وبالتعارض مع الجنوب، كانت بادانيا تمثل تماسكا ثقافياً وتفوقاً عرقيا لا يتطلب فحسب إصلاحا حكوميا قومياً، وإنما أيضا دولة ـ أمة منفصلة تماما. إن تكوين الرطانة العرقية والمدنية ـ المطالبات الخاصة والعامة ـ قد أعطت العصبة موقعا استراتيجيا غير متوقع في المناورات السياسية الإيطالية ـ على الرغم من أنه ليس مرجحا أن تبزغ أمة بادانيا المنفصلة.

يناقش مقال تشان حركة الطلبة في الصين عام 1989. وتستخدم تشان الاستراتيجيات الرمزية للحركة من أجل توضيح التناقضات المطمورة في ثنائية الدولة ـ الأمة. وترسم تشان خطا للتمايز بين المركز الرمزي والمركز الهيكلي للأمة. في حالة الصين، أمسك الطلاب بناصية المركز الرمزي. لقد نشروا الذخيرة الثقافية التي لها صدى عند السكان، لكنه لا يكفي للصمود في مواجهة الهجمة المضادة الشرسة التي شنتها الدولة الصينية ـ المركز الهيكلي. وتفسر تشان شراسة رد فعل الدولة بالتسليم بأن الدولة قد فقدت السيطرة الرمزية على الجماهير. والمطروح هنا (شبيه باستنتاجات كالهون) أن بذور 1989 مدفونة داخل الدولة الصينية ويمكن أن تنفجر مرة ثانية إذا حانت الفرصة المناسبة. لقد زعزعت أحداث 1989 مؤقتا مركزية التوازن بين المركزين الهيكلي والرمزي في الصين. كما زعزعت الهويات والخطابات التي برزت خلال تلك الأحداث من استقرار علاقات القوى في الصين. أما المستقبل فهو سؤال مفتوح. لقد فاز النظام السياسي الصيني بالمعركة ولكنه قد يكون خسر الحرب.

يقدم مقال چاكوب وجهة نظر تختلف مع وجهات النظر المطروحة في مقالات هذا العدد. يركز مقاله على المجتمع المدني في الولايات المتحدة، وخاصة دور الإعلام الأمريكي ـ الأفريقي في إعطاء صوت لجماعة كانت قد احتلت موقعاً هامشيا داخل التيار الرئيسي في الإعلام الأمريكي. يعارض الإعلام الأمريكي ـ الأفريقي منظمات إعلام التيار السائد. إنه يشكل جمهوراً بديلا جلب تاريخيا صوتا مهمشا إلى دائرة الحوار الديمقراطي. وبصورة مفارقة، كانت الصحافة الأمريكية ـ الافريقية شديدة التأثير في الفترة الواقعة بين عامي 1900 و1950، عندما كان الأمريكيون الأفارقة مهمشين في مواجهة ليس الإعلام فحسب، وانما أيضا المجتمع الأمريكي والثقافة الأمريكية. لقد ناضل القادة الأمريكين الأفارقة من أجل إثارة الانتباه والتضمين في صحافة التيار السائد خلال فترة الحقوق المدنية. وقد أدى التضمين إلى التقليل من اهتمام الجماعة في الصحافة الأمريكية ـ الأفريقية على نحو خاص. ومع كل، ففي فترات النضال العنصري للظلم الواضح، كما في حالة انتفاضات رودني كينج في لوس أنجلوس، كانت الصحافة الأمريكية ـ الأفريقية الكامنة حاسمة، سواء بالنسبة لتوفير معلومات للمجتمع الأمريكي ـ الأفريقي أو بالنسبة لتوجيه انتباه وسائل إعلام التيار السائد نحو ظلم

المحاكمة. ويصل چاكوب في النهاية إلى أن إعلاماً أمريكياً ـ أفريقياً صغيراً وإنما نشيط يمكن أن يلعب دورا حيويا في توفير صوت بديل وخطابات بديلة. إن الوجود البسيط لمنافذ الإعلام الهامشية يسهم في تحقيق اهتزاز المجتمع المدني وشحذ إمكاناته الديمقراطية. كما أن الموقع المؤسسي للأصوات البديلة يجعل الدولة واعية بمواقع الاحتجاج العام والارتباط الأخلاقي وإمكاناتهما المتعددة.

وفي مقال على شرف ألبرت هيرشمان، يطرح عالم السوسيولوجيا الإيطالي أليساندرو بيزورنو (Alessandro, 1986) أن الهوية تمثل بعدا جوهريا، يتم تغاضيه للولاء. فالأفراد والجماعات يظهرون في فترات على ولاء للمؤسسات التي تتطلب العقلانية وجودها. لقد أطلق بيزورنو على مقاله اسم «أنواع أخرى من البدائل». لقد كان ينوي انتقاد نظرية الاختيار العقلاني، ولكن حجته صحيحة في إطار مناقشتي، ولمقالات هذا العدد. إن تقييد العرقيات وتربية الديمقراطيات يتطلب ترتيبات مؤسسية من شأنها توليد وتأبيد التطابق مع القيم والممارسات الديمقراطية. إنه نظام عالمي للحكم يتطلب «أنواعا أخرى من البدائل».

الهوامش

1 ـ للاطلاع على معالجة مبكرة لهذه المشكلة من منظور غير ثقافي دون شك، يمكن الرجوع إلى المقالات المنشورة في Maier (1987).

2 ـ يعد أرندت Arendt (1973) المرجع الأساسي.

3 ـ يقدم ليبست (Lipset, 1994) أفضل عرض موجز.

4 ـ للاطلاع على عرض موجز لمقاربات العلم الاجتماعي إزاء الهوية، راجع: Cerulo (1997)، وللاطلاع على مختارات لكتابات حديثة حول الموضوع، راجع المقالات المنشورة في Calhoum (1994a).

5 ـ يعرض كاريثيرس وآخرون (Carrithers et al. 1985) نظريات الذاتوية Selfhood.

6 ـ راجع الأدبيات التي ظهرت حول القومية، وخاصة: Brubaker (1996) , Calhoun (1997) and Smith (1998).

7 ـ وجود السرد القصصي الوطني لا يطرح أية فروض حول المزاعم الحقيقية للسرد القصصي. إنه يطرح ببساطة أن هناك قصة تنظم وتبني الوعي الشعبي.

8 ـ يطرح بيريز ـ دياز (Perez - Diaz, 1998: 211 - 21) حجة تشبه الحجة التي أطرحها.

9 ـ التفسيرات والنقاشات النظرية بشأن المجتمع المدني تملأ مجلدات عديدة. وتضم الأمثلة البارزة:
Cohen and Arato (1992), Kumar (1993), Calhoun (1993 a) Hall (1995), Seligman (1992) and Perez - Diaz (1993).

١٠ ـ استعرنا العبارة الأخيرة من: Poggi (1978)

١١ ـ تناقش بيريزين (Berezin, 1994) العلاقة بين الشكل الثقافي والممارسة السياسية.

المراجع

Agnew, J. and Brusa, C. (1999) 'New Rules for National Identity? The Northern League and Political Identity in Contemporary Northern Italy', *National Identities* 1: 117–33.

Alexander, J.C. (1994) 'The Paradoxes of Civil Society', Occasional Paper No. 16, Social Sciences Research Center, University of Hong Kong.

Alexander, J.C. (1996) 'Collective Action, Culture and Civil Society: Secularizing, Updating, Inverting, Revising and Displacing the Classical Model of Social Movements', in M. Diani and J. Clarke (eds) *Alain Touraine*, pp. 205–34. New York: Falmer Press.

Alexander, J.C. (1998) 'Introduction: Civil Society I, II, III: Constructing an Empirical Concept from Normative Controversies and Historical Transformations', in J.C. Alexander (ed.) *Real Civil Societies: Dilemmas of Institutionalization*, pp. 1–19. London: Sage.

Alexander, J.C. and Smith, P. (1993) 'The Discourse of American Civil Society: A New Proposal for Cultural Studies', *Theory and Society* 22: 151–207.

Anderson, B. (1991) *Imagined Communities: Reflections on the Origin and Spread of Nationalism*. London: Verso. (Originally published 1983.)

Arendt, H. (1973) *The Origins of Totalitarianism*. New York: Harcourt Brace Jovanovich.

Barber, B. (1984) *Strong Democracy*. Berkeley: University of California Press.

Berezin, M. (1994) 'Cultural Form and Political Meaning', *American Journal of Sociology* 99: 1237–86.

Berezin, M. (1997) *Making the Fascist Self: The Political Culture of Inter-War Italy*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Berezin, M. (1998) 'I rituali pubblici e la rappresentazione dell'identità politica', *Rassegna Italiana di Sociologia* 39: 359–86.

Berezin, M. (forthcoming) 'Political Belonging: Emotion, Nation and Identity in Fascist Italy', in G. Steinmetz (ed.) *State/Culture*. Ithaca, NY: Cornell University Press.

Beriss, D. (1990) 'Scarves, Schools and Segregation: The Foulard Affair', *French Politics and Society* 8: 1–15.

Bonnell, V.E. (1997) *Iconography of Power: Soviet Political Posters under Lenin and Stalin*. Berkeley: University of California Press.

Brubaker, R. (1992) *Citizenship and Nationhood in France and Germany*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Brubaker, R. (1996) *Nationalism Reframed: Nationhood and the National Question in the New Europe*. Cambridge: Cambridge University Press.

Calhoun, C. (1993a) 'Civil Society and the Public Sphere', *Public Culture* 5: 267–80.

Calhoun, C., ed. (1993b) *Habermas and the Public Sphere*. Cambridge, MA: MIT Press.

Calhoun, C. (1994a) 'Social Theory and the Politics of Identity', in C. Calhoun (ed.) *Social Theory and the Politics of Identity*, pp. 9–36. Cambridge: Basil Blackwell.
Calhoun, C. (1994b) *Neither Gods Nor Emperors: Students and the Struggle for Democracy in China*. Berkeley: University of California Press.
Calhoun, C. (1997) *Nationalism*. Minneapolis: University of Minnesota Press.
Carrithers, M., Collins, S. and Lukes, S., eds (1985) *The Category of the Person*. Cambridge: Cambridge University Press.
Cerulo, K. (1997) 'Identity Construction: New Issues, New Directions', *Annual Review of Sociology* 23: 385–409.
Cohen, J.L. (1985) 'Strategy or Identity: New Theoretical Paradigms and Contemporary Social Movements', *Social Research* 52: 663–716.
Cohen, J.L. and Arato, A. (1992) *Civil Society and Political Theory*. Cambridge, MA: MIT Press.
Cohen, J.L. and Rogers, J. (1983) *On Democracy*. Harmondsworth: Penguin.
Connolly, W. (1991) *Identity\Difference*. Ithaca, NY: Cornell University Press.
Corse, S. (1997) *Nationalism and Literature*. Cambridge: Cambridge University Press.
Daedalus (1995) 'What Future for the State?', 124(2).
De Tocqueville, A. (1990) *Democracy in America*, ed. D.J. Boorstin. New York: Vintage Books.
Habermas, J. (1989) *The Structural Transformation of the Public Sphere*, trans. T. Burger. Cambridge, MA: MIT Press. (Originally published 1962.)
Habermas, J. (1990) 'Citizenship and National Identity', *Between Facts and Norms: Contributions to a Discourse Theory of Law and Democracy*, pp. 491–515. Cambridge, MA: MIT Press.
Habermas, J. (1994) 'Struggles for Recognition in the Democratic Constitutional State', in A. Guttmann (ed.) *Multiculturalism*, pp. 107–48. Princeton, NJ: Princeton University Press.
Hall, J.A. (1995) 'In Search of Civil Society', in J.A. Hall (ed.) *Civil Society*, pp. 1–31. Cambridge: Polity Press.
Hirschman, A.O. (1970) *Exit, Voice and Loyalty*. Cambridge, MA: Harvard University Press.
Hobsbawm, E. (1983) 'Mass-Producing Traditions: Europe, 1870–1914', in E. Hobsbawm and T. Ranger (eds) *The Invention of Tradition*, pp. 263–307. Cambridge: Cambridge University Press.
Hobsbawm, E. (1994) *The Age of Extremes*. New York: Vintage Books.
Keane, J. (1988) *Civil Society and the State*. London: Verso.
Kramer, J. (1996) *The Politics of Memory*. New York: Random House.
Kumar, K. (1993) 'Civil Society: An Inquiry into the Usefulness of an Historical Term', *British Journal of Sociology* 44(3): 375–95.
Kymlicka, W. (1995) *Multicultural Citizenship*. Oxford: Clarendon Press.
Lipset, S.M. (1994) 'The Social Requisites of Democracy Revisited', *American Sociological Review* 59(1): 1–22.

Maier, C.S., ed. (1987) *Changing Boundaries of the Political*. Cambridge: Cambridge University Press.

Mann, M. (1997) 'Has Globalization Ended the Rise and Rise of the Nation-State?', *Review of International Political Economy* 4 (Autumn): 472–96.

Marshall, T.H. (1964) 'Citizenship and Social Class', *Class, Citizenship and Social Development: Essays by T.H. Marshall*, pp. 71–134. Chicago, IL: University of Chicago Press.

Meyer, J.W., Boli, J., Thomas, G.M. and Ramirez, F.O. (1997) 'World Society and the Nation-State', *AJS* 103(1): 144–81.

Mouffe, C. and Laclau, E. (1985) *Hegemony and Socialist Strategy*. London: Verso.

Mukerji, C. (1997) *Territorial Ambitions and the Gardens of Versailles*. Cambridge: Cambridge University Press.

Offe, C. (1998) '"Homogeneity" and Constitutional Democracy: Coping with Identity Conflicts Through Group Rights', *The Journal of Political Philosophy* 6(2): 113–41.

Patterson, O. (1977) *Ethnic Chauvinism*. New York: Stein and Day.

Perez-Diaz, V. (1993) *The Return of Civil Society: The Emergence of Democratic Spain*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Perez-Diaz, V. (1998) 'The Public Sphere and a European Civil Society', in J.C. Alexander (ed.) *Real Civil Societies: Dilemmas of Institutionalization*, pp. 211–38. London: Sage.

Pizzorno, A. (1986) 'Some Other Kinds of Otherness: A Critique of "Rational Choice" Theories', in A. Foxley, M.S. McPherson and G. O'Donnell (eds) *Development, Democracy and the Art of Trespassing*, pp. 355–73. Notre Dame, IN: University of Notre Dame Press.

Poggi, G. (1978) *The Development of the Modern State: A Sociological Introduction*. Stanford, CA: Stanford University Press.

Seligman, A.B. (1992) *The Idea of Civil Society*. New York: The Free Press.

Smith, A.D. (1996) *Nations and Nationalism in a Global Era*. Cambridge: Polity Press.

Smith, A.D. (1998) *Nationalism and Modernism*. London: Routledge.

Somers, M.R. (1993) 'Law, Community, and Political Culture in the Transition to Democracy', *American Sociological Review* 58(5): 587–620.

Somers, M.R. (1994) 'The Narrative Constitution of Identity: A Relational and Network Approach', *Theory and Society* 23: 605–49.

Soysal, Y.N. (1994) *Limits of Citizenship*. Chicago, IL: University of Chicago Press.

Spillman, L. (1997) *Nation and Commemoration*. Cambridge: Cambridge University Press.

Stamatov, P. (forthcoming) 'The Making of a "Bad" Public: Ethnonational Mobilization in Post-Communist Bulgaria'. *Theory and Society*.

Taylor, C. (1989) *Sources of the Self*. Cambridge, MA: Harvard University Press.

Taylor, C. (1994) 'The Politics of Recognition', in A. Gutmann (ed.) *Multicultural-*

ism, pp. 25–73. Princeton, NJ: Princeton University Press.

Taylor, C. (1998) 'The Dynamics of Democratic Exclusion', *Journal of Democracy* 9(4): 143–56.

Walzer, M. (1997) *On Toleration*. New Haven, CT: Yale University Press.

Weber, E. (1976) *Peasants into Frenchmen*. Stanford, CA: Stanford University Press.

Weber, M. (1978) *Economy and Society: An Outline of Interpretive Sociology*, ed. G. Roth and C. Wittich. Berkeley: University of California Press. (Originally published in 1922.)

Zaret, D. (1996) 'Petitions and the "Invention" of Public Opinion in the English Revolution',' *AJS* 101: 1497–555.

Biographical Note: Mabel Berezin teaches Sociology at UCLA. She is the author of *Making the Fascist Self: The Political Culture of Inter-War Italy* (Ithaca, NY: Cornell University Press, 1997) and numerous articles on fascism and the politics of culture. She is currently working in civic participation and new forms of politics in Europe.

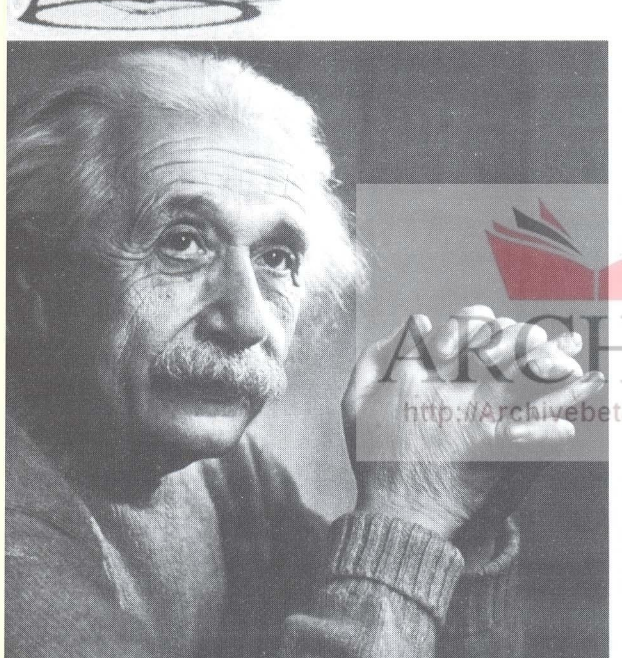
Address: Mabel Berezin, Department of Sociology, 264 Haines Hall, University of California at Los Angeles, Box 951551, Los Angeles, CA 90095-1551, USA. [email: berezin@soc.ucla.edu]

(1)

العبقري

بقلم: فريدريك جولدن





ولايزال كثير من العلماء يعربون حتى في الوقت الحاضر عن دهشتهم من جرأة «النسبية العامة» (يقول ريتشارد فيمان: «لا أستطيع أن أفهم حتى الآن كيف فكر فيها»). غير أن هذا العالم الفيزيائي الكبير كان بسيطا على نحو آسر، حتى أنه كان يقايض ربطات العنق والجوارب بالبلوفرات والكنزات المستعملة. وكان يردد الأمثال البليغة (مثل «العلم شيء رائع بالفصل إذا لم يتعين على المرء كسب عيشه من خلاله»)، والأشعار الهزلية بالسهولة نفسها التي يردد بها معادلاته الرياضية. كذلك كثيرا ما كان يواجه بتجرد فكه تلك الضجة المثارة حوله بقوله عن نفسه إنه قديس يهودي أو نموذج لفنان.. لقد كان أشبه بحلم، في مخيلة مخرج كارتون، تحول إلى حقيقة.

ولقد أصيب آينشتاين بدهشة بالغة من واقع أن أفكاره قد امتد صداها، تماما مثل داروين، خارج نطاق العلوم الطبيعية، لتترك أثرها في الثقافة الحديثة، من الفن التشكيلي إلى الشعر. ففي البداية لم تكن النسبية مفهومة فعليا حتى لدى العلماء، وفي ذلك قال العالم الفلكي البريطاني آرثر إدنجتون قولته الساخرة المشهورة، عندما سئل هل صحيح أن عدد من فهموا النسبية لم يتعد ثلاثة أشخاص؟ «إنني أحاول أن أكتشف من هو الشخص الثالث. لقد بدت النسبية للعالم بوجه عام كما لو كانت تسحب البساط من تحت أقدام الواقع المدرك. وكان ذلك بالنسبة للعديد من المفكرين التقدميين في العشرينيات ــ من الدادائيين إلى التكعيبيين، والفرويديين ـ معتقدا مناسبا، يعكس ما يسميه دافيد كاسيدي مؤرخ العلوم «الطابع التفككي للمشهد المعاصر: سقوط الملكيات، وجيشان النظام الاجتماعي، وكل اضطرابات القرن العشرين في واقع الأمر».

وقد استمر التأثير الملهب لآينشتاين في الخيال





• آينشتاين عبر الزمن: العالم الشاب راكبا دراجة في كاليفورنيا (أعلى) - في صورة أسرية مع زوجته إلزا وابنة زوجته مارجوت (أسفل).

الشعبي خلال حياته، وبعد وفاته. وخوفا من أن يصبح قبره مصدر جذب لأصحاب الفضول، قام منفذو وصية آينشتاين بنثر رماد جثته سراً. لكن مسعاهم خاب جزئيا على الأقل عندما نجح أحد الباثولوجيين في الاحتفاظ بمخ آينشتاين أملا في اكتشاف أسرار عبقريته، لكن السنوات الأخيرة وحدها هي التي شهدت نجاح عدد من الباحثين الكنديين، من خلال فحوص دقيقة لتلك البقايا المحفوظة في محلول حمضي، في اكتشاف أن مخه كان به فص سفلي كبير الحجم بصورة غير عادية - وهو مركز للتفكير الرياضياتي والتخيل المكاني - وروابط أقصر بين الفصين الجبهي والصدغي. على أن علامات أبعد دلالة يمكن استجلاؤها من كتاباته وأوراقه، والتي بدأت تظهر للنور أخيرا فقط بعد سنوات من إحجام منفذي وصيته عن نشرها حرصا على حجب الصورة الشخصية للعالم الكبير.

وتبرز صورة آينشتاين، عبر هذه الوثائق (وخلافا لتلك الصورة الكاريكاتيرية للعم الكهل في سنواته التالية، الذي ترك شعره دون حلاقة، وأخذ يساعد الفتيات الصغار على حل واجبهن المدرسي في الرياضيات، وأصبح سريع التبني لأي قضية جديرة بالمساندة) كرجل تتناقض حياته الخاصة غير المستقرة تناقضا سافرا مع تأمله الهادىء للكون، رجل كان بإمكانه التراوح بين دفء المشاعر وبرود العاطفة، وأن يكون أبا حانيا ومتحفظا في التعامل رغم ذلك، كذلك هو الزوج العطوف والمغازل العابث في الوقت ذاته. وحول ذلك كتب فيليب فرانك، صديقه وكاتب سيرته، يقول: «برغم اهتمامه العميق والحميم بمصير كل غريب قادم، فقد كان ينسحب سريعا إلى داخل قوقعته» عندما تبدأ العلاقات في الدخول إلى منطقة الحميمية.

ولقد قاوم آينشتاين نفسه كل الجهود التي بذلت لاستكشاف طبيعته النفسية، رافضا - على سبيل المثال - عرضا من محلل نفسي فرويدي «بإجلاسه على الأريكة». غير أن الفضول فيما يتعلق بشخصيته لم ينقطع، وهو ما يتضح من ذلك المد الجارف من الكتب عن آينشتاين (يقدر موقع آمازون المعروض منها في المكتبات بحوالي مائة كتاب).

تأثر آينشتاين بقوة في طفولته - كابن أول، قصير وبدين، لزوجين برجوازيين يهوديين من جنوب ألمانيا، بشخصية أمه المهيمنة، المغرمة بالموسيقى، والتي شجعت شغفه بآلة الكمان وبمؤلفين موسيقيين كلاسيكيين مثل باخ، وموتسارت، وشوبيرت. وفي سنوات الطفولة المتأخرة مر آينشتاين بتجربة دينية بالغة الحدة إلى الحد الذي أصبح معه يعنّف أفراد أسرته لأنهم يأكلون لحم الخنزير، على أن حماسه هذا أخذ في الخفوت وحلت محله - بعد أن بدأ في استكشاف النصوص العلمية التأسيسية وكتاب الهندسة الصغير «المقدس» * نزعة شك لازمته بقية حياته في كل أشكال السلطة.

* Fellow المقصود هنا كتاب إقليدس في الهندسة - المترجم.

وكان تأثير والده، ذلك المهندس هادىء الطباع، والمشتغل دون نجاح لافت بحقل الصناعات الإلكترو كيميائية الناشئة - أقل كثيرا مقارنة بالأم برغم أنه هو الذي أهدى آينشتاين تلك «البوصلة» اللعبة التي ألهمته «تجربته الفكرية» الأولى عندما تساءل الطفل ذو السنوات الخمس: ترى ما الذي يجعل إبرة البوصلة تشير دائما إلى الشمال؟

وفي عمر الخامسة عشرة، مارس آينشتاين أولى تجاربه الكبيرة في التمرد. فقد ترك مدرسته الإعدادية، وكانت أسرته قد تركته في ميونيخ منتقلة إلى شمال ايطاليا بعد إخفاقة أخرى من إخفاقات أبيه المشروعاتية، بسبب الطابع الصارم شبه العسكري للنشاط الدراسي فيها، وفي غضون شهور تالية ترك وطنه أيضا ليلتحق في النهاية بمعهد البوليتكنيك الشهير في زيوريخ بسويسرا. وهناك جمعه الحب بزميلة دراسته طالبة الفيرياء الصربية ميليفيا ماريتش. وعلى الرغم من إصابتها بعرج وتقدمها عنه في العمر بثلاث سنوات، فقد كانت بالنسبة إليه «شقيقة الروح». وكان آينشتاين يستغرق في أحاديث طويلة معها عن الفيزياء وعن الموسيقى، وكان يسميها «دميتي»، كما اعترف بأبوته لطفلهما (الأول) غير الشرعي - وكانت طفلة هزيلة البدن، ربما تكون قد ماتت في سنوات طفولتها الأولى، أو سلمت لمؤسسة للتبني. وقد تزوجا بعد ذلك رغم معارضة والدته، غير أن رباط الزواج لم يقدر له البقاء طويلا.

ولقد تعين ذات مرة على آينشتاين الشاب، الوسيم والرومانسي المتحرر من المسؤولية في تلك السنوات، أن يعتذر لزوج محبوبة قديمة بعدما اكتشفت ميليفا تجدد المراسلة بين آينشتاين وبينها. وفي وقت لاحق، تشكى آينشتاين من أن غيرة ميليفا المرضية لم تكن تختلف في شيء عن غيرة النسوة «الجاهلات». وربما تنامى شعور ميليفا بالتعاسة نتيجة لشعورها بالندم لضياع طفلتها ولإحساسها بالوحدة مع استغراق زوجها في عمله البحثي - متعته الحقيقية الوحيدة - وشهرته الآخذة في التنامي. وعشية اندلاع الحرب العالمية الأولى، رافقت آينشتاين - دون حماس - إلى برلين، قلعة الفيزياء الأوروبية، لكنهما سرعان ما عادا إلى زيوريخ بطفليهما.

وبحلول العام 1919، وبعد سنوات ثلاث من التباعد والتشاحن، تم طلاقهما. ووافق آينشتاين على أن يمنحها المال الذي سيحصل عليه من فوزه الذي كان يستشعره وشيكا بجائزة نوبل، على أنهما واصلا التقاء بعضهما بعضاً، برغم الطلاق، كضرورة فرضها وجود طفلين بينهما، أولهما هانز آلبرت، الذي سيصبح فيما بعد أستاذا متميزا للهيدروليكا بجامعة كاليفورنيا ببيركلي، أما الثاني، إدوارد، والذي كان موهوبا في مجال الموسيقى والأدب، فقد توفي في وقت لاحق في إحدى المصحات النفسية بسويسرا، وقد اعتمدت ميليفا في تدبير أمور معيشتها على إعطاء دروس في الرياضيات والفيزياء. وعلى الرغم من أن كلاما تردد حول احتمال وجود مشاركة غير معلنة من جانبها في نظرية «النسبية الخاصة»، فإنها لم تردد هي نفسها أي دعاوى من هذا النوع.

وفي غضون تلك الفترة، ارتبط آينشتاين بابنة عمه المطلقة إلزا، التي دأبت على طهو طعامه والاعتناء به خلال الشهور المجهدة عاطفيا وعصبيا التي أنجز فيها تلك الوثبات الفكرية التي أنتجت في النهاية نظرية «النسبية العامة». وخلافا لميليفا، وفرت له إلزا فسحة من الحرية الشخصية، وليس من أجل العلم فقط. فمع تزايد شهرته واتساع نطاقها، كانت النساء تتحلق حوله كما تتحلق مجموعة أقمار بأحد الكواكب. وكانت تلك المداعبات تستفز إلزا، التي أصبحت الآن زوجة شرعية له، غير أنها كانت ترى أن عبقريا مثل زوجها لا يمكن بحال أن يكون خاليا من العيوب في كل النواحي.

على أنه برغم لا مبالاته في التعامل مع زوجتيه فقد كان ذا حس أخلاقي عميق. ففي ذروة اشتعال معارك الحرب العالمية الأولى، غامر بإثارة غضب

القيصر بتوقيعه على عريضة مناهضة للحرب، لم يزد عدد الموقعين عليها من علماء ألمانيا على أربعة. إلا أنه ساهم مع ذلك في تطوير بوصلة جيروسكوبية (دوارة) لاستخدامها في «اليوبوتة» أو الغواصة الألمانية. وخلال سنوات العشرينيات المضطربة، عندما اعتبر اليهود من قبل حزب هتلر النازي متصاعد الشعبية السبب في هزيمة ألمانيا وفي كوارثها الاقتصادية، كان آينشتاين و«فيزياؤه اليهودية» هدفا مفضلا، على أن النازي لم يكونوا أعداءه الوحيدين. فقد مثلت «النسبية» في نظر الستالينيين الألمان نوعا من «النزعة الفردية» الرأسمالية المتطرفة. وفي نظر الكنسيين بدت النسبية نوعا من الإلحاد، حتى لو كان آينشتاين ـ الذي تبنى نظرة سبينوزا التنزيهية للإله ـ يتكلم في مناسبات كثيرة عن محاولته فهم الكيفية التي شكل بها الله الكون.

وفي نوع من رد الفعل إزاء تنامي نزعة العداء للسامية في ألمانيا، تحول آينشتاين إلى صهيوني متحمس، وإن أبدى القلق برغم ذلك بشأن حقوق العرب في ظل أي دولة يهودية قادمة، ولأنه اضطر إلى مغادرة ألمانيا عندما تولى النازيون السلطة، فقد قبل عملا بالمعهد الجديد للدراسات العليا التابع لجامعة برنستون بولاية نيوجيرسي، ونشأ حوله في البداية جو من العزلة الأكاديمية. (عندما سئل آينشتاين عن الراتب الذي يراه مناسبا بالنسبة له، قال بسذاجته المالية إن ثلاثة آلاف دولار سنويا ربما تكون كافية، إلا أن إلزا العنيدة نجحت في رفع المبلغ إلى ستة عشر ألف دولار. وعلى رغم انشغاله بنضاله الخاص من أجل توحيد الجاذبية والكهرومغناطيسية في صيغة رياضية واحدة، فقد ظل يراقب قعقعة السيف الألماني بذعر بالغ وبرغم نزوعه «السلامي» في الفترة السابقة، فقد أعرب عن تأييده لعمل عسكري ضد هتلر، كما ساعد، من دون إعلان، عشرات اللاجئين اليهود على الدخول إلى الولايات المتحدة، ومن بينهم المصور الفوتوغرافي الشاب فيليب هالسمان، الذي إلتقط له في وقت لاحق أكثر صوره شهرة.

وقد كتب آينشتاين، بعد أن نبهه العالم المجري المهاجر ليو تسيلارد إلى احتمال صنع الألمان للقنبلة الذرية، كتب رسالة إلى الرئيس روزفلت، حول هذا الخطر، برغم محدودية اطلاعه على التطورات الأخيرة في حقل الفيزياء النووية، وعندما حدث تسيلارد آينشتاين عن التفاعلات التسلسلية، قال بدهشة: «لم يخطر ذلك ببالي على الإطلاق». وفي وقت لاحق عندما علم بتدمير هيروشيما وناجازاكي، أطلق تنهيدة حسرة بالغة.

وفي أعقاب الحرب العالمية الثانية، أصبح آينشتاين أكثر صراحة في التعبير عن آرائه. فإلى جانب الإسهام في حملة من أجل حظر الأسلحة النووية، أعلن شجبه للمكارثية وطالب بوضع حد للتعصب والعنصرية. وبدت تصريحات البروفيسور ذي المكانة الرفيعة، وقد أتت في ذروة الحرب الباردة، عميقة الدلالة برغم بساطتها. وقد أوردت مجلة «لايف» اسم آينشتاين ضمن أبرز خمسين «ساذجا ورفيق طريق»* في البلاد. وكتب كاسيدي يقول: «إن لديه حسا أخلاقيا صريحا قد لا يبين دائما للآخرين، حتى أصحاب الحس الأخلاقي». ويضيف جيرالد هولتون، المؤرخ وأستاذ الفيزياء بجامعة هارفارد، «لو أن أفكار آينشتاين ساذجة بالفعل، فسيكون العالم في حال بالغ السوء». وبدلا من ذلك فإنه يرى أن ميول آينشتاين الإنسانوية والديمقراطية هي «نموذج سياسي مثالي للقرن الحادي والعشرين»، نموذج يجسد أفضل ما في القرن المنصرم وأسمى أمانينا مع مقدم القرن الجديد. فما الذي نطلبه أكثر من أي إنسان لكي يتمثل في شخصه أفضل ما في المائة عام المنصرمة؟

* Fellow Travelen: من يعطف على برنامج حزب أو مبادئه أو يروج لها من غير أن يكون عضواً فيه.

● ثبوت النظرية: بعد تأكد صحة نظريته، آينشتاين وقد ذهب إلى باريس عام 1922 لشرحها.

(2)

موجز تاريخ "النسبية"

بقلم: ستيفن هوكنج *

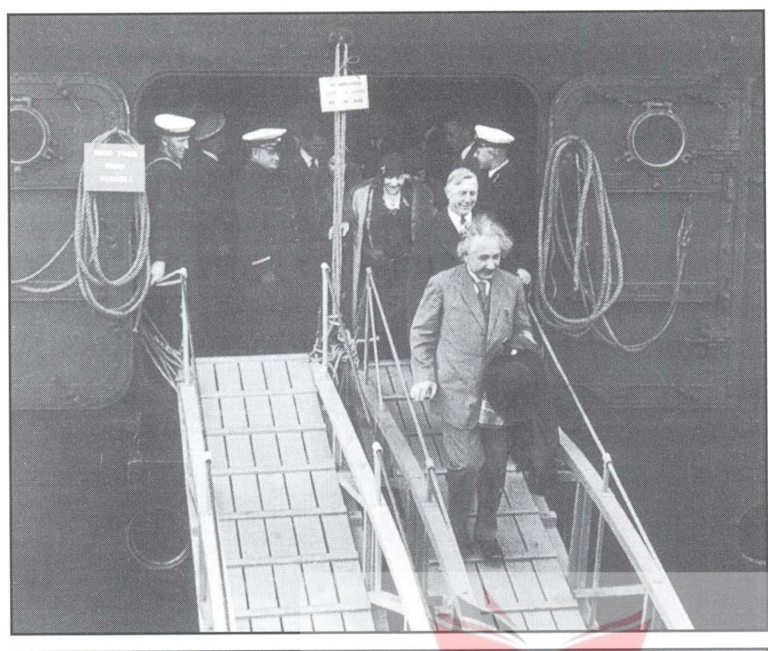
في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر، اعتقد العلماء أنهم أصبحوا قريبين من الوصول إلى وصف كامل للكون، وكانوا يتخيلون أن الفضاء مملوء في كل مكان منه بمادة متخللة سميت بالإثير، أما أشعة الضوء وإشارات الراديو فهي موجات وسط هذا الإثير تماما كما أن الصوت هو عبارة عن موجات ضغط في الهواء. وكانوا يعتقدون أن كل ما ينقصهم من أجل إكمال النظرية إنما هو القياسات الدقيقة للخواص «المطاطية» (أي المتعلقة بالمرونة) للإثير، وأنه ما إن يتوصلوا الى التعريف الدقيق لتلك الخواص، حتى يصبح كل شيء في موقعه داخل النسق.

على أنه سرعان ما ظهرت أوجه تعارض عدة مع فكرة وجود مادة الإثير المتخللة لكل فراغ. فأنت تتوقع أن ينتقل الضوء بسرعة ثابتة خلال الإثير. ومن ثم فلو أنك مسافر في اتجاه حركة الضوء نفسه، فلابد أنك ستتوقع أن تبدو سرعة الضوء أقل، أما لو سافرت في الاتجاه المعاكس لحركة الضوء فسوف تتوقع أن تبدو سرعة الضوء أكبر. غير أن سلسلة من التجارب أخفقت في العثور على أي دليل على وجود اختلافات في السرعة نتيجة للحركة عبر الإثير.

وكان أكثر تلك التجارب دقة وتنظيما هي تلك التي أجراها آلبرت مايكلسون وإدوارد مورلي، بمعهد «كايس» بكليفلاند في ولاية أوهايو، العام 1887. وفي هذه التجربة قارن الباحثان سرعة الضوء في شعاعين بينهما زاوية قائمة. وكانا يريان أنه مع دوران الأرض حول محورها وفي

---

* أشهر علماء الفيزياء الأحياء على مستوى العالم. ويشغل البروفيسور هوكنج، مؤلف كتاب «موجز تاريخ الزمن» كرسي الرياضيات بجامعة كامبريدج، وهو الكرسي الذي شغله إسحق نيوتن ذات يوم.





● اللاجىء: هرب آينشتاين، المطارد من النازيين، إلى الولايات المتحدة وأصبح مواطنا أمريكيا عام 1940.

مدارها حول الشمس، فإنها سوف تتحرك عبر الإثير، ومن ثم فإن سرعة الضوء في هذين الشعاعين يتعين أن تختلف. غير أن مايكلسون ومورلي لم يجدا أي اختلافات يومية أو سنوية بين شعاعي الضوء. وبدا أن الضوء ينتقل دائما بالسرعة نفسها بالنسبة إليك، بغض النظر عن الكيفية التي تتحرك بها.

وكان عالم الفيزياء الإيرلندي جورج فيتزجرالد والهولندي هيندريك لورينتز أول من اقترح أن حركة الأجسام عبر الإثير يمكن أن تنكمش وأن الساعات يمكن أن تبطأ. وهذا الانكماش والتباطؤ يمكن أن يحدث على نحو يقيس معه كل شخص السرعة نفسها للضوء بغض النظر عن الكيفية التي يتحرك بها هؤلاء الأشخاص بالنسبة للإثير، تلك المادة التي اعتبرها كل من فيتزجرالد ولورينتز جوهراً ماديا حقيقيا.

غير أن شابا صغيرا يدعى آلبرت آينشتاين، يعمل كاتبا في مكتب لتسجيل براءات الاختراع في مدينة برن بسويسرا، كان هو الشخص الذي استبعد ببساطة فكرة وجود الإثير وقدم الحل الناجز لمشكلة سرعة الضوء. ففي يونيو 1905 كتب آينشتاين ورقة بحثية بين ثلاثة أبحاث سوف تضعه في مقدمة العلماء الكبار للقرن العشرين ـ وخلال نشاطه البحثي المنعكس في تلك الأوراق البحثية الثلاث أسس آينشتاين لثورتين مفاهيميتين غيرتا فهمنا لكل من الزمان والمكان والواقع المادي.

في تلك الورقة البحثية التي كتبها عام 1905، أوضح آينشتاين أنه بسبب أنه لا يمكنك التحقق مما إذا كنت تتحرك عبر الإثيرأم لا، فإن هذا المفهوم بأسره عن وجود شيء اسمه الإثير يعد شيئا زائدا

لا ضرورة له. وبدلا من ذلك، انطلق آينشتاين من البديهية القائلة إن قوانين العلم يتعين أن تبدو واحدة بالنسبة لأي مراقب حر الحركة، وأنه يتعين بوجه خاص أن يقيس كل المراقبين السرعة نفسها للضوء، بغض النظر عن الكيفية التي يتحركون بها.

وقد تطلب هذا التخلي عن الفكرة القائلة إن هناك كما كونيا يدعى «الزمن» تقوم كل الساعات بقياسه. وبدلا من ذلك، يمكن أن يكون لكل فرد زمنه الشخصي الخاص. ويمكن أن تنفق ساعتان في يدي فردين مختلفين إذا كانتا في وضع ثابت بالنسبة لبعضهما البعض، لكن الأمر سيختلف إذا كانتا في حالة حركة. وقد تم تأكيد ذلك من خلال عدد من التجارب، من بينها تجربة طيرت فيها وحدة قياس للزمن بالغة الدقة حول العالم ثم تم مقارنتها بوحدة قياس أخرى ظلت باقية في المكان. وهنا يمكن القول إنك لو أردت أن تعيش زمنا أطول، فإن عليك أن تواصل الطيران في اتجاه الشرق حيث تضاف سرعة الطائرة إلى دوران الأرض، على أن ذلك الجزء الضئيل من الثانية الذي فزت به يمكن أن يعوض عنه كثيرا ما ستتناوله من وجبات الخطوط الجوية.

وقد مثلت مسلّمة آينشتاين القائلة إن قوانين الطبيعة يتعين أن تبدو واحدة بالنسبة لكل مراقب حر الحركة الأساس الذي انبنت عليه نظرية النسبية، والتي سميت بهذا الاسم نظرا لأنها تعني ضمنا أن الحركة النسبية هي وحدها الشيء المهم.

ولقد كان جمالها وبساطتها مقنعين بالنسبة لكثير من العلماء والفلاسفة. غير أنه تبقى برغم ذلك قدر كبير من المعارضة. ذلك أن آينشتاين أطاح باثنين من مطلقات القرن التاسع عشر: السكون المطلق Absolute Rest كما يتمثل في الإثير، والزمن المطلق أو الكوني Absduteor Wniversal Time ذلك الذي تقوم الساعات على اختلاف أنواعها بقياسه. ومن ثم فقد تساءل الناس: هل يعني هذا أنه لا وجود لمعايير أخلاقية مطلقة، وأن كل شيء نسبي.

واستمر هذا التوتر قائما طوال العشرينيات والثلاثينيات، وعندما منح آينشتاين جائزة نوبل في العام 1921، ذكرت لجنة الجـائزة في تنويهها أنه منح الجائزة لبحثه المهم والذي كان محدود الأهمية بمعايير آينشتاين الذي أنجزه أيضا عام 1905. ولم يرد أي ذكر للنسبية، التي نظر إليها على أنها نظرية خلافية. ومازلت أتلقى حتى اليوم رسالتين أو ثلاثاً كل أسبوع تخبرني أن آينشتاين كان مخطئا. ومع ذلك فقد أصبحت نظرية النسبية مقبولة كلية الآن لدى مجتمع العلماء، كما تم التحقق من تنبؤاتها في تطبيقات لا حصر لها.

وتتمثل إحدى النتائج بالغة الأهمية المترتبة على النسبية في العلاقة بين الكتلة والطاقة. فمسلّمة آينشتاين القائلة إن سرعة الضوء يتعين أن تبدو واحدة بالنسبة لكل فرد، إنما تعني أنه لا شيء يمكن أن يتحرك أسرع من الضوء. وما يحدث هو أنه مع استخدام الطاقة لتسريع حركة جزيء أو سفينة فضاء، فإن كتلة الجسم المتحرك تزداد، وهو ما يزيد من صعوبة إضافة أي مزيد من التسريع. ومن المستحيل تسريع حركة الجزيء إلى مستوى سرعة الضوء نظرا لأن الأمر سيتطلب كمية لا نهائية من الطاقة. وتوجز معادلة آينشتاين الشهيرة (الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء) ذلك التكافؤ بين الكتلة والطاقة، تلك المعادلة التي تعد المعادلة الوحيدة في علم الفيزياء المعترف بها على مستوى الشارع.

ومن بين النتائج المترتبة على هذا القانون أنه إذا انقسمت، أو انشطرت، نواة اليورانيوم إلى نويتين كتلتهما الإجمالية أقل قليلا من النواة الأصلية، فإن مقدارا هائلا من الطاقة يجري إطلاقه. وفي عام 1939، وبعد أن لاحت بوادر الحرب العالمية الثانية في الأفق، استطاعت مجموعة من العلماء الذين تنبهوا إلى الآثار التي يمكن أن تترتب على هذا الانشطار-إقناع آينشتاين بأن يتغاضى عن وساوسه «السلامية» ويكتب رسالة إلى الرئيس روزفلت يحث



● ماونت ويلسون: آينشتاين في زيارة للمرصد الذي اكتشف فيه «الانفجار الكبير».

فيها الولايات المتحدة على البدء في تنفيذ برنامج للبحث النووي. وقد أسفر ذلك عن إنشاء «مشروع مانهاتن» وإنتاج القنبلة الذرية، والتي فجرت فوق هيروشيما عام 1945. ويعتبر بعض الناس آينشتاين مسؤولا عن ظهور القنبلة الذرية على أساس أنه هو الذي اكتشف العلاقة بين الكتلة والطاقة. غير أن ذلك أشبه ما يكون باعتبار نيوتن مسؤولا عن الجاذبية التي تجعل الطائرات تتحطم. والواقع أن آينشتاين لم يكن له أي إسهام في مشروع مانهاتن، كما أن نبأ التفجير روعه كثيرا.

وعلى اثر رغم من أن نظرية النسبية تنسجم كلية مع القوانين التي تحكم حقلي الكهرباء والمغناطيسية، فإنها لم تتوافق مع قانون نيوتن للجاذبية. إن هذا القانون يقول إنك لو غيرت توزيع المادة في منطقة ما من الفراغ، فإن التغير في مجال الجاذبية سيكون ملموسا على الفور في كل مناطق الكون الأخرى. ولم يكن ذلك يعني فحسب أن بإمكانك أن ترسل إشارات أسرع من الضوء (وهو شيء ترفض النسبية إمكانية حدوثه) بل إنه استلزم أيضا وجود الزمان «المطلق» أو الشامل الذي ألغته النسبية لحساب الزمان النسبي أو الشخصي.

ولقد كان آينشتاين مدركا لتلك الصعوبة العام 1907ـ وكان وقتها لايزال يعمل في مكتب تسجيل الاختراعات ببرن ــ إلا أنه لم يبدأ التفكير بجدية في المشكلة إلا بعدما انتقل للعمل بالجامعة الألمانية في براغ العام 1911. ولقد أدرك وقتئذ أن هناك علاقة وثيقة بين التسارع ومجال الجاذبية. إن أحدا ما يقبع داخل صندوق مغلق لا يستطيع أن يحدد ما إذا كان جالسا في حالة سكون في مجال الجاذبية الأرضية أم أنه في حالة تسارع بفعل صاروخ ينطلق في الفضاء الواسع.

ولو أن الأرض كانت مسطحة، لكان بإمكان المرء أن يقول بالقدر نفسه من إمكان الصدق إن التفاحة سقطت فوق رأس نيوتن بفعل الجاذبية أو أن رأس نيوتن ضربت التفاحة لأن نيوتن وسطح الأرض كانا في حالة تسارع إلى أعلى، على أن هذا التكافؤ بين التسارع والجاذبية لا يبدو قابلا للتحقق بالنسبة لأرض كروية. فالناس في الجانب الآخر من العالم كان سيتعين عليهم أن يكونوا في حالة تسارع في الاتجاه المعاكس لكنهم يظلون مع ذلك على مسافة ثابتة منا.

وعند عودته إلى زيوريخ العام 1912، خطرت

في ذهنه فكرة بارعة. فقد أدرك أن التكافؤ بين الجاذبية والتسارع يمكن أن يتحقق لو أن هناك نوعا من «الأخذ والعطاء» في هندسة الواقع المادي. فماذا لو أن متصل «المكان ـ الزمان» ـ وذلك الكيان الذي اخترعه آينشتاين من أجل دمج الأبعاد الثلاثة المألوفة للمكان ببعد رابع هو «الزمن» ـ كان منحنيا، وليس مسطحا، كما افترض من قبل؟ لقد تمثلت فكرته في أن الكتلة والطاقة يمكن أن يحرفا متصل المكان ـ الزمان بطريق ما مازال يتعين تحديدها. فأشياء مثل ثمار التفاح أو الكواكب قد تحاول التحرك في خطوط مستقيمة عبر متصل المكان ـ الزمان، غير أن مساراتها سوف تبدو منحنية بفعل مجال الجاذبية نظرا لأن متصل المكان ـ الزمان منحن هو ذاته.

وبمساعدة صديقه مارسيل جروسمان، درس آينشتاين نظرية الأماكن والأسطح المنحنية التي طورها برنارد ريمان بوصفها موضوعا بحثيا يتبع الرياضيات البحتة أو المجردة، دون أي تفكير من جانبه في إمكانية ارتباطها بالعالم الواقعي. وفي العام 1913، كتب آينشتاين وجروسمان ورقة بحثية طرحا فيها الفكرة القائلة إن ما نتصوره على أنه قوى جاذبية ليس سوى تعبير عن الحقيقة القائلة إن متصل المكان ـ الزمان يتسم بالانحناء، على أنه نتيجة لخطأ من جانب آينشتاين (والذي هو بشر في النهاية وغير معصوم من الخطأ) لم يتمكنا من إيجاد المعادلات التي تربط الانحناء المكاني - الزماني بالمادة والطاقة الكامنة فيها.

وقد واصل آينشتاين الاشتغال على المشكلة في برلين،ن دون أن تقلقه شواغل منزلية أو تؤثر فيه كثيرا مجريات الحرب، حتى توصل في النهاية إلى المعادلات الصحيحة، في نوفمبر 1915. وقد ناقش آينشتاين أفكاره تلك مع عالم الرياضيات دافيد هيلبرت خلال زيارة لجامعة جوتنجن في صيف العام 1915، وكان هيلبرت قد توصل ـ مستقلا عن آينشتاين ـ إلى المعادلات نفسها قبل آينشتاين بأيام قليلة. ومع ذلك فقد كان الفضل في الوصول للنظرية الجديدة ـ وكما اعترف هيلبرت نفسه ـ مستحقا لآينشتاين. فقد كانت فكرته هو أن يتم ربط الجاذبية بانحراف المتصل المكاني ـ الزماني. والواقع أنه من سمات تميز الدولة المتمدنة في ألمانيا في تلك الفترة أنه كان بالإمكان استمرار هذه المناقشات والحوارات العلمية دون عوائق أو منغصات حتى في وقت الحرب، وكم تناقض ذلك مع الوضع الألماني بعد عشرين عاما.

وقد سميت النظرية الجديدة المتعلقة بالمتصل المكاني الزماني المنحني بنظرية «النسبية العامة» تمييزا لها عن النظرية الأصلية غير المتضمنة للجاذبية، والتي أصبحت تعرف الآن بنظرية «النسبية الخاصة». ولقد تأكدت صحة النظرية الجديدة على نحو مدهش في العام 1919، عندما لاحظت بعثة علمية بريطانية إلى غرب أفريقيا انحرافا صغيرا في موضع النجوم قرب الشمس خلال فترة كسوف. لقد كان ضوءها، وكما تنبأ آينشتاين، ينحني عند مروره بالشمس. وقد مثل ذلك دليلا مباشرا على التواء المكان والزمان، وذلك هو أكبر تغير في فهمنا لعالمنا المحيط منذ كتب إقليدس «عناصر الهندسة» حوالي العام 300 قبل الميلاد.

لقد حولت نظرية آينشتاين العامة في النسبية المكان والزمان من خلفية سلبية تجري فيها الأحداث إلى مشاركين إيجابيين في ديناميكا الكون. وهو ما أدى إلى مشكلة كبرى لاتزال تأتي في طليعة قضايا علم الفيزياء مع نهاية القرن العشرين. فالكون مليء بالمادة، والمادة، تلوي، أو تحرف، متصل المكان ـ الزمان بحيث تسقط الأجسام في وقت واحد. وقد وجد آينشتاين أن معادلاته لم توفر حلا يصف كونا لا يتغير في الزمان. وبدلا من التخلي عن الصورة السكونية للكون فقد لفق معادلاته بإضافة عامل أسماه «الثابت الكوني» Cosmological Constant والذي يحرف، أو يلوي، المتصل المكاني الزماني في

الاتجاه الآخر بحيث تتحرك الأجسام مستقلة بعضها عن بعض، كما يمكن للتأثير التنافري للثابت الكوني أن يوازي التأثير الجاذب للمادة ويتيح من ثمة كونا يدوم لكل الأزمان.

ولقد ثبت فيما بعد أن ذلك كان إحدى الفرص الضائعة الكبرى في حقل الفيزياء النظرية. فلو أن آينشتاين التزم بمعادلاته الأصلية، لأمكنه أن يتنبأ بأن الكون يتعين إما أن يتمدد أو يتقلص. على أن إمكانية وجود كون معتمد على الزمن لم تؤخذ بجدية حتى القيام بعمليات الرصد في العشرينيات مع وضع التلسكوبات المائة في «ماونت ويلسون».

وقد أظهرت عمليات الرصد التلسكوبي تلك أنه كلما كانت المجرات الأخرى أبعد عنا، كانت أسرع في التحرك بعيداً، أو بكلمات أخرى أن الكون يتمدد وأن المسافة بين أي مجرتين تتزايد باطراد بمضي الزمن. وفي وقت لاحق، اعتبر آينشتاين «الثابت الكوني» الخطأ الأكبر في حياته.

لقد غيرت النسبية العامة كلية طبيعة النقاش فيما يتعلق بأصل الكون ومصيره. فالكون السكوني يفترض أن يكون موجودا إلى الأبد أو أن يكون قد خلق بشكله الحالي منذ زمن ما في الماضي. ومن ناحية أخرى، لو أن المجرات تتحرك مبتعدة بعضها عن بعض في الوقت الراهن، فلابد أنها أقرب بعضها لبعض في الماضي. وربما كانت كل تلك المجرات بالغة القرب من بعضها البعض منذ 15بليون سنة، وربما كانت كثافتها وقتئذ لا نهائية. وطبقا للنسبية العامة فقد كان هذا «الانفجار الكبير» هو بداية الكون وبداية الزمن نفسه. ومن

النسبية العامة

في العام 1915 أوسع آينشتاين نظريته الخاصة للنسبية تشمل الجاذبية. وفي النسبية العامة، يتخذ الضوء دائما أقصر مسار ممكن من نقطة ما إلى النقطة الأخرى.

النسبية والجاذبية

طبقا لنظرية النسبية، لا تمثل الجاذبية قوة، وإنما هي «التواء» لمتصل المكان ـ الزمان والذي يحدث في وجوده المادة. والالتواء ـ أو الانحناء ـ هنا هو أشبه ما يكون بانحناء لوح من المطاط عندما يوضع ثقل ما فوقه.

1 ـ عندما يمر شعاع نجم ما بالقرب من جسم ضخم، مثل الشمس، فإن الطريق الأقصر يتمثل في خط منحن يتبع انحناء متصل المكان ـ الزمان. ومن ثم يبدو ضوء النجم كما لو كان قادما من نقطة أخرى مغايرة لمصدره الأصلي. وقد أقنع رصد هذا التأثير عام 1919 علماء الفيزياء بأن نظرية آينشتاين الغريبة كانت صحيحة.



2 - لو أن مادة ما تركزت بما فيه الكفاية، فإن انحناء متصل المكان ـ الزمان يصبح لا نهائيا. وتعرف هذه الظاهرة باسم «الثقب الأسود» وذلك لأن شعاع الضوء الذي يقترب منه كثيرا لا يستطيع الفكاك

تكافؤ الجاذبية والتسارع

من دون دلائل خارجية، من المستحيل معرفة ما إذا كان يتم جذبك إلى أسفل بفعل الجاذبية أم أنك في حالة تسارع إلى أعلى. فساقاك سيشعران بنفس الضغط، كذلك ستسقط الكرة ما بالطريقة نفسها تحديدا.

مثل إدراك أن الجاذبية والتسارع مقداران متكافآن مدخلا مفاهيميا أساسيا أتاح لآينشتاين في النهاية بناء نظريته في النسبية العامة.



أجل هذا وحده ربما كان آينشتاين جديرا بأن يكون «شخصية» فترة أطول بكثير من مجرد المائة عام الماضية.

كذلك تتنبأ نظرية النسبية العامة بأن الزمن يتوقف داخل الثقوب السوداء، وهي تلك المناطق داخل المتصل المكاني الزماني التي يصل التواؤها حدا لا يستطيع الضوء معه تفاديها. غير أن كلا من بداية ونهاية الزمان إنما هي مكان تتداعى فيه معادلات النسبية العامة. ومن ثم لا تستطيع النظرية أن تتنبأ ما الذي تعين أن ينتج عن «الانفجار الكبير»، والذي يتصوره البعض على أنه دلالة على حرية الخالق في البدء بخلق الكون على النمو الذي ارتأته مشيئته. في حين يتصور البعض الآخر (ومنهم كاتب هذا المقال) أن بداية الكون لابد أن تحكمها القوانين نفسها التي سادت في كل الأزمان الأخرى. ولقد حققنا بعض التقدم في اتجاه هذه الغاية، إلا أننا لم نتوصل بعد إلى فهم كامل لأصل الكون.

والواقع أن سبب إخفاق النسبية العامة في مواجهة «الانفجار الكبير» إنما تمثّل في أنها لم تكن متوافقة مع نظرية الكم Quantum Theory والتي تعد الثورة المفاهيمية الكبرى الثابتة التي شهدتها بدايات القرن العشرين. وكانت الخطوة الأولى نحو اكتشاف نظرية الكم هي اكتشاف ماكس بلانك، خلال إجرائه لأبحاثه في برلين عام 1900، أن الإشعاع الصادر من جسم متوهج بلون الحمرة اللاهبة يمكن تفسيره إذا ما أتى الضوء فقط في شكل حزم من حجم معين سمي

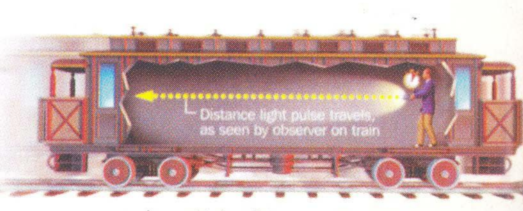
نظرية النسبية

ذهبت نظرية آينشتاين للعام 1905 إلى أن الضوء يتحرك خلال فراغ بسرعة ثابتة بالنسبة لأي مراقب، بغض النظر عن طبيعة حركة المراقب. وترتبت عليها نتائج غريبة.

النسبية والطول

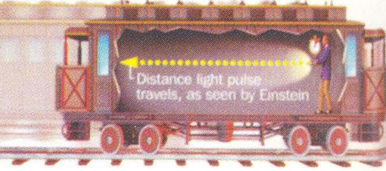
الجسم المتحرك يبدو كما لو كان ينكمش في مسار الحركة، كما يرى من قبل مراقب ثابت.

1 ـ الرجل يراقب الآن شعاع ضوء يقطع المسافة بطول عربة القطار، ومن خلال معرفته لسرعة الضوء والزمن الذي استغرقه قطع الضوء للمسافة المذكورة، فإن بإمكانه أن يحسب طول العربة.



المراقب من داخل القطار يرى حركة شعاع الضوء فحسب.

2 ـ آينشتاين في موضع ثابت، ومن ثم فإن مؤخرة القطار تتحرك قدما من منظوره ليلتقي بشعاع الضوء: بالنسبة له يقطع شعاع الضوء مسافة أقصر إذن ولأن سرعة الضوء هي دائمة السرعة نفسها، فإنه سيحسب طول القطار على أنه أقصر مسافة حتى بعد أن ساعته ذات التكات الأسرع. ومع اقتراب القطار من سرعة الضوء، فإن طوله يتقلص إلى ما يقرب الصفر.

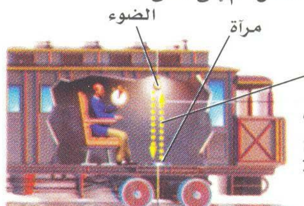


المراقب المتابع من الخارج يرى شعاع الضوء يتحرك لكن

النسبية والزمن

تتحرك عقارب الساعة المتحركة ببطء أكبر مقارنة بالساعة الثابتة، وذلك بالنسبة لمراقب ثابت.

1 ـ شخص يركب قطارا في حالة حركة يقوم بتسجيل زمن شعاع ضوء يقطع المسافة بين سقف العربة وأرضها والعودة مرة أخرى إلى السقف. من وجهة نظره، يتحرك الضوء في خط مستقيم إلى أسفل ثم إلى أعلى.



يتصور المراقب الراكب بالقطار أن مصباح الضوء والمرآة متوقفة تماما.

2 ـ من على جانب الخط الحديدي، يرى آينشتاين الرجل والمصباح والمرآة يتحركون جميعا بشكل جانبي، فالضوء يذهب الى مدى أبعد لكن بما أن سرعة الضوء هي السرعة نفسها دائما، فلابد أن يستغرق الحدث وقتا أطول من خلال ساعته.

المسافة التي يقطعها، كما تبدو لآينشتاين، هي أطول

More time has elapsed

المراقب المتابع للقطار يتصور أن

«كمّات» quanta (صيغة الجمع quantumis). لقد بدا، تحديداً، الأمر كما لو أن الإشعاع يتم تعبئته (في حزم) مثل السكر، فأنت لا تستطيع أن تشتري أي كمية اعتباطية من السكر السائب من أي سوبر ماركت لكنك تشتريها فقط معبأة في أكياس زنتها كيلوجرام أو أكثر. وفي واحد من أبحاثه الرائدة ـ التي كتبها في العام 1905، عندما كان مازال يعمل بمكتب تسجيل براءات الاختراع في برن ـ أوضح آينشتاين أن فرضية «الكم» التي طرحها بلانك يمكنها أن تفسر ما يسمى بـ«التأثير الكهروضوئي» Photoelectric effect، أي الطريقة التي تطلق بها معادن معينة بعض إلكتروناتها عندما تسقط أشعة الضوء فوقها، وهو ما مثل أساس «المكشاف» الضوئي الحديث وكاميرات التلفزيون، ولقد كان ذلك البحث هو الذي نال آينشتاين عنه جائزة نوبل في الفيزياء عام 1921.

وقد واصل آينشتاين أبحاثه في فكرة «الكم» في العشرينيات غير أنه تحير بعمق إزاء أبحاث كل من فيرنر هايزنبرج في كوبنهاجن، وبول ديراك في كامبريدج، وإرفين شرودنجر في زيوريخ، الذين طوروا صورة جديدة للواقع المادي سميت «ميكانيكا الكم» Quantum Mechanics . ووفق هذه الصورة لم يعد للجسيمات الدقيقة موقع محدد أو سرعة بعينها. بل على النقيض من ذلك فكلما حددت بدقة أكبر موقع الجسيم، كان تحديدك لسرعته أقل دقة، والعكس بالعكس.

لقد روّع آينشتاين من هذا العنصر العشوائي، غير القابل للتنبؤ في القوانين الأساسية، ولم يقبل بميكانيكا الكم قبولا كاملا أبدا. على أن أغلب العلماء الآخرين قبلوا بصحة قوانين الكم بالنظر إلى أنها أظهرت اتفاقا كبيرا مع معطيات المراصد الفلكية ولأنها بدت قادرة على تفسير سلسلة كاملة من الظواهر التي لم يعرف لها تفسير في السابق. وقد مثلت هذه القوانين أساس التطورات الحديثة في الكيمياء، والبيولوجيا الجزيئية، والإلكترونيات وأساس التكنولوجيا التي غيرت العالم في النصف الأخير من القرن العشرين.

وعندما وصل النازي إلى السلطة في ألمانيا عام 1933، ترك آينشتاين البلاد وأعلن إنكاره لمواطنته الألمانية. وأمضى السنوات الاثنتين والعشرين الباقية من حياته بمعهد الدراسات العليا في برنستون، بولاية نيوجيرسي. وقد شن النازيون حملة ضد «العلم اليهودي» وضد مجموعة العلماء الألمان يهوديي الديانة (كانت هجرتهم الجماعية من البلاد أحد أسباب عدم تمكن ألمانيا من صنع قنبلة ذرية). وكان آينشتاين ونظريته النسبية أحد الأهداف الأساسية لهذا الهجوم. وعندما أبلغ آينشتاين بنشر كتاب «مائة مؤلف ضد آينشتاين» أجاب بقوله: ولماذا مائة، إنني لو كنت على خطأ فسيكون شخص واحد فقط كافيا تماما. وعقب انتهاء الحرب العالمية الثانية، حث آينشتاين الحلفاء على تشكيل حكومة عالمية لحظر إنتاج القنبلة الذرية. وفي عام 1952 عرض عليه تولي رئاسة الدولة في إسرائيل لكنه رفض الدعوة وكتب حول ذلك في وقت لاحق: «السياسة عمل للراهن، في حين أن أي معادلة يصوغها عالم هي عمل باق للأبد». ولقد مثلت معادلاته في النسبية العامة أفضل إحياء لذكراه. وسوف تظل باقية ما بقي الكون.

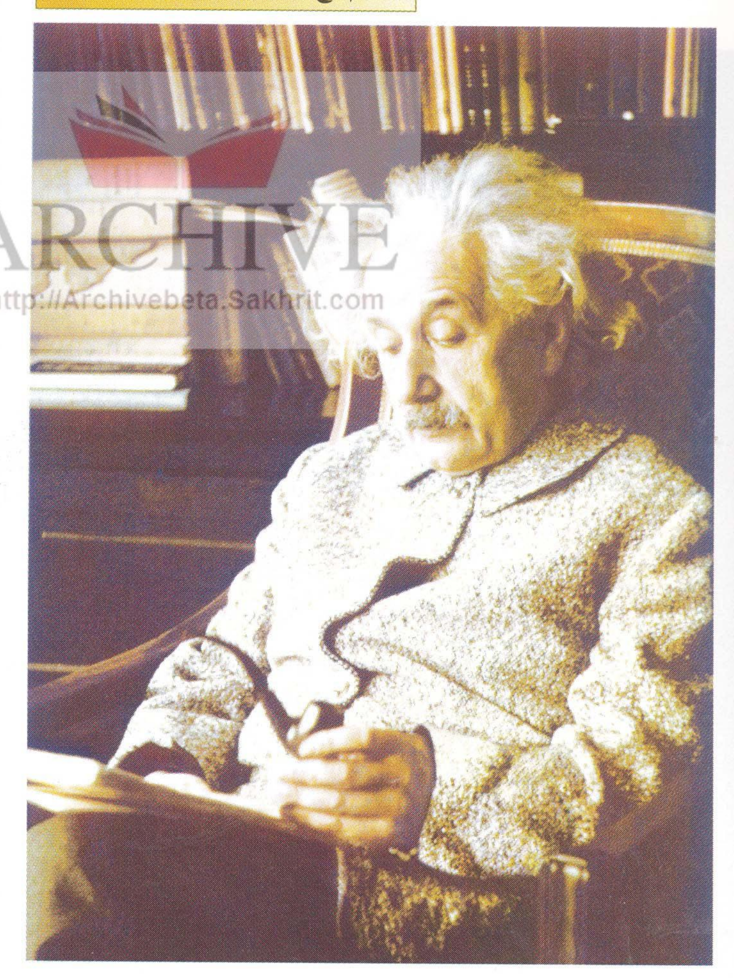
لقد تغير العالم خلال السنوات المائة الماضية بما يفوق كثيرا أي تغير شهده في أي قرن آخر. ولايرجع السبب الأساسي في ذلك إلى عوامل سياسية أو اقتصادية وإنما يتمثل ذلك السبب في التكنولوجيا: أي مجموعة التكنولوجيات التي نجمت مباشرة من منجزات التقدم في العلوم الأساسية. ومن المؤكد أننا لن نجد عالما أفضل تمثيلا لمنجزات التقدم تلك من آلبرت آينشتاين.

(3)

سيمفونية لم تكتمل

«ربما أنجزت نظرية (الأوتار) ما أخفق آينشتاين في إنجازه في النهاية: أن تربط بين الفكرتين الكبيرتين المتعارضتين في فيزياء القرن العشرين»

بقلم: ج. مادلين ناش



في أخريات أيامه، قال آينشتاين وقد أصبح طريح فراشه: «لقد أصبح ينظر إلي بوجه عام بوصفي شيئا متحجرا، كائنا تحول إلى شخص أصم وأعمى بمرور السنين». ولقد كان مصيبا تماما، بكل أسف، فيما قاله. فلقد سيطر على ذهن آينشتاين، خلال العقود الثلاثة الأخيرة من حياته المهنية الباهرة حلم إنجاز نظرية مجالية موحدة، أي مجموعة أو سلسلة من المعادلات تؤسس لرابطة جوهرية بين القوتين غير المترابطتين ظاهريا وهما الجاذبية والكهرومغنطيسية.

وعبر سعيه هذا، أمل آينشتاين أيضا في حل الخلاف بين رؤيتين متنافستين للكون: المتصل السلس للمكان ـ الزمان، حيث تسود النجوم والكواكب، طبقا لوصف نظريته في النسبية العامة. والعصبية المزعجة لعالم «الكم» دون المجهري Submicroscopic Quantum World، حيث السيادة للجسيمات الدقيقة.

وقد اشتغل آينشتاين بجدية كبيرة على المشكلة، لكن النجاح لم يحالفه. ولم يكن في

ذلك أي مفاجأة بالنسبة لمعاصريه من العلماء في واقع الأمر، الذين نظروا إلى مسعاه على أنه انغماس في النزعة «الدونكيشوتية». لقد كانوا يشعرون أن العالم الأكبر بين كل زملائهم العلماء إنما كان يضيع وقته لا غير، معتمدا على نهج مفاهيمي هو متخلف على وجه التحديد. فعلى خلاف كل علماء الفيزياء الآخرين على إطلاقهم، كان آينشتاين مقتنعا بأنه في الخلاف بين ميكانيكا الكم والنسبية العامة فإن الأولى هي التي تشكل صلب المشكلة، وقد كتب آينشتاين، عام 1954، يقول «لابد أنني أبدو مثل نعامة تدفن رأسها إلى الأبد في رمال النسبية حتى لا تواجه الكمات الشريرة».

على أننا نعرف الآن أن نظرية آينشتاين هي التي أخفقت في ذلك الخلاف في النهاية. فعلى مستوى مقاييس عالم الجسيمات الدقيقة، يصبح «المكان ـ الزمان» ـ ومن ثم الواقع نفسه ـ «مجزعا» وغير



... قد تشرح كل الفيزياء ميكانيكا الكم ونظرية النسبية لا تتفقان معا، لكن نظرية «M»، التي تتضمن داخلها فكرة «الأوتار»، يمكنها أن تدمج الاثنين في النهاية.

الأبعاد: تتضمن الفيزياء التقليدية أربعة أبعاد، بما في ذلك بعد الزمن. أما نظرية M فتذهب إلى أن هناك أحد عشر بعدا ـ غير أن الأبعاد الإضافية غير قابلة للتنبؤ إلا على مستوى العالم تحت الذري.

السوبر سيمترية: ذهبت النظريات السابقة إلى أن كل جسيم غير معروف له نظير لم يكتشف بعد. وهذه الجسيمات السوبرسيمترية، بما في ذلك «السواركات»* و«السيلكترونات»، تتوافق مع نظرية M.

الأوتار: على رغم أن الأوتار متماثلة، فإن الطريقة التي تتذبذب بها هي التي تحدد ما إذا كانت تتصرف كإلكترونات أم ككواركات، على نحو شبيه بآلة الكمان، يعطي الوتر الصوت.

* أي الكواركات والإلكترونات «السوبر سيمتريه».

متواصل، مثل صورة فوتوغرافية صحفية مكبرة تكبيرا مفرطا وسيئا.. ومعادلات النسبية العامة لا تستطيع أن تعالج مثل هذا الوضع، حيث تتعطل قوانين السبب والنتيجة وتقفز الجسيمات من النقطة «أ» إلى النقطة «ب» دون المرور عبر المكان الواقع بينهما. ففي عالم كهذا، يمكن أن تحسب فقط ما الذي يحتمل أن يحدث في اللحظة القادمة - وهو ما وضعت نظرية الكم تحديدا للتعامل معه.

ولم يكن آينشتاين ليقبل بحال فكرة أن العالم كان في جوهره مغامرة كونية، بحيث تبدو أبحاثه حول نظرية مجالية موحدة شيئا باليا تماما. غير أن اللغز الذي حاولت أبحاثه تلك أن تحله هو عنصر أساسي وجوهري كلية. ذلك أن مجرد إدراكه أو تعرفه المشكلة، إنما أتاح لآينشتاين رؤية كاشفة ومتقدمة لدرجة لم يستطع بقية علماء الفيزياء مواكبتها إلا حديثا. فقد انخرط جيل جديد من الفيزيائيين أخيرا في تحدي إبداع نظرية



تتألف المادة من ذرات...

تتألف الذرات من بروتونات ونيوترونات وإلكترونات...

لا تقبل الإلكترونات أي انقسام آخر، لكن البروتونات والنيوترونات تتألف كل منها من ثلاثة جسيمات أصغر حجما تسمى «كواركات» QUARKS.

ولقد أصبح يبدو في الوقت الحاضر أن الكواركات والإلكترونات ربما لم تكن جسيمات على الإطلاق، وإنما كيانات متعددة الأبعاد تدعى «برينات» BRANES. والتي يتجلى بعضها في شكل تحلقات بالغة الصغر من «الأوتار».

كاملة ـ أي نظرية قادرة على تفسير «كل عنصر من عناصر الواقع الفيزيائي»، على حد تعبير آينشتاين. وفي ضوء ما أنجزوه من تقدم، نستطيع أن نقول إن القرن الجديد يمكن أن يبشر باقتراب ثورة فكرية ربما فاقت في إثارتها تلك التي تسبب آينشتاين في إطلاقها في بدايات القرن العشرين.

ولقد نجح الفيزيائيون النظريون بالفعل، في واقع الأمر، في بناء إطار يوفر أفضل أمل تحقق حتى الآن في «المكاملة» بين الجاذبية وقوى الطبيعة الأساسية الأخرى. ويعرف هذا الإطار على المستوى العام غير المتخصص باسم «نظرية الوتر» لأنه يفترض أن مكونات الكون الأصغر، غير المرئية، ليست بالجسيمات الشبيهة بالنقاط وإنما هي ثنيات أو عقد بالغة الصغر تشبه الأوتار الدقيقة المتذبذبة. وحول «نظرية الوتر» يقول عالم الفيزياء النظرية البارز إدوارد ويتن، من معهد الدراسات العليا ذاته الذي عمل به آينشتاين «إنها جزء من فيزياء القرن الحادي والعشرين سقط بالمصادفة في صفحة العقود الأخيرة من القرن العشرين».

غير أن المشكلة هي أنه لا وتين ولا أي عالم آخر يعرف كم هو عدد الأجزاء الأخرى التي يتعين أن تسقط في الحاضر قبل أن ينجحوا في حل هذا اللغز الأكبر بين كل الألغاز، ويرى برايان جرين، أستاذ الفيزياء بجامعة كولومبيا، أن من بين الأسباب الأساسية لذلك أن نظرية الوتر تطورت بصورة معكوسة. ويضيف جرين أنه «في أغلب النظريات «يرى الفيزيائيون في البداية فكرة شاملة ثم يشرعون في وضع المعادلات الخاصة بها»، أما في نظرية الوتر، حسبما يقول جرين، «فإننا لانزال نحاول أن نكتشف الشذرة الأساسية للحقيقة».

على أن الحماس لنظرية الوتر تضاءل وخبا بمرور السنين. وقد حظيت ببعض الرواج لفترة قصيرة خلال السبعينيات، لكن أغلب الفيزيائيين توقفوا عن الاشتغال عليها منذ ذلك الحين. ومع ذلك فقد ثابر كل من الفيزيائي النظري جون شوارتز من كالتك وزميله جويل شيرك من معهد «إيكول نورمال سوبيريير» على متابعة البحث في النظرية، وفي عام 1974 جنى صبرهما ثماره. فقد لاحظا لبعض الوقت أن بعض الأوتار المتذبذبة المتدفقة من معادلاتهما لا تتطابق مع الجسيمات التي توقعاها. وقد نظرا إلى تلك التجليات الرياضياتية الغريبة في البداية على أنها شيء مزعج. ثم نظرا إليها بدقة أكبر، ليقررا إثر ذلك أن تلك الأشباح التي تنتاب معادلاتهما إنما هي الـ«جرافيتونات» gravitons * أو تلك الجسيمات الافتراضية ـ حتى الآن ـ التي يعتقد أنها تحمل طاقة الجاذبية.

لقد أدى إحلال الأوتار محل الجسيمات إلى التخلص على الأقل من مشكلة حيرت العلماء الذين حاولوا دمج النسبية العامة وميكانيكا الكم. وهذه الصعوبة إنما نشأت نتيجة لأن المكان يفتقر إلى الامتداد السلس على مستوى عالم الجسيمات تحت الذرية. فعندما تصبح المسافات صغيرة إلى حد يتعذر تخيله، فإن المكان يفور ويمخض بشدة، وهو

* مفردها «جرافيتون»: وحدة «الكم» الافتراضية Hypothetical Quantum لطاقة الجاذبية ـ المترجم.

تأثير يسمى أحيانا بالرغوة الكمية Quantum Foam. ذلك أن الجسيمات نقاطية الشكل، بما في ذلك «الجرافيتونات» من المرجح أنها تنخرط في حركة هائجة، تماما مثل قوارب جزيرة «ليليبوتي» (جزيرة الأقزام الخيالية) التي تلوح مويجات المحيط بالنسبة لها أمواجا بالغة الضخامة. وعلى النقيض من ذلك فسوف تبدو «الأوتار» مثل سفن صغيرة عابرة للمحيط يتيح لها حجمها الأكبر أن تمتد فوق أكثر من موجة في آن واحد، مما يجعلها منيعة أمام مثل تلك التشوشات.

على أن الطبيعة نادرا ما تمنح الهبات للعلماء من دون أن تفرض ثمنا ما، والثمن في هذه الحالة اتخذ شكل التعقيدات الإضافية. فمن بين أشياء أخرى، تستلزم نظرية «الوتر» وجود سبعة أبعاد أخرى إضافة إلى الأبعاد الأربعة المألوفة الآن (الارتفاع، العرض، الطول، الزمن). كذلك تتطلب وجود فئة جديدة كلية من الجسيمات تحت الذرية، تعرف باسم الجسيمات «السوبر سيمترية»* (فوق السيمترية). وفضلا عن ذلك فما لدينا ليس نظرية «وتر» واحدة فقط بل خمس نظريات. وعلى الرغم من أن العلماء لم يستطيعوا استبعاد أي منها، فقد بدا أن من المستحيل أن تكون هذه النظريات كلها صحيحة.

غير أنه اتضح في النهاية أنها كذلك في واقع الأمر. ففي العام 1995، أعلن ويتن ـ الذي يعيد أبرز النظريين في حقل الفيزياء اليوم ـ أن نظريات «الوتر» فوق السيمترية الخمس تمثل تقريبات مختلفة لنظرية رئيسية واحدة أكثر عمقا، وقد أسماها نظرية «إم» Mtheory. ولد أدهش هذا الإدراك الكاشف زملاءه وآثار فورة من النشاط الخصب أقنع الكثيرين اليوم بأن نظرية الوتر هي على الطريق الصحيح في واقع الأمر. فقد صرح كالتك كيب ثورن، الخبير البارز في الثقوب السوداء والنسبية العامة، بأن هذه النظرية «تبدو صائبة في الانطباع العام ولا دلائل ملموسة بعد على خطئها». والواقع أنه ليس لديك، في هذه المرحلة المبكرة من تطور النظرية، سوى التعويل على مسألة الانطباع العام.

يقول ويتن إن نظرية «M» ترمز إلى أشياء عديدة من بينها «المصفوفة»، و«الأحجية» و«السحر». غير أنه أضاف حديثا كلمة «ضبابي» إلى القائمة. لماذا؟ لأنه حتى ويتن نفسه، كما اتضح في النهاية، لم يملك القدرة على كتابة السلسلة الكاملة من المعادلات الرياضية التي تصف بدقة ماهية نظرية «M»، نظرا لأنها أضافت المزيد من طبقات التعقيد إلى المشكلة الهائلة القائمة بالفعل. ويبدو ويتن متقبلا لفكرة أنه ربما تطلب الأمر انقضاء عدة عقود قبل أن تنضج نظرية «M» إلى مستوى النظرية التي تملك قوة تنبؤية فعلية. ويقول ويتن متأملا: «إن الأمر يبدو كما لو أنك تتسلق سلسلة جبال. وعند لحظة ما تجد نفسك عند قمة شعب وتصبح في موقع يتيح لك منظرا جديدا تماما.

* Super Symmetric، و«السوبر سيمترية» شكل من أشكال السيمترية الرياضية يربط «الفيرميون» بالـ«بوزون». والفيرميون Fermion جيم تحت ذري، كالبروتون على سبيل المثال، له دورة نصف كاملة ويتبع الوصف الإحصائي الذي قدمه فيرمي وديراك. أما البوزون فهو جسيم تحت ذري، كالفوتون على سبيل المثال، له دورة صغرية أو كاملة ويتبع الوصف الإحصائي الذي قدمه س. ن. بوزون وآينشتاين ـ المترجم.

لاشك في أنك سوف تستمتع بالمنظر لوهلة، لكنك ستدرك في النهاية حقيقة الأمر: فمازال الطريق طويلا أمامك حتى تبلغ مقصدك».

لقد كان آينشتاين عبقريا، بطبيعة الحال، لكنه كان محظوظا أيضا فعندما وضع نظرية النسبية العامة كان يتعامل مع عالم له ثلاثة أبعاد لاغير إضافة إلى الزمن. ونتيجة لذلك كان بإمكانه استخدام رياضيات أدواتها متوافرة لصياغة وحل معادلاته. أما نظرية «M» فلا تتوافر لأصحابها تلك الإمكانية: فعلمهم مرتبط بعالم ذي أحد عشر بعدا يمتلئ بأشياء غامضة تدعى «برينات» Branes. وتعد «الأوتار»، وسط هذه المجموعة من التسميات الاصطلاحية، «برينات» أحادية البعد، في حين تعد الأغشية برينات ثنائية البعد. غير أن هناك برينات أخرى ذات أبعاد أكثر عددا لا يعرف أحد بعد، بما في ذلك ويتن نفسه، كيفية للتعامل معها. وذلك لأن البرينات يمكن أن تنثني وتلتف في أي عدد من الأشكال المريكة.

ترى ما هي الأشكال التي تمثل البنى الأساسية في كوننا؟ فيما يتعلق بهذه المسألة لا يملك أصحاب نظرية «الوتر» معلومات موثوقة في الوقت الراهن. ذلك أن العالم الذي استجلب إلى حيز الوجود هو من الإثارة بحيث أصبح العلماء مضطرين إلى العمل لاعلى نطاق علم الفيزياء فحسب بل في نطاق الرياضيات أيضا. والواقع أنه ربما تمثل الأمر في أنهم يفتقرون إلى أداة أساسية بصورة مطلقة وأنه سيتعين عليهم أن يطوروها تماما كما دفع إسحق نيوتن من خلال دراسته لقوانين الحركة إلى تطوير «حساب التفاضل والتكامل». على أن هناك، وكما لو أن الأمر لم يكن صعبا بما فيه الكفاية أصلا، معوقاً رئيسياً آخر أمام تقدم النظرية: فخلافا لميكانيكا الكم، فإن نظرية الوتر وتفرعاتها تطورت في غياب دلائل تجريبية يمكن أن تساعد على مضي النظريين في اتجاهات مثمرة.

وقد يتغير هذا الوضع خلال العقد المقبل. والواقع أن الآمال تتعزز بقوة في أن توفر التجارب الوشيكة في مختبرات مصادمة الجسيمات العملاقة في الولايات المتحدة وأوروبا النظرات الخاطفة الأولى للسوبر سيمترية (العالم فوق السيمتري). بل إن هذه التجارب يمكنها أن تكشف أيضا، من منطلق أكثر تأملية، عن العلامات الأولى، بالغة الصغر، على وجود الأبعاد الأخرى الإضافية.

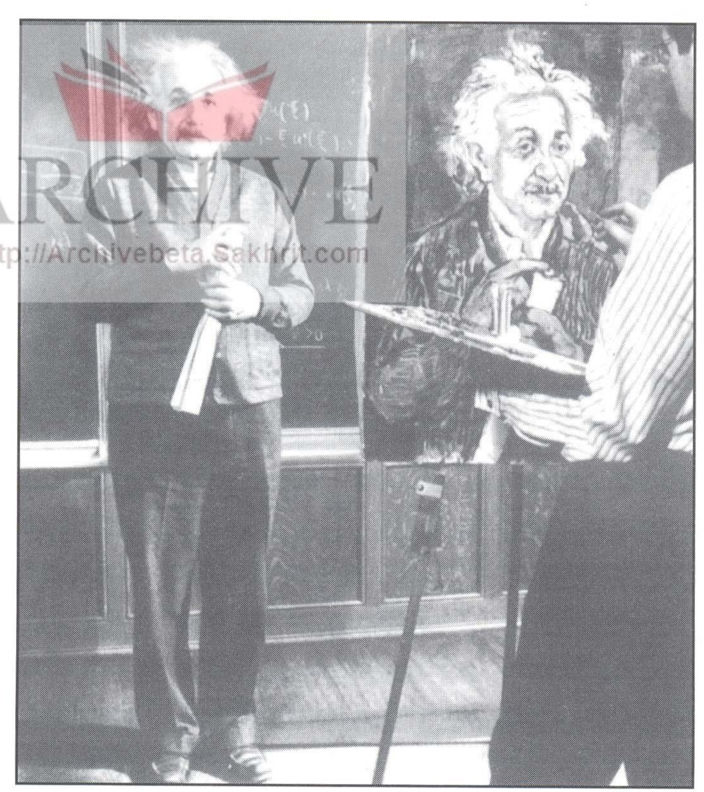
ترى ما الذي كان آينشتاين سيفعله إزاء تخيلات جامحة كهذه؟ يرى البروفيسور برايان جرين أنه كان سيعجب بها. ويوضح جرين ذلك، في كتابه «الكون الرائع» الصادر حديثا، إن آينشتاين لجأ بالفعل إلى فكرة وجود أبعاد إضافية بوصفها استراتيجية لوضع نظرية مجال موحدة.

والواقع أن جرين يعتقد أنه لو أمكن أن يوجد «آينشتاين» شاب في بداية القرن الجديد بدلا من بداية القرن الماضي، لتغلب على ارتيابه العميق في ميكانيكا الكم وتبنى بحماس الأفكار المتعلقة بـ «البرينات» والجسيمات فوق السيمترية والأوتار الفائقة. وفي ضوء قدرته الخارقة على تجاوز التفكير التقليدي وطرح رؤى للعالم بطرائق غير مسبوقة، فإنه كان سيصبح هو الشخص الذي يحل رموز النظرية النهائية. وربما كان الأمر يتطلب بالفعل ظهور آينشتاين آخر من أجل إكمال السيمفونية الفكرية غير المكتملة التي أبدعها آينشتاين الأول.

(4)
عصر آينشتاين

«لقد أصبح، رغم إرادته في غالب الأمر، رمزا لكل ما هو جديد، وأصيل، ومثير في العصر الحديث».

بقلم: روجر روزنبلات



■ إلهام الفنان: آينشتاين يقف، ممسكا بمخطوطة، أمام ريشة رسام الجداريات آرثر توفمان.

أن يصبح آينشتاين معبودا جديدا، وبخاصة في أمريكا، فذلك أمر يتطلب مراجعة شاملة لتعريف «البطل». فقد أصبحت مناوءة الفكر مكونا من مكونات الثقافة الأمريكية لا يقل أساسية عن التوق الى التعليم العالي، وربما فسرت حقيقة أن هذين المكونين وجدا دائما متوافقين ومتداخلين كل منهما مع الآخر، هذا المستوى المتدني للمدرسين. وفي أمريكا لا يكفي أن تكون ذكيا، بل يتعين على المرء أن يدعم ذكاءه بأن يظهر أيضا مهارة الكاوبوي وجيل الرواد (في الغرب الأمريكي) وحسهما الواقعي العالي. ولقد كان آينشتاين كذلك. كان آينشتاين أول من بلغ من مفكري العصر الحديث مرتبة «نجم النجوم»، وقد ظفر بهذه النجومية بالطريقة الوحيدة التي يمكن أن يقبل بها الأمريكيون، أي بالذكاء الحدسي، لا الأكاديمي، وبتطبيق فكره على أشياء عملية، كالصواريخ والقنابل الذرية.

ولقد تزامن إدراك «القوة العملية» لأفكاره مع عصر كانت

الحاجة فيه إلى مثل هذه القوة، قد بلغت ذروتها. ففي عام 1933 جاء آينشتاين إلى أمريكا بوصفه الشخصية الأشهر بين مجموعة متميزة من المفكرين الأوروبيين، الهاربين من حكم هتلر وموسوليني، والذين غيروا - فور وصولهم - بنية هيئات التدريس بالجامعات الأمريكية (من غلبة للأرستقراطيين إلى غلبة لليهود)، كما غيروا أيضا بنية الحكومة. فحتى إعلان فرانكلين روزفلت عن تدابير «السياسة الجديدة» New Deal* لم تكن البلاد قد ربطت في أي وقت الحياة الفكرية بالعمل الحكومي. أما الآن، أي منذ روزفلت فصاعدا، فقد أصبح هناك ما يسمى بـ«بيت الخبرة» Brain Trus، وأصبح كون المرء من «أصحاب الفكر» شيئا نافعا، ومثيرا للإعجاب، بل حتى أحيانا عنصر جاذبية جنسية. فلقد رأى أحدهم أن بالإمكان استباق العدو علميا. وكتب آينشتاين رسالة إلى الرئيس روزفلت يحثه فيها على المسارعة إلى العمل على إنتاج القنبلة الهيدروجينية، وسرعان ما انعقدت حلقة من كبار المنظرين والعلماء في «لوس آلاموس» التي أصبحت الكاوبوي الجديد للحرب الآلية. ومنذ ذلك الحين اعتمد الرؤساء على «أصحاب الفكر»: آينشتاين، ومن بعده كيسنجر، ومن بعده روبين، ثم رايخ وجرينسبان.

أما فيما يتعلق بالميزة المتعلقة بخياله الحدسي، فقد ساهمت في ألا يربط اسم آينشتاين بأي من مؤسسات التعليم العالي ذائعة الصيت وألا تعتمد مكانته على أي مناصب أو ألقاب رسمية، وكلاهما عنصر تميز يصر عليه الأمريكيون دائما ولا يعيرونه أي ثقة في الوقت ذات، وعلى النقيض من ذلك، فقد تحمس الناس العاديون لآينشتاين، برغم أنه يتكلم لغة الرياضيات العويصة، لأنه كان يبدو بعيدا عن زخرف المظهر المتعالي، والواقع أنه كان يبدو بعيدا عن الكوكب ذاته، أي خارج سياق الأشياء على النحو الذي يأسر خيال الجمهور العام: ذلك الحاسم الجدير بالإعجاب.

ولقد كان نمط الفكر الذي استحدثه من القوة إلى حد أنه أثّر في كل من الثقافة والسياسة بطرائق تعارضت أحيانا مع معتقداته وتوجهاته. فواقع أن نظريته في النسبية قد فسرت خطأ على أنها تبرير للمذهب النسبي** إنما عكس الطريقة التي أراد بها العالم أن يفهم آينشتاين بأكثر مما كان يعكس رأي آينشتاين نفسه. كذلك أضفت مكانته الرفيعة رسوخا على أفكار لا صلة لها بعلمه أو بميوله الشخصية. وفضلا عن ذلك فقد مثل حركة الفن الحديث بكل تياراتها، من «تعبيرية» و«تكعيبية» و«فوقية» وفانتازيا، جهدا واعيا لإعادة ترتيب أشكال الواقع المادي

---

* هي مجموعة التدابير الاقتصادية التي اتخذها فرانكلين روزفلت، عام 1933 لمواجهة تأثيرات الكساد الكبير، وقامت بصفة أساسية على برنامج حكومي ضخم للوظائف اكمله توفير واسع النطاق للقروض، وهو ما أدى الى تخفيض حجم البطالة بما يتراوح بين 7 و 10 ملايين شخص.

* القول إن الحقائق الأخلاقية تتفاوت تبعاً للفرد والزمان والظروف- المترجم.

بروح التحرر والتجريب نفسها التي أدخلها آينشتاين إلى العلم.

على أن المذهب النسبي - أي الفكرة القائلة إن الحقيقة الأخلاقية تتوقف على منظور الملاحظ ــ لا يدين بشيء لآينشتاين (الذي كان يعتقد عكس ذلك)، باستثناء انتمائه العمومي للتفكير الثوري. كذلك فقد تطابق استبعاد الفن لكل تشابه مع العالم المادي على نحو مبهم مع طريقة آينشتاين في النظر إلى المكان والزمان، إلا أن هذا الاستبعاد إنما نبع في واقع الأمر من مناخ عام للتغيير اقترن فيه وجود آينشتاين بوجود فرويد، وماركس، وبيكاسو، وبرجون، وفتجنشتين، وجويس، وكافكا، ودوشامب، وكاندنسكي، وكل فرد آخر ذي أفكار مبتكرة ومتجاوزة لما هو قائم وحس مغامر بالجديد.



■ مهرج العلم: آينشتاين يخرج لسانه مداعبا الصحفيين في الاحتفال بعيد ميلاده الثاني والسبعين.

وبفعل هذا الترابط غير البادي على وجه التحديد، أصبح مكتشف النسبية الشخصية البارزة وسط عالم مكون من أفراد يفسرون العالم بصورة فردية. كذلك فقد ربط بالقدر ذاته بالنزعة الجماعية للموسيقى الحديثة وبانتقائية العمارة المعاصرة.

وفي مجال الأدب، كانت الأشياء مهيأة للتداعي من تلقاء ذاتها، بحيث أن أي مبرر لفعل ذلك - وخاصة من قبل نظرية هي موضع توقير بوصفها إعادة بناء نظرية للعالم - كان سيلقى القبول. ففي العام 1919 هزت النسبية الدعائم القائمة للعلم، وفي العام 1922 كان لقصيدة ت.إس. إليوت «الأرض الخراب» أثر مشابه في حقل الأدب. ومع ذلك فعندما كتب إليوت يقول: «هذه الشظايا أضعها دعامة لأطلالي»، فقد قبل الناس الشظايا وتجاهلوا مسألة التدعيم.

على أن المبدأ المفسر الرئيسي، فيما يتعلق بإليوت وشعراء القرن العشرين الآخرين وروائييه، إنما يكمن في بروز ضمير «الأنا»: ركيزة الفكر النسبي. وهو ما اتضح بجلاء في شعر الاعتراف في الستينيات، والمذكرات في الثمانينيات والتسعينيات، وبروز الراوية في كل الإنتاج الروائي الحديث. ولقد تمثلت إحدى المفارقات الشائعة التي سرعان ما ميزت الأعمال الروائية في أن «نقيض البطل»، الذي طالما عانى الإحباط والتنكيل على يد البيروقراطيات والآلات الحديثة، أصبح موضعا للتمجيد من خلال وضعيته المتدنية ذاتها.

لقد أفردت النزعة النسبية لإنسان الصفوف الخلفية موقعا في الصدارة: في أوروبا، مع دستويفسكي، وكافكا، وبيكيت،

وآيشنجر، وسارتر، ومان، وبيراندويللو، وفي أمريكا مع فيتز جيرالد، وهيمنجواي، وإليسون، وكابوت، وسالينجر. وكان «البطل النقيض» يبحث عن معنى موحد، غير أن السرد الروائي الذي احتواه كان معنيا أساسا بالانشقاقات، والانقسامات، وتأمل الذات. وكان يسعى إلى أن يمارس الحياة وحده. ففي روايتي روبرت موسيل The Man Without Qualites وريتشارد رايت Theoutsider، يتحول البطل إلى قاتل بسبب رغبته في البقاء وحيدا.

وعلى الرغم من أن لا صلة هناك بين كل ما تقدم وبين النسبية، فإن هناك ما يربطه بقوة بتفكير آينشتاين في النسبية. فقد أصبح آينشتاين رمزا لا للرغبة في معرفة الحقيقة فقط بل أيضا للقدرة على معرفتها. في روايته «أحلام آينشتاين»، المنشورة عام 1993، كتب آلان لايتمان يقول «الزمن في هذا العالم بعد مرئي. وتماما مثلما قد ينظر الإنسان عبر المسافة فيرى خيولا، وأشجارا، وقمم جبال تشكل كلها معالم في الفضاء، كذلك يمكن للمرء أن ينظر عبر البعد الآخر فيرى ولادات، وزيجات، ووفيات تمثل كل معالم في مسار الزمن تتوالى بصورة مبهمة على الطريق إلى المستقبل البعيد». ولا يتطلب الأمر جهدا كبيراً لكي ندرك ارتباط مثل تلك الرؤية بالألوهية، على الرغم من أن آينشتاين لم ينح هذا المنحى على نحو مباشر على أنه أيا كان طابع الإثارة الذي أضفته هذه النظرة على الفن، فإن ما تركته من أثر فيما يتعلق بالسياسة إنما كان دماراً بحتا. لقد ربط بول جونسون هذه النزعة النسبية بالنزعة القومية المتطرفة لحركات القرن العشرين السياسية في كتابه الجيد «العصور الحديثة». وهذه العلاقة التي يحيل إليها في بعض الأحيان بالطابع الإخماري. وربما يكفي القول هنا إن تقويض المطلقات – التي لا تقل في إطلاقيتها عن الفيزياء النيوتونية – قد خلق فراغا، وأن هذا الفراغ مليء في مواضع رئيسية على أيدي المهووسين والقتلة.

على أن هناك، برغم ذلك، علاقة بين الرومانسية الأوروبية، التي ظهرت إلى الوجود في أواخر القرن الثامن عشر، والنزعات الاستبدادية التي بلغت عنفوان نشاطها وانتشارها في الثلث الأول من القرن العشرين. وعلى الرغم من أن آينشتاين لم يؤيد ذلك التصور الذي يحتل فيه الإنسان مركز الكون، متحكما في حركة النجوم من خلال الفكر.

فقد جسد هو نفسه ـ من دون أي قصد ـ ذلك التصور. وقد عزز من خلال وجوده المباشر لا غير، صحة الرأي الرومانسي القائل إن من تتعدى أطوالهم عشرة أقدام قادرون على معرفة ما يدور عبر صفحة السماء. وتمثلت النتيجة المنطقية لمثل ذلك «التفكير» في القول إبن بعض الناس هم أكثر قدرة على متابعة السماء من غيرهم، وأن السماء لا تكشف أسرارها إلا لقلة مختارة. وعبر اصطباغها بخطاب الداروينية الاشتراكية، مع قرب حلول القرن العشرين، أدت الرومانسية بنا إلى «داكاو»

و«أوشفتس»*، ومعسكرات «الجولاج»** وتلال الجماجم في كمبوديا وأخيرا إلى حقول القبور في البوسنة.

ومن يقرأ مقالات آينشتاين في كتابه Out of Mylater years سيرى أنه لم يتبن أيا من الأفكار الفنية أو السياسية التي جرى استنباطها من أعماله. فبغض النظر عن المدى الذي بلغته مراجعته لنيوتن فقد واصل اتفاقه مع رأي سلفه فيما يتعلق بقضية السببية. كذلك كره «الشواش» Chaos و«الثورة» في ذاتها. إذ كان إيمانه بالاستقرار والاطراد لا يقل عن إيمانه بالنسبية، وبغير المنطقي وبالحواس. وربما تمثلت هبته الأعظم نفعا لنا في النهاية، لا في تفكيكه العالم إلى أجزاء متناثرة وإنما في أنه ما إن تم ذلك حتى ناضل بجد من أجل تجميعه ثانية.

يقول آينشتاين مقتبسا عبارة كانط، «إن اللغز الأبدي للعالم يكمن في قابليته للإدراك، ثم يضيف أن حقيقة أن العالم قابل للإدراك إنما تعد بمثابة معجزة». ولقد أدرك آينشتاين أيضا مسؤوليته عن الأسلحة التي ساعد على ابتكارها، وحول ذلك كتب يقول: « إن علينا، نحن العلماء الذي أدى بهم قدرهم المأساوي إلى المساهمة في جعل وسائل التدمير أكثر شناعة وأكثر فاعلية، أن نعتبره واجبنا المقدس والأسمى أن نفعل كل ما في وسعنا من أجل منع استخدام هذه الأسلحة».

أخيرا... لماذا يتصف آينشتاين بكل هذه الأهمية بالنسبة لعصرنا؟ ليس السبب في ذلك تلك المقدرة العقلية الفذة، بل بالأحرى إنه أثبت أن الخيال قادر على الاتفاق مع التجربة. فمن خلال التحديق العقلي في الوجود ليس غير، استنتج آينشتاين أن الزمان والمكان يمكن أن ينحنيا، وأن الكتلة والطاقة «متعارضان». ولقد فهم أن العالم ليس سوى لغز خلق لكي تفك مغاليقه، وأن دور الفرد داخل نظام الأشياء هو أن يسهم بالقدر المستطاع في حل اللغز. فهذا هو ما يجعل الإنسان إنسانا، هذا.. والعنصران الحاكمان الآخران: الأخلاق وحس الدعابة.

لقد وصف عالم الفيزياء إبراهام بايس صديقه وزميله آينشتاين بأنه «أكثر الرجال الذين عرفتهم تحررا»، وكان يقصد بذلك أن آينشتاين استطاع أن يتحكم، من خلال فعل التفكير وحده، في مصيره. فعقله كان متحررا من الخوف كلية، وعبر استخدامه له استطاع أن يقلل من قدر المخاوف في عقول الآخرين. كذلك كتب آينشتاين يقول: «إن من أوجه الفضل الباقية التي تحسب للعلم أنه انتصر، بالاشتغال وفقا للعقل، على قلق الإنسان في مواجهة ذاته وفي مواجهة الطبيعة». وإنه على هذا النحو ذاته أصبح آينشتاين نموذجا لما يمكن أن يصنعه البشر إذا ما اتخذوا، على مستوى الفكر، تلك الوجهة ذاتها.

---

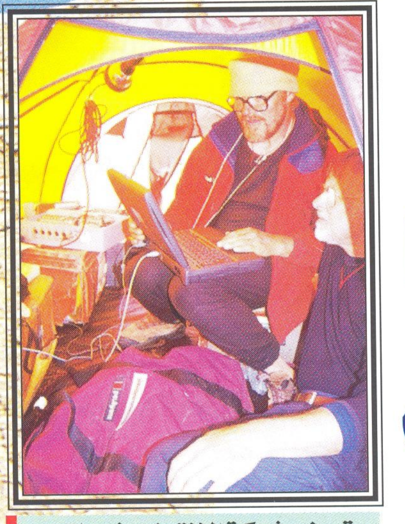
* معسكرا اعتقال (للأسرى والمعتقلين السياسيين)، في ألمانيا قبيل وخلال الحرب العالمية الثانية - المترجم

** الاسم الذي عرفت به معسكرات العمل الإجباري في الاتحاد السوفييتي وخاصة خلال الفترة 1930 - 1955 - المترجم.

نقل التكنولوجيا إلى أقصى الأرض

بقلم: إيما بايلي

ترجمة: د. إيهاب عبدالرحيم محمد



«تصفح شبكة الإنترنت في التبت»
أثناء حملة السير كريس بونينجتون إلى قمة سيبو كانجري في التبت عام 1998، كان بوسع أعضاء البعثة أن يبعثوا برسائل البريد الإلكتروني إلى ذويهم في الوطن، كما كانوا يقومون بإجراء تعديلات يومية على صفحة المشروع على الإنترنت.

في يوم الجمعة الموافق التاسع والعشرين من مايو 1953، أصبح السير إدموند هيلاري Hillary - يتبعه على مقربة تنزيج نورجاي Norgay، أول إنسان يخطو فوق قمة جبل إيفرست. وقد أذيع هذا الإنجاز للملايين في المملكة المتحدة بعد ذلك بأربعة أيام كاملة، في يوم تتويج الملكة إليزابيث.

وبعد ذلك التاريخ بثلاث وسبعين سنة، وفي مايو 1990، كان السير إدموند يجلس في غرفة المكتب بمنزله الواقع في مدينة أوكلاند النيوزيلندية عندما تلقى مكالمة هاتفية. كان المتحدث هو ابنه بيتر، الذي هاتف والده ليخبره بأنه يقف في تلك اللحظة على قمة جبل إيفرست.

وفي غضون عدة عقود، قلل التطور الحادث في تكنولوجيا الاتصالات من زمن وصول الأخبار من مكان لآخر في العالم من عدة أيام إلى أجزاء من الثانية.

العنوان الأصلي للمقال: Technology to The Ends of The Earth ونشر في مجلة Focus عدد يناير 2000.



«سيارة إسعاف الصحراء»

في تشاد تغيرت الصورة التقليدية للجمل «كسفينة للصحراء». فالآن، وبفضل البرنامج الذي تموله منظمة اليونيسيف (Unicef)، تقوم قطعان من الجمال التي تحمل على ظهورها ثلاجات تعمل بالطاقة الشمسية، بتوصيل الأدوية الثمينة إلى القرى الصحراوية النائية. وتحسن هذه الرابطة الحيوية بصورة كبيرة، من فرص المجتمعات النائية من دعم نفسها بصورة مستمرة.



«مدرسة بلا جدران للأفراد الذين لا يمتلكون أجهزة الكمبيوتر»

نادرا ما ترى أجهزة الكمبيوتر واتصالات الإنترنت في المجتمعات الريفية بكثير من البلدان النامية، لكن الحال مختلف في الهند، حيث يقوم المدرسون الحكوميون بالتجول بين القرى بانتظام لشرح أحدث المستجدات التكنولوجية. ومن بين النتائج الإيجابية لهذه السياسة أن هناك حاليا واحدا من بين كل عشرة من المتخصصين في تكنولوجيا المعلومات في الهند يعيشون في المقاطعات الريفية من ذلك البلد.

الاتصال بالوطن

في حالة السير إدموند هيلاري، كان على جيمس موريس، مراسل جريدة التايمز Times، أن يعود من المعسكر المتقدم على جبل إيفرست، حيث أجرى مقابلة مع هيلاري ونورجاي حول عملية التسلق، إلى قرية تقع على بعد آلاف الأقدام أسفل الجبل، حيث أمكنه استخدام محطة عسكرية صغيرة للرادار، لإرسال الأخبار إلى محرري جريدته في لندن.

أما بيتر هيلاري، من ناحية أخرى، فقد كان بحوزته وهو على قمة الجبل، جهاز للمذياع الظهري Walkie - talkie، متصل بصحن للاستقبال Dish antenna في معسكر القاعدة. ويقوم الصحن بنقل صوته سريعا من قمر صناعي إلى آخر مما أوصله بهاتف السير إدموند هيلاري في التو واللحظة تقريبا.

لقد ولت إلى غير رجعة تلك الأيام الخوالي التي كان المستكشف فيها يعمل في عزلة. أما الآن فتعد الهواتف الساتلية Satellite phones وأجهزة الكمبيوتر النقالة Laptops، وخدمات الإنترنت والأجهزة المساعدة للملاحة (GPS) من الكماليات المألوفة لدى المغامرين. وبدلا من بقائه غير قادر على الاتصال بالعالم لمدة أسابيع أو أشهر في نهاية

«رحال مزود بالطاقة الشمسية»

مع الألواح الشمسية المثبتة بحقيبة ظهره، يحاول الدكتور تشارلز كلارك، عضو بعثة بونينجتون لغزو قمة جبل سيبو كانجري في عام 1998، أن يولد قدرا من الكهرباء يكفي لتشغيل هاتفه الساتلي (Satellite phone).

«الإبقاء على الاتصال حتى في أعماق البحر»

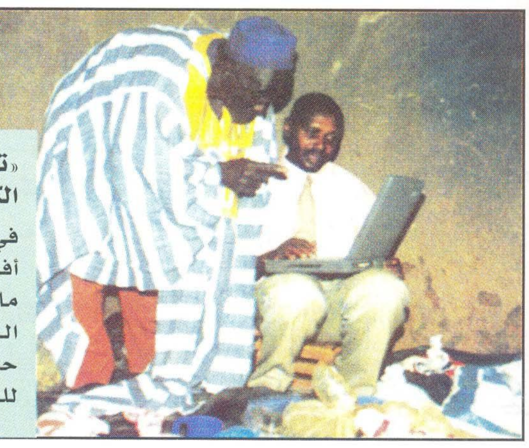
يمكن لسفن الاستكشاف الغواصة (Submersible) أن تصل إلى أعماق المحيطات، وأن تنقل صورا ومعلومات حية إلى السطح. وقد ظهرت هذه الإمكانية بوضوح في فيلم «تيتانيك»، حيث استخدام المخرج «جيمس كاميرون» مقاطع حقيقية من تصوير اكتشاف حطام السفينة الغارقة.

الرحلة، فمن المرجح أن المستكشف الآن لديه صفحة شخصية Homepage على شبكة الإنترنت، يعلن من خلالها على العالم تحركاته في وقت حدوثها نفسه تقريبا.

ولا تزال هذه الاتصالات مقيدة إلى حد ما حيث إن صحن «الستلايت» يجب أن يتم توصيله بنقطة ثابتة، مثل معسكر القاعدة. لكنه لن يمضي وقت طويل قبل حدوث تطور جديد، مثل إضافة جيروسكوبات gyroscope. يمكن تثبيتها على نقاط متحركة، مما يساعد المستكشفين على إرسال إشارات فيديوية عن أنفسهم وبثها مباشرة على شبكة الإنترنت عبر القمر الصناعي أثناء تحركهم، مما يتيح لنا مشاهدة جميع حركاتهم وسكناتهم في وقت حدوثها نفسه.

والسؤال الآن هو: هل ذلك شيء جيد أم سيئ؟... يقول البعض إن ذلك ينتقص من الروح الصافية للاستكشاف - أي تراث المجد الذي خلفته تلك الشخصيات الأسطورية مثل ليفينجستون Livingstone ، وبيري Peary، وسكوت Scott وشاكلتون.

وقبل حلول القرن العشرين، كان المسافرون يختفون عن الأنظار لسنوات قبل أن يعرف أحد بمصير بطولاتهم وفتوحاتهم. أما هم - المستكشفون - فنظرا لعدم



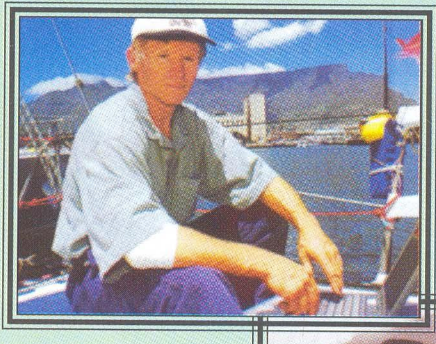
«تشخيص الطبيب بواسطة الكمبيوتر النقال»

في دولة غينيا الواقعة بغرب أفريقيا، يقوم الدكتور باري مامادو فولا بتسجيل البيانات التي يزوده بها المداوي المحلي حول الخواص العلاجية للنباتات والأعشاب المحلية.

«أنقذوا بفضل الهواتف النقالة والإنترنت»

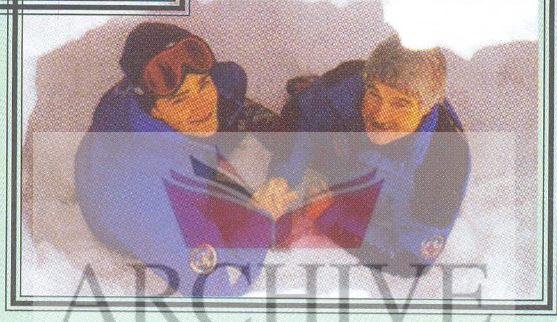
في انتظار عمال الإنقاذ

تحمل خبير الحياة البرية نيكيتا أوفسيانيكوف ستة أسابيع من العواصف الثلجية أثناء احتباسه في جزيرة رانجل الروسية. وقبل أن يتم إنقاذه، ظل أوفسيانيكوف على اتصال بأحبائه بواسطة الهاتف الساتلي والإنترنت.



مكالمة باردة!

يقف هذان المنقذان في الحفرة الثلجية التي صنعها ثلاثة متزلجين فرنسيين قضوا فيها تسعة أيام في أوائل عام 1999 بعد أن ضلوا طريقهم بفعل الأحوال الجوية السيئة في جبال الألب. وقد اتصل أحد المتزلجين الثلاثة طلبا للنجدة باستخدام هاتفه النقال.



علم نفسك الجراحة!

اضطر البحار الروسي فيكتور يازيكوف لإجراء جراحة على ذراعه لمنع حدوث الغرغرينا (Gangrene) بعد أن تعرض لحادث خلال رحلته المنفردة في سباق لليخوت حول العالم في عام 1998. وقد استفاد يازيكوف من تعليمات الأطباء التي أرسلت له عبر الإنترنت.

تعرضهم للتشويش الذي تمثله الحياة اليومية في الوطن ، فكانوا يقضون أوقاتهم منغمسين تماما في روح المغامرة. أما الآن، فيضيع جزء كبير من وقت المستكشف في بث الرسائل إلى العالم (والتي تعتبر حاليا من المتطلبات الأساسية المعتادة للحصول على تمويل للبعثة الاستكشافية).

بث رسائل البريد الإلكتروني من التبت

بعد قيادته لحملة في عام 1998 لغزو قمة جبل «سيبو كانجري» «السرية» في التبت، والتي شجع فيها استخدام أنظمة الاتصالات الحديثة، يقول السير كريس بونينجتون أن بعض أفراد فريقه أظهروا في بادئ الأمر تحفظا حول استخدام تلك التقنيات، «لكنهم سرعان ما شرعوا يتصلون بصديقاتهم ويبعثون برسائل البريد الإلكتروني (E. mail) لإحضار حاجاتهم من الوطن، أو كتابة المقالات على صفحة الإنترنت الخاصة بالمشروع».

ويعترف بونينجتون، على أية حال، بأن أفضل جزء من الرحلة هو ذلك الجزء الذي توجب عليهم قطعة من دون أجهزة كمبيوتر أو غيرها من التقنيات الحديثة. ويضيف قائلا: «كنا ننطلق بخفة عجيبة في شاحنة خفيفة، وليس معنا سوى الطاهي، والدليل، والسائق... كنا نستشعر طريقنا إلى هذا الجبل، وقد كان ذلك أمرا ممتعا».

في معسكر القاعدة، وجد بونينجتون نفسه ينفق وقتا طويلا جدا على الإنترنت، لكنه يعتقد أن محاسن إدارة صفحتك الخاصة بمثل هذه البعثة الكشفية على شبكة الإنترنت، يتحكم

تماما في الكيفية التي ستنتشر بها أخبار تلك الحملة على العالم. فهي على حد قوله «لن تمر خلال مرشح جريدة أو مجلة ما، فأنت تكتب ما تريده تماما». وعلى أية حال، فالجانب السيئ هو أن تقرر الكيفية التي يتم بها الإعلان عن حدوث خطأ ما. فحتى وقت قريب، وبالنسبة لأقارب وأصدقاء المستكشف في الوطن، لم يكن يتم استقبال أية أخبار، عموما، على أنها أخبار سيئة - خصوصاً إذا تعودت على استقبال تقرير مفصل عن تحركات أحبائك بصورة مستمرة - فماذا عساك أن تستنتج سوى حدوث مكروه لو انقطعت هذه الاتصالات بصورة مفاجئة؟

يقول دنكان سبيري - عضو فريق بونينجتون والمؤلف المشارك لكتاب قيد الإعداد حول العلاقة المتنامية سريعا بين الاستكشاف والاتصالات، والمعنون «مغامرات في الاتصالات» - تمثل هذه معضلة أخلاقية، وهي من المشكلات التي لم تتم معالجتها على نطاق واسع حتى الآن. فمن المألوف تماما في مثل هذه البعثات أن يضل أفراد المقدمة طريقهم لبعض الوقت، ومن ثم يتعذر الاتصال بهم لأيام قليلة. فإذا اعتدت أن تبث تقاريرك بصورة يومية. فماذا يمكنك أن تقول؟.... إنهم مفقودون؟... ويصل ذلك في النهاية إلى طريقتك في إدارة المعلومات Information management، فيمكنك مثلا أن ترسل تقاريرك على فترات أكثر تباعدا - وبهذه الطريقة يمكنك البدء في السيطرة والتكيف مع التقلبات التي قد تتعرض لها البعثة فيما بعد».

أما القضية الأخلاقية الثانية التي يثيرها البث اليومي على شبكة الإنترنت بالنسبة للبعثات العاملة في المناطق النائية، فهي الإحساس الكاذب بالأمان، والذي يمكنهم بثه في نفوس جمهور الإنترنت القابعين في منازلهم.

تقليل المخاطر

يقول سبيري إن القلق يكمن في أن التكنولوجيا تقلل من حجم الخطر، ومن حجم الجهد البشري المحض اللازم لإنجاز أي نوع من الاستكشاف. ونتيجة لظهور مجتمعات مقاهي الإنترنت Internet cafes، قد يعتقد الناس بسهولة تسلق قمة جبل إيفرست دون وعي منهم في أية بعثة كشفية، يمكن أن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن، وهذا ما يحدث بالفعل.

كلما كنت فوق قمة جبل إيفرست، وفي أعماق أحراش بورنيو، في القطب الشمالي أو الجنوبي، أو في أعماق البحار، هناك نقطة تصبح فيها وحيدا تماما نظرا لأنه مهما كانت سهولة اتصالك بالعالم الخارجي، فلم يعد بوسع هذا العالم الوصول إليك.

على بعد ألفي ميل من أية نقطة خلال بعثة جبل سيبو كانجري، رغم جميع المعدات التي كانوا مزودين بها، كان فريق بونينجتون، ببساطة، لا يمكن الوصول إليه فيزيائيا. يقول سبيري: «لم نتمكن من استدعاء طائرة هليكوبتر، بل إننا لم نستطع استجلاب الياك لإخراجنا من حيث كنا».

ويظهر معنى المآسي من هذا النوع أكثر وضوحا في أسوأ يوم للتسلق في تاريخ قمة إيفرست، وهو العاشر من مايو 1996، عندما قتلت عاصفة ثمانية أفراد قرب قمة الجبل. ومن بين الضحايا كان قائد البعثة النيوزيلندي روب هول Hall. ومن المفجع أنه تمكن قبل وفاته من التحدث إلى زوجته الحامل في الوطن عبر الهاتف. كان من الممكن أن يتحدث لأي إنسان عبر الهاتف، لكن أحدا لم يكن بوسعه أن ينقذه.

يقول سبيري: «السؤال الآن هو: كم يبعد البعيد فعلا؟ فبصورة تقليدية، يخوض المستكشفون تجارب طويلة ومريرة لاكتشاف تلك الحدود

الفاصلة. فقد اكتسبوا القدرة على النظر إلى الأشياء حسب مواقعها الصحيحة، وبصيرة الحكم على الأمور والحدس الثاقب - قد تبدو هذه الكلمات مضحكة، لكنها تعني الفرق بين الموت والحياة في كثير من الأحيان».

وكما هو الحال بالنسبة لأية تكنولوجيا، يكمن الخطر في الاندماج مع الآلة ذاتها لدرجة ننسى معها المضامين الأكثر اتساعا. ولكن على الجانب المشرق، فمما لاشك فيه أن تكنولوجيا الاتصالات تعطي عملية الاستكشاف قوة غير مسبوقة. وكما أثر عن نايجل ويندسور، من الجمعية الجغرافية البريطانية، قوله: «لا يعد الاستكشاف استكشافا إلا إذا تتشاركه مع الآخرين. وإذا لم تتشاركه، فالأمر لا يعدو كونه إجازة تقوم بها».

هناك مجموعة من الأشخاص الذي بدأوا بالفعل يجمعون أرباحا طائلة من مشاركة تجاربهم من بعد كونهم علماء فحسب. وقد كان الوضع في السابق أنه كان على العاملين الحقليين في مجال استكشاف نوع جديد من الحشرات في الغابات المطيرة بالأمازون، على سبيل المثال، أن ينتظروا حتى عودتهم للوطن قبل أن يكون بوسعهم نشر أبحاثهم وتلقي استجابات الباحثين الذين يشاركونهم الاهتمامات نفسها. أما الآن، فبوسعهم تزويد قواعد البيانات البحثية بالبيانات الجديدة من موقعهم، كما أنه بوسعهم الحصول على المعلومات التي تفيد أبحاثهم أثناء استمرارهم في العمل.

صعوبات التركيب

تقوم الدائرة الافتراضية Virtual circle لصناعة المعرفة بدفع الأبحاث الحقلية سريعا إلى عصر ذهبي جديد. لكن تثبيت الأجهزة الحديثة في المناطق النائية ليس أمرا سهلا بحال من الأحوال. فإذا كان الأمر سهلاً في المملكة المتحدة، يمكنك افتراض أنه لن يعمل بالسهولة نفسها في مناطق الغابات مثلا. وقد كان الشخص المسكين المسؤول عن صفحة الإنترنت الخاصة ببالون ريتشارد برانسون المسمى Challenger (المتحدي)، يعي تلك الحقيقة تماما. فقد كان عليه إعادة برمجة محطة خدمة Server معطوبة في ظلمة خيمة بدوية في الصحراء المغربية على ضوء بطارية صغيرة. كان الأمر بمثابة سباق مع الزمن، فقد أقلع البالون بالفعل وكان الملايين من مستخدمي الإنترنت بانتظار أحدث المعلومات عن الرحلة.

يعمل فيل كوتس، وهو مؤلف مشارك للكتاب المعنون «مغامرات في



«تلفزيون في الهواء الطلق»
في الحالات التي ينقطع فيها التيار الكهربائي، يمكن الاستعاضة عنه بالطاقة الشمسية. ويمتلك هؤلاء الأطفال في النيجر جهاز تلفزيون واحداً في قريتهم، والذي يعمل بواسطة لوحة قريبة للطاقة الشمسية تظهر في يسار الصورة.

الاتصالات»، في هيئة الإذاعة البريطانية BBC كمنتج لبرامج التاريخ الطبيعي. وقد أنفق الكثير من الوقت في تركيب أجهزة الاتصال في المناطق النائية بجميع أنحاء العالم. وهو يقول: «كان من بين أهم الصعوبات التي واجهتنا، دمج الأجهزة التي تنتمي لأنواع مختلفة من التكنولوجيا، لكن خلال السنتين الأخيرتين، ظهرت قطعة إلكترونية حديثة تسمى USB، وتتيح لك ربط جميع تلك الآلات بكبل كهربي واحد. وما عليك إلا توصيلها والانطلاق. وتعد هذه اكتشافا بحجم اختراع الهواتف والتلغراف». وإذا كان بوسع المستكشفين الآن إرسال البيانات من مناطق يصعب الوصول إليها عبر شبكة الإنترنت بسهولة نسبية، فهل يعني ذلك أنه سيكون بوسع سكان القرى النائية في جميع أنحاء العالم أن يفعلوا الشيء نفسه؟

في الواقع أنهم يمتلكون بالفعل أجهزة هاتف بديلة عن تلك التي يستخدمها المستكشفون. فعندما وجدت صعوبات في تمويل إقامة شبكات الهواتف الأرضية في أفريقيا، والهند، والصين، لجأت شركات الاتصالات إلى استخدام التقنيات نفسها التي يستخدمها المستكشفون، فبنت شبكات منفصلة للهواتف في كل قرية، مع عدد من الكبلات خارجة من هاتف ساتلي واحد لكل منها.

تلفزيون الأقمار الصناعية ينتشر

بفضل الإمبراطورية الإعلامية المملوكة للبليونير روبرت مردوخ، أصبح التلفاز الساتلي (Satellite TV) من المشاهدات المألوفة اليوم، حتى في القرى التي تبعد مئات الأميال عن أي مكان. وقد رأى بلومنجتون أطباق استقبال إرسال الأقمار الصناعية خارج دير للراهبات قرب قمة جبل في شمال الهند، حيث لم تطأ قدم أوروبي منذ 60 سنة. وترى هذه الأطباق أيضا مطلة من الخيام القماشية للبدو في أعماق الصحراء، والتي تدار بواسطة بطاريات سيارات الدفع الرباعي. وقد وصل استهلاك أجهزة التلفزيون إلى نقطة تشبع افتراضية في جميع أنحاء العالم (باستثناء المناطق الريفية في الصين، حيث يوجد جهاز تلفزيون واحد لكل 100 من السكان). وبناء على ذلك، يبدو أن أجهزة الكمبيوتر واتصالات الإنترنت ستصبح عما قريب على درجة الانتشار نفسها. وقد دفع إلى الانتشار الواسع للتلفزيون الساتلي بريق برامج بعينها. فقبل سنوات قليلة في آسيا، كان الناس يشترون أجهزة التلفزيون الساتلي لسبب واحد - لأنه كان يذيع مباريات فريق مانشستر يونايتد. وفي البلدان النامية، هناك ميل لوجود جهاز تلفزيون واحد في كل قرية، يعمل كسينما مصغرة تخدم ذلك المجتمع. وسيطبق التوجه نفسه على الإنترنت فيما بعد. ويعتقد سبيري وكوتس أن شبكة الإنترنت ستخترق جميع المنازل على كوكب الأرض خلال عقد واحد من الزمن.

ويأمل هؤلاء في أن نشر تكنولوجيا الإنترنت في جميع أنحاء العالم سيكون اقتصادي الارتكاز، بالقدر نفسه الذي تحاول به ذلك تكنولوجيا الاستكشاف - فكلما أتيحت لهم الفرصة، يحاول المغامرون استخدام مصادر بديلة للطاقة، مثل طواحين الهواء والخلايا الشمسية.

ويمتد الاهتمام أيضا إلى عواقب استيراد عصر المعلومات إلى مناطق لم تبلغ بعد عصر الزراعة، ناهيك عن عصر الصناعة أو عصر الإلكترونيات. يقول سبيري: «يكمن الخطر في تحقيق التجانس (Homogenization)، وأعتقد أن مسألة الهوية - سواء كانت قومية، أو عشائرية أو أيا ما كانت - ستكون من بين أهم تحديات القرن الحادي والعشرين».

وقد ظل التشابك بين الاستكشاف والاتصالات قائما منذ كان الإنسان صيادا وجامعا للثمار. ومن بين جميع المجتمعات البشرية في جميع أنحاء العالم، كان نحو 1٪ يتجهون ليكونوا مستكشفين معرضين

للأخطار، يدفعهم دوما حب استكشاف آفاق جديدة وتوصيل مكتشفاتهم تلك لأقربائهم في الوطن، مما يشجع الجيل التالي من المستكشفين المحتملين للخطر لدفع حدود الاكتشاف للأمام أكثر. وقد كانت هناك دوما حلقة موجبة من التغذية الاسترجاعية (Feedback) بين الاستكشاف والاتصالات، «مما يسرع من تطور البشرية»، كما يقول سبيري. ويعد كون المرء قادرا على الاتصال الرقمي (Digital) بين أي مكان في العالم تقريبا – من أعلى قمم الجبال، إلى أعمق خندق تحت البحر، إلى أبعد نقطة للتجمع البشري في مجاهل أفريقيا – يعد ببساطة توسعا منطقيا للتطور البشري.

إعادة تعريف الاستكشاف:

في الوقت الحاضر، تم رسم خرائط 99٪ من العالم، كما أنه على وشك أن يتم الانتهاء من ربط جميع سكان العالم بشبكة الإنترنت، ويعتقد كل من سبيري وكوتس أن الشراكة بين الاستكشاف والاتصالات على وشك أن تنقلب على نفسها. يقول سبيري: «حتى اليوم، ظل الاستكشاف يتوسع بصورة متواصلة، لكننا الآن سنبدأ التركيز على الأماكن، لدمج جميع البيانات التي حصلنا عليها بخصوص تلك الأماكن – وليكن ذلك علم الآثار القديمة (Srcheology)، أو الجيولوجيا، أو علم الأنثروبولوجيا الاجتماعية (Social anthopology) – وذلك لإحياء تاريخ تلك الأماكن باستخدام تقنيات الوسائط الثلاثية الأبعاد والرسوم المتحركة، بالإضافة إلى فهم أفضل لها في إطار مكانها وزمانها الفعلي. وسيكون ذلك بمثابة مستقبل الاستكشاف».

بعد آلاف السنين من التوسع، سنصل إلى انسحاق كبير عما قريب. فقد أوصلنا عالم الاتصالات إلى نقطة سيكون معها ما يتوجب استكشافه في الفضاء التخيلي (Cyberspace) أكثر بكثير مما يوجد في عالم الواقع. وباعتبار المعرفة عملة القرن الحادي والعشرين، سيقوم الاستكشاف بتوسيع حدود وجودنا في عالم تخيلي بدلا من العالم المادي الذي نعرفه. ويبدو أن لفظة «تكنو» في مصطلح «تكنولوجيا الاستكشاف» (Techno-exploration) سيكون لها اليد العليا.

قوة الإنترنت في الدائرة القطبية الشمالية

من بين المناطق النائية في العالم، والتي تعد فيها شبكة الإنترنت بمكاسب عظيمة، نجد مقاطعة نونافوت (Nunavut) بالقطب الشمالي. وفي أبريل 1999، أعادت كندا تلك المنطقة الجليدية الشاسعة التي تبلغ مساحتها 1.9 مليون كم مربع، والواقعة غرب جرينلاند، إلى شعب الإنويت الأصلي. ورغم أن مساحتها تعادل أربعة أضعاف مساحة فرنسا، لا يسكن تلك المقاطعة سوى 26 ألف نسمة. وتنقسم نونافوت إلى مجتمعات صغيرة متناثرة على مسافات بعيدة في أراض تظل متجمدة لمدة تسعة أشهر في السنة.

وليست هناك ثمة بنية بحتية تربط بين تلك القرى التي تمتلك اتصالات منفصلة للهواتف الساتلية ومولدات للكهرباء. وعلى أية حال، فقبل ظهور شبكة الإنترنت بكثير، كانت تلك القرى تتواصل فيما بينها بواسطة شبكة التورندرا Tundra Net، وهي شبكة هائلة من الاتصالات اللاسلكية التي تعمل بالموجات القصيرة، والتي يبلغ مداها حتى 1600 كم.

أما الآن، ومع التحدي الذي يمثله الحكم الذاتي بالنسبة لهم، يجب أن يستفيد شعب النونافوت بدرجة كبيرة من التحول لاستخدام شبكة الإنترنت. فعلى سبيل المثال، تمثل الرعاية الصحية واحدة من المشكلات الكبرى بالمنطقة – إذ تبلغ تكلفة نقل المريض بالطائرة إلى مدينة مونتريال 50 ألف دولار. وعلى أية حال، يمكن للتطبيب عن بعد (Telemedicine) أن يسمح بإجراء الجراحة عن بعد. واعترافا بهذه الإمكانية، أنشئت صفحة للإنترنت بعنوان nunavut .com. ورغم أن المشروع لا يزال في مهده، إلا أن المأمول منه هو أن يتحول إلى صلة ذات اتجاهين بين شعب النونافوت وبقية العالم.

العلوم الروسية في الألفية الثالثة: اختيار الرسالة

المعرفة العلمية في البحث عن توازن بين المنطق الداخلي للتطور الذاتي وبين القانون الاجتماعي

ترجمة: د. أشرف الصباغ

توجد تقريبا، وعلى الدوام، أسباب للحديث عن العلم، وعلى الدوام في روسيا، وبالذات في روسيا الحديثة.

في الصيف الماضي أقيم احتفال رسمي بمرور 275 سنة على تأسيس أكاديمية العلوم الروسية، ومر عام منذ لحظة تصديق حكومة روسيا الاتحادية على «تصورات إعادة إصلاح العلوم الروسية في الفترة حتى حلول عام 2002م»، كما أن البلاد الآن مقبلة على الانتخابات البرلمانية والرئاسية. وفي النهاية، يوجد أيضا عامل نفسي محض: انتهاء القرن والألفية بكاملها. وهناك رغبة في التفكير بعمق، وبالذات في تلك اللحظة، فيما يحدث للعلوم الروسية، وفيما يحدث فيها الآن.

حول ذلك يطرح المشاركون في الطاولة المستديرة آراءهم: سيرجي بتروفيتش كابيتسا (بروفيسور، ورئيس قسم الفيزياء في معهد الفيزياء التقنية)، سيرجي فيكتوريفتيش يوجوروف (أستاذ الفيزياء الرياضية، بروفيسور بجامعة موسكو التربوية، وخبير في مجال السياسة العلمية التقنية)، فيتالي لازاريوفيتش جينزبورج (أكاديمي في معهد فيزياء ليبيديف التابع لأكاديمية العلوم الروسية، ورئيس تحرير مجلة «منجزات العلوم الفيزيائية»)، أندريه جيورجيفيتش فونوتوف (أستاذ العلوم الاقتصادية، ومدير عام الصندوق الروسي للتطور التكنولوجي)، يفجيني فاسيليفيتش سيميونوف (أستاذ الفلسفة، بروفيسور، ومدير عام

---

* هذا المقال هو عبارة عن طاولة مستديرة أقامتها جريدة: نيزافيسيمايا جازيتا» الجريدة الروسية المستقلة بتاريخ 20 أكتوبر 1999. وتأتي هذه الطاولة المستديرة في إطار مشروع «العلم، الدولة، المجتمع» تحت رعاية معهد «المجتمع المفتوح» - ملاحظة إدارة التحرير.

صندوق العلوم الإنسانية الروسية)، أندريه جيناديفيتش فاجانوف (المحرر المسؤول عن ملحق العلوم بـ«الجريدة المستقلة»).

أندريه فاجانوف: إن موضوع اللقاء الذي تم الإعلان عنه بالنسبة لطاولتنا المستديرة «العلوم الروسية في الألفية الثالثة» هو موضوع غير واضح من حيث الدقة بالتحديد. وقد وصف الاقتصادي الإنجليزي المعروف جون كينس (Keynes) مثل تلك الحالات الحدية القصوى: «إذا كنا نتحدث عن آفاق بعيدة المدى، فسوف نموت جميعا في وقت ما». ولكن إذا أخذنا الأمر بشكل أكثر جدية، فموضوع آفاق العلوم الوطنية ـــ من وجهة نظري ـــ ليس فقط موضوعا غير واضح بقدر ما هو موضوع يعاني من سوء التقدير مثل العلوم الروسية ذاتها.

سيرجى كابيتسا: بالمناسبة، زوجة جون كينس عاشت 103 سنوات! وكانت راقصة باليه روسية.

أندريه فاجانوف: عموما لا مفر من مناقشة موضوع العلوم الروسية لعلنا نجد مخرجا معقولا. وعلى أية حال، فعلى المستوى الذهني ـــ النظري يمكننا، لو حاولنا اليوم





كخطوة أولى، صياغة مداخل تسمح لنا بتقليل درجة اللاوضوح واللاتحديد. في هذا الإطار من المهم، في رأيي، أن نحاول الإجابة عن ثلاث مجموعات من الأسئلة:

1ـــ ما الوضع الحقيقي للعلوم في روسيا الاتحادية؟ وهل تم بالفعل الحفاظ على مثل هذه المؤسسة الاجتماعية؟

سيرجي
يوجوروف

2ـــ ما الوضع الذي يجب أن تكون عليه مبادئ صياغة السياسة العلمية التقنية في روسيا الاتحادية، تلك المبادئ التي تتلاءم مع وجود مجتمع حديث؟

3ـــ كيف نوائم، في ظروف روسيا الحالية، بين الأمر المرضي والأمر المجدي، وبين العلم والتكنولوجيا؟

مثل تلك الأسئلة تنطوي بطبيعة الحال على أسئلة كثيرة أخرى. ورغم أنني لا أرغب إطلاقا في أن يتحول هذا اللقاء إلى «جلسة لطرح الأسئلة والأجوبة»، إلا أنه يبقى هناك سؤال آخر صعب: ما رأي جميع الحاضرين هنا في أن العامين الأخيرين هما عامان مفقودان من تاريخ العلوم

الروسية؟ إذ إنه في واقع الأمر قد تغيرت أربع حكومات خلال تلك الفترة القصيرة، ولم يكن لدى أية واحدة منها إمكانية حتى تقويم أو التعرف على عمل أعضائها.

سيرجي كابيتسا: لقد صاغت زوجتي هذه الحالة بشكل جيد، حيث قالت: «عندما أنظر إلى الحكومة الحالية، لا أستطيع أن آسف على أحد أو أحزن عليه». هذا هو النفور بعينه، وهذا هو التباعد الموجود والذي يسمح لنا بالقول إن كل ما في الحكومة يدور في واد، والحياة الواقعية تدور في واد آخر. وهذان الواديان ـ العالمان لا يتقاطعان أبدا، وكل منها يوجد كما لو كان مستقلا ومعزولا عن الآخر. وهذا بالطبع أمر محزن جدا.

سيرجي يوجوروف: ولكن العلم ميدان مميز جدا وله خصوصيته: حيث يمكنه أن يتطور بشكل مستقل عن القرارات القيادية العليا. وذلك خلافا، على سبيل المثال، لمصلحة السكك الحديدية. حيث هناك، في مصلحة السكة الحديد، لا يمكن تصور وجود جهاز التوجيه بمعزل عن مشكلة الشحن وخدمات الركاب... ولكن في الفترة الحالية نرى أن جميع الإدارات والمصالح المسؤولة عن الأوضاع العلمية في حالة تفسخ وعدم ارتباط مع العمليات الحقيقية للبحث العلمي. ورغم ذلك يمكن القول إن العلوم الروسية في فترة التسعينيات موجودة بشكل أو بآخر. وهناك نتائج واضحة.

أندريه فاجانوف: في هذا الإطار تحضرني كلمات فلاديمير إيفانوفيتش فرنادسكي التي قالها عام 1017م: «العلم حر ولا يمكنه أن يحيا داخل أية أطر... يجب تنظيم العمل العلمي أمام الإبداع العلمي للعلماء الروس، ذلك الإبداع الذي لا يمكنه، ولا يجب أن يخضع لتوجيهات الدولة. فالعلم لا يثق في الأطر البيروقراطية. والقضية ليست في تنظيم الدولة للعلم، وإنما في مساعدة الدولة للإبداع العلمي للأمة». هذا الكلام بخصوص قضية صياغة السياسة العلمية لروسيا.

سيرجي كابيتسا

ومن البديهي تماما، في نظري، أن هناك أهدافاً أخرى لدى الذين يقودون الدولة. أهداف أخرى خاصة بهم. وأنا لا أستطيع الحكم عليهم أو عليها. ولكن من هنا تحديدا يحدث كل شيء: عدم الاهتمام بالعلم واحتقاره على الرغم من أن جميع رؤساء الوزراء قاموا، على سبيل المثال، بزيارة أكاديمية العلوم والتقوا مع العاملين بها، وأعلنوا عن دعمهم ومساندتهم للعلم. فماذا يعني ذلك في رأيكم: هل هذا عدم فهم، أم تجاهل مقصود لدور العلم ومكانته؟

فيتالي جينزبورج: أنا في الواقع بعيد تماما عن الأوساط الحاكمة، إلا أنني لا أرى إطلاقا أي عدم فهم، ولا أرى أي احتقار. إن رئيس أكاديمية العلوم الروسية يوري أوسيبروف موجود بشكل دائم في مجلس الوزراء. وهو على أية حال ليس عدوا للعلم! إذ إنه يحاول الحصول على الأموال اللازمة. أنا لا أرى أية أضرار من جانب الحكومة تجاه

العلم. والأمر المهم الذي يجب أن يدور الحديث حوله اليوم هو إحدى الظواهر المثيرة للقلق: ظاهرة ازدهار العلم الكاذب.

أندريه فاجانوف: ولكن مشكلات العلم الكاذب هي مشكلات فرعية، وليس هي التي تحدد حالة العلم.

فيتالي جينزبورج: أنا متفق معكم تماما، ولكنني أود التشديد على حقيقة أن إضعاف العلم وتقليل الاهتمام به وبإمكاناته إضافة إلى كل المباحات الأخرى ـ كل ذلك أدى إلى النمو الهائل لحجم العلم الكاذب. ومكافحة ذلك تعتبر قضية ملحة وحيوية ولكن الأهم من ذلك كله هو تحريك العلم نفسه ودفعه إلى أعلى. بيد أنه من دون مكافحة العلم الكاذب تصبح الأمور في غاية الصعوبة.

أندريه فونوتوف: إذا كنا سنتراجع عن ذلك النموذج العلمي الذي كان موجودا في الاتحاد السوفييتي، فيجب علينا أن نعترف جميعا ودون أدنى شك أن العلم في الاتحاد السوفييتي كان أحد مقومات السلطة. وقد أدركت النخبة أو السلطة ـ يمكننا أن نسمي ذلك كما نشاء ـ ذلك الأمر، واستخدمت تلك الأداة بشكل فعال في صراعها من أجل البقاء.

أما نخبتنا أو مؤسستنا الجديدة لاتزال حتى الآن قانعة وراضية بمصادر أكثر بدائية من أجل ضمان وجودها. أنا لا أتحدث عن «سلطة المال»، أو العلاقات الإجرامية المشبوهة، أو العلاقات «القبلية»، أو الأمر الأكثر حدة وخطورة ـ المافيا...



فيتالي جينزبورج

وخلافه. ومع ذلك فكل تلك الأشكال كافية جدا. بهذا المفهوم يكون من البديهي أن العلم ليس هو الأداة الحاسمة. فنحن لم نتطور بعد في بلادنا إلى ذلك الحد الذي يجعلنا نستخدم العلم كأداة أو كوسيلة للوجود.

لقد حدث ذلك، بشكل رئيسي، لأن تلك المنظومة العلمية التي تكونت في الاتحاد السوفييتي كانت موجهة بدقة نحو أهداف محددة ـ نحو أغراض التصنيع، وأغراض الدفاع. وقد قامت هذه الأهداف، على الرغم من عدم الدقة التنظيمية، بتشكيل قدرة علمية تقنية فعالة جدا. وكانت هذه القدرة موجهة، طبعا، نحو المجالات الدفاعية، بينما كانت المجالات الإنسانية ممثلة بشكل ضعيف.

يفجيني سيميونوف: وكانت موجهة أيضا نحو الأيديولوجيا.

أندريه فونوتوف: ولكن عندما تفكك الاتحاد السوفييتي، اختفى «الزبون» الذي كان يقبل على شراء المنظومات والآليات الضخمة. اختفى الزبون وبقي جهاز تنظيم القوة العلمية التقنية. والآن تجرى عملية صعبة ومجهدة لتكييف هذه القدرة العلمية التقنية ليس مع الواقع، وإنما مع مهام ما مستقبلية لتشغيلها وتفعيلها.

لماذا؟ لأن الصناعة اليوم عندنا قد انهارت فعليا. وتلك الميادين والفروع التي كان إنتاجها مطلوبا بنشاط وفاعلية وديناميكية، وبالتالي كانت تتطور وتنمو على أساس ذلك، أصبحت اليوم خاملة أو في أحسن الأحوال تعمل بشكل سيىء.

وأعتقد أن المهمة تتلخص في تحديد ماذا سيكون لدينا في المستقبل، وتحديد تلك الاتجاهات التي ستعين توجهات القدرة العلمية التقنية، ومن ثم إعادة هيكلة النظام الحالي لتلك القدرة في علاقته بالمهام المستقبلية المذكورة أعلاه. لقد فقدت العلوم بوصلة تطورها، ولم يعد هناك في الوقت الحالي طلب اجتماعي عليها. وطالما ليس هناك طلب اجتماعي، فمعنى ذلك أننا قد حصلنا على ما أسميه بـ«الثورة العلمية التقنية التافهة»: أي كل تلك الخيالات والأوهام وعلوم التنجيم، وكل الأمور التي تحدثنا عنها منذ قليل بخصوص العلم الكاذب.

فيتالي جينزبورج: أنتم تنطلقون من ضرورة وجود الطلب الاجتماعي. وأنا أرى أن العلوم الأساسية (النظرية) ليست في حاجة إطلاقا إلى هذا الطلب.

سيرجي كابيتسا: من الصعب الموافقة على ذلك. فالطلب الاجتماعي على العلوم الأساسية يعني التعليم، والإسهام في ثقافة الوطن والمجتمع. أما فيتالي لازاريوفيتش، فيقصد المتطلبات الداخلية للإنسان في معرفة العالم كموضوع أزلي للبحث، وذلك على النقيض من المواقف والحالات الخارجية لوجود العالم، ذلك الوجود الذي يظهر في شكل الطلب الاجتماعي والمعرفي.

فيتالي جينزبورج: إذن تعالوا نتفق على معنى الطلب الاجتماعي.. هل تقصدون الطلب التكنولوجي أم ماذا؟

أندريه فونوتوف: الآن لم يعد الاقتباس من ماركس متماشيا مع الموضة. ومع ذلك فلديه عبارة رائعة: «احاجة الموضوعية تؤثر أكثر من عشرات الجامعات».

أندريه فاجانوف: لدينا أمثلة كثيرة موجودة وظاهرة تماما للعيان. خذ مثلا ما يخص الاتحاد السوفييتي: إشاعة الروح الجماعية، التصنيع، بناء الاقتصاد الوطني، المشروع النووي، البرنامج الفضائي — وهذا ما نسميه الطلب الاجتماعي. من الممكن أن نسمي كل ذلك كما يحلو لنا، ولكن من أجل إنجاز جميع هذه الأهداف والمهام، كان لابد من أن تعمل جميع العلوم والتصنيع وكل الفروع الأخرى. وهذا ما حدث أيضا في الولايات المتحدة الأمريكية: مشروع منهاتن النووي، برنامج القمر، مبادرة الدفاع الاستراتيجية التي تكلفت الكثير، وأراقت الكثير من الدماء.

أندريه فونوتوف

ومع ذلك فأنا غير متيقن من شيء. فلو افترضنا أن الدولة سوف تصيغ في نهاية الأمر هذا الطلب الاجتماعي. أنا شخصيا لا أدري ماذا سيكون بعد ذلك. من المحتمل جدا أن تكون هناك دعوة ما للدفاع ضد مخاطر العولمة. لم لا؟! ولكنني في اللحظة الآنية لا أستطيع أن أكون على يقين راسخ بأن العلوم الروسية نفسها، في حالتها الآنية، مستعدة لأن تأخذ على عاتقها إنجاز أو تلبية أي

مطلب اجتماعي. فهل حدثت تغيرات؟ في هذا الأمر تحديدا تكمن، من وجهة نظري، المشكلة.

سيرجي كابيتسا: في أحد الأبحاث التي قدمتها منذ فترة وجيزة في جامعة موسكو، قمت ببحث أحد جوانب قضية الطلب الاجتماعي للعلم. وأخذت في اعتباري، بطبيعة الحال، الأبحاث التي تتناول العلاقة ما بين المعارف، وأغلب المهام التي وردت في أحاديثكم تندرج تحت هذا النوع من الأبحاث الذي يمتلك قيمة ضخمة. وفي جوهر الأمر، فالمجتمع في حالات كثيرة يقيس نتائج العلم على ضوء هذه المهام. ونظرا لأن جميع الأبحاث المحددة، التي يتم إجراؤها في إطار بحوث خاصة، تجري داخل العلم نفسه ومنه، وخاصة في الأعمال العلمية التطبيقية كقاعدة، فهي لا تظهر إلى الوجود إلا عندما تتحول إلى شيء ملموس نتيجة لإسهامها في قضية العلاقة ما بين المعارف.

لقد كانت فكرة كهربة البلاد كلها في زمن ما أحد المتطلبات الاجتماعية. وتلك الفكرة تعتبر أحد الأمثلة المهمة لربط المهمة السياسية الكبرى بالقضية العلمية التقنية على نطاق البلاد. ومن دون شك فقد امتلكت عملية الربط هذه أهمية تاريخية كبيرة في زمنها.

والآن، كان من الضروري أن تظهر مثل هذه القضايا في بلادنا، ومن ثم كان بإمكانها أن تمنح علومنا كلها أساسا ما، وذلك بربطها مع بعضها البعض من ناحية، ومن ناحية أخرى نقلها في اتجاه حل قضية الطاقة والصحة، وقضية الاتصال والنقل، والعديد من القضايا الأخرى. إن دور الدولة يتلخص في تشخيص هذه المهام وتحديدها وتهيئة الظروف لحلها في إطار الاقتصاد الحر وليس في إطار الاقتصاد الموجه.

وبسبب تلاشي المنظومة السابقة، أصبح الجميع لدينا منشغلين بأمورهم الخاصة فقط، ولا يفكرون إلا في ضمان نصيبهم الشخصي فقط، وفي حياتهم الخاصة. وفي الواقع، فقد حدث انهيار عام للبناء العلمي في البلاد، وصارت المراكز البحثية الصناعية والمؤسسات الأكاديمية تحافظ بصعوبة على وحدتها. ففي السابق كانت هذه المراكز والمؤسسات مترابطة مع بعضها البعض على مستوى التنظيم وحل القضايا والكوادر العلمية. والآن لم يعد يهم موظف أية مؤسسة ما سوى المنح والهبات والمساعدات، ولم يعد يشغله إطلاقا في أية منظومة يعمل. كل تلك الأمور قادت بشكل أو بآخر، من وجهة نظري، إلى انهيار حاد في العلوم الغربية. ونحن نسير الآن على الطريق نفسه. ومواجهة ذلك لن تتأتى إلا بتشخيص وتحديد وحل القضايا الكبرى والمهمة بشكل اجتماعي حيث المكان المناسب، وحيث الأبحاث الأساسية. ولنتذكر جميعا كيف تم تطوير المشروعات الذرية والفضائية السوفييتية.

ومن ناحية أخرى، فالمنح والهبات والمساعدات في شكل تمويل فردي شريطة أن يتم الحصول على نتائج محددة في أسرع وقت ممكن، يعني على سبيل المثال عدم وجود إمكانية لإصدار تلك الكتب المهمة مثل كتاب «برنامج الفيزياء النظرية» الذي قام بتأليفه لانداو وليفشيتس. فالمؤلفان لم يعد لهما الآن وجود، ولكن كتابهما يوجد موحدا بين مجموعة من المعارف بداخل مادة واحدة، وهي المعارف التي نشأت عليها أجيال الفيزيائيين النظريين في العالم كله. إن صدور تلك الكتب التي كان الواحد منها يعتبر مشروع حياة مؤلفه بالكامل، أصبح الآن في حكم المستحيل، حيث إن التنظيم الجديد الحالي للعلم لم يعد بإمكانه إطلاقا إصدار مثل تلك الكتب.

فيتالي جينزبورج: إن برنامج لانداو وليفشيتس

للفيزياء النظرية مازال يصدر. والبروفيسور ل. ب. بيتايفسكي يقوم بالتعديلات والإضافات اللازمة. وأعتقد أن هذا البرنامج سوف يظل لفترة طويلة في غاية الأهمية.

سيرجي كابيتسا: إن قضايا ما بين المعارف وعلاقتها بأبحاث العلوم الأساسية يمكن تصويرها على سبيل المثال في التغيرات المناخية في آسيا الوسطى. فعندما جف نهرا آموداري وسرداري نتيجة للنمو الزراعي المكثف في تلك المنطقة، مات فعليا بحر الأورال. ومن ناحية أخرى، تابع الجميع في رعب كارثة هبوط مستوى بحر قزوين. وبالتالي أغلقوا بوغاز كارا جول، وظهر مشروع نقل الأنهار الشمالية لإنقاذ بحر قزوين. ومن أجل ذلك فكروا أيضا في إجراء عشرات التفجيرات النووية الصناعية، بل وتم إجراء واحد منها للتجربة. والآن اتضح أن مستوى بحر قزوين، وبشكل غير مفهوم، قد بدأ يرتفع. زد على ذلك أن الارتفاع يسير في اتجاه تجاوز الحد المسموح به. وإذا استمر الأمر على هذا الحال في المستقبل، فسوف تكون هناك تهديدات بإغراق جزء من أراضي «الكالميك» ودلتا الفولجا. أما رسائل الدكتوراه التي تم إعدادها عن هذا الموضوع، فمن الممكن أن نبني بها سدا، ومع ذلك لا يوجد فهم كاف لما يحدث. وظهر أخيراً أحد أهم وأخطر التنبؤات ـــ مستوى بحر قزوين مرتبط بنظام الحرارة والنقل بوساطة التيارات في المحيط الهادي. وبكلمات أخرى، فمن المحتمل أننا نواجه دورة تغيرات في الدوران العام للمحيط، وفي الطقس الشتوي أيضا. وتلك مهمة أساسية تمتلك معرفة عملية ضخمة.

تلك القضية مرتبطة بالجدل حول التغيرات المناخية بسبب تزايد تركيز الغازات الصناعية. فعند احتراق الفحم يتزايد متوسط درجة الحرارة السنوي على الكوكب نظرا لزيادة معدل الغازات التي تتضمن ثاني أكسيد الكربون. بيد أنه، من البديهي، أن درجة الحرارة العامة لا تقاس فقط بهذا الأمر. والآن بدأ يظهر لدى علماء المناخ رد فعل مضاد لكل تلك الدعاية التي تدور حول هذه القضية. واتضح أنه من المحتمل أن تزيد درجة الحرارة بمعدل نصف درجة لكل مائة عام ـ تلك أيضا نتيجة، وخاصة في مرحلة دفء ما بعد الجليد التي لم نتجاوزها بعد. والإسهام الرئيسي في هذه القضية هو الدراسة العملية لمناخ الأرض خلال الأربعمائة ألف سنة الأخيرة، تلك الدراسة التي تأسست على تحليل الجليد بمحطة «فوستوك» ـــ الشرق ـ الموجودة في القطب الشمالي في روسيا. تلك الأبحاث الأساسية المهمة بدأت منذ 25 عاما مضت. والآن تتوقف على نتائجها أهم القرارات الدولية بخصوص تطوير الطاقة في العالم كله. وأود أن أذكركم هنا أن الجزء الخاص بالطاقة يستهلك ربع نفقات البشرية.

تلك القضية تمتلك أهمية سياسية ضخمة، إذ إن الاتفاقيات الدولية الحالية التي تنص على تخصيص حصة للتخلص من الغازات الصناعية تشترك فيها جميع البلدان والمناطق. وهذا يعني أن هناك عشرات المليارات من الدولارات التي يجب أن تنتقل من اقتصاد إلى آخر.

أندريه فاجانوف: هل العلوم الروسية مؤهلة الآن، وهي على حالها هذا، للقيام بحل مثل تلك القضايا؟

سيرجي كابيتسا: لابد أن يشارك العلم في حلها. وعموما ففي نتائج النشر النهائية التي ظهرت أخيراً، اتضح أن العلماء الروس يشاركون فعليا في ذلك وعلى رأسهم الأكاديمي فلاديمير كوتلياكوف. وبالنسبة لروسيا فالأمر في حاجة

ملحة، كما يبدو لي، لإبداء مشاركة نشطة وفعالة. بالإضافة إلى ذلك يجب امتلاك رأي خاص ومستقل في مثل هذه القضايا. علما أن العديد من مشاكلنا الإقليمية (مثل مشكلة بحر قزوين) تعتبر الآن مشاكل دولية وكونية.

يفجيني سيميونوف: لعلني كنت سأتفادى تماما مصطلحا مثل مصطلح «الطلب الاجتماعي»، وتحديدا في علاقته بالعلم، لأن العلم عبارة عن منظومة دقيقة جدا ومعقدة. وبناء كلمة مثل «طلب» يصلح بشكل لا إرادي للمطاعم أو أية أماكن أخرى مشابهة.

إن أزمة العلم التي نعيشها هي أزمة عامة وشاملة. تلك الأزمة تنسحب على بناء الآلات، وعلى نسبة تزويد العلم بالمعدات التكنولوجية، وعلى بناء المجمعات العلمية ومن ضمنها المدارس. إن الأزمة تتجلى في كل شيء. ولكن هذه الأزمة، كما يبدو لي، تبدأ من أزمة الوظيفة الاجتماعية ــ الثقافية المهمة. فعندما يتحدثون عن «طلب»، ومن الواضح أن الحديث يدور فعلا عن ذلك، يفقد العلم في مجتمعنا وظائفه الاجتماعية ــ الثقافية المهمة.

بالنسبة للعلوم الاجتماعية ــ الإنسانية، يتجلى ذلك في أن العلم لا يشارك في تشكيل الوعي التاريخي للأمة، وفي الثقافة القانونية للمواطنين، وفي بناء السياسة الوطنية والاجتماعية والاقتصادية للدولة. إن تلك الحالة التي كان فيها المجتمع أثناء وجود السلطة السوفييتية، يمكنني أن أطلق عليها «الظلامية العلمية المستحبة»، أما الآن فيمكن أن نسميها «الظلامية العلمية المكروهة». (على الرغم من أنه، ربما، في الاتحاد السوفييتي كانت الحاجة إلى العلم موجودة على نحو شفهي، ولكن ليس بشكل عميق). وباختصار، فالعلم في روسيا الحالية، فعلا، في أزمة. وهذا بالضبط ما ينطبق على العلوم الاجتماعية ــ الإنسانية.

وبالمناسبة، فالأزمة قد مست مختلفة فروع العلم بأشكال متفاوتة. ولعلها تبدو في مجال الفيزياء أعمق وأشد، بل وأكثر الأزمات ــ إذا جاز التعبير ــ إثارة للإشكاليات: من حيث الخروج منها. وهي ليست فقط في الفيزياء، وإنما أيضا في تلك الفروع المعرفية التي كانت مرتبطة بقوة المنظومة الصناعية العسكرية.

أندريه فاجانوف: لقد كانت نسبة 75٪ من الأموال الموظفة في مجال الأبحاث العلمية والإنشاءات التصميمية التجريبية تصرف بشكل أو بآخر في العلوم القائمة على المنظومة الصناعية العسكرية.

يفجيني سيميونوف: يبدو لي أن الكيمياء تعاني من هذه الأزمة بشكل مختلف قليلا. فمن المعروف أن دولتنا متخصصة في مزاولة الصناعات «القذرة»، وفي دفن النفايات. وبالتالي فمن دون الكيمياء لن تسير الأمور على ما يرام! وربما يكون لدى علماء الكيمياء في ظل هذا التوجه الذي تنتهجه الدولة فرص ما وآفاق للحل.

هناك أيضا خصوصية شديدة للعلوم الاجتماعية ــ الإنسانية في تلك الأزمة. فالأزمة ــ كما يبدو لي ــ لم تمس بعد نوعية الإنتاج المعرفي، وحجم إنتاج المعرفة. وفي الوقت الحالي بالذات تسير أحوال المنتجات العلمية في الفروع الاجتماعية ــ الإنسانية بشكل رائع. فالكتب تصدر على نحو مدهش! ولكن أعداد النسخ في غاية المهانة: ألف أو ألفان لا أكثر.

ولذا أقول إن التأثير الثقافي للعلم ليس كبيرا جدا، وهو في واقع الأمر يبقى شيئا غير ملحوظ بالنسبة للمجتمع. هكذا هي الحياة داخل المجتمع

العلمي ذاته. وهي باقية ومستمرة، بل وتحافظ حتى على مستوى ما عال من النشاط. فها هو معهد الفلسفة الذي لم يصدر أبدا ذلك العدد الهائل من الكتب كما يفعل الآن! وها هو معهد تاريخ المعارف الإنسانية والتقنيات الذي لم يصدر أبدا كتبا مثلما يحدث الآن ـ ضعف ما كان يصدر في الاتحاد السوفييتي.

لقد قمنا بإصدار كلاسيكيات الفلسفة الروسية في القرن العشرين. وبلغ عددها حوالي 25 اسما. وهي أعمال جديرة بالإصدار: ليسوف، مامارداشفيلي، يودين، بلاوبيرج، باختين، تروبنيكوف، إللينيكوف، باتيشييف، وآخرون كثيرون.

سيرجي يوجوروف: أثناء الحديث عن مبادئ السياسة العلمية التقنية يجب الأخذ في الاعتبار أن المجتمع العلمي في حاجة إلى القضايا والمهام الواضحة والمحددة، وهذا لا يعني أن العالم نفسه لم يعد قادرا على التفكير، وإنما يجب أن يكون هناك حافز، ولنطلق عليه «الطلب الاجتماعي». ومن ثم فالعمل على حل القضايا التي تهم المجتمع يجب أن يتم تمويله بشكل واقعي وليس بشكل رمزي.

في القرن السابع عشر، عندما لم يكن هناك بعد ذلك المفهوم المحدد للسياسة العلمية، كانت هناك قضية في غاية الوضوح: كان من الضروري أن يتعلموا تحديد، وبدقة شديدة، خط الطول الذي تسير عليه السفينة في المحيط. هذا الأمر في غاية الأهمية بالنسبة للملاحة البحرية. وحتى تلك الفترة الزمنية كانوا قد استطاعوا التوصل إلى تحديد خط العرض، أما خط الطول فلم يكن قد تحدد بعد. وحاول الأسبان والفرنسيون أن يتوصلوا إلى طريقة أثناء المسابقات الملاحية، وتم الإعلان عن الجوائز المالية الضخمة، وإقامة ما يسمى الآن بالمسابقات الدولية. وفي النهاية استجاب المجتمع العلمي وتم حل القضية.

والآن لننظر إلى الموقف من وجهة نظر الباحث العلمي المعاصر. ما الذي يمكن الاعتماد عليه كنقطة للرؤية؟ من وجهة نظري، الوثائق الرسمية الجيدة: «قانون العلوم والسياسة العلمية التقنية الحكومية» و«مبدأ تنمية العلوم الروسية». ولكن مثل هاتين الوثيقتين لا تعطيان سوى أكثر الاتجاهات عمومية، ولا تعودان بالفائدة إلا على القائمين على تنظيم العلوم.

فيتالي جينزبورج: المبدأ موجود، ولكن العلم المنظم غير موجود.

سيرجي يوجوروف: بالمناسبة، أصحاب النوايا السيئة لا يؤكدون من فراغ أن الوثيقة الثانية لا تملك قوة قانونية، لأن هذه الوثيقة «المبدأ» صدرت بمعزل عن قرار رئيس روسيا الذي تتوافق معه وثيقة أخرى تحت الاسم نفسه.

إذن، بماذا يمكن أن «يتعلق» الباحث العلمي في الواقع؟ يمكنه أن «يتعلق» بأولويات التوجهات العلمية والتكنولوجيا الحرجة التي أقرتها لجنة السياسة العلمية التقنية السابقة عام 1996م؟ ولكن هذه القائمة أيضا محل انتقاد على مستويين. الأول على مستوى الشخصيات التي اتخذت القرار في الوسط العلمي، حيث اتضح أن القائمة التي قدموها كانت مجرد مذكرة استشارية لا أكثر. إذ إنه تبعا للتشريعات الحكومية، يكون اختيار أولويات السياسة العلمية التقنية من صلاحية أجهزة الدولة، بينما اللجنة لم تكن جهازا حكوميا.

وعلى المستوى الثاني، لم يكن هناك أي رضى أو موافقة وخاصة في دوائر العلماء. ففي تلك القائمة تمت صياغة العديد من المواقف المهمة

بشكل غامض ومبهم. ومن الممكن تفسيرها بأكثر من طريقة. واتضح أن القائمة تتناسب أكثر من وثيقة أخرى تماما ـ مع قائمة أولويات توجهات الأبحاث الأساسية لأكاديمية العلوم الروسية. وإذا نظرنا إلى كل تلك المواد بشكل جدي، سنكتشف أن النتائج الأساسية لعلومنا ليست لازمة أو ضرورية لحل القضايا التكنولوجية التطبيقية. ومن أجل بناء تقنيات جديدة، من الضروري أن نبدأ من العمل على إقامة القواعد الأساسية، أي نبدأ من «الصفر»، بينما المدارس العلمية الروسية ليست على الدوام مشغولة بحل القضايا التي تهم الدولة.

إنني أرى أن وزارة العلوم والتكنولوجيا تحاول الآن تحديد القضية وصياغة ما يمكن تسميته بـ«الطلب الاجتماعي» الواقعي. ومن القائمة العامة التي تم طرحها وقع الاختيار على 15 نوعا من التكنولوجيا المتطورة التي، على حد تقويمات الخبراء، يوجد لروسيا فيها مستقبل. بعد ذلك تضيق الدائرة، حيث يظهر مفهوم جديد ـــ «التكنولوجيا المفتوحة». بعض من هذه التكنولوجيا ينتمي إلى البناء والتشييد واستخراج النفط، والبعض الآخر ينتمي إلى الطب والبيولوجيا. وبلا شك فقد استطاعوا أن يطرحوا تكنولوجيا البناء بشكل صحيح. لأنه بعد أن خرجت أمريكا من موجة القمع التي جرت في الثلاثينيات، كانوا أول من قام بتنمية فروع البناء والتشييد، وصنعوا رواجا واقعيا، أي أسسوا طلبا قادرا على الدفع لهذا الاستحداث الجديد. وبالنسبة لنا، يمكننا أن نتوقع قيام شركات البناء الخاصة بالاستيلاء على وصاية الدولة. أما الجزء الخاص بالطب، فمن الممكن أن نختلف عليه نظرا لعدم وجود الرواج الواقعي. والأنسب أن نأخذ، كمثال، الصناعات الغذائية، فهناك تكون الأمور أفضل مع التمويل الجيد.

من الممكن الاختلاف مع هذا الاختيار، ومن الممكن الاتفاق معه. ولكن لابد وأن نجد شيئا نبدأ منه. بالنسبة لنا، توجد حقيقة مهمة: إننا نرى اليوم التقارب المتبدل بين القائمين على العلم وبين المجتمع العلمي بخصوص قضية ــــ في أي الاتجاهات يمكن توظيف قدراتنا بما يعود بالنفع على المجتمع.

فيتالي جينزبورج: إننا هنا نتحدث عن الطلب الاجتماعي. وأنا لا أنفي وجود قضايا ومشكلات في الدولة وفي المجتمع، ولدى البشرية كلها. تلك القضايا والمشكلات مرتبطة بالمناخ والتكنولوجيا وغيرها. ولكن هناك أيضا العلوم الأساسية التي لا يوجد فيها طلب اجتماعي، بل وليس من الضروري أن يوجد من أساسه!

لقد تحدثتم هنا عن الفيزياء النووية. ونحن نعرف من التاريخ أنهم في حقبة الثلاثينيات بالاتحاد السوفييتي سخروا من الذين كانوا يبحثون في نواة الذرة. بل وحتى كانت هناك قرارات حكومية بهذا الخصوص... ومع ذلك كان الإيقاع الداخلي للعلم موجودا.

في العدد الرابع من مجلة «منجزات العلوم الفيزيائية» لعام 1999م قمت بنشر بحث تحت عنوان «مشكلات الفيزياء والفيزياء الفلكية التي تمثل أهمية كبرى على أعتاب القرن الحادي والعشرين»، ولم أفكر أبدا في أية «تطبيقات». لقد قمت ببساطة شديدة بإحصاء 30 مشكلة علمية.

إنني لا أنفي ولو للحظة واحدة ضرورة وجود ـ في بلادنا أو في أي بلد آخر ـ قضايا مهمة ومحددة يجب أن يبذل من أجلها الكثير، وفي المقام الأول: الأموال والطاقات العلمية. ولكنني أود أن أقول فقط إنه إلى جوار ذلك يوجد العلم ذاته.

ذلك العلم الذي، ربما، من غير المنطقي أن نقسمه إلى علم أساسي وعلم تطبيقي. ولن نمس هنا مسألة المعاني والدلالات الكلامية. ففي العلم، وتحديدا الفيزياء، توجد مجموعة معينة من القضايا والإشكاليات التي تتحدد بمنطق تطور الفيزياء نفسها، بينما الفيزياء يمكنها أن تبصق على ما دون ذلك: هل هذا يعود بالمنفعة على أحد أم لا؟! الأمر سيان، وهو يحدث وسيظل يحدث! ويحدث لدينا أيضا هنا! وهذا هو المنطق الداخلي لتطور العلم كعلم في ذاته، ومن غير الممكن نسيان ذلك أو تجاهله! أما كيف يحدث ذلك عندنا — فهذه قضية أخرى.

سيرجي كابيتسا: يؤسفني كثيرا أن أسمع منكم كلمة «تبصق»! فالأمر كله يكمن في العلة أو الحيثية — العلوم الأساسية تتأسس على التعطش للإدراك، أما التطبيقية فتتأسس على المنفعة والجدوى، حتى ولو كان ذلك هو القنبلة الذرية. ولعل أعمالكم العلمية تؤكد على فكرتي هذه، حيث إن فكرة واحدة منكم قادت إلى تأسيس فرع كامل من الصناعات.

فيتالي جينزبورج: عندما قلت «تبصق»، لم أكن أقصد إطلاقاً عدم الانشغال بالتطبيقات العلمية لمنجزات العلم. ولكن العلم لديه منطقه الخاص. ولذا، فهذا المنطق لا يهمه إطلاقا الجدوى أو المنفعة. وهذا ما أردت أن أقوله بالضبط.

أندريه فاجانوف: هذا الرأي، من وجهة نظري، يعبر عن موقف محوري. وسوف أطرح عليكم رقما مهماً: في أحد استطلاعات الرأي العام صوّت 8٪ فقط من الروس على دعم العلوم الأساسية من ميزانية الدولة. فانظروا، يا فيتالي لازاريوفيتش، إلى أي مستوى وصلنا. هل حدث ذلك بسبب أننا توجهنا فقط إلى «الإيقاع الداخلي» للحكومة الأساسية؟

فيتالي جينزبورج: لم نصل أو ننحدر إلى أي مستوى. الناس ببساطة لا يفهمون ما هي العلوم الأساسية! ولعل الناس في الدول الفقيرة يرون بالضبط ما ترونه أنتم الآن. ولكن ذلك يحدث هناك لأن الناس لا يفهمون ما هو العلم، ولا يدركون مكانته ودوره.

لقد أردت أن أعبر عن فكرة وجود إيقاع داخلي وقوانين ومصالح داخلية في العلم. ومع كامل احترامي للتطبيقات العملية، لا يجب أن ننسى هذا الجانب في العلم. وعندما ذكر الطلب الاجتماعي، يمكن فقط أن نتحدث هنا عن التطبيقات في الصناعة والطب...إلخ.

أندريه فونوتوف: هذه أمور مختلفة. وإليكم بمثال، لنفترض أن هناك شخصا يلعب كرة القدم في الساحة. إنه هنا يلعب الكرة ويمارس متعته. ولكن كرة القدم تصير بعد ذلك شكلا من أشكال الربح، التجارة، الصناعة، الإنتاج... وبالتالي يجب على هذا الشخص أن يذهب إلى مدرسة ما محددة، لأنه يجب ألا يظل يلعب إلى الأبد في الساحة أمام البيت أو يمارس متعته الخاصة. يجب أن يخرج إلى الملعب «الاستاد». يجب أن يحرز هدفا، لأنه سيحصل في مقابل ذلك على أموال.

العلم بدأ بهذا الشكل تقريبا. فالسادة المحترمون وعلية القوم كانوا يمارسون الأبحاث العلمية كهواية. وطريقة دراسة بصمات الأصابع، مثلا، دخلت على هذا النحو إلى علم الإجرام، وهناك أشياء أخرى كثيرة مهمة، مثل البوصلة وغيرها قام باكتشافها أو صنعها، كما قال فرنادسكي، أشخاص لا يستطيع التاريخ ولا الحضارة أن يقولا عنهم أي شيء. أولئك الأشخاص كانوا ببساطة غير ممنهجين.

ولكننا اليوم نعيش في زمن مختلف تماما، حيث

أصبحت عملية الاستحداث أو الابتكار عملية صناعية إنتاجية. أي أن حضارتنا كلها تتأسس على البحث والإعداد والتجهيز والاكتشاف. ومن دون ذلك لن يمكننا الاستمرار في الحياة. وإذا لم نكتشف شيئا أو نفكر حتى في شيء ما غدا فسوف نموت جميعا، لأن العلم بالنسبة لنا قد أصبح الدرع الواقي الذي ندافع به عن أنفسنا، وذلك لأن حضارتنا هي حضارة فنية، والثقافة ـ كما قال نيتشه ـ هي انتصار الفن على الحياة. إننا حضارة فنية، وإذا لم نعمل بالعلم وننشغل به، وخاصة بالمفهوم الذهني، مستخدمين اكتشافاته ونتائجه بشكل نفعي، فسوف نفنى.... هل تدركون ذلك؟! إن ما تتحدثون عنه يبدو جميلا ومنمقا. والشخص على المستوى الفردي يمكنه أن يشتغل بالعلم من أجل متعته الشخصية، ولكنه إذا كان يفعل ذلك خارج إطار منظومة، فسوف يكون بلا شك قصير النظر أو أعمى.

فيتالي جينزبورج: ماذا تعنون بـ«خارج إطار منظومة»؟

أندريه فونوتوف: أعني أنه يجب أن يكون موجودا داخل إطار منظومة إعداد وتحقيق وترويج عملية الابتكار والاكتشاف. فأنتم تقولون: «إنهم لا يمولوننا!»، إذن فكيف يمكنكم أن تعملوا إذا كانوا لا يمولونكم؟!

فيتالي جينزبورج: أنا لست في حاجة إلى تمويل، أنا فيزيائي نظري..

سيرجي كابيتسا: إن الأبحاث التجريبية الأساسية، حتى ولو كانت في المناخ أو فيزياء الطاقات العليا أو الجسيمات الدقيقة، هي على حد سواء من حيث الأهمية والضرورة، وبالتالي فهي تتكلف أموالا غير قليلة. بالإضافة إلى ذلك، فمثل تلك المجموعة من الأبحاث تتطلب مشاركة النظريين ذوي المستوى الرفيع. وبالتالي فنحن هنا نقدر بشدة إسهاماتكم العلمية. وكما قال ليف تولستوي: «الكاتب ـ هو من لا يستطيع ألا يكتب»، فالعالم ـ هو من لا يستطيع ألا يشتغل بالعلم!

سيرجي يوجوروف: إننا في هذه الحالة نجد أنفسنا في دائرة مغلقة: العلماء، ومن ورائهم حكام البلاد، لا يفسرون لدافعي الضرائب لماذا نحن في حاجة إلى العلوم الأساسية، بل ولماذا نحن في حاجة إلى العلم عموما. أما المجتمع الذي لا يسمع أي شيء مهم، لا يقوم بالطلب الاجتماعي على العلم، وإنما يتوجه إلى المنجمين والسحرة. وكنتيجة لذلك تتشكل لجنة من أكاديمية العلوم لمكافحة العلوم الكاذبة.

يفجيني سيميونوف: لقد ضمر طلب الناس على المعرفة الموضوعية.

فيتالي جينزبورج: إننا نتجادل ونختلف حول معنى الكلمات، ومن الممكن بالفعل أن نتخبط كثيرا وطويلا في تلك الكلمات. وما أود أن أقوله هو أن هناك علوماً أساسية لا يجب أن تفكر في التطبيقات العملية. والكلاسيكيون أنفسهم لم يفكروا أبدا في تطبيقات ميكانيكا الكم والنظرية النسبية. هذا هو المنطق الداخلي للعلم! ولكننا نعرف من خلال التجربة أن هذا المنطق الداخلي يذهب بعد ذلك في أيدي أشخاص آخرين ويخضع هناك للعديد من التطبيقات. لا أحد ينفي ذلك.

أندريه فاجانوف: هل تعني كلماتكم هذه أن مسؤولية الدولة هي تخصيص الأموال اللازمة فقط ثم ترفع يدها نهائيا عن العلم، وسوف تقود عمليات «الإيقاع الداخلي» للعلم إلى نتائج عظيمة؟

فيتالي جينزبورج: نعم ـ وبشكل جزئي. فنحن نعرف جميعا كيف يفعلون ذلك، على سبيل المثال، في أمريكا: يمنحنون مساعدات ضخمة من أجل

أمور كثيرا ما تبدو، من وجهة نظري، مجردة وحمقاء. ولكن طالما هناك أموال ــ فهم يمنحون. وما يفعلونه صحيح تماما. لأن التنبؤ، بأي نتائج مستقبلية، في مثل هذه الحالات أمر غير جائز. والمخاطرة ضرورية.

أندريه فونوتوف: أود أن أطرح مثالا آخر. لقد قام الأمريكيون، بعد عملية «عاصفة الصحراء» العسكرية عام 1990م، بتحليل التكنولوجيا التي أدت إلى انتصار الجيش الأمريكي. واتضح أن الجيش استخدم في الأساس تكنولوجيا مدنية حيث كان لديهم منظومات الاتصال التي اشتروها ببساطة من الشركات التي تنتج الأجهزة الكهربائية. أما أجهزة الفيديو فقد كانت على مستوى عال جدا من التقدم لا تقارن فيه أبدا مع أي تكنولوجيا عسكرية.

من أين جاءت تلك التكنولوجيا؟! ولماذا توغلوا بهذا العمق من وجهة نظر تحقيق الطلبات الاستهلاكية؟ ــ لأنهم وضعوا فيها أموالا! وبطبيعة الحال، فعندما تقولون، يا فيتالي لازاريوفيتش، إنكم تعملون بالفيزياء من أجل متعتكم الشخصية، يجب أن تأخذوا في اعتباركم أنكم تعملون بالفيزياء بذلك القدر الذي يكون فيه المستهلك مستعداً للدفع مقابله! بهذا المفهوم سوف يأخذ العلم صورته الاجتماعية. بمعنى أنه من الضروري أن يقوم العلم بتأسيس علاقات ما مع المجتمع بالمعنى الواسع للكلمة. يجب أن يكون هناك اتصال بين العلم والإنتاج، وبين العلم والمجتمع، ذلك الاتصال مرتبط في أمور كثيرة بالمصادر، وبالدرجة الأولى بمصادر التمويل. ولهذا فالسياسة العلمية لدينا، ربما ستبدأ في القرن المقبل من نقطة تحليل الأسواق المحتملة.

أندريه فاجانوف: بذلك نكون قد اقتربنا من إحدى أهم القضايا. لقد ذكرت رقم الــ (8٪) الخاص بالذين صوتوا لصالح أن تقوم الدولة بتمويل العلم من ميزانيتها. ومن هناك يبرز تساؤل: ألا يكون من المجدي، في هذه الحالة، أن نوجه العلم نحو قضية ما قريبة من المستهلك، أو الجمهور؟ ــ إنها قضية اختيار الأولويات. وعموما فهناك إحساس غريب يلازمني باستمرار: أنا أعرف أن الإنجازات العظيمة التي كانت في مرحلة الاتحاد السوفييتي لاتزال موجودة حتى الآن في العلوم الروسية، ولكن لماذا لا يتم تطبيقها وإشاعتها في المجتمع؟ هل هناك عيب عضوي في النظام ككل؟

سيرجي كابيتسا: أندريه، عندما أعددت نفسي لهذا اللقاء، قررت أن أذكر لكم أحد الأمور التي شاركت فيها شخصيا. ففي عام1942م دعا الأكاديمي فلاديمير فيكسلير إلى مبدأ «التوجيه عن طريق الأطوار الذاتية» وبالطبع فجميع معجلات الجسيمات الدقيقة في الوقت الحاضر تعمل على أساس هذا المبدأ. في تلك الفترة، وبعد تلك الدعوة بسنوات عديدة بدأت أعمل في مجال المعجلات. واخترعنا الـ«ميكروترون» الذي كان عبارة عن معجل أكثر بساطة وفاعلية في تعجيل الإلكترونات في نطاق من الطاقة يبلغ 40 مليون إلكترون فولت. وتم بناء مئات من هذه المعجلات في روسيا والدول الأخرى، ووجدت تلك المعجلات التطبيقات والاستخدامات المناسبة.

آنذاك كان أصحاب النظرة البعيدة من العاملين في المنظومة الصناعية العسكرية وبناء السفن والغواصات يعملون في إنتاج المعدات الإشعاعية (مصادر الإشعاعات التي تعمل بالنظائر بهدف تعريض الناس للإشعاع أثناء علاجهم من الأورام المزمنة). وعلى الفور بدأوا في إنتاج المعجلات التي طرحناها. وبالفعل تم بناء ما يقرب من عشر

معجلات من أجل مجموعة من مستشفيات الاتحاد السوفييتي.

بعد ذلك حلت جميع تلك الكوارث التي نعرفها مع مجيء البيريسترويكا. زد على ذلك أنه عندما كان الأكاديمي أندريه إيفانوفيتش فوربيوف (الأكاديمي في أكاديمية العلوم الطبية الروسية) وزيرا للصحة، قام بدعم ومساندة ذلك البرنامج الذي كان مثالا رائعا لتحويل الصناعات العسكرية. ولكن الألمان قطعوا علينا الطريق حينما رصدوا معونة تبلغ مليار مارك ألماني من أجل تزويد الطب الروسي بالمعجلات الألمانية. في هذا الإطار حدثت، كما اتضح فيما بعد، عمليات رشوة من أجل التأثير على الحلقة الوسطى من الموظفين الذين كانوا يتخذون القرار في هذا المجال. أنا أعرف كل تلك التفاصيل من أحاديث الوزير الذي سرعان ما قدم استقالته، أو بالأحرى استغنوا عنه.

وكانت نتيجة كل ذلك، أنهم فتحوا خط معونات ومساعدات من أجل إمداد روسيا وتزويدها بما أطلقوا عليه «المعجلات الألمانية». وكانت هذه العملية واحدة من أكبر عمليات زرع التقنيات الطبية في السوق الروسية، وكان على رأسها هلموت كول وبوريس يلتسين شخصيا.

والآن، اتضح أنه من أجل الحفاظ على المفاعل الواحد في وضع صالح للعمل (علما أن قوة المفاعل 5 ميجا إلكترون فولت فقط، وبالتالي فهو لا يختلف كثيرا عن مصدر الطاقة الذي يعمل بالنظائر المشعة) يجب أن نصرف عليه 130 ألف مارك ألماني في السنة. ولنتصور الآن: أي مستشفى أو معهد روسي يمكنه أن يتحمل مثل تلك المبالغ؟! وللمفاعل الواحد!! لقد كانت الهدية باهظة الثمن، أما المليار مارك فقد استعادها الألمان بسهولة شديدة. والآن وصلنا إلى أنه لا يوجد حاليا لدينا لا مفاعلات ألمانية، ولا حتى روسية.

أندريه فاجانوف: إن ذلك يعود، بالضبط، إلى عدم وجود سياسة علمية تقنية. وبالتالي يبرز سؤال آخر: ما هو، إذن، الشكل الذي يجب أن يكون عليه النظام؟

سيرجي كابيتسا: إنهم يسألون في دهشة: كيف حدث ذلك؟ والأمر ببساطة، إن هناك مجموعة الألمان عديمي الضمير بمعونتهم الإنسانية التي تخدم في الأساس مؤسساتهم وأسواقهم، ومن ناحية أخرى كانت هناك منظومة الفساد والرشوة التي قامت بتنفيذ مثل هذه العملية.

إن ذلك مثال نموذجي لتوضيح الكيفية التي انهارت بها إنجازاتنا العلمية الضخمة وإنتاجنا الصناعي الهائل. وفي الوقت الحالي تقدم إلينا معهد الأبحاث العلمية بأكاديمية العلوم الطبية الروسية باقتراح للعودة إلى هذه القضية. ولكن، للأسف، لقد فات الوقت، وتقادمت مجموعات العمل وتشتتت. ثم من أين لنا بمصادر التمويل، والإدارة السياسية من أجل حل تلك المشكلة التي ستتكلف مليارات الروبلات؟

أندريه فونوتوف: سوف أعلق فقط على ما قاله سيرجي بتروفيتش: إن أي علم متطور، وأية فكرة علمية طليعية، هي أمور قابلة للتطوير بشكل طبيعي جدا، ولكن ذلك لا يحدث إلا في ظروف مؤسساتية راسخة ومنظمة وقائمة على القانون.

يفجيني سيميونوف: ليس طبعا في وسط عدواني وعدائي كما هي عليه الآن.

أندريه فونوتوف: لا توجد بالفعل أية رقابة ديمقراطية! حتى من زاوية اتخاذ القرارات العلمية التقنية، وعلى سبيل المثال، بناء المحطات الكهروذرية.

إن وزير العلوم نفسه لم يكن، ولو لمرة واحدة، عضوا في مجلس الأمن القومي. ومن حيث المبدأ

إذا كنا نعيش حقا في ذلك العالم الذي يعتبر فيه العلم فعلا هو المؤشر لكل الاتجاهات، فإن المسؤولين عن السياسة العلمية يجب أن يكونوا على علاقة بالقرارات المصيرية للدولة. كما يجب أيضا أن تكون هناك منظومة ما للقرارات الاستراتيجية. ففي القرن الحادي والعشرين، كما يبدو لي، يجب أن يتواجد العلماء في جميع تلك المستويات والمسؤوليات، وعلى أقل تقدير كخبراء وليس كمتخذي قرارات.

سيرجي يوجوروف: إن القضية التي طرحها أندرية جيناديفيتش حول مزج العلم وربطه بالتكنولوجيا تعتبر قضية ملحة من أجل فهم عمق الأزمة في المجال العلمي. فالمتخصصون في حل الأزمات يرون أن نقطة الانطلاق في إنقاذ الشركات والمؤسسات وفروع الإدارة الأخرى هي تحديد الرسالة المنوطة بها ــ أي الهدف الاستراتيجي الأعلى. وبعد استجلاء الرسالة، يبدؤون في وضع مهام محددة، وتشكيل هياكل تنفيذية، ووضع خطط التطوير والتنمية.

من هذه الزاوية، لو سألنا القائمين على العلوم الروسية: ما هي الرسالة التي تقع على عاتق مجالنا العلمي التقني. فمن الممكن تماما أن نحصل على إجابة واضحة جدا. وهي مثلا: رسالة مجالنا العلمي «يافطة» محددة، ألا وهي أن يعرفوا عندنا وفي الغرب أن روسيا دولة عظمى كما في السابق. ومن الممكن، على ضوء هذه الرسالة، إقامة خط وظيفي محدد، وذلك بالاستناد إلى «إعلان رعاية العلم من جانب الدولة»، و«النشاطات الاحتفالية الشكلية»، و«الجهود الدعائية المكثفة للإنجازات العلمية ضئيلة القيمة».

من الممكن أيضا طرح أي رسالات أخرى. ولنقل مثلا: الأبحاث الأساسية الرائعة، أو التجارب المتفردة التي تثير إعجاب المعاصرين والأحفاد. وأصحاب مثل هذه الرسالات لديهم خططهم الوظيفي أيضا: انتقاء عدد غير كبير من أفضل العلماء والمهندسين والتقنيين، وتوفير ظروف استثنائية خاصة من أجل إبداعاتهم.

ولكن بطبيعة الحال، سوف تكون هناك ضرورة شديدة للقرارات التنظيمية والهيكلية الجادة إذا عرفنا أن رسالة العلوم الروسية هي تزويد فروع الاقتصاد الوطني بالتكنولوجيا الرفيعة، وتأمين التطور الاقتصادي ــ الاجتماعي بشكل واقعي. في هذه الحالة يتطلب الأمر، في المقام الأول، توفير وتهيئة خطوط إمدادات التكنولوجيا من المختبرات إلى مواقع الإنتاج، ودعوة المخترعين والمحامين وخبراء التسويق والمصممين والمخططين من أجل المساعدة والتعاون. فاليوم يندر وجود مثل أولئك المتخصصين في المجالات العلمية. ولا أدري لماذا يعتقدون أن العلماء يستطيعون بمفردهم إنجاز مثل هذه المهام.

وفي حالة اختيار أية رسالة للعلم، يجب أن تأخذ هذه الأفكار أو غيرها شكل التوجه للسياسة العلمية التقنية. إلا أن تلك السياسة، وأكرر، مرتبطة بالتشريع ــ أي أنها من صلاحية رئيس الدولة. وعليه، بالذات، أن يعلن عنها بقرارات رسمية واضحة. وبالتالي تكون ــ هذه القرارات ــ هي الوثائق الرسمية التي تقوم بتوجيه المجتمع العلمي.

أندريه فاجانوف: في العام الماضي، أعدت وزارة العلوم ومعها بعض الإدارات الأخرى دراسة خاصة للرئيس يلتسين بشأن السياسة التكنولوجية. ومع أن الدراسة كانت خاصة ــ أي سرية، إلا أنها وقعت، كالعادة، في أيدي وسائل الإعلام. وعموما فقد أحاطوا فيها الرئيس بأنه رغم الصعوبات الكثيرة، التي نتحدث نحن عنها اليوم هنا، فقد تم الحفاظ

على القدرة العلمية التقنية والتكنولوجية في روسيا. أنا لا أعرف الأرقام ـــ فالدراسة كانت خاصة وسرية! ولكن على أي أساس ارتكزت هذه الدراسة؟! لو حكمنا من خلال وسائل الإعلام الحرة والمستقلة، فسوف نعرف أن مستوى قابلية استفادة إنتاجنا من العلم ـــ 5٪، أما نصيب سعة الاستيعاب العلمي للمنتجات في صادرات الدولة ـــ 3٪. وبالتالي يظهر ذلك «الورم» أو «الانتفاخ» ـــ علم ضخم جدا و«فسيلة» تكنولوجية مصابة بـ «الأنيميا».

فيتالي جينزبورج: هذا أمر مرتبط بالنظام الموجود. وهناك العديد من الأمثلة: شخص ما اخترع شيئا مهماً، أو قدم اقتراحا عظيما ـــ ولكن ليس هناك أحد يريد تطبيق ذلك وإشاعته.

يفجيني سيميونوف: يبدو لي أن الأمر، على أية حال، استراتيجي ـــ أي لا يوجد أي خطأ غير مقصود. المسألة ببساطة أننا في دولة فقيرة وبلا ثقافة. وبالتالي ففي مثل هذه الدولة لا يستطيع العلم، من حيث المبدأ، أن يعيش إلا على حساب التعاون مع السلطة، وليس مع المجتمع. فالمجتمع لا يفهم: لماذا، في واقع الأمر، تكون العلوم الأساسية ضرورية ومهمة؟ ولعل نسبة الـ(8٪) ـــ الذين صوتوا لصالح دعم العلوم من ميزانية الدولة ـــ هي نسبة كبيرة! ولكن المجتمع بالطبع لا يساند العلم، وليس لديه أية حاجات أو متطلبات فيه.

كانت العلوم تتعاون مع السلطة. وكانت السلطة هي المؤسسة الاجتماعية الوحيدة التي جعلتنا نفهم بوضوح أنها في حاجة إلى العلم: من أجل الدفاع، ومن أجل الأيديولوجية، ومن أجل الوجاهة. ولكنها لحسن الحظ لم تكن تتدخل في الأمور الأخرى لأنها كانت عديمة الكفاءة وبقدر كاف جدا. وبفضل ذلك استطاع الفيزيائيون أن يعملوا، واستطاع باحثو الآداب واللغات أن يعملوا. أما المنطق الداخلي للعلم، فلم تكن السلطة لا تحترمه فقط، وإنما لم يكن يهمها في الأساس.

واليوم، فقدت السلطة الحالية أي اهتمام بالعلم. إنها مفطورة على ذلك بطبيعتها (ويجب أن نفكر لماذا هي مفطورة على ذلك بطبيعتها). ومع ذلك أعتقد أن هذا الأمر على المستوى الاستراتيجي يصبح فرصة للعلم الذي يجب عليه أن ينتهزها ويجرب «التعلق» بمؤسسات اجتماعية أخرى، وعلى أقل تقدير بالنسبة للعلوم الاجتماعية ـــ الإنسانية. ففي الوقت الحاضر توجد لدى المجتمع متطلبات واحتياجات للاختصاصيين في المجالات الإنسانية، وإن كانت هذه المتطلبات غير واضحة بعد أو محددة، ولكنها على أية حال أصبحت موجودة. وفي نهاية الأمر سيكون هناك طلب رائج على العلم. ليس فقط على العلوم الإنسانية، ولكن على جميع العلوم الأخرى. وبالتالي فمن الأفضل التوجه ليس فقط نحو السلطة، وإنما أيضا نحو المجتمع.

أندريه فاجانوف: يبدو أننا الآن نخلص، مع الأسف، إلى نتيجة خطيرة: فهل سيحكم بالفشل على العلوم الروسية في الألفية الثالثة؟

فيتالي جينزبورج: سوف تنهض الدولة، وسوف تنهض العلوم! ولكن القضية ليست في ذلك، وإنما في التوقيت والأولوية: متى سيحدث هذا النهوض؟! وبالطبع إذا استمر الحال كما نحن عليه الآن ولفترة طويلة، فسوف يموت الكثيرون، ويرحل الباقون. وعندئذ سيكون النهوض في غاية الصعوبة. وعموما فنحن لم نصل بعد إلى هذه الدرجة.

أندريه فاجانوف: في عام 1993م صرح الأكاديمي فلاديمير فورتوف وزير العلوم السابق، والمدير السابق أيضا لصندوق الأبحاث العلمية الأساسية الروسي في مقابلة صحفية لـ«الجريدة المستقلة» أن العلوم الروسية في حالة «غيبوبة».

وهو لا يزال منذ ذلك الحين يكرر هذا المفهوم حرفيا وبشكل منتظم. ست سنوات كاملة من «الغيبوبة» ـ ألم تحدث تغيرات لا عكوسية حتى الآن في هيكل العلم نفسه؟

لقد ناقشنا الآن، وبتفصيل كاف، العوامل الخارجية المرتبطة على وجه الخصوص بالعلم، والعلاقة الاقتصادية للسلطة والدولة بالعلم. ولكن ألم تتحول تركيبة العلم في حد ذاتها ـ كتركيبة ـ إلى شكل من أشكال المعلبات؟ ـ معلبات إثنوجرافية وثقافية. وعلى سبيل المثال، فإدارة أكاديمية العلوم تمارس حاليا تلك السياسة عن وعي كامل ـ تتمهل حتى تنتهي تلك الفترة الغامضة المضببة. والقضية تتلخص في أنه يجب الانبطاح على القاع، والاختباء إلى أن تهدأ تلك العاصفة الاجتماعية والاقتصادية. وعندئذ سوف نعود لننهض بكامل قوانا. ربما يكون ذلك تصرفا صحيحا! ولكن لا أحد عندنا يناقش، بدقة وبالأرقام، هذه الأوضاع على أساس نماذج سوسيولوجية محددة.

إنهم يرتكزون على العادات والتقاليد الروسية ويتحججون بها. ولكن التقاليد سلاح ذو حدين: فهي من الممكن أيضا أن تصبح جهازاً لشحن الطاقة الاجتماعية. وبالتالي فمن الضروري تطويرها وليس الحفاظ عليها. وبالتالي فأنا مازلت أطرح هذا السؤال: ألم تتعرض العلوم، كوسيلة لتحصيل المعرفة في روسيا، إلى تغيرات ما عضوية لا عكوسية؟

فيتالي جينزبورج: لقد تقدم بنا العمر البيولوجي! لقد شخنا! إنني أعقد «سيمنار» أسبوعيا طوال 50 عاما. يحضر إليه ما يقرب من مائة شخص كل أسبوع. معنى ذلك أن الأمر مهم بالنسبة لهم، إذ لا يوجد أحد يجبرهم على الحضور والمواظبة. وللعلم، فأنا أعرف جيدا أن السيمنارات كثيرة في العديد من المعاهد، هذا بالطبع إضافة إلى العلاقات مع الخارج. الأمر الآخر هو أن نطاق الأبحاث قد أصبح ضيقا. وهذا ما أقصد به التقدم في العمر البيولوجي ـ الشيخوخة. ولكن بالنسبة للمجال الذي أعرفه جيدا، أرى أن العيب الرئيسي هو السن. الناس يشيخون، ومن الصعب جذب اهتمام الشباب بسبب المشاكل التي يعانون منها مثل السكن والحالة المادية المتردية...إلخ، وبالتالي فهم يرحلون إلى الخارج. المشكلة تكمن هنا، وليس في أية تغيرات عضوية في المادة البشرية.

سيرجي يوجورروف: القضية تكمن في أن قياس أو معيارية المواقف في العلم أمر في غاية الصعوبة. والأمثلة الخاصة بمصائر العلماء الروس عديدة ومتنوعة. فهناك مثال الباحث الذي حافظ على مستواه العلمي الرائع، فهو في الوقت الذي يعمل فيه حمالا أو عربجيا يظل مستمرا في العمل بالعلم من أجل متعته. أما المثال الآخر فهو الشخص الذي حاول أن يمنح أبحاثه العلمية الأساسية طابع البناء الهندسي ومن ثم فقد مهاراته القديمة دون أن يمتلك مهارات جديدة. أي أن مستواه تدنى وهو لايزال في مكان عمله.

أندريه فونوتوف: من وجهة نظر إنتاج معارف علمية أساسية جديدة، فهناك إحساس اليوم بأن هذا الإنتاج قد أصبح بطيئا. لم يتلاش أو يتقدم، وإنما صار في غاية البطء، لأن العلوم الأساسية هي أحد فروع العلوم العامة والشاملة، وبالتالي فهي هنا في حاجة إلى بناء جاد. وليس عبثا أن الاستراتيجية التي نسير عليها الآن تتوجه نحو المشروعات الضخمة.

أما ما يخص النشاط العلمي التقني في عمومه، فمن الممكن القول إنه لايزال موجودا. وهذا النشاط يتجلى على وجه الخصوص في إعادة رفع كفاءة العاملين ـ الباحثين في المؤسسات الأكاديمية

والإدارات العلمية التي تعمل على إقامة الشركات والمؤسسات الصغيرة في محاولة لتحقيق ما لديها من خبرات ومعارف (Know - how) بشكل مجد ونافع في ظروف السوق الجديدة. ومن الممكن على أساس تلك الشركات والمؤسسات الصغيرة أن تنمو مؤسسات ما ضخمة. ولكن من أجل تحقيق ذلك يلزم أن تكون هناك حوافز وتشجيعات مناسبة، وقبل كل شيء ظروف اقتصادية ملائمة.

في هذه القضية لا يوجد لدينا أي تنظيم أو خطط تضعها الدولة. لقد أكدوا جميعا، ومازالوا يؤكدون ــ فيكتور تشيرنوميردين وبوريس يلتسين وسيرجي ستيباشين والآخرون ــ أن العلوم الروسية هي ثروتنا الرئيسية وفخرنا! ولكن عندما تصل الأمور إلى نشاطات ومهام محددة بشأن ولو حتى توفير الظروف الطبيعية الملائمة، التي وإن لم تستطع أن تكون حافزا فعلى الأقل يمكنها ألا تكون عائقا يتسبب في إبعاد الناس عن المجالات العلمية، فهم لا يفعلون أي شيء على الإطلاق. والمثال على ذلك هو قانون الضرائب الذي اتخذوه منذ عامين أو ثلاثة.

لدينا صناديق وجمعيات، وإن كانت غير متماشية مع العصر، تعمل بميزانيات خاصة وليس من ميزانية الدولة. ولعل العلوم التطبيقية في الوقت الحاضر هي التي تعتمد بالذات على مثل تلك الجمعيات والصناديق. هذا النظام على وجه التحديد هو الذي يؤسس العلاقة بين العلم والإنتاج. ولكن نعود لنؤكد من جديد أن قانون الضرائب الحالي هو السبب الرئيسي الذي عمل على إغلاق مثل هذه المؤسسات.

لقد وافقوا على قانون الضرائب. ولكن هناك سؤال يدور حول هذا القانون: على أي أساس يعمل الآن الصندوق الروسي للأبحاث الأساسية؟ هناك العديد من المخالفات المتعلقة بإلغاء الامتيازات. إذ إنه في واقع الأمر لن يمكننا العمل على النهوض بالصناعات العلمية الواسعة من دون جذب الاستثمارات الموجودة داخل البلاد. بل ويمكن القول إن ما يحدث الآن يشبه ما كان يحدث في السابق. فقد كانت المعركة في السابق تدور على ضمان مكان في الحياة، وعلى مصادر ما طبيعية. أما اليوم فالمعركة الرئيسية هي معركة الاستثمارات. وإذا خسرنا هذه المعركة (وربما تكون هي الأمل الأخير بالنسبة لنا)، فسوف تظل البلاد لسنوات طويلة متوقفة عند مستواها الحالي.

الاستثمارات ــ مفهوم أممي. وقد قام ستالين بحل هذه القضية بشكل بسيط جدا ــ كان يبيع مصادر الثروة الطبيعية للدول الخارجية (منتجات الاقتصاد الوطني). كان السكان يعانون من الجوع، ولكن عملية التصنيع وقفت على قدميها في الثلاثينيات. ومع ذلك فمن الممكن حل هذه المشكلة بطريقة أخرى: العمل على توفير الجو المناسب للاستثمار مع نظام ضريبي ملائم لكي يصبح من المفيد للمستثمر الأجنبي أن يضع أمواله في روسيا بالذات. إنهم ينظرون عندنا دائما إلى رؤوس الأموال التي تخرج من روسيا إلى الدول الأخرى على أنها قضية إجرامية. فماذا فعلنا لكي نحافظ على هذه الأموال؟! لاشيء!

أندريه فاجانوف: تقولون إنه قد تمت الموافقة على العديد من القرارات غير الصحيحة المرتبطة مباشرة بالمجال العلمي التقني. ولكن رئيس أكاديمية العلوم الروسية عضو في مجلس رئاسة روسيا، ووزير العلوم ـــ الأكاديمي ميخائيل كيربيتشينكوف عضو في مجلس الأمن الروسي، والأكاديمي جوريس ألفيروف عضو في مجلس الدوما (البرلمان). أي أن العلم يبدو محاطا من

جميع الجهات بالرعاية والاهتمام.

أندريه فونوتوف: مع احترامي لجميع ممثلي أكاديمية العلوم، يمكنني أن أوجه إليهم لوما حقيقيا، لأن الأكاديمية لم تتقدم ولو لمرة واحدة ببيان يتضمن مبادئ تطوير البلاد، أو حتى بعريضة تتضمن بصراحة رؤيتهم الواضحة الخاصة بالسعة العلمية وإنتاج التكنولوجيا الرفيعة.

أندريه فاجانوف: الأمر على العكس من ذلك، فالأكاديميون غاضبون لأنهم يبعثون بأكوام من الرسائل إلى الحكومة، ولكن ما من أحد هناك يجيب عليها.

أندريه فونوتوف: إنها أمور خاصة جداً. وعلى سبيل المثال، رسائل من أجل إعفاء الخريجين المتفوقين من أداء الخدمة العسكرية. هذه أمور خاصة. ولكن المبادئ العامة التي تتناول بدقة مجمل تلك المشاكل والقضايا غير موجودة. إن الأمور الخاصة تتعلق بكل واحد على حدة، ولكن أليس من مسؤولية أكاديمية العلوم أن تقوم بواجبها؟! ومع ذلك فمثل هذه الوثائق غير موجودة.

لقد وضعوا، في الفترة السوفييتية، برنامجا كاملا للتقدم العلمي التقني (أنا لا أقول إن ما وضعوه كان وثيقة مثالية. فهذا البرنامج لم يلعب الدور الذي كان يجب أن يلعبه في حينه. ومع ذلك فقد كان يرصد العديد من القضايا السلبية التي نتحدث عنها اليوم). كان ذلك وثيقة كاملة تمت فيها محاولة لوصف وتحديد الطريق الذي يمكن أن تتحرك عليه البلاد نحو أهداف محددة. كان ذلك برنامجا علميا. أما الآن فلا يوجد أي عمل مثله.

أندريه فاجانوف: عندما كان فلاديمير بولجاك نائبا لرئيس وزراء روسيا الاتحادية، ورئيس لجنة إعداد مبادئ إعادة إصلاح العلوم، قال: دع العلماء الآن يجلسون لتحديد تلك المبادئ، وسوف يظلون طوال عشر سنوات يفعلون ذلك!

سيرجي يوجوروف: لعله كان محقا. بيد أن الوثيقة الأساسية الخاصة بهذا الموضوع ليست المبادئ التي تتحدثون عنها، وإنما كانت الوثيقة التي تتضمن قانون «العلوم والسياسة العلمية التقنية الحكومية». في هذا القانون يمكن أن نعثر على كل ما هو ضروري للتقدم بصورته العامة. مثل هذا القانون لم يكن موجودا في الفترة السوفييتية. ولكن نسبة تطبيقه في الوقت الحاضر لا تتجاوز 50٪. وبالتالي إذا كان القانون موجوداً لكي لا ينفذ، فمن الأفضل أن نطرح أفكارا أخرى ومبادئ جديدة.

يفجيني سيميونوف: يبدو لي أن الحالة التي يعيشها مجتمعنا في عمومها أشبه بحالة ما خارج الوجود. كل شيء هنا، كما يقولون، ليس كما ينبغي. القانون — ليس قانونا، الحدود — ليست حدودا، حتى جواز السفر الموجود في جيوبنا — هو في واقع الأمر جواز سفر بلد ليس له وجود، بينما جواز سفر البلد الموجود ليس موجودا لدينا. كل شيء على هذا الحال، حتى العلم نفسه!

أعتقد أنه عندما ننوي توجيه أي إدانات للعلم، يجب أن نأخذ في الحسبان أنه انهار كمنظومة، وبالتالي لايوجد فصل بين العلم الذي يدرس والعلم الأكاديمي والعلم الفرعي المستقل. وفي الواقع، فالعلوم كلها تعيش الآن بنظام ما آخر تشكل في الظروف الجديدة. وحينما حدث ذات مرة وقمت بتحليل المسابقات، بشكل تجريبي تماما، التي تقام في الصندوق الروسي للعلوم الإنسانية، اكتشفت أن العلوم الروسية تعيش في واقع الأمر بشكل «قبلي»! ليس أبدا في مدارس واتجاهات ونزعات، وإنما بالضبط في قبائل. ويبدو أن هذه هي الوسيلة

الوحيدة أو الوسيلة الأكثر فاعلية التي عثر عليها العلماء من أجل البقاء. لقد زلزلتني إحصائيات الصندوق الروسي للعلوم الإنسانية خلال السنوات الخمس الأخيرة. فهي تؤكد بشكل يقيني عدم وجود الترابط، أو عمليات الضغط والتأثير التي كنا نتوقعها: فلو كان هناك شخص ما من أحد المعاهد الأكاديمية بعينها، فلن يقوم بتقديم أية مساعدة إلا لمعهده فقط. لا يوجد ترابط، ولا توجد جماعات ضغط أو تأثير ما قانونية منظمة. فالباحث الأكاديمي لا يقدم أية مساعدة إلى أكاديمية العلوم. والباحث الذي يعيش في مدينة سانت بطرسبورج لا يساعد العلوم في سانت بطرسبورج، ولكنه يكون في غاية النشاط ــ كقاعدة ــ في تقديم المساعدة إلى «قبيلته». وهذه ليست ظواهر فردية، ولكن الأمور قد ذهبت إلى حد أبعد من ذلك.

فيتالي جينزبورج: ماذا تقصدون بكلمة «قبيلة»؟

يفجيني سيميونوف: القبيلة؟ ــ هي تلك الجمعيات والرابطات الراسخة التي ظهرت ليس على أساس المصالح العلمية، وإنما على أساس مصالح ما تملك طابعا ماديا.

ولنفترض مثلا أنني ــ خبير. معنى ذلك أنني سأظل نائما إلى أن تتم مناقشة المشروعات التي تخص المعهد أو المؤسسة التي أعمل بها. ولكن انظروا عندما يكون المشروع خاصا بالقسم الذي أعمل به وأتقاضى منها الحوافز والإضافات. ومن وجهة نظر تناقض المصالح، فهناك مواقف لا يمكن ضبطها أو إثباتها. وعلى سبيل المثال، عندما يكون الشخص باحثا ولكن ليس في القسم نفسه. عندئذ يقول: «هل تعرفون... إن هذا المشروع عظيم جدا ...». وعلى الرغم من أن العديد من مديري المعاهد يفكرون هكذا: «هناك في المجلس عدة أشخاص من معهدنا. وسوف يتحدثون باسم المعهد»، إلا أنه في واقع الأمر يقوم هؤلاء «الذين من معهدنا» بتصرفات مغايرة تماما في مثل تلك المجالس.

إن العلوم عندنا توجد أيضا خارج الوجود. فهناك معاهد، وهناك خطط للأعمال العلمية البحثية. تلك الخطط لا تزال حتى الآن تكتب من أجل سنوات طويلة آتية ــ أي للمستقبل. وإذا نظرنا إليها فسوف نكتشف أن الموضوعات العلمية البحثية الواقعية جدا والتي يدرسها العلماء ويبحثونها لا تتناسب إطلاقا مع تلك الخطط. هناك أيضا عمليات معقدة جدا تجري في المجتمعات العلمية، وفي الهياكل والبنيات المعرفية. وعلى الرغم من أن الهياكل والبنيات المعرفية تتغير، نجد أن الأشكال المؤسساتية ـــ القانونية ــ التنظيمية كما هي دون أي رد فعل أو فاعلية.

طوال الفترة الزمنية التي تواجدت فيها تلك الصناديق والجمعيات العلمية، لم تهتم أبدا أية إدارة علمية بالمعلومات التي جمعتها هذه الصناديق والجمعيات. وعلى سبيل المثال، توزيع النشاطات العلمية على الأقاليم. وهذه إحدى أهم القضايا وأخطرها! وإليكم بعض المعطيات خلال خمس سنوات: 90٪ فلسفة أكاديمية ــ موسكو، 95٪ علم نفس أكاديمي ــ موسكو، 98٪ علم سياسة أكاديمي ـــ موسكو. إن كل المشروعات والمخططات والمناقشات حول عملية تكامل العلوم الأكاديمية والمدارس العليا هي مجرد أمور افتراضية تأملية. هنا لا توجد أية حلول أو قرارات سهلة وبسيطة. فإذا كانت كل علوم السياسة في موسكو بينما المدارس والمؤسسات التعليمية في أقاليم أخرى مثل كالوجا أو كالييننجراد، فهذا يفصح عن عملية تكامل بسيطة وسطحية. ولكنني أعود وأكرر: لم يهتم أي أحد بأي معلومات، ولم تحدث حاله واحدة اهتم فيها أحد بالمعلومات التي تم أو يتم جمعها في تلك

الصناديق والجمعيات والمدارس والمؤسسات العلمية، بينما تمتلك هذه المعلومات أهمية عظيمة وقيمة في غاية الخطورة، نظرا لأنها تعرضت للبحث والتحليل وصارت في شكل جديد، ويمكن الحصول عليها بسهولة، ومن ثم تشغيلها وتفعيلها.

أندريه فاجانوف: في كثير من الأحيان نسمع مثل ذلك الرأي: روسيا هي دولة، قبل كل شيء، المعارف الأساسية. وعلى ضوء ذلك يكون من المهم أن يتجه العالم كله ـ في هذه الحالة ـ إلى علومنا، ويشتري منا نتائج المعارف البحثية الأساسية. وبالتالي من الممكن أن نزدهر ونتطور. إنني أتوجه إلى سيرجي بتروفيتش خاصة، وإلى المجتمعين عامة، لمناقشة هذا الموضوع.

سيرجي كابيتسا: من الممكن التأكيد بصحة هذا الرأي بدرجة ما. فتقاليد المعرفة الأساسية موجودة لدينا. وبالفعل فنحن نملك في هذا الميدان تقاليد عريقة. وهي موجودة بالنسبة لعلوم الأراضي والبيولوجيا. وليس عبثا أنهم يقولون إن روسيا هي الدولة الثانية للدارونية. تلك التقاليد توغلت عميقا في تاريخنا الثقافي. وبالتالي فهي في غاية الأهمية.

أما الشيء غير الموجود لدينا، فهو البراغماتية. هذا هو الفارق الضخم بين العلوم الروسية والأمريكية. وهذه الحقيقة يجب أخذها بعين الاعتبار في السياسة العلمية، وفي العلاقة المتبادلة مع العلوم الأخرى في دول العالم.

ولكنني الآن أود القول إن أزمة العلوم والبحث عن طرق ومعالجات من جانب الدولة والمجتمع ـ هي ظاهرة عالمية عامة. ولكن هذه القضية في روسيا على وجه الخصوص تظهر بشكل حاد. وكما يقولون: عندهم رشح، ولكن عندنا، نحن، كوليرا.

في نهاية يونيو 1999م في مدينة بودابست، وتحت رعاية اليونسكو واتحاد الجمعيات العلمية العالمية، أقيم مؤتمر عالمي بخصوص العلم. وضمن 2500 مشارك قام بتمثيل روسيا كل من أكاديمية العلوم ووزارة العلوم. في هذا المؤتمر تمت مناقشة القضايا العامة للعلوم المعاصرة وجوانبها الثقافية والتصنيعية ـ الإنتاجية والإصلاحية والأيديولوجية. وتم أيضا استعراض النتائج الإجمالية لكل علوم القرن العشرين، وتحديد الأولويات والمهام المستقبلية. إضافة إلى ذلك، كان هناك بلا شك إحساس بتغير الحدود والمراحل، ومن ضمنها حدود ومراحل أزمة العلوم المرتبطة بعلاقة العلم والمجتمع.

لقد قاموا بتوجيه الدعوة إلى إلقاء كلمة في هذا المؤتمر حول موضوع مكانة العلم والوعي الاجتماعي العام. وهنا أيضا أود أن أقول بعض الكلمات بهذا الخصوص، عندنا هنا كارثة ضخمة بشأن تشكيل وصياغة نموذج للعلم في الوعي الاجتماعي العام. وعلى الرغم من وجود الإنترنت وكل تكنولوجيا المعلومات الأخرى، فالعلم والمجتمع الآن يقعان في حالة فراغ معلوماتي. ولننظر مثلا إلى التلفزيون ومعظم وسائل النشر المحلية. إن عدد النسخ الصادرة من مجلة مثل مجلة «العلم والحياة» قد هبط بمعدل 100 مرة!! كان 3 ملايين نسخة وأصبح 30 ألف نسخة. في الوقت نفسه قامت القنوات التلفزيونية الرئيسية باستبعاد العلوم وإهمالها تماما، بينما وجدت الوقت الكافي والمسحة اللازمة لبث الهرطقات والخزعبلات وكل ما هو مضاد للعلم ـ الأمور التي تحدث عنها فيتالي جينزبورج في البداية. لم تبق سوى القناة الثقافية التي أحاول من خلالها مع الأكاديمي يفجيني فيليخوف أن أتحدث عن العلم كأحد العوامل المهمة في الثقافة المعاصرة.

سيرجي يوجوروف: إننا نتحدث عن العلوم الأساسية كأولوية استراتيجية. ومن البديهي أن ذلك

هو التحدي الذي يعلنه الزمن. والقضية تتلخص في الرد على هذا التحدي بشكل كريم ونبيل (مثل الرد على أي تحد آخر). ومن أجل أن نحل قضية تنظيم البحث العلمي بأفضل الأشكال، نجد أننا نصطدم بخمس نقاط مؤلمة يمكن ترتيبها كالتالي:

ــ النقطة الأولى: غياب الآفاق العلمية التقنية الواضحة، وغياب الأولويات التي تحدثنا عنها اليوم.

ــ النقطة الثانية: عدم الإمكانية على تخطيط الأبحاث العلمية بشكل جدي بسبب عدم وضوح، أو بالأحرى التمويل غير المسؤول.

ــ النقطة الثالثة: فقدان إمكانية الإدارة على المستوى العلمي التقني في الإدارة الواحدة، بل وحتى على مستوى المختبر الواحد بسبب فقدان فعالية الصفوتين ــ الصفوة الإدارية والصفوة الإبداعية، وذلك على العكس مما كان الأمر عليه أثناء وجود الاتحاد السوفييتي.

ــ النقطة الرابعة: الانقطاعات والتوقفات في مسيرة الاستراتيجية العلمية، حيث تجرى عملية شيخوخة للمجموعات العلمية العاملة بينما لا يوجد تيار بديل من الشباب. وبالتالي يحدث تراجع وانهيار لمستوى المعرفة المتراكمة.

ــ النقطة الخامسة: الخواء المعلوماتي، حيث يصعب على علمائنا لأسباب كثيرة متابعة إنجازات الزملاء في روسيا وخارجها.

إننا في حاجة ضرورية للعمل على تذليل هذه النقاط الخمس المؤلمة ولو حتى إلى مستوى استقرار الوضع كما هو عليه.

أندريه فونوتوف: ردا على دعوة أندريه جيناديفيتش لطرح أفكارنا حول موضوع إمكانية أن تصبح روسيا منتجا للمعرفة الأساسية، أود الإشارة هنا إلى أن المسألة تتلخص في أن المؤسسة العلمية ذاتها تتأسس وتبنى على الانتشار والتوزيع الحرّين للمعارف العلمية. ومن دون ذلك ستموت المؤسسة العلمية. وبالتالي فتجارة، أو لنقل مثلا، المعارف الأساسية تفترض وجود عملية تسجيل براءات الاختراع ومنح تراخيص الامتياز، ووجود تشريعات متطورة في مجال تحقيق الإمكانات الإبداعية ــ الذهنية الفردية... فهل تعلمون أنه في الصيف الماضي تم إلغاء مصلحة براءات الاختراع في روسيا!!

سيرجي كابيتسا: على أية حال يمكننا القول إنه يوجد لدينا ما يسمى بثقافة المعارف الأساسية. ولكن القضية ليست في ذلك، وإنما في كيفية تحقيق هذه الثقافة. وبلاشك فتحقيقها لا يتأتى إلا عن طريق التعليم. ولعله الآن، في وقتنا الحاضر، يوجد طلب هائل على المعارف الأساسية في اليابان وكوريا الجنوبية وبلدان جنوب شرق آسيا. فهم لديهم مجموعة هائلة من الأسباب التاريخية العميقة التي تحتم عدم وجود مثل هذه التقاليد. بل وحتى عندما يعلمونهم في الغرب، في ألمانيا وإنجلترا، يعودون إلى بلادهم ليقابلوا العديد من المصاعب والمعوقات في ممارسة الأبحاث الأساسية. أما نحن فنستطيع أن نجد مخرجا إلى هذا السوق حيث يتاجرون، إذا جاز التعبير، بثقافة الأبحاث الأساسية. لهذا السبب بالذات يوجد طلب عال جدا على العلماء الروس في الغرب، وفي المقام الأول في أمريكا. وإذا كنا قد خسرنا في معركة السباق الاقتصادي، فقد ربحنا، بلاشك، على جبهة التعليم.

إننا بسبب تباطؤنا وتوانينا نفقد تأثيرنا العلمي في الدول المجاورة ذات الثقافة المرتبطة بالثقافة الروسية. لقد سافرت إلى هذه البلدان، وتحدثت مع العديد من العلماء في هذه الدول. هناك تنمو الرغبة في الحفاظ على المساحة الثقافية العلمية المشتركة، نظرا لأن روسيا بالنسبة لهذه الدول تعتبر

شريكا طبيعيا متحضرا.

سيرجي يوجوروف: أندريه جيناديفيتش، لقد حاولتم كما أرى طوال النقاش أن تعثروا بمساعدتنا جميعا على إجابة عن تلك الأسئلة التالية: ما هي المكانة التي ستحتلها العلوم الروسية في العالم، أو لنقل في تقسيم العمل العلمي الدولي؟ بماذا يمكننا أن نفخر في الألفية الثالثة؟ أما الفكرة التي طرحتموها للتو، فهي تمثل أهمية كبرى: من الممكن أن تمثل روسيا مركز جذب تعليمي. زد على ذلك أن هذا الجذب يمكن أن يحدث عن طريق النشاطات الإعلامية والمعلوماتية والنشر ووسائل التنوير الأخرى مضافا إليها نتائج الأبحاث الأساسية «التي يجب أن تقدم بشكل جيد وحضاري»، والتي يجب ألا تخضع بطبيعة الحال إلى عملية البيع والشراء ــ يجب أن تنشر وتوزع مجانا من أجل أن تعكس الوجه الحضاري للدولة. من هنا أعتقد أنه لدينا الآن موضوع نفكر فيه.

أندريه فاجانوف: السادة المشاركون في هذه الندوة.. إنني أعرف بالطبع أننا لو ظللنا نتحدث طوال ساعات كاملة فلن نستطيع على أية حال تغطية جميع النقاط والأسئلة المطروحة. وعموما فهناك بعض التعريفات خفيفة الظل مثل: من هو الخبير؟ ــ والخبير هو الشخص الذي يعرف عن الموضوع أكثر مما يلزم. علاوة على ذلك، ففي نهاية حديثنا هذا تيقنت من أمر مهم: إن العلوم الروسية في الوقت الحاضر هي عبارة عن وحش هائل يقع بين اليقظة والنوم ويتحرك بشكل ضعيف جدا، و بداخل هذا الوحش الضخم تحدث عمليات ما تبدو للمتابع الخارجي مجرد حركات مشوشة ومضطربة: نعم، فالوحش يتقلب في النوم، ولكنه نائم.

وإذا لم تتغير علاقة الدولة بالعلم خلال السنة أو السنتين المقبلتين، ومع احترامي للعلوم السوفييتية والروسية، فسوف تضيع هذه العلوم وتتلاشى من دون رجعة. زد على ذلك أنني أتحدث أيضا عن التغيرات الهيكلية المؤسساتية: أي التنظيم والتقنين والتشريع. هذا هو الإحساس الداخلي الذي يسيطر علي، علما أنني أتحدث كإنسان عادي وكراصد على حد سواء. ولذا فعلى مستوى النتيجة الإجمالية لندوتنا هذه، أقترح أن يقوم كل من المشاركين بطرح «خلاصة» الموضوع المطروح: «العلوم الروسية في الألفية الثالثة»، وعلى الأقل خلال الخمسين سنة المقبلة.

سيرجي كابيتسا: أعتقد أن هذه «الخلاصة» قد تشكلت خلال عملية الحوار نفسه. وعموما فالحوار كان بالفعل جيدا على عكس ما يبدو للوهلة الأولى.

إن العلوم الأساسية، بطبيعة الحال، تنمو وتتطور في الأوساط الجامعية والمؤسسات التعليمية العليا، وتتحقق من خلال تعليم الأجيال التالية. وسوف يستمر جزء بسيطر من الطلاب في الحصول على المعارف الأساسية وممارستها والعمل بها. أما الجزء الأكبر منهم فسوف يتجه نحو التصنيع وممارسة التعليم ــ وبشكل عام سوف يشتغل بالمؤسسات الثقافية في البلاد، وهذه هي الوظيفة الطبيعية للمعارف الأساسية، وروسيا من هذه الزاوية غنية جدا، وعليها أن تحافظ على هذه الثروة. وبالتالي يجب أيضا استخدامها في الأهداف السياسية: من أجل الحفاظ على وحدة الدولة، والدول المجاورة، بل وأيضا من أجل التأثير على دول جنوب شرق آسيا. وعلى سبيل المثال، فمن أجل تحقيق مثل هذا البرنامج بشكل جدي، من الضروري أن يكون لدينا ما يسمى بـ«فكر الدولة».

هنا لا داعي للتخطيط من أجل إنجازات علمية ما. من الممكن فقط، وفي أفضل الأحوال، أن نخطط

للوضع الذي يمكن أن يتطور فيها العلم. وهذه هي النقطة الأولى. والنقطة الثانية، وهي ما جرى الحديث عنها هنا: يجب، وبشكل جذري، تغيير النظرة إلى التغيرات السياسية الداخلية، ونحو رؤوس الأموال الداخلية. فإذا لم نعمل على تشجيع صناعاتنا المحلية، وإذا اكتفينا فقط بشراء كل شيء من الخارج، فلن يكون هناك أبدا أي «طلب اجتماعي» على العلم.

أعتقد أن الدولة مطالبة بالاهتمام بتوفير الظروف الملائمة لتطور العلم. أما العلم فهو يعمل على تنظيم نفسه بنفسه، وليست هناك ضرورة لأن نعلم العلم كيف ينظم نفسه، لأنه عبارة عن منظومة ذاتية التنظيم.

فيتالي جينزبورج: على الرغم من أنني أكبر الحاضرين سنا، وليس لدي أي أمل في رؤية الزمن السعيد، إلا أنني مع ذلك في غاية التفاؤل. هذا طبعا إذا لم يربح الشيوعيون والمعادون للسامية واليمينيون المتطرفون في الانتخابات. وأعتقد أن مجلس الدوما (البرلمان) سوف يكون أفضل بكثير من السابق. وبالتالي سوف يكون هناك أيضا رئيس أفضل. عندئذ ستكون هناك دولة، وسيكون هناك علم. وإذا حدث وأصبحت هناك ديمقراطية وإصلاحات ديمقراطية، فسوف تكون هناك علوم أفضل. وعموما فأنا لا أشارك المتشائمين وجهات نظرهم.

أندريه فونوتوف: أنا أيضا أنظر بتفاؤل إلى تطور العلم والتقنيات والتصنيع لأن شعبنا يحب المعرفة والعمل. وإذا كانت هناك صفات ما سلبية، فهذه ليست نهاية العالم. إننا على أية حال سوف نعمل على تحقيق القدرة الإيجابية باستخدام كافة المنجزات التي حققناها خلال القرن العشرين. إضافة إلى ذلك يجب القول، ومع الأسف، إن السياسة هي السياسة: تعمل على أساس ما هو موجود وليس على أساس ما سوف يكون موجودا. وما يظهر اليوم من ضيق مساحة المؤسسات المبنية على السعة العلمية، والتي لم تفرز بعد نتائج ملموسة في الإنتاج العام للبلاد، سوف تقوم في المستقبل بتحقيق المطلوب منها.

يفجيني سيميونوف: أعتقد أن هناك سيناريوين، أحدهما تفاؤلي والآخر تشاؤمي. المسألة لا يجب أن تتعلق هنا بالمشاعر والأحاسيس والتمنيات، ومع ذلك فليست هناك نتائج حتمية لأن كل شيء قابل للتغيير.

السيناريو التفاؤلي ــــ روسيا دولة لديها تكنولوجيا رفيعة وتعليم، وعلم موجود في إطار المنظومة التكاملية العلمية العالمية. وإذا تحدثنا بصراحة، فهذا العلم موجود ضمن إطار المنظومة العلمية الغربية. والمنظومة الغربية ـ بطبيعة الحال ــ تتضمن الاقتصاد والسوق والنظام السياسي الملائم.

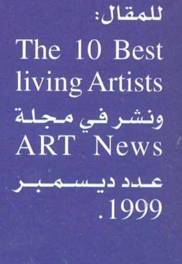
السيناريو التشاؤمي ـ تقسيم الدولة مع تدهور مستوى المعيشة، وظهور مصائر مختلفة لكل إقليم على حدة.

كل من هذين السيناريوين قابل للتحقيق على أرض الواقع. ونحن الآن على مفترق الطرق ــــ أو بالأحرى الطريقين. ولا أدري كم من السنوات سنظل واقفين هكذا. إلا أنني أرى أننا قد توقفنا أطول من اللازم. والأمر ببساطة يتوقف على اختيار الناس للطريق، اختيارهم للطريق الأفضل، والعمل على تحقيقه.

سيرجي كابيتسا: أتعرفون... منذ أربع سنوات قام حفيدي الأصغر بصياغة علاقته بهذه القضية. وعندما سألته وقتها أي كتاب يقرأ، قال: «أنا لا أقرأ كتبا ـ أنا أريد أن أصير مليونيرا».

أعظم عشرة فنانين أحياء

ترجمة: راوية صادق



العنوان الأصلي للمقال: The 10 Best living Artists ونشر في مجلة ART News عدد ديسمبر 1999.

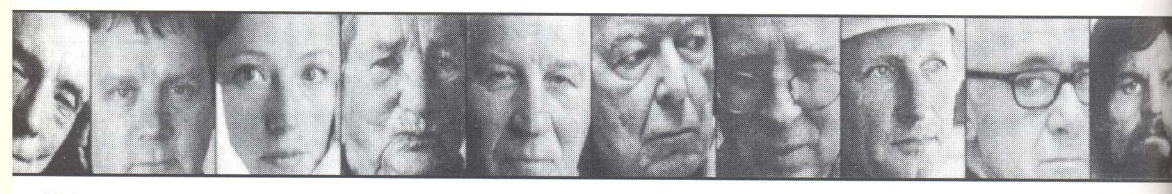
يواجه الخبراء في أنحاء العالم مهمة صعبة - مهمة التقييم المنصف لما يعنيه أن تكون الأفضل.

من هم أعظم عشرة فنانين أحياء؟ إنها مسألة رأي بطبيعة الحال لذا ذهبنا إلى الخبراء والتقينا عدداً من مديري وأمناء المتاحف ونقاد الفن التشكيلي، وطلبنا منهم أن يذكروا لنا بشكل شخصي، من هم أعظم عشرة فنانين في الوقت الراهن.

وأغلب من قبل التحدي أخبرنا أنه وجد المهمة شاقة وتتطلب الموازنة بين النقاط الفاصلة الخاصة بالجودة، والحالة الإبداعية، والتأثير - فضلا عما تعنيه إشكالية أن تكون الأفضل على وجه الدقة.

ما الذي تشير إليه الاختبارات الخاصة بالمشهد الفني المعاصر؟ عندما سجلنا الإجابات، وجدنا أربعة من العشرة الأوائل مصورين، بينما تميز الآخرون في التصوير الفوتوغرافي، النحت، الفيديو، الفيلم، والعمل المركب، وثمانية من الفنانين الذين صنعوا القائمة يعيشون في الولايات المتحدة (رغم أن ثلاثة فقط يعيشون هنا).

فما دلالة ذلك فيما يتعلق بالأجيال المقبلة؟ الزمن وحده ما سيقرر.

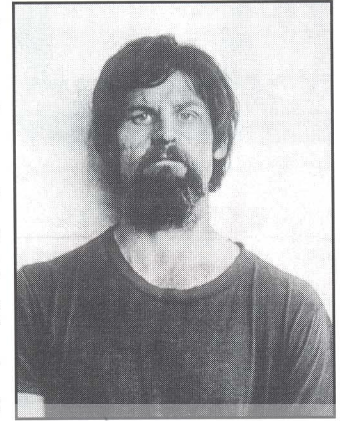


ساحر الأشياء الغريبة

إن خيالات ماتو بارني الغريبة والمنحرفة أثارت فزع عدد كبير من المشاهدين

بقلم: باربارا بولاك *

جمع ماتو بارني - منذ البداية - بين قوة جماليات الألعاب الرياضية والافتتان الماسوشي بالمبالغات الجسدية. وقد أقام أول معرض فردي له في قاعة بربارا جلادستون في نيويورك عام 1991، بعد عامين فقط من التخرج من جامعة «يال». وفيه يعرض لنا فيديو قديماً للغاية الفنان وهو يتسلق حوائط قاعة العرض وينزع سقفها، وجسده ملطخ بالفازلين، مستخدما أدوات تسلق صخور من تصميمه. وأثناء مراقبتهم لمحنة بارني، اضطر المتفرجون إلى بحث الحدود بين النحت، والعمل المركب، وفن الجسد، وفن الفيديو.



● ماتو بارني في دور القاتل جاري جيلمور في فيلمه الجديد «كريماستير2».

وكثيرا ما يجعل بارني - 32 عاما - التمييز بين المذكر والمؤنث غير واضح، فيصنع أشخاصا تتحدى الأجناس النمطية. وهو يضع الألعاب الرياضية والطب على مستوى متعادل، فيعالج الجسد مثل وسيط طيع يحتاج إلى التعديل والسيطرة ليصل إلى إمكاناته التعبيرية الكامنة.

وتماثيله التي تشبه آلات الجراحة الترقيعية(1)، كثيرا ما تكون عناصر كمالية في أفلامه الخاصة بالأداء الحركي. وهذه الأعمال - التي يتعذر فك شيفراتها على نحو يثير الغضب - تجمع، من خلال اختلاق دقيق للغاية، بين مواد غريبة - تبيوكا(2)، جيلاتين، وعجائن بلاستيكية ذاتية التزييت. إنها أشياء مرعبة وعقيمة، مثل الأدوات العلمية، حازت على صفة «ما بعد الإنساني»، بدلا من ما بعد الحداثي.

و«كريماستير» متتالية من الأفلام بدأ في عرضها عام 1994، وهي أشهر مجموعة أعمال بارني. وفيها لا يستخدم بارني المؤثرات الخاصة وأفلام الخيال العلمي فحسب، وإنما يخلق أيضا مفرداته الخاصة. ويشير عنوان الفيلم إلى اسم الغدة التي تتسبب في انكماش الخصيتين عندما تتعرضان للبرد. وقد أثارت هذه السلسلة رعب كثير من المتفرجين. وكل جزء تم إخراجه بشكل متميز يستدعي أفلام لويس بونويل السريالية. ورغم هذا، يقدم بارني رؤاه باعتبارها سردا حقيقيا، وليست أحلاما أو فانتازيا. والشخصيات - ومنها تلك التي لعب دورها الفنان - هي مخلوقات تشكلت

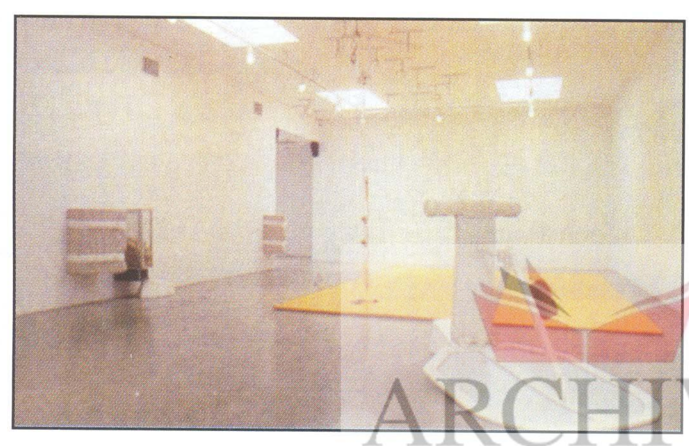
---

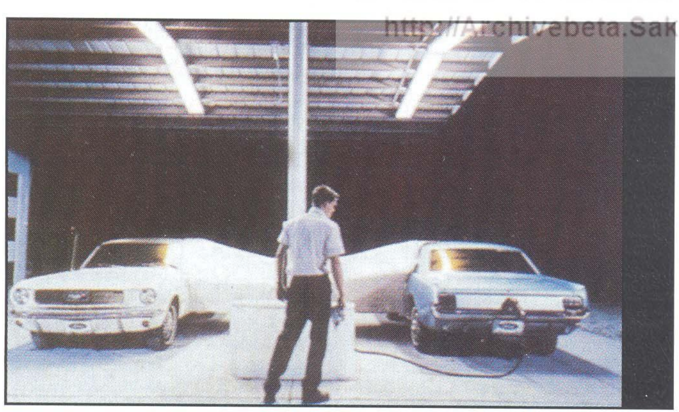
* باربارا بولاك من المحررين المساهمين في «آرت نيوز».

(1) إضافة عضو صناعي إلى الجسم البشري.

(2) مستحضر نشوي لصنع الحلوى.

على نحو غريب، وتتمتع بأعضاء تناسلية متعادلة، على نحو يثير الارتباك. فثمة عربات سباق قضيبية تخترق مناظر طبيعية غريبة. ومنطاد مراقبة صغير - «جود يير» - يحمل صورة مهبل، يصبح مقرا لقهرمانات من ألوان تخضع لنظام الشيفرة اللونية. و(نرى) بارني يرقص وهو يدق الأرض بقوة، في طريقه - عبر أرضية بيت مضيء - إلى الماء في الأسفل، ثم يسبح إلى الخلف إلى الأرض، عبر نفق محشو بالطين. ورغم أن الحبكات نادرا ما تكون تقليدية، تمتلئ أفلام «كريماستير» بصور قوية يصعب نسيانها.





• مشهد من «كريماستير 2 «(في الأعلى). عمل مركب لعام 1991، يستخدم فيه البلاستيك وجيلي البترول (في الأسفل).

إن بارني - الفنان - «الصبي المزعج» في بداية التسعينيات - يقدم الرجولة باعتبارها هدفا مراوغا. فالطبيعي في عالم بارني مستحيل، مثل الرجولة المثالية. وبينما بدأ فنانون آخرون من مقدمة منطقية مماثلة - وهي أن النوع الجنسي هو نتاج الحضارة، بأكثر مما هو العكس - يذهب بارني بهذه الحجة إلى مدى أبعد منهم جميعا. فجراحات التجميل، العلاج بالجينيات والرياضة البدنية، وصياغة النموذج المثالي المتفوق، قد يكون ثمنا متفقا عليه، لكن بارني يبين أن هذه الأجساد المبدلة المتوطنة لا علاقة لها على الإطلاق بخيال الفنان.

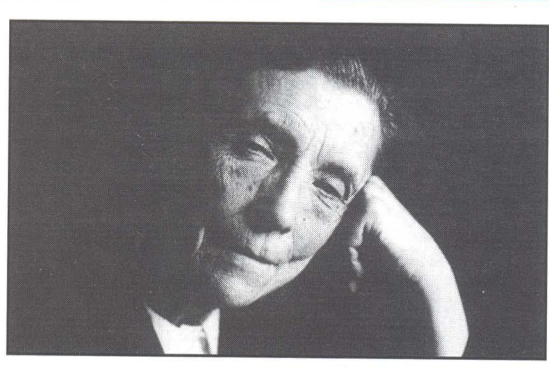
حديـث الذاكـرة

سحر لويز بورجوا الأحمق

بقلم: آن لاندي*

تعتبر لويز بورجوا - التي تتمتع بصحة جيدة وهي في عقدها التاسع - فنانة وطاردة للأرواح الشريرة في آن، وهي تحاكي ذكريات الطفولة والقلق النفسي، لتقدم مجموعة من الأعمال تواصل الاستحواذ على الاهتمام والاستفزاز. وقد كانت من أوائل من صنع الأعمال المركبة، فقدمت غرفة تمتلئ بالتماثيل الطوطمية المتحررة في وقفتها، في أوائل عام 1949، وأخذت تستكشف طوال حياتها المهنية الطويلة عددا كبيرا من المواد، بدءا بالمطاط المنحوت واللاتكس(1) الزلق، إلى البرونز المصقول تماما. وأخيراً، استخدمت ملابسها الخاصة التي احتفظت بها منذ الطفولة، لصياغة أشكال بشرية توحي بمظاهر الأنوثة والرجولة.

وقد واجهت بورجوا دائما مصادرها، وتحدثت بصراحة عن الاختلال الوظيفي لعائلتها في فرنسا خلال العشرينيات. لقد ولدت يوم عيد الميلاد عام 1911، وقضت أغلب طفولتها المبكرة في إحدى ضواحي باريس، حيث أدارت أسرتها ورشة لترميم السجاد. وقد توفيت والدتها وهي في الثامنة، وكان والدها زير نساء، وكانت المعلمة



• يستدعي فن لويز بورجوا ذكريات طفولتها.

الإنجليزية، التي عاشت مع الأسرة لمدة عشرة أعوام، من إحدى غزواته.

وقد دفع المناخ العائلي المضطرب بورجوا إلى عالم من صنعها، فعادت - مرة بعد أخرى - إلى الصورة المجازية للجسد والمنزل، للتعبير عن موضوعات الموت، والجنس، والعزلة المصحوبة بالقلق. وتصور لوحاتها الزيتية ورسوماتها - التي أنجزتها في الأربعينيات، وأغلبها بعنوان «امرأة منزل» - امرأة تتحول إلى منزل - أم أنها الحالة الأخرى هنا وهناك؟ وهذه الأعمال بيانات مؤثرة عن الشرك العائلي، أنجزت قبل تحولها إلى قضية نسائية بفترة طويلة. وبعد التماثيل الخشبية ذات الحجم الطبيعي للخمسينيات، بدأت بورجوا تدمج في أعمالها إحالات صريحة إلى الأعضاء التناسلية للذكر والأنثى. ومنها تمثال «فتاة صغيرة» الذي يشبه

---

* آن لاندي من المحررين المساهمين في «آرت نيوز».

(1) سائل لزج أبيض يسيل من بعض النباتات عند قطعها.

القضيب، والذي أخذت تتباهى به ، في الصورة الشهيرة التي التقطها لها روبيرت مابليتوب عام 1982. وفي الثمانينيات نجد أعمالا مصنوعة من الرخام: آذان معزولة، أذرع، عيون، وأعضاء تناسلية ذكورية تنبثق من كتل غير مصقولة. وفيما بعد، عادت مرة أخرى إلى الأعمال المركبة، التي يبدو أنها توحي بحياة منزلية منحرفة - ثمة جذع معذب معلق فوق حشيّة، وأزواج من الأيدي القلقة تسندها مائدة غير مستوية.

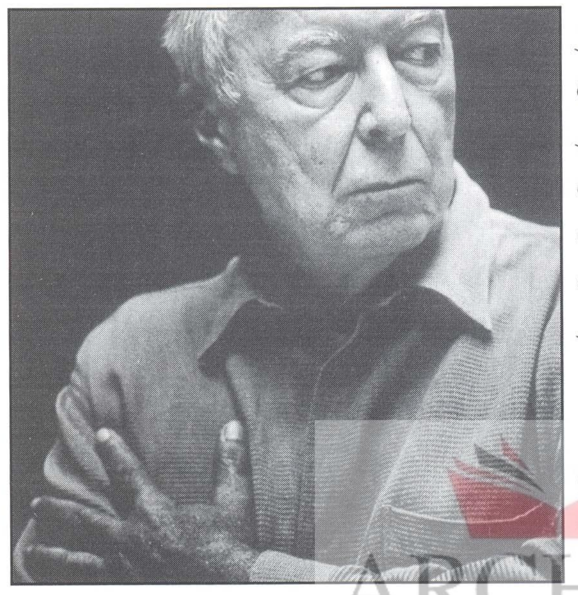
جاءت بورجوا إلى عالم الفن - للغرابة - من خلال الرياضيات والهندسة، وكلاهما موضوعان درستهما في السوربون في الثلاثينيات. وحسبما قالت، منحها النظام الذي يتميز به هذان الفرعان من المعرفة الاستقرار الذي احتاجت إليه عندما كانت طفلة. وفي الأربعينيات، ابتعدت في لوحاتها الزيتية عما هو صارم وعقلاني، ولتبحث - عوضا عن ذلك - عن «رمز جديد، ومعادلة جديدة».



• «عنكبوت رقم 5»، من أعمال عام 1999.

والتماثيل - التي تعكس جهدا مكثفا - قد جمعت لتوفر الدخول إلى مملكة من ثلاثة أبعاد، حيث تتحدى الفراغ الذي يخص المشاهد. وفي عام 1938 تزوجت بورجوا من مؤرخ الفن التشكيلي الأمريكي روبرت جولد وتير وانتقلت إلى نيويورك لتصبح جزءاً من المشهد الثقافي النشط خلال الحرب العالمية الثانية وصعود مدرسة نيويورك. ورغم أن بورجوا صنعت أعمالا تدعو للتحدي طوال حياتها، كانت معارضها نادرة خلال الخمسينيات. وفي عام 1966، ساهمت في استعراضات للويس بارد «تجريد خارج المركز». لكن الاعتراف الأكبر بها لم يحدث إلا في معرضها الاستعادي عام 1982، الذي أقيم في متحف الفن الحديث. والآن، في ظل العدد الكبير من الفنانين الأصغر سنا - الذين يركزون على الجسد - يتسم هاجس بورجوا الاستحوازي بالمظاهر البذيئة للطبيعة والتربية بالبصيرة، بكل ما في الكلمة من معنى.

التعقيد والتناقض



يشاكس جاسبر جونز الفن الغامض من خلال المألوف.

بقلم: ليلي ويي *

لأكثر من أربعين عاما ظل جاسبر جونز - الآن في التاسعة والستين - من الفنانين القلائل الذين يردون في الخاطر فور التفكير في الفن الأمريكي المعاصر. هذا الشخص المراوغ والغامض - الذي تأكدت مكانته كفنان تشكيلي، ونحات وحفار، والمحظوظ في ظل شهرته الثابتة، غير المدوية - نادرا ما شرح أعماله، تاركا ذلك للآخرين، فصنع ما صنع وبعث به إلى العالم بلا دفاع ضد التأويلات، ليعتني بنفسه وبه، فهو، مثلما يعرف الجميع، واحد من أكثر الفنانين الأحياء الناجحين ماليا. وقد اعتنى به الآخرون بشكل جيد وبليغ، ولا سيما ليو ستينبرج، روبرت روزينبلوم وويليام روبين.

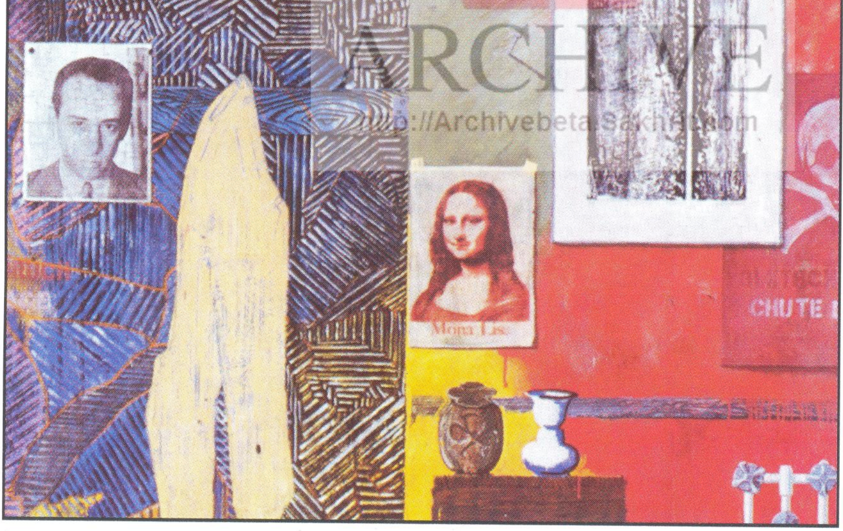
إن أشياء جونز الكمداء، ولوحاته التي تتناول ما هو طارئ وواقعي، وتعود جذورها إلى «دادا» و«دي شامب» والحظ، ظلت مثل انتقالة بين «عاصفة وزحف» التعبيرية التجريدية، واللامبالاة الباردة لأتباع وارهول، والشرائط العريضة الزغبية التي تعرض الواقع القائم على الحقائق المجردة، لأتباع مدرسة الحد الأدنى (مينيماليزم). عن عناصره قرص الهدف، الخرائط، الأعلام، الأرقام وحروف الهجاء، علب القهوة الصفيح «سافاران» وعلب البيرة الصفيح «بالانتين»، الأحمر والأبيض والأزرق، الرسومات التخطيطية المتقاطعة، وأجزاء من الجسد التي استخدمها مرارا وتكرارا، هي جزء من الحالة الموضوعية التي يمكنها أن تشاكس الفن للجوئها إلى المألوف، مثلما في (لوحته) «علم أبيض» لعام 1954 العميقة فكريا والجميلة بألوانها وظلالها الدقيقة - وهي واحدة من أعظم لوحاته. إن تناقضات جونز - السطح المجهز يدويا ببطء مقابل الإدخال السريع للأشياء الجاهزة،

---

* ليلي ويي ناقدة فن تشكيلي محترفة من نيويورك، ومن أمناء المتاحف.

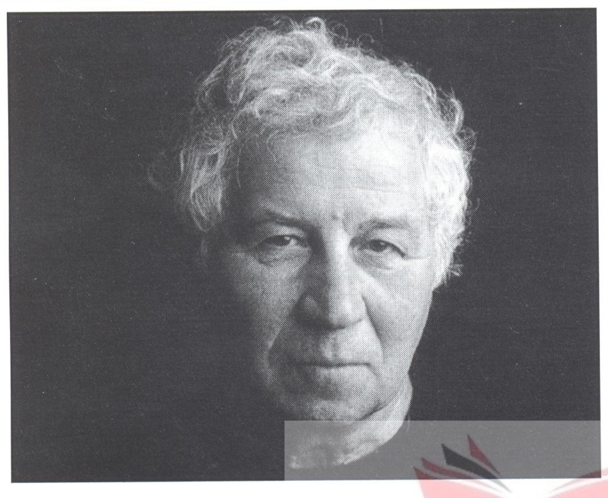
الأشياء العارضة، الواضح مقابل الغامض، الدهاء البارع، والشيء الذي تراه هو ما تراه - هي سحنة جامدة أشعلتها ذبذبات الشعور بالاكتئاب والفقد، التألق وروح الدعابة، الحساسية التي يهدئها التحفظ، عدم التحيز والسخرية - تمنح عمله صلابة وثقلا.

ولوحات الثمانينيات والتسعينيات - مثل «ليلة خطرة»، «اهتمامات السباق» و«الفصول» - تستمد جذورها من الوقائع، رغم صورها المضمرة، والرمزية الخفية، والإحالات المشفرة لسيرة الحياة الشخصية، والحكايات الرمزية، والدورة الروائية السريعة. فالحلم الأمريكي لا يكن أبدا حلما غير مجسد. لقد جعلنا جونز ننظر إلى «الأشياء التي ترى دون النظر إليها»، مثلما وضعها، أشياء تحولت بلمسته، والوعي الذاتي والشك. فما نراه، وما احتفظ به جاسبر جونز بكل كبرياء، هو انتصار حقيقة «النمط الأمريكي» في منتصف القرن. وما اكتشفه وجعله خاليا من الشوائب إلى حد بعيد، هو المزاج العاطفي العنيف لزمنه.



● الحلم الأمريكي، بالنسبة إلى جونز، ليس أبدا حلما غير مجسد، «علم أبيض» 1955 (في الأعلى) و«اهتمامات السباق» 1983 (في الأسفل).

اضطرابات عصابية وشعور جارف بالحنين إلى الماضي



منذ أن أنجز الرسومات التوضيحية لكتب الأطفال في الاتحاد السوفييتي، والفنان المنتمي لمدرسة «المفهوم» - إيليل كاباكوف، 66 عاما - لا يزال يحكي لنا القصص. يخلق كاباكوف أعمالا مركبة تقرأ كقصص. بيئات لشخصيات خيالية تتكون من غرف وممرات متخمة بالكتابات والاقتباسات، نفايات وأثاث محطم، وبقايا أخرى من الحياة اليومية، كلها ملصق عليها - بعناية - بطاقة بيانات خاصة. عن أعمال كاباكوف - التي تعكس نوعا من العنف العصابي المفرط وسريالي في آن- تتصف بأجواء مميزة، أجنبية، يسهل - رغم هذا التعرف عليها. وهو يترك لخيال المتفرج مهمة إنجاز الحكايات التي لم تتم.

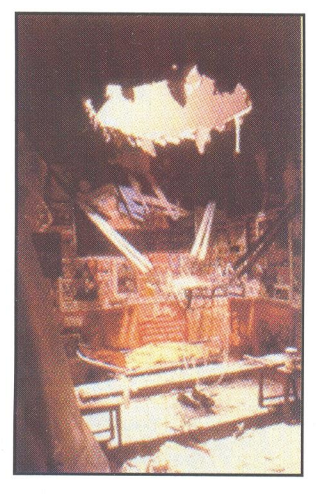
إن أعمال إيليا كاباكوف التركيبية الأجنبية - التي تعكس خوفا مرضيا من الأماكن المغلقة - يسهل التعرف عليها على الفور

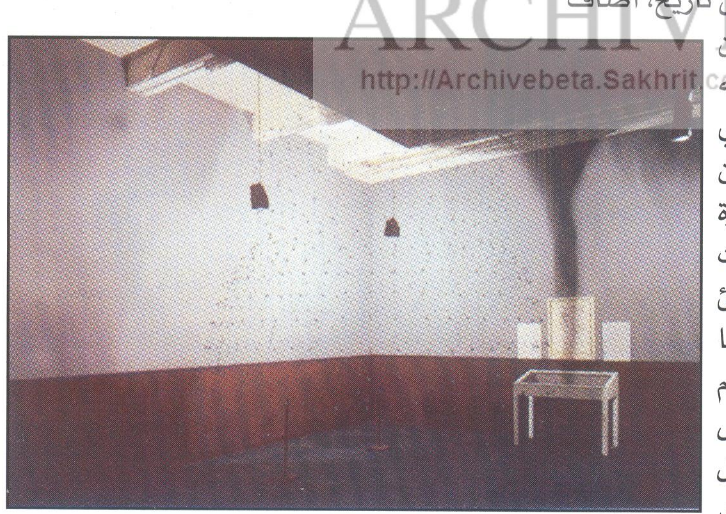
بقلم: آن ميدجيت*

وعندما يسلط كاباكوف الضوء على الجانب الخفي والحيوانات الخاصة بشخصياته، فإنه يتعامل مع تجاربه الخاصة. ففي السبعينيات والثمانينيات، كان عليه أن يحجب مظاهر من حياته الخاصة، الأعمال «السرية» التي انتقدت النظام السوفييتي. ولد الفنان في أوكرانيا لوالدين يهوديين نزحا إلى سمرقند خلال الحرب العالمية الثانية، وتخرج من أكاديمية سوريكوف للفنون في موسكو، وبدأ مستقبلا مهنيا شعبيا ناجحا كرسام للصور التوضيحية، وأخذ ينجز - في الوقت نفسه - رسومات عبثية ومجلدات توثق حياة وموت شخصيات خيالية. وباعتباره عضواً في المجموعة غير الرسمية المعروفة باسم رسوم «مدرسة المفهوم الموسكوفية»، كان يعلق على الثقافة السوفييتية، مستخدما لغتها البيروقراطية، فصنع لوحة - على سبيل المثال - لسلسلة من الشقق توارث أصحابها حمل القمامة من أحد المباني العمومية («جردل السوائل القذرة»، 1980).

وفي الثمانينيات، بدا الغرب يوجه اهتمامه إلى الفن السوفييتي، وتم دفع كاباكوف إلى مركز الضوء. فبدأ نشاطه في نيويورك، في قاعة رونالد فيلدمان عام 1988. وتتكون أول أعماله التركيبية الكبرى - «عشر شخصيات» - من فراغات تحتلها توقيعات شخصياته، ومنها عمله «الرجل الذي لم يلق بأي شيء بعيدا»، الذي يتناول التراكم القهري للنفايات، و«الرجل الذي طار في الفضاء من

* تكتب آن ميدجيت بانتظام عن الفنون في وول ستريت جورنال «و«نيويورك تايمز».





• في العمل المركب «حياة الذباب» (1992)، يختصر الفنان الحياة في الميلاد، التناسل، والموت.

منزله». فكل غرفة تمتلئ بشذا الشخصية التي تسكنها. ويصبح المتفرجون مشاركين ومتلصصين، بل مخبرين، يحاولون جمع ولصق العلامات الخاصة بهذه الحيوات. فعليهم - على سبيل المثال - أن يحاولوا فهم سبب الاختفاء الغامض لـ «الرجل الذي طار في الفضاء» وترك أثر مقلاع بالحجم البشري وثقبا بحواف مسننة في سقفه، كدليل على مسار قذيفته. وثمة أيضا إشارة خفية من حياة المؤلف في شخصيات كاباكوف، الذي ترك أيضا الاتحاد السوفييتي فجأة عام 1989، ولم يعد إليه أبدا.

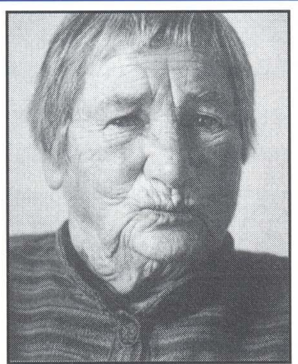
واليوم، يعيش كاباكوف ويعمل في نيويورك. ولأن الاتحاد السوفييتي تحول إلى تاريخ، أضاف إلى ديباجته ملحقا يتضمن انتقادات عامة للمجتمع. وعمله الأخير - «قصر المشروعات»، الذي أنجزه مع زوجته إميليا - يتكون أيضا من رسومات زخرفية صغيرة تصور ملامح الشخصيات الخيالية. لكن - هنا - كل امرئ معني لا بماضيه الخاص، وإنما بالوسائل اللامركزية في تقدم العالم، التي يدعى المتفرجون إلى اختبارها خلال تفقدهم للعمل المركب. وإذا كانت أعماله قد اعتبرت - ذات يوم - نوافذ على الاتحاد السوفييتي، فإنها تبدو الآن نوافذ على عالم كاباكوف الشخصي، مكانا يعكس الخوف المرضي من الأماكن المغلقة ويمتلئ بالاضطرابات العصابية والشعور الجارف بالحنين إلى الماضي.

صوت الصمت

تذكرنا آنييس مارتان بالقدرات التعبيرية للوسائل المحدودة (ظاهريا).

بقلم: فرانسين بروز*

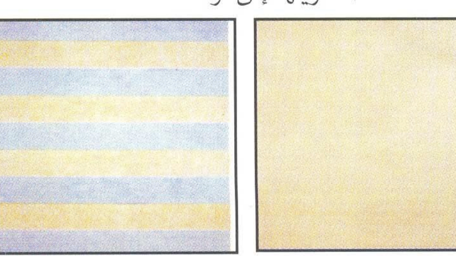
إن استخدام عبارتي «الحد الأدنى» أو «معبر عنه بصورة مخففة الوطأة»، للإشارة إلى لوحات آنييس مارتان المضيئة، المهيبة والجميلة على نحو جوهري وعميق، يبدو استخداما مخففا للواقع، ويستند إلى معلومات غير دقيقة تثير الضحك. هادئة، تكاد حساسيتها لا تتأثر بالنفوذ الخارجي، يواجهنا عملها - بالأحرى - بصوت عال بما هو جوهري، ننشعر بدهشة كاملة إزاء إنجازات اللون والكنغاس، معجزة تتعلق بما يمكن الكشف عنه، وإلى أي حد يمكن نقل الكثافة بما هو محدود (ظاهريا). وإن الشرائط التي تطفو بعرض سطح لوحاتها تستولي على الضوء، ليشع من جديد نحونا، فيتحول خلال هذه العملية، لنشعر أننا تعلمنا شيئا جديدا ودالا عن طبيعة الضوء.



إن الادعاء بأن عملها تأملي وتوسطي فشل في إدراك الكيمياء الحاذقة لعملها، المتواضع بعمق والجاد إلى حد بعيد، الهادئ والمليء بالحيوية، الذي يفتقر تماما إلى الاستغراق الذاتي الذي يمكنه أن يجعلنا نشعر بالضيق، أو الملل، إزاء أعمال مارك روتكو، الذي تقارن به أحيانا. لا شيء يوحي في لوحاتها بأنها وجدت الذات أكثر إثارة أو أكثر جاذبية من العالم. فطبيعتها الغريبة، المترددة والمتناقضة ظاهريا، توحي - من خلال تبسيط أو إلغاء مظاهر العالم الخارجي وشركه، (مثلما تفعل الأديان التأملية والصوفية) - بإمكانية أن تخبرنا بشيء مهم عن العالم، وكيف تم إعدادنا لسكناه.

ولدت مارتين في كولومبيا البريطانية عام 1912، وقضت الأعوام الثلاثين الأخيرة في «تاوس»، في نيو مكسيكو. وإذا زعمنا أنها واصلت مسيرتها الخاصة، وسارت في طريقها غير متأثرة - ظاهريا - بالبدع والموضات التي صاغت الفن في منتصف القرن خلال إنتاجها للوحات، فسيعني ذلك إغفال حقيقة أن كل سلسلة، وكل لوحة تبدو كأنها تعكس إلهاما فريدا، وضرورة متفردة، تصيبنا على نحو ملح، لأنها هادئة وساكنة للغاية. وإذا قلنا إن عملها يمنحنا - بسخاء - شيئا مثل المذاق المباشر - وإن كان بشكل جزئي - لما يصفه المخلصون بالشيء الذي يحصلون عليه من الممارسة - التي أثبتت صحتها - للبوذية، فلن يكون ذلك إلا خدعة، لأن عملها يتطلب القليل جدا منا، ويمنحنا الكثير. وبسبب عمقه الفكري والروحي الكبير، يصلنا غير مثقل بالأفكار الذهنية.

والحق أن صعوبة الحديث المحكم أو الحقيقي عن فن آنييس - أو أن نصف - بشكل موجز - لماذا يبهجنا ويهز مشاعرنا إلى هذا الحد، تجعلنا نتذكر أحد الأسباب التي تجعل الرسامين يصنعون فنا في المقام الأول: خلق نوع من الجمال، والتعبير عن تلك الأشياء التي - إذا أمكن شرحها أو اختصارها في كلمات - قد لا تستحق - ببساطة - عناء تحويلها إلى لوحة.



إن عمل مارتين الهادئ والمحكم تقريبا في حساسيته، يواجهنا بالأحرى بصوت عال. هنا «بلا عنوان رقم 25»، 1995 (يسارا)، و«نهر اللبن»، 1963.

---

* **تكتب فرانسين بروز عن الفنون في «وول ستريت جورنال»، وسينشر هابير كوليتر روايتها الجديدة «ملاك أزرق» في شهر أبريل المقبل.**

الجانب الهزلي من الهاوية

يواجهنا بروس نومان بالدعابة والهلع

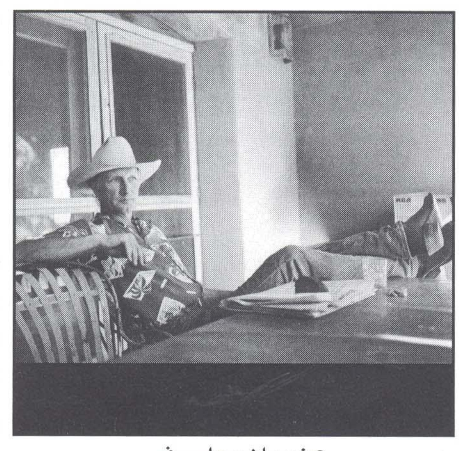
بقلم: فرانسين بروز

إن أعمال بروس نومان - المخربة والمزعجة، والمرحة للغاية غالبا - تقع وعلى نحو جسور، على الحافة المعترف بها عالميا ولا يمكن معرفتها عموما، أي تلك التي تقع بين ما هو غير جاد على نحو رفيع والعدواني بجنون. ففنه غير مروض ولا مهذب أبدا: فهو يشخر فينا، ويتأوه ويعوي، ويصنع أصواتا وقحة ومكدرة. والذهاب إلى معرض له هو استعادة لخطر إثارة البقاء حيا مع أكثر الأولاد ابتكارا وإبداعا وسحرا في المجموعة، ذلك الذي بطبيعة الحال - نشأ ليصبح مجرما أو معتوها.

إن نومان، المولود عام 1941 في «فورت وين» في إنديانا، يعيش ويعمل في جاليستيو، نيو مكسيكو. وحتى من هم مثلنا، من يسكنون مدنا تجثم على حواف القارة، يذكرهم فن نومان بما يعنيه أن تكون أمريكيا وتعيش (حتى على نحو خيالي فحسب)، بين المناظر الطبيعية الأمريكية العظيمة. فأشياؤه الوامضة المصنوعة من النيون، تستحضر الوحدة، والتهديد الغامض، والبهجات اللامعة والمتعددة الألوان لشارع بأشجار جرداء - على سبيل المثال - في أطراف توسكون أو فوينيكس. وعمل مثل «تحية مهرج معتدل»، حيث تحدد أنابيب نيون مرتعشة الخطوط الخارجية لمهرجين يتعاركان، ينقل هذا الشارع العمومي التجاري إلى عالم آخر، لا شيء فيه للترويج ولا للبيع، غير مزاج طفولي عبثي وعنف مراهق أحمق. وفي مجموعة الأعمال التي تستخدم تماثيل الأحصنة - مثلما في «كرنفال» - نجد مجموعة من الحيوانات تزحف في دائرة نحو موسيقى صاخبة لا تحتمل، تصدر فيما يبدو من شبكة معدنية، فتبعث على الفور أسطورة راعي البقر، والأمكنة الرحبة المفتوحة، ونواجه بالواقع القبيح الخاص بما أصبحت عليه هذه الأساطير.

وعندما يظهر مهرج في عمل لنومان - مثلما في العمل اللامع على نحو خاص لعام 1987 «عذاب مهرج»، وهو فيلم فيديو عن شخص يقرأ في المرحاض، ويعبر عن حالة بكاء غير منطقية وحنق، يشعر به طفل ملتاع ويشعر بالمعاناة - فهو يستدعي استجاباتنا للمهرجين في طفولتنا: لا تلك الخاصة بالتسلية المضحكة التي يفترض الشعور بها، وإنما هذا الرعب الذي يدفعنا إلى الركض بعيدا عن السيرك. وفضلا عن ذلك، فنحن مجبرون على الاعتراف بما نملكه من شيء مشترك مع المهرج - وهو ربما ما يثير الرعب فينا إلى هذا الحد من السوء في المقام الأول.

وقد قارن الناقد مارك ستيفنس بروس نومان بصمويل بيكيت، والمضاهاة ملائمة. فكلاهما يتعامل مع العبث والبصيرة، وكلاهما يوحيان إلينا باختلاس النظر إلى الجانب المضيء (أو على الأقل الجانب الهزلي) من الهاوية. ومثل بيكيت، يواجهنا نومان بالدعابة والهلع، والمعلومة التي نقتسمها عما هو مهيب ولا يمكن تحديده، إلى حد أن أفضل وأشجع الفنانين - وحدهم - هم من سيجرؤون على قبول الاعتراف بما نعرفه بالفعل.



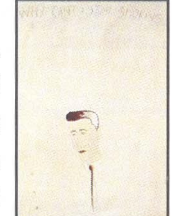
• نورمان يجلس في مزرعته في نيومكسيكو

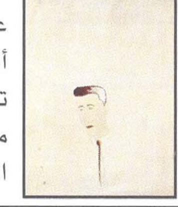
مع بولك تسير الأمور على نحو أفضل

خلال بداية ومنتصف الستينيات، عندما كان وارهول يصنع علب الـ «بريلو»، ويرسم لوحات لعلب حساء «كامبليز» المصنوعة من الصفيح، كان سيجمار بولك يؤسس في دوسيلدورف أكثر جبهات فن البوب شهوانية. لقد ظهر على الساحة بلوحات معوجة توثق مرحلة شهر العسل لبلاده التي يعيشها المستهلك السعيد في فترة ما بعد الحرب العالمية: الجوارب القصيرة، البسكويت الهش بالشيكولاتة، الأحواض البلاستيكية لغسيل الملابس وطيور الفلامينجو السوقية. إنها عروض صغيرة وبارعة، فالأشياء موجزة بمهارة، ورغم هذا واقعية إلى حد يكفي للتعبير عن صورة جامدة طبق الأصل. وهي أيضا معزولة بشكل معملي ووحشي، تطفو بشكل بائس فوق حقول رتيبة من اللون البيج، لتسخر من ألمانيا الجديدة المأمركة، بسيف السخرية الذي يذكرنا بالفنانين الساخرين من مقاطعة «ويمار»، جورج جروز وجون هيرتفيلد.

يسخر سيجمار بولك من ألمانيا الجديدة المأمركة، مستخدما سيف السخرية - ويخلط جماليات فن البوب بكل الأشياء الأخرى.

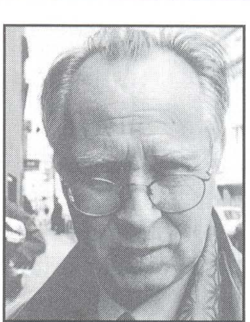
بقلم: روبرت كنافو*





أعلى: «لماذا لا أستطيع أن أكف ...ن التدخين؟»، 1964. أسفل: «...يجين ويجين»، 1992

وبالإضافة إلى ذلك، ومع تطور أسلوبه في تقنية التنقيط، وصوره الفوتوغرافية الإخبارية، على غرار ابتهالات من يشبه لي هارفيلد أوزوالد، سورفيور الثاني، وأرانب «البلاي بوي»، أضاف بولك إلى الأشياء الموسوعية التي يتناولها، لتشمل وسائل الإعلام الجديدة، والرسومات التوضيحية التجارية، وحتى الخيمياء.



• صاحب الأسلوب الفني الهجين: بولك في كولونيا.

إن بولك المجدد - 58 - عاما صاحب الأسلوب الهجين العظيم، قد صنع «رفاقا من قماش الكنفاس» غير مرغوب فيهم، باستخدام التجريد الإيمائي وغير البطولي - رمية نرد لجماليات دادا والسريالية. لقد فكك الحاجز الحداثي الراسخ الراكد بين التمثيل والتجريد، ومزج الخشنة بالرسم اليدوي التشخيصي، حيث نرى الستائر، والبرك، والسحب، خربشات وتغيرات حركية أخرى. وقد استمد لعمله عناصر من «فلوكسوس»(1) وفن المفهوم، وفن الحد الأدنى، والأعمال المركبة، ولكن - دائما - من خلال خليط مزدوج من السخرية والغزارة، وبهجة ماتيسية في اللون والتكوين.

وربما تمثلت علامة الجودة والأصالة - في المرحلة الأخيرة من حياة بولك المهنية - بالافتتان بالعلوم - مثلما لدى بوييز وكيفير - الذي يختلط بشامانية(2) المجذوب المقدس والمؤثر. وباسم دفع حدود التعبير التصويري إلى حدة الأقصى، بحث في عدة بدائل لوسيطي اللون والدعامة التقليديين، فصنع من أجل بينالي فينيسيا لعام 1989 لوحات من مساحات لونية تتأثر بالماء، فيتغير تدرجها اللوني طبعاً لمستوى الرطوبة المحيطة بها.

وقد شهد هذا العقد استمرار بولك في إثارة دهشتنا، بالألوان الحساسة للضوء والماء، ومساحات الطلاء الشفاف، وتجاربه في السحر والخيمياء، وحشد من تحديات أخرى إزاء الحدود الفاصلة للفن.

---

* روبرت كنافو كاتب وأمين متحف يعيش في نيويورك.

(1) اسم أطلقته حركة فنية دولية تأسست عام 1962، لتوحيد أعضاء ينتمون للجناح المتطرف من «الطليعة» في أوروبا ثم في أمريكا. ولم تكن للمجموعة هوية أسلوبية محددة، لكن نشاطاتها تشابهات في مظاهرها مع الدادائية.

(2) دين بدائي من أديان شمال آسيا وأوروبا، يتميز بالاعتقاد في وجود عالم محجوب، هو عالم الآلهة والشياطين وأرواح السلف.

التباس نهائي

يشوش جيرهارد ريشتير الوسائط، والأساليب، واللحظات المأخوذة من التاريخ، ليصيغ بيانات معاصرة لاذعة.

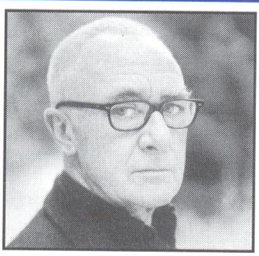
بقلم: آن ميدجيت

اعتنق جيرهارد ريشتير - 67 عاما - الأساليب الفنية المختلفة لبلاده وتاريخها الصاخب، في أعماله التي تتحدى التصنيف السهل، رغم تطورها إلى واحدة من أكثر أساليب التعبير المميزة - والاستفزازية - للفن الألماني المعاصر.

تلقى تدريبه في دريسدين، وعرك نظريات الواقعية الاشتراكية. كان قد غرق - فجأة - في عالم البوب - عندما انتقل إلى مدينة دوسيلدورف بألمانيا الغربية عام 1961. ومنذ ذلك الحين، تباينت التعريفات التي تخص أعماله - بوب، تصوير فوتوغرافي واقعي، تشخيصي وتجريدي - ظل استخدام الفنان للصورة الفوتوغرافية ثابتا في كل مكان.

وتمتد الصورة الفوتوغرافية، المتحولة والملطخة بعدئذ بالطلاء، إلى جذور لوحاته الزيتية، لتثير التساؤلات حول أصولها الحقيقية. هل هي مستنسخات أم أعمال متفردة؟ من صنع الفنان أم أتى بها ببساطة؟ «أرسم من صورة فوتوغرافية كي لا تكون لي أية علاقة بفن التصوير الزيتي، الذي يجعل أي نوع من البيانات المعاصرة مستحيلة»، حسبما يقول ريشتير.

والمقصود من «البيانات المعاصرة» هو إظهار السمات الأخيرة - من تاريخ ألمانيا الحديث - التي ستوشك باقي البلاد على نسيانها. فعلى سبيل المثال، يعالج عمله «العم رودي» (عام 1965)، لقطة مأخوذة من ألبوم عائلي لجندي في زي «ويرماشت» الموحد، الذي هو - بلاشك - من الأقارب غير المرغوب فيهم لكثير من الألمان. ونرى في سلسلة «ستامهيم - زيكلوس» لعام 1989، أعضاء من فصيلة الجيش الأحمر، تلك المجموعة التي وضعت ألمانيا - قسرا - في العناوين الدولية الرئيسية عام 1977. وفي أواخر السبعينيات. بدأ ريشتير - على نحو مغاير - في سلسلتين من الأعمال غير التشخيصية «لوحات رمادية» و«لوحات تجريدية»، ليتجنب الانتساب إلى أسلوب واحد.



• تباينت التعريفات التي أطلقت على أعمال الفنان الألماني جيرهارد ريشتير: فنان بوب، مصور فوتوغرافي واقعي، تشخيصي وتجريدي.



• العم رودي، 1965

وإن جمال لون سطح لوحاته، وسهولة تناول اللقطة أو الصور الإخبارية، اللذين ميزا الكثير من أفضل أعماله، ساعدت ريشتير في التعرف عليه - في كل سماته - في أنحاء العالم. لكن أشهر أعماله حاليا ليس لوحة على وجه الإطلاق. فسلسلة «أطلس» المتطورة، التي بدأ العمل فيها عام 1966، تضم مجموعة من الصور التي عثر عليها، بدءا بالمناظر الطبيعية الملتقطة بالكاميرا «بولارويد»، إلى كراسات الإعلان وصور معسكرات الاعتقال. ويتميز العمل بالسلاسة، وبسهولة التعرف عليه دائما، حتى لو كل مرة يتم فيها تفسيره بشكل مختلف. وفي معرض «كومنتكا» لعام 1977، اعتبر من الأعمال القليلة التي نجحت في إثبات الانصهار الذي نشدته أمينة المتحف كاترين ديفيد - مكان للقاء الحرس القديم والفن المعاصر الجديد.



• «بنيات تجريدية»، 1999.

إنكار الذات

بقلم: بربارا بولاك

شيدت سنيدي شيرمان مرحلة مهنية على جسد من صور شخصية تصور أشخاصا آخرين.

منحت سيندي شيرمان وجها لما بعد الحداثة. وقد حازت الفنانة على الاهتمام منذ البداية - في أواخر السبعينيات - بعملها «لقطات من فيلم بلا عنوان»، وهي سلسلة من الصور الفوتوغرافية، مثلت فيها أدوارا متعددة من السينما الهوليوودية، فوقفت في وضع الفتاة الساذجة، وممثلة ناشئة تدعي الشهرة، فتاة أوتوستوب، ضحية القاتل وأدوار أخرى.

وفتن المشروع أمناء متاحف ونقادا معنيين ببحثها عن الذات، باعتبارها بناء لوسائل الإعلام. والصور نفسها - التي هي إعادة خلق متقنة للقطات بالأبيض والأسود - تتحدى التوقعات التقليدية عن تصوير الذات. فالمرأة في الصورة هي كل امرأة، نتاج تقاليد في التصوير الفوتوغرافي والقوالب الذكورية، لا صورة مرسومة للفنانة سيندي شيرمان.

ومنذ ذلك الوقت، واصلت شيرمان البحث في أنواع الصورة الشخصية والصورة الفوتوغرافية، وهي تناوب التأثيرات المختلفة، كتأثير لوحات الأساتذة، وضربات فرشاة المدرسة الوحشية. وتلجأ الفنانة إلى التنكر، والشعر المصطنع، والحيل الترميمية، لتغير من مظهرها في كل صورة. وكثيرا ما جرت المقارنة بين هذه الاستراتيجية الجمالية باستراتيجية نجمة البوب مادونا المتقلبة كالحرباء، وهي جامعة تحف شرهة لأعمال شيرمان. لكن، بينما تكمن موهبة مادونا الرئيسية في تعزيز الذات، تخضع شيرمان شخصياتها للتكوين النهائي. فهي تقدم نفسها كعالم من خيال أبدي - لا سبيل إلى معرفته وغائب على نحو أساسي، خارج العمل الفني.

وفي التسعينيات، تشعب نشاط شيرمان - الآن في الخامسة والأربعين - نحو نشاطات متعددة وبنجاحات متفاوتة. فخاضت تجربة الإخراج السينمائي في «قاتل بالأجر»، وهو من أفلام الرعب، ووزع بشكل محدود، وأثار انتباه عدد ضئيل من خارج الدوائر الفنية، حيث رأى بعض النقاد أنه يعكس تأليهاً مباشراً للكلاسيكية. وفي معرضها الأخير بقاعة «مترو بيكتير» في نيويورك، استخدمت شيرمان عرائس باربي وأشكالا متحركة، لتؤدي مشاهد عنف غريبة وبشعة.

وظلت مكانة شيرمان مرموقة. وفي عام 1997، اشترى متحف نيويورك للفن

الحديث مجموعة كاملة من «لقطات في فيلم بلا عنوان»، 69 صورة بمليون دولار. وقتئذ، وصف بيتر جالاس رئيس أمناء قسم التصوير الفوتوغرافي بالمتحف السلسلة بأنها «عمل فارق في مجموعه»، فيما يتعلق شروط التصوير الفوتوغرافي والتقاليد الفنية على نحو أرحب. ويلاحظ جالاسي أن «السلسلة مشحونة بالأصالة، وخفة الظل والذكاء، إلى حد أن قوتها، بعد قرابة عقدين، لا تزال مفعمة بالحيوية، ومعناها لا يزال مثار نزاع».



• «بلا عنوان»، 1990، «لقطة من فيلم بلا عنوان» رقم 56، 1977.

ذكاء مصطنع

يدمج جيف وول الصور الفوتوغرافية بالخيال، مستخدماً لوحات تمتد جذور إخراجها إلى نوع من التصوير الزيتي.

بقلم: جوستين سبرينج*

استخدم جيف وول التكنولوجيا المستعارة من الإعلان، والكمبيوتر، والفن السينمائي، وتاريخ الفن، ليطور أسلوبا معاصرا فريدا في التصور القائم على السرد.

وتعود شهرة الفنان البالغ الثالثة والخمسين - الذي تدرب في معهد كورتولد بلندن - إلى استخدامه المبتكر لصندوق الضوء، (الأكثر انتشارا في إضاءة الإعلانات في جراج الأوتوبيسات والإعلانات الخشبية)، فأبدع صورا ضخمة للغاية، تضاء من الخلف، وتتميز بوضوحها الاستثنائي، وبذبذباتها وألوانها المماثلة (التي تشبه الجواهر).

ويرتبط عمل الفنان - إلى حد بعيد - من ناحية الأسلوب والموضوع في آن، بالأسلوب التقليدي في التصوير الزيتي، فهو يعرض مشاهد من الحياة اليومية يتم إخراجها بطريقة مسرحية وواقعية. لكن موضوعات وأدوات وول تنتمي للحاضر إلى حد بعيد. فهو يخرج - على سبيل المثال - مشاهد من الشارع في ضواحي مدينته السكنية فانكوفر. ولأنه يمزج بقوة بين التقليدي والجديد، يقدم لنا أداء دراميا لمرممين يعملون في أحد المتاحف.

وأخيراً، اتجه وول إلى الصورة المعالجة بالطريقة الرقمية، التي تمكنه من تكوين صورة بالأسلوب الذي يشكل به لوحة، فهو لم يعد يعتمد - منذ فترة بعيدة، على وجه الحصر - على إخراج المشهد لينجز مؤثراته. ففي «عصف ريح مفاجئ (على غرار هوكوزاي)» (1993)، على سبيل المثال، يصور مشهداً طبيعياً تعصف به الريح. ومن خلال التلاعب الرقمي، يجمع وول الشخصيات - المنتخبة من مصادر متفرقة - في لوحة بلا خطوط لحام. وهو يحتاج إلى أكثر من عام لإنجاز هذا العمل.

وتتناول بعض صور وول بعض القضايا الجادة مثل العنصرية، النزعة الجنسية، وتدمير الإنسان للطبيعة، لكن معالجته غالبا ما تبدو مثقلة بالسخرية. لكن ما يبحث عنه على نحو جاد في كل أعماله هو - من ناحية أخرى - أعلى مستوى من المعالجة التي يصبح فيها

---

* سيصدر كتاب جوستين سبرينج عن سيرة حياة «فيرفيلد بولتير: حياة في الفن» في يناير 2000 عن مطبوعات جامعة يال.

الاصطناع ضرورة لتكوين الصورة السردية. فالسرد هو، رغم كل شيء، خيال واختلاق. وإن إدارة وول للمشهد - الذي يتميز بانعدام الطبيعية بشكل حاد (الذي وصفه أكثر النقاد حماسا له بـ «رديء»، «ساخر» و«بارد») - يعود إلى قرار واع، لمن تعمد إثبات عدم واقعية عمله الإرادية والإدراكية، على نحو جوهري.

بلغ وول - المولود عام 1946 - سن الرشد فنيا في أواخر السبعينيات، في فترة اعتبر فيها السرد والتشخيص - بشكل عام - طرازا باليا بين الطليعيين. وقد أثار ضيق وول تمثل فن البوب لصورة الإنتاج الضخم واحتفاله بالفن - باعتباره - منتجا، واعتبر عمله وثيق الصلة بالمدرسة الإدراكية. فعندما يمسك بالكاميرا، يرفض التقاليد الفوتوغرافية للقرن العشرين التي لخصها كارتييه بريسون. فبينما يهدف كارتييه بريسون إلى التحقيق الصحفي البارع، ويسعى إلى التقاط الحياة الحقيقية «في اللحظة الملائمة»، لا يلتقط وول صوره من الحياة، وإنما من الخيال، مستخدما الممثلين، المناظر الخلفية، والمؤثرات الخاصة ليحقق نتائجه. لذا، تفتقر صوره إلى الواقع، وتفتقد التوجه، والتقمص الوجداني لسابقيه، وهذا هو المقصود: فصور وول ليست تحقيقا صحفيا، وإنما شكلا خياليا - فن يلعب بالناس، والنتائج والأفكار، لكنه - أولا وقبل كل شيء - فن، متألق وساحر، عن الفن.





● (في الأعلى) صورة وول «حليب»، عام 1984، صورة الفنان الشخصية، و«عصف ريح مفاجئ» (على غرار هوكوساي)، 1993.



"إبسن" الرائد

بقلم: ستللا آدلر

ترجمة: خالد الفيشاوي

قال «جاكوب آدلر»: إذا لم تمنح المشاهدين ما يجعلهم أعظم وأرقى فلا تمثل. لا تدخل المسرح، إذا لم تستطع إبداع شيء ما أعظم وأفضل، فلا جدوى من الصعود إلى خشبة المسرح والثرثرة عليها. عندي مقولة قالها آبائي - والحق أن من قالها هو أبي - قال: «أدِّ لهم المسرحية بشكل أفضل، وإلا، لماذا جاؤوا إلى هنا؟».

ليس هذا درساً في «الدراما»، إنه درس في فتح المجال فسيحا أمامك لتتفهم موقعك أكثر ككائن إنساني، فلا يقودك الكتاب المقدس أو أي شيء آخر، بل حقائق الحياة الحديثة كما يقدمها لك الكتّاب النابغون في المسرح، الذين يجعلونك تدخل إلى عالم هائل. هذا هو السبب في وجودك هنا، ولا سبيل آخر للتطور إلا من خلال شكل فني راهن. منذ بضع مئات قليلة من السنين، ربما كانت العقيدة تستطيع فعل ذلك. لكن اليوم، الفن وحده هو الشكل القادر على مد البشر إلى حد بعيد بما يتناسب مع إمكاناتهم في النمو والتطور وفهم أنفسهم وحياتهم حتى النهاية، نحن هنا كي نصل إلى ذلك.

العنوان الأصلي للمقال: Ibsen The Pioneer ونشرفي مجلة The Yale Review عدد أبريل 1999.

مراجعة: د. إبراهيم البجلاتي

هناك وجهان للمسرح: ينتمي أحدهما للمؤلف، بينما ينتمي الآخر للممثلين. يعتقد الممثلون أن المسرح ينتمي بكل أوجهه وسماته للمؤلف، وأن الوجه الذي ينتسب للممثلين إما يعرفون عنه القليل أو لا يعرفون عنه شيئا على الإطلاق. ويتزايد خطؤهم لدرجة أنك لا تعطي للممثلين دورا إضافيا، بسبب أنهم لا يعرفون ما هو الشيء الذي يساهمون به. سترفع الستائر وسيعرف الجميع الحدود الفاصلة.

لكنها لا تكفي.

إذا كان «أداء النص على المسرح» هو مهنتك، فمن أكون؟. «أنا مؤدي النص المكتوب على المسرح»، هذا أفضل كثيرا من قول «أنا ممثل». لأنك إذا لم تستطع أداء النص على المسرح فأنت لست بممثل. الهدف كله هو أداء النص على المسرح. حين يؤدي كاتب المسرحية عمله كمؤلف للنص، حينذاك ينتهي دوره هنا، وتظهر أنت، وتقول: «حسنا، لقد كتب المسرحية، سوف آخذها منه وأقول كلماته»، لكن هذا ليس أداء للنص على المسرح.

أداء النص على المسرح يعني أنني أنطلق لاستكشاف كاتب المسرحية في داخلي. فأنا لن أقدم «إبسن» إذا كانت المسرحية لـ «تشيكوف». ولن أسعى وراء «ستريندبرج» إذا كانت المسرحية لـ «شاو». ولن أعمل على تقديم «أوديتس» إذا كانت المسرحية لـ «ويلدر». هكذا يكون عمل مؤدي النص المسرحي.

قال فلاديمير هوروفتش ذات مرة أن عازفي البيانو الأمريكيين لا يعزفون البيانو، لكنهم يعزفون براعتهم وأسلوبهم الفني. هناك مشكلة مشابهة في المسرح: بدلا من استخدام وفرض أسلوبي على العمل، يجب علي استكشاف ما يريده مؤلف المسرحية. وكيف أثر كاتب المسرحية في باعتباري ممثلاً؟

في المسرحيات التي سبقت إبسن، دائما كان المرء يعرف من البطل الذي يمكنه أن يتمثل به. وكان من الصعب آنذاك عمل تراجيديا من دون البطل الذي يمثل الخير والوغد الذي يمثل الشر، لكن إبسن عمل شيئا مختلفا. فالمسرح المعاصر لم يبدأ إلا مع إبسن.

غيّر إبسن عالم الأدب. وأطلق عنان الدراما، التي كانت السبيل الأكثر فعالية لخلق التعبير الأدبي الذي وجد ليبقى. فقد كانت لحظة مناسبة لاكتشاف سبيل أكثر قوة، وكان إبسن أول من اكتشفه.

في وسعك أن تفهم ما أنجزه إبسن. إذا ما أدركت أنه لم يوجد كاتب ذو شأن من بعد إبسن لم يستخدم إحساسه بحرفية المسرح وقدرته على تحليل الشخصية الإنسانية. فالشخصية الإنسانية هي ما تجده في مسرحيات إبسن.

نحن في خطر، جميعنا، وسوف أدلل لك بمثال لماذا نحن في خطر: عرفت صحفيا منذ سنوات، كان صحفياً جيداً. طاف حول العالم ودوّن ما شاهده ووصل إلى نتائج عديدة. وقال: «باريس هذه، ولندن تلك، أما اليونان فهي تساوي يومين». فقد شعر أن يومين فقط كانا كافيين له كي يفهم اليونان.

ما يوحي به ذلك التعبير هو أن أسس ثقافتنا الغربية الراهنة، وكذلك القوى البشرية التي تحترف العمل الثقافي في الغرب في الوقت الراهن، تنتمي جميعها للطبقة الوسطى. الطبقة الوسطى تطلق التصريحات، ولكنها لا تفقه شيئا. أنا وأنتم من أبناء الطبقة الوسطى وعلينا أن نفكر في أنفسنا باعتبارنا من أبناء الطبقة

الوسطى. نحن ممثلين وصحفيين وسباكين ولحادين من أبناء الطبقة الوسطى.

بالنسبة لك، فإن هنريك إبسن هو اليونان. وقد يكون عالم إبسن أيضا هو اليونان، بالنسبة لكل ما تعرفه. إنه العالم الذي ولد فيه المسرح الحديث. وأنتج شكلا ظل باقيا فترة أطول من المسرح الإليزيبثي أو المسرح المرتبط بعصر عودة الملكية أو أي شكل آخر من أشكال المسرح. فنمط المسرح الإليزيبثي بقي من40إلى 50عاما، ليس أكثر. بينما الأنماط الأخرى إما تغيرت أو اندثرت بشكل أسرع، إلا أن صيغة إبسن هي الصيغة الوحيدة التي بقيت مستمرة لأكثر من قرن.

اقتبس إبداع المسرح الحديث روح إبسن. واستمرت صيغته، تعرض ويعاد عرضها بأساليب مبدعة مذهلة في عمقها. سيدهشك ما يستوحونه من إبسن. فكل مسرحية من بعده أصبحت متأثرة به. واستوعبه تماما كل من ميللر، وأوديتس، وإنج، وأونيل، وويليامز، وشو. ولا تستطيع أنت الهرب من تأثيره، فمتى بدأت درسا في التأليف المسرحي الحديث، ستجد أنك تبدأ من إبسن لأنه اللبنة الأولى للمسرح الحديث، ومخصب البيضة. تماما مثل موزار في الموسيقى، ومشواره الطويل في التأليف الموسيقي الذي امتلك روحا قادرة على التطور دوما، قدمت ويعاد تقديمها بشكل مبدع وبآلاف الطرق والأساليب.

كان إبسن هو الرائد المستكشف. وإذا كانت كلمة رائد أو مستكشف تعني لمسامعنا أنه ذلك الشخص الذي امتطى عربة مغطاة وولى وجهه شطر الغرب. أنا أعتقد أن هذه الكلمة قد تكون خاطئة أو غير معبرة، وبالتالي سأستبدلها بالقول: «إبسن كان ثوريا، فوضويا، عدميا. يحطم كل شيء كي يبلغ ما أراد أن يقوله. فما هو الشيء الذي أراد أن يقوله؟ أراد أن يقول الحقيقة كما شهدها». كانت الحقيقة عصية على الاستكشاف لأنه حتى ظهور إبسن كانت الأشكال المسرحية رومانتيكية، ميلودرامية. كما صادفت الحقيقة أشياء كثيرة أيضا على طول الطريق.

ماذا كان يريد إبسن؟ أولا وقبل كل شيء، أراد المشاهدون. لكن، من هم مشاهدو إبسن؟

كان إبسن رائدا ومبتكرا من نواحي كثيرة، ولكن قبل كل شيء، لأنه كتب لطبقة محددة - الطبقة الوسطى - التي خلفتها مؤسسات الزواج، والكنيسة، والحياة المدنية، والقانون.

عبّر إبسن عن الطبقة الوسطى وعن نبلها، وكان يعتقد أنه من المهم أن يعظم من شأن الطبقة الوسطى ويرفع من قدرها، ولكن كان من الصعب عليه ابتداع شكل معاصر واكتشاف تعريف جديد للتراجيديا. بالنسبة لإبسن وللشكل الجديد الذي أراد ابتداعه، تنشأ التراجيديا من مسؤولية كل إنسان عن قدره ومصيره.

في مسرح إبسن، البطل في صراع مع المجتمع والمنظومة الأخلاقية التي يحيا في ظلها. بينما في المسرح اليوناني والإليزيبثي، فإن تعامل الإنسان مع الله ومع المجتمع مقدر سلفا ومحكوم بأقدار صارمة. إذا ما تجاوز إنسان قانونا، كانت الخطيئة. كان الهدف دائما الحفاظ على النظام. شعر إبسن أنه يجب على الكتاب المعاصرين إمعان النظر فيما بين الأشياء، وأن بصيرتهم لابد وأن تنفذ بعمق لرؤية الشخصيات في الوضع الإنساني المعاصر.

كتب إبسن عن الطبقة الوسطى ومن أجلها؛ لم يتحدث عن الطبقة العليا، أو الأرستقراطية، أو الملكية. الكاتب المسرحي يكتب عن زمانه، وإبسن كتب منذ 1860 وما بعدها. بالطبع، لم

يتأمل ويفكر بلغتك ولا بلغة نهاية القرن العشرين. فالطبقة الوسطى ظهرت قبل ذلك بفترة طويلة. وعليك أن تعرف ما إذا كانت هذه الطبقة الوسطى لعام 1860 أو الطبقة الوسطى لعام 1990، فهناك تغيرات كثيرة حدثت فيما بين 1860 و1990، واختلفت الطبقة الوسطى في الزمن السالف عن الزمن الراهن. فهي الطبقة الأعرض في العالم الغربي والتي يرتبط بها الواحد منا دوما.

كان لدى «إبسن» دافعان قويان. الأول، هو دافع الهروب من بيئات الطبقة الوسطى التقليدية والفاسدة وغير المنتجة التي تحيط به (رغم أنها البيئة التي كتب عنها). أما الدافع الثاني فكان من أجل الحرية - رغبته العارمة في الحياة وفقا لإرادته، وامتلاكه لذاته، وليس وفقا لإرادة الحكومة، أو الكنيسة، أو أية مؤسسات أخرى. كانت فكرته عن الحرية هي الحرية غير المفروضة بواسطة تصورات وأفكار الآخرين. ولفهم إبسن، لابد من أن نرسم صورة لحياته وكيف وهب نفسه للمسرح الحديث.

في بداية حياته، شعر إبسن بالتباين الطبقي باعتباره أمرا مروعا. كان ينتمي إلى أسرة عاملة فقيرة تماما، حيث كان الفتى ينتمي إلى البيروقراطية وعالم المال والأعمال. حينما يتحدث إبسن عن الطبقة الوسطى، فهو يتحدث عن كيفية تحكم المؤسسات البيروقراطية في الحياة بقدر كبير. ويتحدث عن المال. فإذا ما تحدثت عن حصتها من المال، فسوف تعرف أنها الطبقة الوسطى.

غالبية مسرحياته لم تقع أحداثها في العاصمة بل حدثت في الضواحي، حيث أدرك إبسن محدودية الضواحي وفقرها وضعفها. في القرن التاسع عشر، لم تكن النرويج متقدمة صناعيا ولا تكنولوجيا ولا ثقافيا. فكانت تتخلف عن البلدان الأوروبية الأخرى في التعليم والآداب. وحتى عام 1950، كانت النرويج نوعا من المستعمرات، تعتمد على السويد في كل شيء.

وقف إبسن ضد فكرة المدن النرويجية الصغيرة: أقل من ثلاثين ألف نسمة في العاصمة، وأقل من عشرة آلاف نسمة في أية مدينة أخرى. كان إبسن فنانا مبدعاً وناقدا فنيا. أدار وقاد مسرحا صغيرا لسنوات طويلة، كان مسؤولا خلالها عن كل شيء حتى تصميم الأزياء إلى آخر زر فيها. وبدأ كتابة المسرحيات وحين كانت المسارح لا تقدم سوى المسرحيات «التجارية» من ألمانيا وفرنسا. كانت النرويج مقفلة وضيقة إلى حد رهيب، ولذلك قضى ما لا يقل عن سبعة وعشرين عاما من حياته في الخارج - لكنه لم يكتب فيها إلا عن الطبقة الوسطى النرويجية.

استحقت الطبقة الوسطى إبسن، لكنها لم تكن مستعدة له. فقد كانت طبقة في حاجة إلى تحليل وكشف كل مساوماتها وتدميرها لذاتها لكنها لم تكن ترغب في ذلك. ولم يكن إبسن يؤمن بالصياغات التي ابتدعتها الطبقة الوسطى سواء للحب أو للصداقة. وسخر من حرص المجتمع على عدم الرغبة في البحث وراء خيانة العهد والالتزام الأخلاقي. وكانت المرة الأولى التي تحدثت فيه شخصيات عما بداخلها، وباحت بما في ذاتها. ومضى قدما إلى ما يعتقد في ضرورة القيام به لمواجهة استمرار الطبقة الوسطى في المضي قدما نحو التردي.

كان رد الفعل عنيفا وقاسيا. فجمهور الطبقة الوسطى الذي شاهد مسرح إبسن، قال: «إنه

مسرح يفتح مياه المراحيض». وأسماه الناس بالفحش العام. حين تتعامل مع إبسن، فأنت تتعامل مع ما تعتبره الطبقة الوسطى غير محتشم وبذيئاً، ومثيراً للاشمئزاز، ومريضاً، وفاقداً للبراعة والخبرة، ومسمماً. كان الانتقاد الموجه لإبسن في صحف الطبقة الوسطى صاخبا. لكن جانبا من أبناء الطبقة الوسطى الذين شاهدوا المسرحية قالوا: «حقا، إن الأمر كذلك. نحن في ورطة. بعض الحقيقة عن حياتنا تتكشف لنا». انقسم الرأي العام وسوف تنقسم أنت على نفسك، وهذا بعض مما كان إبسن يريده. وحينما تستشيرك الأفكار، فأنت في مدرسة جديدة للتأليف المسرحي ـ وأنت متورط في هجوم من الأفكار القوية والفعالة والصحية والعنيفة. سخر إبسن مما تعتبره الطبقة الوسطى جديرا بالاحترام. فشن هجوما على مؤسسة الزواج. وتشكك بحدة في الأفكار السائدة عن الأسرة والصداقة، وقال إن كل شيء مطروح للنقاش.

كان رد الفعل السائد للطبقة الوسطى، أن قالوا: «لا تشن هجوما عليها». «حقا، أنا لا أحب زوجي. دعه وشأنه.. إنه زوجي». هجوم إبسن على القيم أثار الناس بشدة لأن شخصياته المسرحية ومشاهديه كانوا من النوعية نفسها من البشر. كما أن هذه الثورة لم تكن بسبب أن المستمعين لم يفهموا ما أراد أن يقوله إبسن، بل لأنهم لم يرغبوا في الفهم. وتمسك إبسن بقوله «أنت تفهم ـ توقف تماما عن الادعاء بأنك لا تفهم».

ظل إبسن منسيا ومهملا طيلة أربعين عاما، حتى في بريطانيا. بريطانيا الخبيرة في فهم الكلمات والآداب، لم تلتفت إليه على الإطلاق. بل قالوا عنه «إنه منحط وفاسد». وصنفوه في زمرة المخربين لأنهم كانوا نقادا وأدباء ينتمون فكريا للطبقة الوسطى. وقالوا أيضا: «دعوه وحده، نحن لا نريد مسرحه هذا، بل نريد شيئا مريحا». «لكن إبسن ظل يمنحهم مسرحا مزعجا ومثيرا».

ستجد في إنجلترا تمسكا بالسلوك الطبقي أكثر كثيرا مما قد تجد في أمريكا. فهنا نحن نتحدث بصعوبة عمّن نكون، لأننا مازلنا لا نعرف حقيقة من نكون. لكن إذا ما تأملت الأوروبيين تعرف أن سلوكياتهم ستكون على نفس ما كانت عليه منذ مائة عام. فالرجل سوف يقبل يدك أو يتصرف بالطريقة نفسها سواء كان سويسريا، أو روسيا، أو هولنديا. يتصرف وفقا للتقاليد لأنه لا يتخلى بسهولة عن النظام الطبقي. أما نحن فنتخلى عنه لأننا لا نثق في أن لدينا نظاما طبقيا.

إذا ما حدثتك عن أسرة، قام العم فيها بقتل شقيقه وتزوج من زوجة شقيقه، فيكون من الواجب عليك أن تصحح ما أقول لتؤكد أنه من غير الممكن أن يحدث ذلك في أسرة نموذجية تنتمي للطبقة الوسطى. هذا جميل، لكنك لا تنتسب إليها على الإطلاق، فأنت تنتمي إلى محام أو طبيب يمتلك منزلا ولا تنتسب إلى مدينة إلسينور والأمير «هاملت» الذي كان يمتلك الدنمارك.

كتب إبسن عن طبقة تنتمي للقرن التاسع عشر. أدرك المشاهدون مشكلات الشخصيات، فهم ـ منذ اللحظة الأولى ـ أناس لهم المقاصد والأهداف نفسها التي لدى من يحيا الحياة نفسها. ولم يكونوا على الإطلاق أناساً ذوي أوضاع خاصة. يشبهون المشاهدين، والمشاهدون

يشبهونهم. وتنتمي مشكلاتهم للمجتمع ـ وبالتالي للمشاهدين.

لا تستحق الطبقة الوسطى إلا الضرب عل كل مسرح أبدعته. شرح إبسن الطبقة الوسطى في كل عمل مسرحي ألفه، وكشف تلالا مختلفة من الإشكاليات. لم يكتف إبسن بانتقاد الطبقة الوسطى، لكنه أبادها. وببساطة قال إن الطبقة الوسطى ليست صادقة ولا مؤمنة بما تفعل للجنس البشري. إبسن هو الشخص الذي جعلنا ندرك أننا كنا ننزل إلى كل مستنقع في العالم لتجفيفه، لكن المستنقعات استمرت بفضل البنية المؤسساتية للطبقة الوسطى ـ سياسات الطبقة الوسطى، دينها، أخلاقها، حياتها العائلية، اقتصاداتها. ونحن محاطون بكل هذه المؤسسات أو بجزء منها.

عارضت الطبقة الوسطى هذا التحليل، ومازالت تعارضه. سوف تصعقك بعض الحقائق التي ظهرت حتى ولو كنت تعيش منذ مائة سنة. من الممتع أن ترى كيف أصبحت أنت. وما حدث ليجعلك على هذا النحو؟

يجب عليك أن تحترم أباك وأمك. يجب أن تحب أخاك. لابد أن تحبي زوجك. ولابد أن تحب زوجتك. ويقول إبسن إن كل هذا غير محسوس. فأنت لا تملكين أن تحبي زوجك ولا أن تحبي أمك، ولا أمك تملك أن تحبك. إنها ليست فكرتك الخاصة؛ لقد هزمت هزيمة ساحقة. هاجم إبسن كل المؤسسات التي نالت هزيمة ساحقة أو تلك المؤسسات التي في ذروتها.

أعتقد أننا لن نتغير في ألف سنة. أردت الانفصال، لكنني لم أجرؤ على الانفصال حتى بعد موت أمي. هي انفصلت لكنني لم أستطع، للأسف لم أستطع. نحن لسنا أحرارا على نحو ما نعتقد. يجبرك إبسن على إعادة التفكير في كل مظاهر حياتك ـ الجنس، الكنيسة، الفضيلة، المال. وقال إنها جميعها كانت تبدو مثالية. أناس كثيرون جدا كانوا يسلمون بمثاليات لا حصر لها. كالقول بأن «بلدي أحسن بلاد العالم». أو «أسرتي أحسن الأسر». «أنا أصدق رجل أعمال». سينقضي وقت طويل حتى تصبح شخصا أفكاره عن ذاته حقيقية وواقعية. لكن في النهاية، جعل إبسن من الممكن للناس أن يقولوا، أخيرا، «ربي، أنا واقع في شرك التفكير التقليدي ولا أعرف ماذا أفعل». لنفترض أنك تعاني من مشكلة كبيرة، فإذا ما تخليت عن التفكير التقليدي، فإلى أين ستمضي؟ هذا ما يواجهك به إبسن ـ وليس لك من مفر.

الناس تفعل شيئا في العمل وتفعل شيئا آخر في المنزل، وليس بالضرورة أن يفعلوا الأشياء التي يؤمنون بها أو يقولونها. يجعلك إبسن ترى ما تفعله وليس ما تقوله ـ وما يدفعك المجتمع بكل السبل، للقيام به. لم يعتبر أي كاتب مسرحي بعد إبسن جادا إلا إذا أثار نقاشا مثمرا. والمسرحية التي لا تستطيع أن تثير جدلا ليست بمسرحية جادة. والجدال يهتم بالأفكار التي لا يمكن أن تكون مقررة سلفا. ولكن الجدال يهتم بالأفكار التي يمكن أن تكون موضع نقاش. حتى مجيء إبسن، كان الكاتب المسرحي يحسم المشكلات ويحلها. أما إبسن فهو يثيرك ويدفعك للقلق. ويتحدى المتفرجين ليدفعهم للتفكير والمناقشة كي يدركوا حقيقة وجودهم.

تهتم المناقشات بقضية أو مشكلة يكون لدى الجمهور في شأنها صيغة جاهزة ورأي واضح، لكنهم لا يغادرون المسرح إلا وهم يناقشون آراءهم ووجهات نظرهم، وربما يستمرون في ذلك في

منازلهم أيضا. فالكاتب المسرحي الذي يعرف كيف يمس هذا الوتر في الجمهور هو الكاتب المسرحي القوي الناجح. ويعرف الكتاب المسرحيون أنهم إذا تمكنوا من التأثير فيك بهذا الأسلوب، فإن لديهم القدرة على تعليمك شيئا. هكذا، فإن الجوانب المادية تحيط بالمشكلات الأخلاقية والاجتماعية التي تؤثر في المشاهدين عموما، اهتمت مسرحيات إبسن مثل «عدو الشعب» و«الأشباح» و«هيدا جابلر» و«بيت الدمية»، اهتمت بالمشكلات القائمة منذ سنوات طويلة. بعض منها قد تم حله، رغم أنني لا أعتقد أن أياً من مشكلات المرأة قد تم حلها فعلا - قد تكون حدثت بعض التحسينات المحدودة، لكن لم تحل بشكل حقيقي. على أية حال، ركز إبسن انتباهه ببراعة فنية على كل من الحقيقة الاجتماعية والحقيقة الشخصية. وفي أغلب الأحوال، فإن المشكلات التي يطرحها ليس غير معتادة ولا غريبة أو شاذة، بل هي مشكلات أو قضايا أخلاقية مألوفة لكل إنسان، وفي حاجة إلى تنوير.

إذا ما أرادت امرأة شابة في أن تغادر المنزل وأن تدير شؤون حياتها الخاصة، فإن والدها يقول: «يجب أن تمكثي في المنزل لأن من واجبك رعاية أمك»، إذا ما حدث ذلك، فمن على حق؟ المرأة أم والدها؟ هناك خلافات جادة في هذا الشأن. إبسن يقول إنه من الكريه والمنفر أن تضحي بنفسك في سبيل شخص آخر فذاك الآخر لن يمتن لتضحيتك.

قد توافق أو لا توافق، أيما كان الأمر، حيث يتعامل إبسن مع الحياة الأسرية. يضطر المشاهدون لرؤية المشكلة كما يعن لهم في البداية، يشتري رواد المسرح التذاكر، وفي المقابل يتخلون عن الفكرة التي ظلوا يحملونها واعتادوا على التعامل معها. لكنك لن تستطع فهم معنى المسرحية إلا إذا تابعت الحوار في العمل المسرحي ووضعت نفسك في النقاش. يقول إبسن إنه إذا لم يكن هناك خلاف يناقش، ما كنت تكتشف الحقيقة. في مسرح إبسن، وفي كل مسرح لا حق له، لابد وأن تجد مشكلة مطروحة للمناقشة بشكل أو بآخر. إن مسرح إبسن هو المسرح التعليمي، وإبسن هو رائد ومكتشف الفكرة القائلة إنه يجب على المشاهدين - والممثلين - أن يروا الحياة أكثر تعقيدا مما يعتقدون.

فعلى سبيل المثال، فإن الشخصية الحقيرة والبغيضة يجب أن تكون حقيقية تماما وتتجز وتؤدى وفقا لما يمليه الضمير مثلها في ذلك تماما مثل شخصية البطل أو أكثر. فالشخصية البغيضة كشخصية واقعية راسخة الإيمان بأنها على حق. يقول إبسن: «في كل خير، يكمن الشر، وفي كل سوء يكمن الحسن». هنا مكمن الصعوبة الشديدة في تجميد الشخصية المسرحية: فكيف يمكن لشخصية مسرحية أن تكون باطلة إذا كانت حقيقية وواقعية إلى حد بعيد؟ الأكثر أهمية (والأكثر تشويقا) هو من يكون البطل ومن يكون الشرير. لقد استهدف إبسن أن يضعك في المصيدة، فهو يعرفك على رجل صالح، وأنت تنحاز إلى جانبه، ولكن، في الفصل الثاني من المسرحية تعترف بأنه لم يكن رجلا صالحا كما كنت تتصوره. يوقعك إبسن في الشرك بخلق شخصية تجمع بين الحق والباطل، ويجعلك تحب أو تحترم الشيء الذي قد تكشف المناقشة عن كونه بغيضاً وشائناً. ويخدعك لدرجة أنك في النهاية، تكون غير متأكد بشكل حقيقي إلى جانب

أي من الآراء تقف. حينذاك، قد تعود إلى منزلك بفكرة أخرى أو بفكرة ملتبسة غامضة تخصك أنت على وجه الحصر، كي تحل الإشكالية مع نفسك. فنادرا ما كان إبسن يحلها لك.

الشيء الوحيد الذي يمكن أن يعلق بذهنك هو أن مسرح إبسن يتعامل مع الأفكار، وأن هذه الأفكار تتم مناقشتها أمامك. غيّر إبسن المسرح بتضمينه هذا «العنصر الحواري» في المسرحية. كانت المناقشة مفهوما جديدا في الدراما ـ وهي التي جعلت المسرحية تجمع ما بين العصري والفكري وإن كانت لا تدفعك بالضرورة إلى تبني موقف بعينه.

يقول إبسن إنه ليست هناك حقائق نهائية تدوم أكثر من سبعة عشر أو ثمانية عشر عاماً. هناك حقائق كثيرة، تغيرت، «يجب على المرأة أن تطيع زوجها»، كرجل، أقود أسرتي «ككاهن، أنا أمثل الكنيسة»، كذلك، قد يظهر شخص ما ويقول: «أنا لا أعرف إذا ما كنت تقود الأسرة. أنا لا أعتقد أنك تستطيع أن تقود أي شيء سوى نفسك. أنا لا أؤمن بأن أي شخص يمكن أن يمتلك شخصاً آخر أو أن يطلب منه الانتساب إليه». إذا كنت تملك السلطة لاعتقال شخص آخر، يمكنك أن تفعل ذلك، لكن المشاهد قد يقول: «أنا لا أعتقد أنك تعتقله لأنك على حق، ولكن لمجرد أنك تمتلك السلطة لفعل ذلك». وفي المناقشة، يمكنك أن تحاول التمييز بين الحقائق، وتستمع لكل الحقائق وحينذاك تحدد اختيارك. وبأمانة يقول كل شخص، سواء كان رجلاً أو امرأة، ما يؤمن بأنه الحقيقة. ليس هناك «حلا» أو نهاية. وأنت لم «تنتصر» ولم تفز بشيء. أنت فقط فعلت ما تعتقد أنه الصواب، فالحقيقة يجب أن تكون شخصية بالنسبة إلى كل فرد ـ فأنت لا تمثل سوى نفسك، ولا يمكن لقس أن يمثل الإله، ولا حتى مؤسسة يمكن أن تمثل الإله.

إتاحة المجال لمناقشة كبرى في مسرحية إبسن: من خلال الصخب والهياج في مسرحيته «عدو الشعب» حين قام الرئيس بدعوة الطبيب للتراجع. فقال: «لا». لن تتمكن الأغلبية من أن تمنعه من قول الحقيقة. فالأغلبية لا تملك الحقيقة في جانبها. يقول هوفستاد: «يقف الأغبياء في صف الحقيقة السائدة المطلقة ويحكمون الأقلية المنهمكة في الحقائق الجديدة والقوية من أجل المستقبل».

هذا يلقي الضوء على الوضع الأخلاقي ـ الاجتماعي برمته: في النهاية، لن يمضي أحد منهم مع الطبيب. لم يستطيعوا الحصول على الفرصة. سوف يفنى الورق، سوف تفنى المدينة. لا يوجد أمل إلا إذا اكتشفوا هذا المرض. في آخر الأمر، أصبح «د. ستوكمان» الشخص الذي أنجز الأمر بنفسه ـ من دون الصحافة، ومن دون الأغلبية. كان الطبيب يدرك في النهاية أنه سينجزها وحده. ذلك هو الأسلوب المتفرد في الحالة الإبسينية Ibsenian situation. هل تريد أن تكون ممثلا؟ ياسيد، دعك من هذا وابحث لك عن وظيفة. فأنت لن تنال التصفيق والاستحسان، بل ستلقى الهزيمة. إذا كنت ستشق طريقك بالكفاح والنضال لتصبح ما تريد أن تكونه ـ ليس طبقا لمعايير أي شخص آخر، ولكن طبقا لمعاييرك الشخصية. فهل لديك معايير شخصية؟ هل لديك معايير في الزواج؟ وفيما يتعلق بمهنتك؟ هل ترغب في الكفاح من أجلهم؟

دائما كان لإبسن وجهتا نظر في شخصياته على المسرح. فالأول يقول: «أعتقد هذا»، والثاني يقول: «أعتقد ذاك» ويتفرق جمهور المشاهدين

بين هذا وذاك، ولكن عادة لا سبيل عند إبسن لحل عقدة الرواية.

إذا كان لديك رأيان متناقضان ويحتوي كل منهما على شيء من الحقيقة، واستمع الجمهور إلى كل من الرأيين، حينذاك فإن الشيء الوحيد الذي ستفتقده بعد الآن هو البطل، بطل المسرحية. انتهى البطل. فبعد إبسن لم يعد هناك أبطال منفردين في الأدب، في حين أنه قبل إبسن كان كل مشاهد يعرف من هو الطيب، ومن كان الشرير، ومن مع الحق، ومن مع الباطل. لم نعد نعتبر الأمر على هذا النحو، فمنذ إبسن ومن بعده، يختلط عليك الأمر ليس فقط وأنت تشاهد المسرحية، بل أيضا بعد أن تغادر المسرح.

لم يحدد إبسن الشخصية التي تقف إلى جانب الحق أو التي تقف إلى جانب الباطل. وبلا شك إن هذا شيء جديد. من قبل، كان كل شخص يعرف من هو البطل ومن الشرير فالمعتاد أنك تعرف الحقيقة منذ البداية. لكن إبسن لم يحدد أي شخص يمثل الباطل. فكل الممثلين لديهم الحق في الحياة، والحق في جانبهم. ومادام ليس هناك شخص يمثل وحده الحق، فليس لديك بطل.

هذا تغير كبير، فأنت لا تستطيع بعد الآن لعب دور الشرير الواضح في مسرحية. فذلك لم يعد ينتمي للمسرح الحديث. فأنت محكوم في كل شيء بلغة المسرح والصراع. ولأنك لا تستطيع كممثل أن تقول: «أنا شرير»، فأنت مجبر على بناء شخصيتك على أساس واقعي، وهنا يمكنك فقط أن تقول: «أنا شخص حقيقي». هذا هو التحدي الرهيب. يمكنك أن تملك القدرة على القول إن «هتلر كان على حق»، إذا كنت ستلعب دور هتلر في مسرحية، حينذاك، لا تستطيع أن تلعب هذا الدور إذا ما كنت ترى أن «هتلر هو الشر». فقبل كل شيء، كان هتلر يعتقد أنه الحق، هذا يدفعك للقول من دون أداء يغلب عليه الفخامة: «أنا نورا» أو «أنا د. ستوكمان».. ويكون عليك أن تبتعد عن الأداء التقليدي المصحوب بالإجلال عندما تقول: «أنا لير!.. أنا هاملت!».

لم يعد المؤلف يحدد ما هو الصحيح وما هو الخطأ. فالصراع في «بيت الدمية» يدور حول الحياة الأسرية، وليس صراعا بين الشخصيات. وإذا كنت مشاهدا، فلا تبحث عن البطل أو الشرير. أما إذا كنت ممثلا، فعليك أن تكون في صف الشخصية التي تؤديها.

كان هذا تقدما هائلا في المسرح ـ مسرح لا يسعى لإملاء الحل أو فرضه، فبعد إبسن، لم يعد هناك كاتب مسرحي لا يعتبر عنصر المناقشة هو أهم عناصر المسرحية ـ هذا التقدم الهائل في المسرح أصبح موضع إدراك الكاتب المسرحي، والممثلين، والمشاهدين بالمثل. فالمشاهدون من الآن فصاعدا، والمشاهدة على حد قول «برنارد شو» «تجربة شديدة الصعوبة دائما». كذلك، فإن المشاهدين يواصلون الجدل في الخارج، بدءا من بهو المسرح، حيث يمكن للمناقشات في بهو المسرح أن تتسم بحدة مناسبة. والمؤلف المسرحي الثوري هو الذي يستطيع أن يفعل ذلك بالمشاهدين.

في صياغة إبسن وتشكيله لمسرحياته بالاستغراق في هذا العنصر الحواري، لم يبدع إبسن شكلا جديدا تماما من الدراما بل جعل ـ قابلية كل شيء للجدل والمناقشة ـ أسلوبا جديدا للحياة. أبدع شيئا ما أكثر صدقا أو على الأقل أكثر واقعية.

الأفلام السينمائية التي غيّرت أمريكا

بقلم: جلين كيني

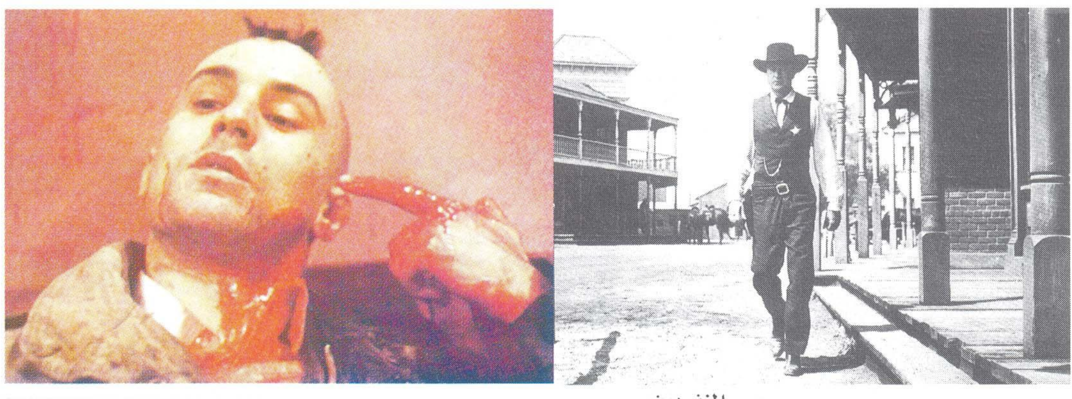
ترجمة: أحمد الحضري

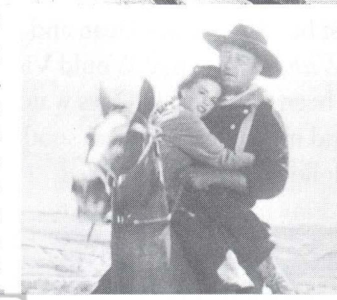
ما الذي يكون عليه حال الخوف عند المراهقين الآن إذا لم يكن جيمس دين وناتللي وود قد وصلا إلى حافة الجرف في فيلم «ثائر بلا قضية»؟ كيف كان يبدو لنا المحاربون القدامى في فيتنام لو لم يكن هناك رامبو؟ وهل متابعة كيفين سبيسي وهو يحطم عالم الطبقة الوسطى التي ينتمي إليها في فيلم «الجمال الأمريكي» تخفف من إحباطاتنا المكبوتة؟ في الصفحات التالية يفحص جلين كيني ناقد مجلة «بريميير» ومعه جمع من الضيوف البارزين كيف أن الأفلام السينمائية على مر التاريخ أعادت تشكيل حياتنا.

في فترينة بواجهة أحد المحال في النادي الاجتماعي بالقرب من مسكني في بروكلين، تستقر صورة داخل إطار صغير أنيق، من فيلم «ملائكة ذوو وجوه قذرة» Angels With Dirty Faces (1938)، توضح رجل العصابات جيمس كاجني وهو يضع فوهة مسدسه على رقبة بات أوبريان، الذي يقوم بدور قس، والذي هو بالمصادفة أعز صديق له.

إنه أمر يدعو للتفكير. هل يرى السادة المحترمون في هذا النادي (وهو فعلا ناد خاص، وللرجال فقط) أن هذا الفيلم نموذج يحتذى به، أم أنهم يتعرفون من خلاله على قصص حياتهم هم؟ من الواضح، أن اهتمامهم بهذه الصورة إلى هذا الحد يقول شيئا عن الطريقة التي ينظرون بها إلى أنفسهم. ففي فيلم «ملائكة ذوو وجوه قذرة» نجد أن روكي سوليفان (الذي يقوم كاجني بدوره) رجل قاس لا يرحم، ولكنه في الوقت نفسه يحتفظ ببعض مبادىء الأخلاقيات - فعندما يخبره أوبريان صديق الطفولة أن الشبان المشاكسين في المنطقة يعجبون به، وأن هذا الإعجاب

العنوان الأصلي للمقال:
The Movies That changed America **ونشرت مجلة** Premiere **عدد ديسمبر** 1999





المنفردون:

إن البطل الأمريكي الأصلي «قاتل» - أو هذا هو ما يدعيه - د. هـ. لورانس في كتابه «دراسات في الأدب الأمريكي الكلاسيكي»، ونجد في الأفلام السينمائية الأمريكية أن هذا البطل القاتل (أو المضاد للبطل) غالبا ما يعمل منفرداً. وجاري كوبر في فيلم «منتصف الظهيرة» (1952) نموذج كلاسيكي لهذا البطل. وتوضح الأفلام التي تلته كيف أن هذا البطل المنفرد يتعرض إلى مزيد من المشاكل. فقد كان جون واين (في دور إيثان إدواردز) في فيلم «الباحثون (1956، في الصورة اليسرى)



سيقودهم إلى المصير المؤسف نفسه الذي انتهى إليه كاجني (أي إلى موعد مع الكرسي الكهربائي)، يبدو على كاجني وكأن هذه الكلمات قد نفذت إلى قلبه. وعملا بنصيحة أوبريان، يتظاهر كاجني بأن تنتابه (أم تنتابه فعلاً) نوبة من الجبن وهو في طريقه إلى تنفيذ حكم الإعدام فيه. وهناك صورة أخرى مشهورة من الفيلم نفسه، توضح هؤلاء الشبان المشاكسين في المنطقة (ويؤدي دورهم الذين أصبحوا بعد ذلك المهرجين أبطال سلسلة أفلام صبية باوري Bowery Boys) وهم مشدوهون عند قراءة العنوان الرئيسي للجريدة: روكي يموت جبانا.

إنك لا ترى تلك الصورة مثبتة في فترينة أي من واجهات المحال الأخرى. ولكنك إذا كنت تعرف ذلك الفيلم، فإن مشاهدة كاجني وهو يعبر بطريقته عن الشخص العنيف القاسي سوف تذكرك بذلك المشهد الختامي. إن صورة رجل العصابات ومسدسه ليست وحدها هي التي تحيطنا علماً برأي العالم في هؤلاء الأشخاص الذين يترددون على ذلك النادي الاجتماعي، بل هي الروح الكاملة لفيلم «ملائكة ذوو وجوه قذرة» (وليس من باب المصادفة أن المنطقة التي أعيش فيها تتمتع بشعور كاثوليكي غامر). إن للأفلام السينمائية أثراً بكل تأكيد على الثقافة العامة في بلدنا، وهو أثر يزداد انتشاراً. إنه يبدأ صغيرا، بأن يؤثر مثلا في الطريقة التي يكون بها الفرد الأمريكي أفكاره عن البطولة.

يقول الرئيس بيل كلينتون، وهو يتحدث بحماس

قرن السليولويد (الباغة):

كانت الأفلام السينمائية موجودة مع كل خطوة في تاريخ أمريكا. إليكم نظرة إلى كل الأحداث السياسية والاجتماعية، والأفلام السينمائية التي جعلتنا نختبر تلك الأحداث.

تجميع جاي أ. فرنانديز

العشريـات:

14 - 15 أبريل 1912: السفينة تايتانيك «التي لا تغرق» تنزلق داخل شمال المحيط الأطلسي، وتؤدي إلى مقتل ما يزيد على 1500 راكب، وتوجه ضربة قاسية إلى الإحساس بسيطرة الصناعة التي لا تقهر.

«ليلة للذكرى» (1958): فيلم ملحمي ذو حس وثائقي، يحاول أن يتجنب التعليق الاجتماعي لكي يركز على الأحداث وعلى الشجاعة الرائعة لبحارة السفينة.



«تايتانيك» (1997): حقق الفيلم الطموح للمخرج جيمس كاميرون الذي أعاد فيه خلق الحدث بكل دقة، أعلى إيراد بين كل الأفلام السينمائية على الإطلاق.

العشرينات:

28 يونيو 1914: تم اغتيال أرشيدوق النمسا والمجر فرانز فرديناند وزوجته، مما أدى الى نشوب الحرب العالمية الأولى. ودخلت الولايات المتحدة هذه الحرب يوم 6أبريل 1917.

«كل شيء هادىء على الجبهة الغربية» (1930): منع أدولف هتلر وبنيتو موسوليني عرض هذا الفيلم القوي المعادي للحرب في بلد كل منهما.

«وداعا للسلاح» (1932) تضمنت قصة إرنست هيمنجواي أن يقع جاري كوبر في الغرام وسط شراسة الحرب.

العشريـات:

«في الحرب القادمة فليذهب القياصرة والرؤساء والجنرالات والدبلوماسيون إلى حقل كبير ليتقاتلوا فيما بينهم. سوف يرضيهم هذا ونبقى نحن في منازلنا». قال ذلك لويس

عن بطل فيلم «منتصف الظهيرة» High Noon (1952) في لقائه في أغسطس 1997 مع الناقد السينمائي الراحل جين سيسكل: «لقد كان بالنسبة لي أكثر الأبطال واقعية.. يمكنك عندما تنظر إلى عينيه أن تعرف أنه يعتقد أن الظروف المحيطة به تنبىء جميعها بأنه سيلقى حتفه، وهو يكره هذا... ولكنه يقدم على الموقف مهما كان الأمر. ولذا فهذه هي البطولة الحقة بالنسبة لي. إنه شخص مثير للاهتمام وقوي الإرادة إلى أبعد مدى ويفعل ما فيه الصواب». إن من يراه كلينتون «أكثر الأبطال واقعية» هو ضابط البلدة sheriff الذي يؤدي دوره هنا جاري كوبر. نعم، إن كوبر كان يفضل ألا يواجه عصابة القتلة الذين يتجهون نحو بلدته، بقصد الانتقام والأخذ بالثأر.

والتحايل البارع في فيلم «منتصف الظهيرة» أن أحداثه تدور أمامنا في وقت فعلي... إننا نرى كوبر في أغلب أجزاء الفيلم وهو يحاول أن يحصل على بعض المساندة من رجال بلدته. ولكنه يكتشف أن كل مواطن في هذه البلدة جبان يتخفى وراء مظهر خادع، ويبقى على كوبر أن يواجه الموقف وحده - مع قليل من المساعدة في النهاية من عروسه الجديدة (جريس كيلي) التي قررت أن تتخلى عن مبادئها القوية بعدم استخدام العنف، حتى تقف بجوار رجلها.

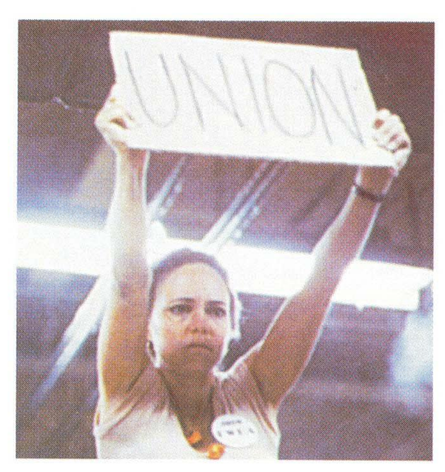
أليس من الغريب نوعاً أن قائد العالم الحر، قائد الدولة التي اشتهر مواطنوها بأنهم الصخرة الصلدة التي تستقر عليها الفضيلة، يتوحد في شخصيته مع بطل هذا الفيلم، حيث يقوم رجل واحد بإنقاذ جيرانه الضعفاء من براثن الشر؟

ولكن، أليست هذه هي أمريكا؟

قد يكون الأمر مجرد الإحساس بجنون العظمة



فولهايم في فيلم «كل شيء هادىء على الجبهة الغربية» (1930).
يناير 1920: صدر قرار فولستيد الذي شرع منع الخمور، وبدأ عهد تناول الخمور بطرق غير شرعية وظهرت الحانات غير المرخصة، وانتهى الأمر إلى إلغاء القرار عام 1933. «عدو الشعب» (1931): بدأ المتفرجون يجمعون بين أشرار المجتمع والفاشلين في وجه واحد هو وجه الممثل جيمس كاجني.
«ملائكة ذوو وجوه قذرة»: كان القس (تمثيل بات أوبريان) ورجل العصابات (جيمس كاجني مرة أخرى) صديقين في عهد الطفولة. أما الآن فهما يتصارعان على السيطرة على الحي المضطرب.
27 فبراير 1922: أعلن القضاء العالي الأمريكي حق النساء في التصويت دستورياً.



● فيلم «نورما راي» (1979)

بقلم: باتريشيا إيرلاند

*** رئيسة المنظمة القومية للمرأة**

نرى في الفيلم النموذجي (الكلاسيكي) «نورما راي» (1979) Norma Rae شخصية المرأة ضئيلة الحجم التي يبدو عليها العزم والتصميم وهي واقفة في منتصف مصنع النسيج، رافعة يديها لوحة كتب عليها بخط اليد «الإتحاد». ويقوم زملاؤها وزميلاتها، الواحد تلو الآخر، بإيقاف ماكيناتهم تضامناً.

وفي تلك الفترة كانت حركة حقوق المرأة أخفقت في السنوات الثلاث الأخيرة في حملتها للوصول إلى التعديل الخاص بحقوق المساواة، وهو الضمان الدستوري للمساواة في ظل قانون المرأة الذي وافق عليه الكونجرس. وكان التعديل الخاص بحقوق المساواة قد تأجل لإقبال الدولة عام 1980 على انتخاب رونالد ريجان للبيت الأبيض وانتخاب غالبية من حزب المحافظين لمجلس الشيوخ.

لقد أعادت صورة نورما راي وهي منتصرة ثقة وحماس عدد كبير من النساء. لقد أصبحت رمزاً حياً لقدرة امرأة واحدة لتحقق تغييرا غير عادي. وكانت قصتها في تلك المرحلة الحرجة من الحركة النسائية، تؤكد قدرة المرأة على دعم تلك الحركة وتعزيزها. وبذا تكون نورما راي، بتمثيلها للمرأة التي تتخذ موقفا من أجلها ومن أجل الآخرين وتنتصر فيه، قد أسهمت في ازدياد عدد النساء المناضلات من أجل التعديل الخاص بحقوق المساواة. وكانت بالنسبة للعديد من النساء، أولى خطواتهن لاقتحام مجال السياسة. ولم تنجح الحملة في تحقيق هدفها المباشر، ولكنها كونت شبكات قوية متماسكة من عضوات في هذا الاتحاد. وظهرت قدرة هذه الشبكات ونفوذها عبر كل الدولة في عام 1992، عندما تمكن عدد غير مسبوق من مرشحات الحركة النسائية، واللواتي كن في مرحلة التحضير والحماس منذ بدء المطالبة بالتعديل الخاص بحقوق المساواة، من النجاح في الانتخابات كنائبات.

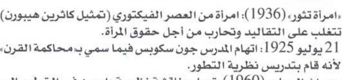
لقد أسهم فيلم «نورما راي» بإعطائه الثقة للنساء لكي يحاربن من أجل معتقداتهن وجعل المشاهدين يدركون الأدوار المتعددة التي يمكن أن تقوم بها النساء - أسهم بوضوح في إحراز التقدم الذي تم خلال العشرين سنة الماضية، من أجل المرأة والأسرة والمجتمع.

تلجأ الشخصيتان اللتان يحمل الفيلم اسميهما في «ثيلما ولويز» (1991) إلى الهروب العنيف من أمريكا التي يحكمها الرجال. لقد عالج هذا الويسترن المنعش الذي يدور في يومنا هذا، الهروب على أنه عمل بطولي دون أن يناقش العواقب.

أو بالنرجسية. ولا شك أن الفرصة قد أتيحت لكلينتون لكي يتأمل فيلم «منتصف الظهيرة» ويستعيد تفكيره فيه خلال السنوات التي مرت منذ لقائه مع سيسكل. ولكنه على الأقل وجد توني بلير واقفاً إلى جانبه عندما قرر أن يلقي قنابله على العراق عندما وصلت فضيحة مونيكا لوينسكي إلى ذروتها. وهناك رئيس آخر يجيد تحويل الأنظار بقدر ما، هو ريتشارد نيكسون، الذي كان معجبا إلى حد كبير بفيلم «باتون Patton (1970)»، ومن السهل أن نتخيله جالساً في صالة العرض بالبيت الأبيض وهو يهتز في مزيج من السخط والفخر والإسقاط، بينما يقوم جنرال باتون (الذي يحمل الفيلم اسمه)، على الرغم من كل محاولات التقليل من قدره وعدم تمكينه مما يطلبه، بتنفيذ مهمته العسكرية في إصرار تام. ويقترح بعض المؤرخين أن مشاهدة نيكسون المتكررة لفيلم «باتون» جعلته يمتلىء بالبول والمرارة عندما شن الحرب على دولة لم يكن من المفروض أن يقوم بيننا وبينها أي حرب، أو أي تعامل، على الإطلاق. (وفيلم «باتون» هو الفيلم الذي غير من وضع كامبوديا).

ما الذي يمكننا أن نفهمه من حقيقة أنه في هذا القرن من السينما، هذا «القرن الأمريكي»، كما يطلق عليه هنري لوس وقطب الإعلام وهارولد إيفانز (المولود في بريطانيا)، نجد أن واحدا من أكثر رؤسائنا المحبوبين (قد لا تكون أنت من محبيه، فأنا أيضا لم أكن معجباً به، ولكن فلنواجه الواقع - لقد كان محبوباً) لم يكن فقط ممثل سينما سابقا بل كان يستمد أكثر آرائه تجاه العالم وأغلب حكاياته ونوادره من أفلام هوليوود السينمائية فيما بين عامي 1935 و1946؟

لقد اشتكى فرانز كافكا ذات مرة من أفلام



«امرأة تثور» (1936): امرأة من العصر الفيكتوري (تمثيل كاثرين هيبورن) تتغلب على التقاليد وتحارب من أجل حقوق المرأة.

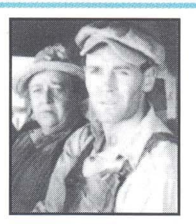
21 يوليو 1925: اتهام المدرس جون سكوبس فيما سمي بـ«محاكمة القرن» لأنه قام بتدريس نظرية التطور.

«ميراث الرياح» (1960): تصل مناقشة نظرية داروين في التطور إلى شاشة السينما لزيادة التوتر واجتياحه الطوائف المختلفة من الناس.

الثلاثينات:

1 مايو 1931: انتصار للهندسة والعمارة. يتم افتتاح مبنى إمباير ستيت ليصبح أعلى مبنى في العالم لأكثر من 40 سنة تالية.

«كينج كونج» (1933): يتسلق الوحش الضخم هذا المبنى العظيم والوحيد الذي بقي بلا دمار. وبذا اكتسب هذا المبنى مزيداً من الأهمية الأسطورية



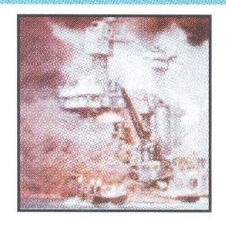
إلى جانب شهرته الأصلية.

يناير 1933: في قمة الأزمة الاقتصادية.. تصيب البطالة 15 مليون شخص.

«عناقيد الغضب» (1940): يقتبس المخرج جون فورد قصة الأديب جون شتاينبك، ليسجل الوضع السيىء للعمال المهاجرين، موضحا الوضع المحزن لبطولة توم جود (تمثيل هنري فوندا).

«بوني وكلايد» (1967): استخدام المخرج آرثر بن مظاهر العنف في إثارة العواطف بأسلوب جذاب نحو سنوات اليأس في الثلاثينيات، مما أحاط أعمال العصابات بصيغة نموذجية.

«الأفلام السينمائية للترفيه، أما الرسالة فيجب أن تصل عن



السينما قائلا: «إن الرؤية لا تسيطر على أفلام السينما، إنما أفلام السينما هي التي تسيطر على رؤية الفرد». إنها مقولة مقلقة، ولكننا نجد بعد أن نعرف إجراءات صناعة الأفلام، أن هذه المقولة ليست دقيقة تماماً. إن الفيلم السينمائي بصفة عامة فن شعبي (وفن باهظ في تكاليفه)، ولذا نجد أن أغلب صانعي الأفلام يريدون أن يقدموا للمشاهدين الأفلام التي يعتقدون أن المشاهدين يريدون رؤيتها، أو الأفلام التي تشير بطاقات العروض المسبقة ومجموعات اختبار المشاهدة بأن المشاهدين يريدون رؤيتها. هذا النوع من الأخذ والعطاء يجعل من الصعب أن تفرق بين الراقص والراقصة، أضف إلى ذلك حقيقة أن بعض الأفلام تؤثر في نظرتنا إلى أفلام أخرى، ويزداد تعقيد لغز كيف تأثرنا بهذه الأفلام.

وفي الفترة نفسها التي أبدى فيها فرانز كافكا آراءه، أعلن الرئيس (وقتئذ) وودرو ويلسون ترحيبه المدوي بفيلم د.و جريفيث «مولد أمة» (1915) The Birth of a Nation إذ وصفه بأنه «يشبه كتابة التاريخ بالبرق». إن الأفلام السينمائية تسيطر فعلا على رؤية الفرد. (قد يكون هناك جانب من التبادل المتصل، لأن بعض العناوين الداخلية في فيلم «مولد أمة» مقتبسة من كتاب وودرو ويلسون «تاريخ الشعب الأمريكي»). إن فيلم «مولد أمة» المبالغ في عنصريته والذي شق الطريق أمام غيره هو الأب الروحي العنيد للسينما الأمريكية. إن تصويره للمربيات الزنجيات المبتسمات في خنوع وللرجال السود الذين يصيبهم جنون الرغبة الجنسية حيال المرأة البيضاء بحيث يبدو الزبد في أفواههم فعلا، لأمر سيىء مزر أفسد كل ما جاء من بعده من أفلام. ولنأخذ مثالاً المشهد



● فيلم «عطلة نهاية الأسبوع المفقودة» (1945)

بقلم: كارولين كناب

* مؤلفة كتاب «شرب الخمور: قصة حب»

كرة المتفرجون فيلم «عطلة نهاية الأسبوع المفقودة» The Lost Wekend عندما شاهدوه في العرض الخاص الذي يسبق العروض العامة، حتى كاد الفيلم أن يحجب عن التوزيع. ومن الذي يقدر على لومهم؟ إن تصوير المخرج بيلي وايلدر للأيام الثلاثة الصاخبة لسكير في مانهاتن، لم يكتف بتطبيق نوع غير عادي من الواقعية الجريئة، بل تعرض بحيوية لموضوع لا يناقشه الناس عادة في لقاءاتهم الخاصة، وهو موضوع إدمان الخمور إلى حد التذلل واليأس. وبطل الفيلم دون بيرنام الذي يبلغ 33 سنة من عمره، يكذب ويغش ويسرق. وهو يخبيء الخمور في كل مكان في منزله، خلف مصابيح الإضاءة وخلف مواسير التدفئة. وعندما يشتاق إلى الخمر فإنه يتلوى ويتسول ويبدو العذاب في عينيه المحمرتين. وهذا النوع من السلوك مألوف الآن وكأنه تكرار لاكلشيهات سبق أن قدمها الممثل مايكل كيتون في تشوقه للمخدرات في فيلم «نظيف وغير ثمل» Clean and Sober (1988)، أو الممثل نيكولاس كيج وهو يترنح كأنه أعمى في فيلم «مغامرة لاس فيجاس» Leaving Las Vegas. أما في عام 1945 فكان هذا الأمر يوجع القلب ويفتح الباب على مصراعيه أمام هذا السر الموحل في ثقافتنا. وكان إدمان شرب الخمور في بدايته ولم يظهر إلا من عشر سنوات قبل ذلك. ولم يكن إدراك إدمان الخمور كمرض قد بدأ، بل كان إدمان الخمور يثير الضحك عند الغير ويعتبر ضعفاً أخلاقياً، ويثير الشفقة في كلا الحالين. لقد جعل فيلم «عطلة نهاية الأسبوع المفقودة» المدمن يبدو كإنسان، مما يميزه كفيلم شجاع وكفيلم معاناة. إنك ترى بيرنام وقد انحنى ظهره على مقعد البار، يبتلع جرعات من الويسكي. وتسمعه وهو يصف لك دورة الخوف والعار وكراهية النفس التي تجعل السكير يواصل الشرب، واليأس العميق الذي يعتقد السكير أن الشرب سيزيله ولكنه على النقيض يؤكده ويقويه. قد تتغير الأزمنة، ولكن الإدمان لا يتغير.

وما أن بدأ عرض هذا الفيلم الصغير الكئيب الذي أخرجه بيلي وايلدر حتى انطلق ليفوز بجوائز الأوسكار عن أحسن فيلم وأحسن إخراج وأحسن تمثيل (راي ميلاند) وأحسن سيناريو (تشارلس براكيت وبيلي وايلدر). لقد أصبحت بعض الأسرار صالحة لكشف النقاب عنها، وأصبحت بعض وصمات العار قابلة للمناقشة، وأصبح بعض السينمائيين قادرين على تعليم الغير وراغبين في ذلك.



طريق ويسترن يونيون»، قالها صمويل جولدوين (1882 - 1974) مؤسس شركة إنتاج صمويل جولدوين.

الأربعينيات:

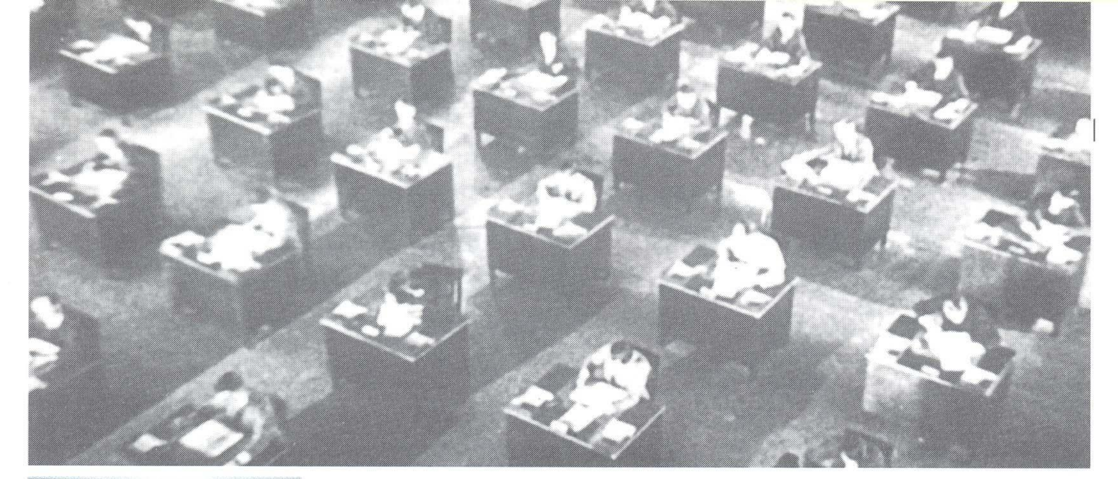
7 ديسمبر 1941: تهاجم اليابان ميناء بيرل هاربر، وبذا تدفع الولايات المتحدة لتشترك في الحرب العالمية الثانية.

«من هنا وإلى الأبد» (1953): قصة المجندين الأمريكيين قبل الهجوم مباشرة مع استخدام لقطات فعلية للهجوم لتوضيح مدى التدمير.

«جسر نهر كواي» (1957): تصوير المخرج ديفيد لين لحياة أسرى الحرب في أحد سجون المعسكرات اليابانية من بين 700 فيلم تعرضت للحرب العالمية الثانية.

الأربعينيات:

6 يونيو 1944: قوات الحلفاء تغزو نورماندي.





العمل هو الجحيم:

في الفيلم الصامت «الزحام» (1928، في الصورة العليا) يخلق المخرج العظيم كينج فيدور المعادل في يومنا هذا لما يقصده ويليام بليك في «المصانع المظلمة الشيطانية» واستعار المخرج بيلي وايلدر مفهوم كينج فيدور بعد مرور 32 سنة في فيلمه «الشقة» (1960)، حيث يلقي نظرة مرحة على الحياة (وإن كانت غير محتملة إلى حد ما) وعلى تسلق السلم الوظيفي. وصعود الممثل جاك ليمون من الدور المزدحم (في الصورة السفلى إلى اليسار) يأتي نتيجة لرشوته لرؤسائه بأن يعمل قوادا لهم. ويؤدي الممثل جريجوري بيك في فيلم «الرجل ذو البدلة الرمادية من الصوف» (1956) دور الموظف الكسول المريض نفسيا في مرحلة ما بعد الحرب العالمية الثانية والمضطر للسفر إلى مقر عمله ذهاباً وإيابا كل يوم (الصورة السفلى إلى اليمين). أما فيلم «من التاسعة إلى الخامسة» (1980) فيواسي تلك الطبقة من العاملين المنسيين: السكرتيرات. ويتساوى هذا الفيلم الذي أخرجه كولين هيجينز في وصفه بالنعومة في بعض أجزائه وبالغضب في أجزائه الأخرى، وتؤدي فيه الممثلة دوللي بارتون (الصورة اليسرى) دور امرأة عادية لا تحظ بالتقدير المناسب لذكائها.





الشهير لتبادل التوتر إلى أقصى حد بين هاري كالاهان (تمثيل كلينت إيستورد) والسارق الأسود للبنك في فيلم «هاري القذر» Dirty Harry (1971). يقول كالاهان: «هذا مسدس ماجنوم عيار 44، إنه أقوى مسدس في العالم»، وما إلى ذلك. وتأتي الخدعة عندما يتوسل اللص المحاصر لكي يعرف من هاري إن كان قد أطلق فعلا ست طلقات أم خمساً، ويقول: «يلزمني أن أعرف». وكلينت

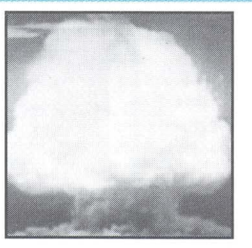


«أطول يوم» (1962): ملحمة بمعنى الكلمة. تصوير شامل للقتال من أجل استرداد ورماندي في اليوم الذي حدد بداية النهاية بالنسبة لألمانيا النازية.

«إنقاذ الجندي ريان» (1998): إعادة تمثيل مرعبة قدمها المخرج ستيفن سبيلبرج للهجوم على شاطىء أوماها، مستوحيا ذلك من الصور الفوتوغرافية التي صورها روبرت كابا لمهام القوات البرية.

27 يناير 1945: تم تحرير أسوأ معسكر إعتقال نازي في أوزويتش بفضل قوات الحلفاء.

«محاكمة نورمبرج» (1961): الممثل سبنسر



تراسي يترأس محاكمة مجرمي الحرب. (يرتكب هذا الفيلم بعض الأخطاء الواقعية، مثل إغفال تشرشل لمعسكرات الاعتقال، بينما كان روزفلت يرغب في الإغارة عليها وضربها).

قائمة شندلر (1993): أحد المتعاطفين مع الحكم النازي ينقذ مئات من الأسرى اليهود في هذه القصة عن الندم ومحاولة الخلاص من الخطيئة.

الخمسينيات:

6 أغسطس 1945: أسقطت طائرة إينولا جاي قنبلة يورانيوم على هيروشيما، ثم دمرت قنبلة ثانية ناجازاكي، وبعدها استسلمت اليابان.

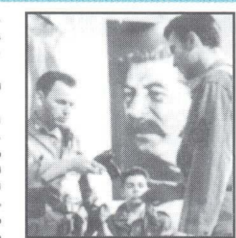
«هيروشيما حبي» (1959): تلتقي امرأة فرنسية مع ر جل ياباني في هيروشيما، ويقعان في الحب، ويتحملان معا نتائج الحرب وآثارها.

30 يونيو 1950: أصدر الرئيس هاري ترومان أمرا للقوات الأمريكية بدخول كوريا في بداية الحرب الباردة.

«تل بورك تشوب» (1959): هاجم 135 جنديا أمريكيا تل بورك تشوب، ولم يبق منهم على قدميه سوى 14 جندياً.

إيستوود ليس عنصريا وكذلك مخرج الفيلم دون سيجل، وليس من المستبعد أن تتوقع حدوث ذلك في عام 1971، وهو أن يتكلم أحد الأمريكيين الأفارقة الخارجين عن القانون بهذه الطريقة. وعلى الرغم من هذا، فإن امتداد ظل فيلم «مولد أمة» يجعل المتفرج ينكمش في مقعده على الرغم من أن هذا لم يكن مقصوداً.

وهاري كالاهان هنا هو إحدى الصياغات المتعددة للبطل المنفرد، ذلك النوع من رجل «منتصف الظهيرة» الذي كرمته السينما الأمريكية دائما، إلا أننا نجد في السنوات التي تلت فيلم «منتصف الظهيرة» أن بعض هذه الصياغات قد اتجهت نحو الفساد والشر. وهناك مثالان واضحان بصفة خاصة، وهما إيثان إدواردز (تمثيل جون واين) في فيلم «الباحثون» The Searchers (1956) وترافيس بيكل النقيض للبطولة (تمثيل روبرت دي نيرو) في فيلم «سائق التاكسي» Taxi Driver (1976). ويمكننا بسهولة عند مشاهدة البدائل المطروحة أن ندرك مدى جاذبية النموذج الأصلي. هل يمكن لأي رجل أن يفعل غير ذلك؟ أيقبل هو أن يكون أحد النكرات المثبتين في صفوف المكاتب الكابوسية التعبيرية في فيلم كينج فيدور «الزحام» The Crowd (1928). لقد كانت استغاثة كينج فيدور ضد حياة المكاتب التي تلغي الوجوه والأرواح، واحدة من أقسى اللقطات في جميع الأفلام، وظهر صداها بقوة بعد 32 عاماً في فيلم بيلي وايلدر «الشقة» The Apartment (1960)، حيث يصعد الممثل جاك ليمون طريقه خلال ذلك الجحيم بأن يعمل قواداً لرؤسائه. وتقدم الأفلام الأمريكية مثلها مثل أغلب برامج



«المرشح المنشوري» (1962): لقد تم سحب هذا الفيلم المثير عن الحرب الباردة من دور العرض بعد مقتل جون ف. كينيدي.

الخمسينيات:

9 فبراير 1950: أعلن السيناتور جوزيف ماكارثي، في نادي السيدات الجمهوريات، قائلا: «معي هنا في يدي قائمة بأسماء 205 أعضاء في الحزب الشيوعي.. مازالوا يعملون في الحكومة ويؤثرون على سياستها».

«في الميناء» (1954): يقف رجال الرصيف الطويل لميناء نيويورك معا في مواجهة فساد رؤساء اتحادهم. ويبدو هذا الفيلم، الذي أخرجه إيليا كازان وعرض على نطاق واسع، وكأنه اعتذار عن ذكر أسماء محددة في قوائم ماكارثي.

«إن النصر شيء هش والتاريخ لا يتريث في قرننا هذا. وتل بورك تشوب موجود في كوريا الآن.. ولكن الذين حاربوا هناك يعرفون السبب الذي دفعهم إلى الموت وما وراءه من معنى».



● فيلم «شامبو» (1975)

بقلم: ساندرا برنارد

ممثلة كوميدية (بطلة فيلم «ملك الكوميديا» 1982 وفيلم «من دونك أنا لا شيء» 1990).

كنت أعمل في عام 1975 عاملة مانيكير في بيفرلي هيلز وأعمل مساء في بوفيه حيث يأكل الرواد وهم واقفون. وبدأ عرض فيلم «شامبو» Shampoo في تلك السنة، وكانت قصته تعتمد على بعض الأشخاص الحقيقيين - مشاهير صناعة التجميل - الذين كانوا يترددون على صالون سيا في شمال كانون درايف. وكانت شخصياتهم الحقيقية واضحة لنا نحن الذين يعرفون حقائق الأمور. وانتهى عهد الهيبيز وقتئذ، واتجه الجميع إلى التمتع بالحياة إلى أقصى مدى - وراء عجلة قيادة سيارة مرسيدس.. أو أمام مرآة.. وكانت بيفرلي هيلز تتأرجح مرحا - وأنا كذلك - وهكذا ظهر هذا الفيلم في الوقت المناسب. وكان في مقدرة الجميع أن يشاهدوا هذا الفيلم.

لقد سجل هذا الفيلم بعض مظاهر ذلك العهد من الجنون واللامبالاة، وإن كنا لم ندرك ذلك وقتئذ. كان الرجال يهجرون النساء، وكانت النساء يهجرن الرجال، وكان كل شخص أساسا يخدع كل شخص.

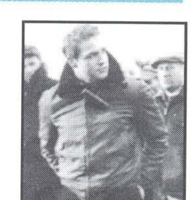
ومن يمكنه أن يرمز إلى هذا الجمال وإلى مشاعرنا في ذلك الوقت، أكثر من الشخصية المتغيرة للممثل وارين بيتي، أي جورج.. الشاب الجميل الذي يجيد تجفيف الشعر ويتعرض للمشاكل.. لقد أغوانا جميعا.

وعلى الرغم مما كان سيتبع ذلك - وهو انحسار التلقائية الجنسية - فإن فيلم «شامبو» كان يقوم نوعا ما بمهمة الإثارة الجنسية، ويبقينا في تلك اللحظة الخاطفة التي مازلنا في شوق لها بعد كل هذه السنوات. يا لها من ذكرى من النوع الحلو المر.

«إنني أؤمن بهذه الدولة»، وإن كانت الوسائل القديمة أقوى أثرا في بعض الأحيان. وفي المشهد الافتتاحي من فيلم «الأب الروحي» (1972)، يبحث أحد المهاجرين الايطاليين عن الرضا والتعويض عن طريق المافيا، ونراه هنا يتوسل إلى دون كورليوني (تمثيل مارلون براندو) لكي يحقق له خدمة معينة.

التلفزيون التجارية، تقدم الموظف في أي شركة وكأنه مرادف لـ«الخاسر الكبير»، إلا إذا كانت الشركة التي يعمل بها ذلك الموظف شركة ضخمة تهدد بقوتها الممتدة حياتنا وحريتنا وحقوقنا في التفاهم مع المخلوقات القادمة من الفضاء الخارجي.

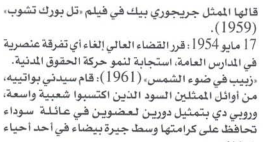
وفي متابعة الطريق إلى إعادة (تعتمد على ما بعد الثقافة البديلة) للقول المأثور القديم في فيلم «ساحر أوز» The Wizard of Oz (1925) بأنه «لا يوجد مكان يماثل الموطن»، (حقا!! لقد كانت مزرعة متربة وبالأبيض والأسود ومزدحمة بشخصيات تدعى زيك وهانك، آه.. أراهنك أنه لا يوجد مكان يماثلها)، يقدم ستيفن سبيلبرج في فيلمه «إي تي القادم من الفضاء» E.T The (1982) Extra - Terrestrial سيناريو لملاقاة شخص أمريكي بريء ومطيع مع مخلوق غامض من «هم» Them، بحيث يحدث صدى لدى الأمريكيين أكثر مما يحدثه الفيلم المثير السياسي لألان باكولا «منظر من مكان نظر مختلف» (1974) The Parallax View. لقد صور سبيلبرج فيلمه من وجهة نظر الطفل ـ الذي أطلق عليه النقاد تسميه «المفاتيح» لأن كل ما أمكنهم أن يشاهدوه من الشخصية التي ابتدعها بيتر كويوت عند بداية ظهوره في الفيلم هو مجموعة المفاتيح المعلقة في حلقة بحزامه ـ لأن إي تي يعتبر الطفولة هي الوضع النموذجي، ويعرف في الوقت نفسه جهاز الدمار الذي يملكه الكبار والذي يمكنه أن يبرز فجأة من حيث لا يعرف أحد لكي

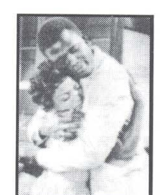


قالها الممثل جريجوري بيك في فيلم «تل بورك تشوب» (1959).
17 مايو 1954: قرر القضاء العالي إلغاء أي تفرقة عنصرية في المدارس العامة، استجابة لنمو حركة الحقوق المدنية.
«زبيب في ضوء الشمس» (1961): قام سيدني بواتييه، من أوائل الممثلين السود الذين اكتسبوا شعبية واسعة، وروبي دي بتمثيل دورين لعضوين في عائلة سوداء تحافظ على كرامتها وسط جيرة بيضاء في أحد أحياء شيكاغو.

الستينيات:

9مايو 1960: اعتمد اتحاد الأطباء الأمريكيين تناول





أقراص منع الحمل، مما سهل الثورة الجنسية في الستينيات.
«دكتور نو» (1962): يبدأ جيمس بوند (تمثيل شين كونري) المهذب والمتعصب في حب وطنه عهدا جديدا في هذا الفيلم من العلاقات الجنسية مع العديد من النساء ومن الحياة المنحلة.
«البحث عن مستر جودبار» (1977): تؤدي الممثلة ديان كيتون في هذا الفيلم دور مدرسة تعاني من الكبت وهي تبحث عن الحب وتغشى الحانات وراء أي علاقة جنسية في هذه القصة الحذرة.

الستينيات:

20 فبراير 1962: أصبح المقدم جون جلين الصغير أول



ينتقم بكفاءة وبلا رحمة. لقد مهد فيلم «إي تي» المكان لكي يظهر فيلم أوليفر ستون «جون ف. كينيدي» J.F.K (1991).

ويحاول أوليفر ستون، في عالم يصعب فيه أن يتمكن ثلاثة أشخاص من إتمام التشاور تليفونيا فيما بينهم بنجاح، يحاول أن يقنع مشاهدي فيلمه بمؤامرة اغتيال كينيدي التي تتطلب من وجهة نظره مشاركة جميع سكان المدينة الصغيرة، ولأفلام السينما، وكذلك الأديان، قدرة خارقة على جعل الناس يعتقدون في أشياء تتعارض تماما مع خبراتهم اليومية. وتتمكن هذه القدرة أحيانا من أن تجعل الأفلام السينمائية، بطريقة عجيبة، تحل محل الأديان. مثل فيلم «حرب الكواكب» Star Wars (1977)، هل من مؤيد؟

إنه لأمر ممتع حقا أن نفحص قائمة جميع الأفلام الفنية وذات الفكر العالي والتي أثرت في روح العصر، ولكن هذا سيكون خارج نقطتنا الرئيسية. فغالبا ما يقال إن فيلم «المواطن كين» Citizen Kane (1941) هو أعظم فيلم على الإطلاق. ومن المحتمل أن يكون كذلك، ولكننا نجد، من حيث وقعه على المجتمع، أنه لم يحقق إلا أزيزا خفيفاً. (كما أن إيراداته لم تكن تستحق الذكر). ومشكلة فيلم «المواطن كين» أو لعلها عظمته، أنه كان عملا فنياً أكثر مما يلزم لكي يحدث أثراً دعائيا أو اجتماعياً. وكما أوضح جورج لويس بورجز عن صواب، فإن هذا الفيلم «متاهة لا بؤرة لها». وبكلمات أخرى، لم يكن من المحتمل أن يغير هذا الفيلم رأي أي أحد. ونعود لنقول إنه لا يمكننا أن نذكر أن فيلم جون فورد «عناقيد الغضب» The Grapes of Wrath (1940) قد ساعد في دعم سياسة فرانكلين روزفلت لتخفيف الأزمة الاقتصادية (وإن



• فيلم «إنقاذ الجندي ريان» (1998)

بقلم: أوليفر ل. نورث

مقدم متقاعد في سلاح البحرية الأمريكي، وضيف مشارك في برنامج م س ن ب س «وقت متساو».

كان لفيلم المخرج ستيفن سبيلبرج «إنقاذ الجندي ريان» Saving Private Ryan وقع عميق على الثقافة الأمريكية، ليس بسبب تحليله التاريخي، ولا من أجل أي دروس منبثقة من الحبكة، بل بفضل تصوره المثير للصراع المسلح.

لقد تم وصف مشاهد القتال في هذا الفيلم بأنها «ساحقة» و«عنيفة جدا»، «وملطخة بالدماء»، «مفزعة بحيث لا يمكن تحملها»، و«مؤلمة». وهي فعلا كذلك. والحرب كذلك أيضا. ومشاهد المعارك الافتتاحية والختامية توضح بوحشية ما يماثل ما شاهدته على هذا الجانب من المعارك الفعلية.

والذين يعرفون منا الفزع التام والقوة الحارقة للأجزاء المعدنية الساخنة ذات السرعة العالية التي تمزق أجسامنا وأجسام زملائنا، يدركون أن مشاهد القتال التي سجلها فيلم «إنقاذ الجندي ريان» على السيليولويد (الباغة) واقعية فعلا. ففي القتال الحقيقي يتشوه الرجال بفظاعة وتخرج أحشاؤهم، إنهم يعانون من الجروح المؤلمة ويصرخون بأعلى صوت ينادون أمهاتهم في حيرة وارتباك وهم راقدون يموتون على أرض ملطخة ببركة من دمائهم.

كانت أهوال الحرب حقيقية بالنسبة لأبناء جيلي. وعاد آباؤنا وأعمامنا وجيراننا من الحرب العالمية الثانية ومن كوريا بعد أن شاهدوا أحسن وأسوأ ما يمكن أن يقدمه لهم هذا العالم. كما أن بعضهم لم يعد بطبيعة الحال. وبعد مرور عدد من السنوات، ذهبنا نحن إلى مكان يسمى فيتنام.

لقد كشف فيلم «إنقاذ الجندي ريان» أمام الجيل الحالي وحشية لم يروها قط - ونأمل ألا يروها. إنه يصور الحرب كما هي في الواقع، بدلا من تمجيد القتال كما فعلت أفلام أخرى من قبله. إنني لم ألتق أبدا بشخص إشترك في حرب يريد أن يشترك في حرب أخرى. وهذا الفيلم يساعدنا في إدراك السبب وراء ذلك.

أمريكي يطير في مدار الأرض (بعد الروسي يوري جاجارين).
2001: أوديسا الفضاء (1968): عرض لغريزة الاكتشاف والخوف من الآلة.
«متروك في الفضاء» (1991): يجد رائد الفضاء نفسه متروكا وحده داخل كبسولة تدور حول الأرض. ولقد تم عرض هذا الفيلم قبل وقوع المحنة الفعلية لصاروخ الفضاء «أبوللو 13».
22 - 28 أكتوبر 1962: في أثناء ذلك الموقف المخيف وغير الودي خلال الحرب الباردة، وأزمة الصواريخ الكوبية، تبادلت أمريكا والاتحاد السوفييتي التهديدات بخصوص إرسال صواريخ روسية إلى جزيرة كوبا.
دكتور سترينجلاف (1964): كرد فعل لتصاعد التسليح الذري، قدم المخرج ستانلي كوبريك هذا الفيلم كرؤية مضحكة بشكل غير معقول وإن كانت مخيفة وعلى قدر من تماسك الأفكار.
«أيها السادة المحترمون! لا يمكنكم أن تتقاتلوا هنا. فهذه هي قاعة الحرب». قالها الممثل بيتر سليرز في فيلم «دكتور سترينجلاف» (1964).
22 نوفمبر 1963: إطلاق الرصاص على الرئيس جون ف. كينيدي ومقتله في دالاس، تكساس.
«ج.ف.ك» (1991): حركت النظريات المثيرة للجدل



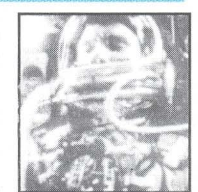


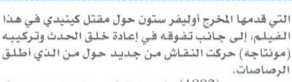
يفعلنها من أجل أنفسهن

تحافظ الممثلة الخالدة كاثرين هيبورن (الصورة العليا) على النموذج القوي للمرأة في أواخر الأربعينيات، في دورها في فيلم «ضلع آدم» (1949). ولكن الفيلم يوضح في الوقت نفسه أن قوة شخصيتها تعود إلى زوجها في الفيلم (من غيره) الممثل سبنسر تراسي. وتثبت الممثلة فاي دوناوي (الصورة السفلى إلى اليمين) أنه يمكنها أن تتغلب على ذكاء الممثل ستيف ماكوين (لا يظهر في الصورة) في فيلم «قضية توماس كراون» (1968)، ولكن منطق الستينيات يملي عليها أن تهرب معه على أي حال. وفي أفلام تالية لم يكن وجود الرجال ضرورياً، فقد طاردت الممثلة سيجورني ويفر وحدها الشخص المزعج القادم من الفضاء في فيلم «الغريب» (1979، الصورة اليسرى)، كما قدمت الممثلة جنيفر بيلز في فيلم «الرقص المتوهج» (1983، الصورة السفلى إلى اليسار) نموذجا نسائيا ينقسم بين الغطرسة السيئة والنعومة الجذابة.

كانت بعض الأحداث التي وقعت في بداية شتاء 1941 جعلت هذا الجانب قابلا للمناقشة).

وهناك برهان أقوى أثراً وهو أننا قد تغيرنا في أحسن الحالات عن طريق الأغاني الشعبية «بوب» pop الممتعة، أو في أسوأ الحالات عن طريق تفاهات كاملة. ويحتمل أن تكون الثقافة المضادة في الستينيات هي التي جلبت الثورة الجنسية في أعلى درجاتها، ولكن أفلام جيمس بوند التي مثلها شين كونري هي التي أشعلت الفتيل. (ومن المثير للاهتمام أن الفيلم الذي يمثل ذ روة الاتجاه السائد في الثقافة





التي قدمها المخرج أوليفر ستون حول مقتل كينيدي في هذا الفيلم، إلى جانب تفوقه في إعادة خلق الحدث وتركيبه (مونتاجه) حركت النقاش من جديد حول من الذي أطلق الرصاصات.

«ميدان الحب» (1992): تؤدي الممثلة ميشيل بفايفر دور المرأة التي صدمها خبر مقتل الرئيس، وقامت برحلة حج إلى واشنطن لتحضر جنازته.

2 يوليو 1964: الرئيس جونسون يوقع قانون الحقوق المدنية 1964، الذي يحظر أي تعصب للأجناس داخل أماكن العمل والأماكن العامة.

«في لهيب الليل» (1967): يكافح الممثل سيدني بواتييه ضد



الممثل رود ستايجر في غموض ولكنه يوضح التعصب للأجناس في كلا الجانبين من خط اللون.

28 أغسطس 1968: تبدو أمريكا وكأنها على حافة أزمة عندما يتشابك المتظاهرون مع رجال البوليس حول سياسة الحرب، خرج مبنى المؤتمر القومي الديمقراطي في شيكاغو.

«وسيلة التعبير الهادئة» (1969): يعرض اليساري هاسكيل ويكسلر بعض الشرائط السينمائية الفعلية لبعض الممثلين وهم حاضرون داخل مؤتمر 1968.

«الراكب السهل» (1969): يقوم رجلان بالبحث عن «أمريكا الحقيقية»، وبذا يفتحان الباب أمام عهد جديد من التشكك من الأشياء بطريقة ساخرة.

«لم يخطر ذلك على بالي إطلاقا، خاصة وأنه كان فيلما عنيفا، دون مراعاة للزمن الذي كنا نعيش فيه». قالها آرثر بن مخرج فيلم «بوني وكلايد» (1967).

السبعينات:

22 يناير 1973: أقر القضاء العالي السماح

المضادة وهو فيلم «الراكب السهل» Easy Rider (1969) يشمل جزءاً واحداً فقط مما يمكن اعتباره مشهداً جنسياً، وحيث إنه يحدث خلال أسوأ الرحلات القاسية فهو مشهد رديء حقاً). أما فيلم إلفيس بريسلي «تحيا لاس فيجاس Viva (1964) Las Vegas وفيلم رات باك « 11 من المحيط» Ocean´s (1960) Eleven فقد عرضنا نماذج من الحدود الجديدة لمذهب المتعة واللذة، والتي مازال بعض المتطرفين متمسكين بها حتى الآن. وأما فيلم «الرقص المتوهج» (1983) Flashdance فلم يكتف بأن يوحي لجيل كامل من النساء بأن ينزعن أكمام بلوزاتهن الفضفاضة، بل قام بتوضيح السلطة النسائية الجديدة. كما لم يكتف فيلم «المسدس الأعلى» (1986) Top Gum بأن تسبب في زيادة الإقبال على الإنضمام إلى طيران الأسطول، بل زود أيضا بطريق غير مباشر، عمليات المستقبل مثل حرب الخليج، بالأساس السليم لحساب سرعات الطيران. ويمكنك أن تجادل في القيمة الترفيهية لأي من هذه الأفلام، (أما فيما يختص بالفيلمين الأخيرين منها، فإنني أفضل أن أجلس أمام جهاز التلفزيون لمدة أسبوع أشاهد خلاله كل ما تقدمت قنوات الإرسال من تفاهات عن أن أجلس لمشاهدة أي منهما مرة أخرى)، ولكن إذا هبط رجل من الفضاء غداً في حديقة منزلك الخلفية فأي شريط منها تختاره لكي تعرضه على الضيف الصغير إن كنت تريد أن تقدم له أحسن ما أنتجته الكرة الأرضية من هذا الشكل الفني الشهير؟

ونجد بالمثل أن الأفلام السينمائية الرديئة التي تدور حول حرب فيتنام هي التي كان لها أكبر وقع اجتماعي. والفيلم الوحيد عن فيتنام الذي أنتجته أحد الاستديوهات الكبيرة أثناء الحرب نفسها هو

• فيلم «ثائر بلا قضية» (1955)

بقلم: اس. إ. هينتون

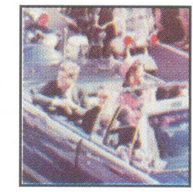
*** مؤلف قصة «الدخلاء» و«دمدمة السمك» وقصص أخرى لصغار البالغين**

من السهل إن نقول أن فيلم المخرج نيكولاس راي قد عرّف لنا كلمة «مراهق»، ولكن الفيلم - على مستوى اللاوعي - يدور حول التعريف نفسه. الصدق والإخلاص والشرف والصداقة والحب، والأسرة أيضا.. كلمات كان جيم (تمثيل جيمس دين) وجودي (ناتالي وود) وبلاتو (سال مينيو) يكافحون لمعرفة معناها، وهي الكلمات التي لم يعد البالغون يعرفون معناها الآن - إن كان قد سبق لهم ذلك على الإطلاق. وإذا كنت في عالم لا يحدد فيه ممثلو السلطة أمامك مهمة كل جنس (الأب يرتدي ثوب المطبخ؟ ما معنى هذا؟) فما عليك إلا أن تستنبط أنت رؤيتك الخاصة، وبسرعة.

وخلال التجول في منزل كبير خاو - وهو المجاز الكلاسيكي للبحث عن الذات (هل هو جيمبو؟ هل هو جيمي؟ هل هو جيم؟) - فإنهم يشعرون بأن لهم الحق في إعادة تعريف عالمهم. هذا هو الوقت المناسب في الحياة لكي نضع خطا واضحا بين «هم» و«نحن»، بين «لا تنازل» و«تنازل أو تموت». وتكاد تسمع صوت المتفرجين في عام 1955 وقد انقسموا بوضوح، يقولون: «ياه، هذا هو نحن» و«من المؤكد أنني لست كذلك». والأسرة، في تعريف جيم وجودي وبلاتو، لن تؤنبك لأنك ارتديت جوربين مختلفين، أو تنقلب ضدك لنشاطك الجنسي.

إن الثورة ضد التزييف، حتى داخل مجموعة أصدقائك، تبدو اليوم وكأنها شيء تذكرناه بعد نسيانه. وعندما يحيي فرسان الفيلم بعضهم بعضا قبل القتال («عليك أن تفعل شيئا، أليس كذلك؟») يبدو هذا التصرف صادقا، مثلما كان يقال في يوم من الأيام: «انقذ الأرض المقدسة من الكافرين».

إن أكثر متعة ترضيك عندما تشاهد عملا فنيا أن تتعرف على نفسك في الآخرين. لقد أعطى فيلم «ثائر بلا قضية» للمراهقين الحق في إعادة تعريف العالم من حولهم، وأن يعيدوا المعاني ثانية للكلمات التي فقدت معناها من كثرة الاستخدام. ولقد تمسك المراهقون بهذا الحق منذ ذلك الوقت.



بالاجهاض قانونا، بعد جهود رو ف. ويد، وكان ذلك من أكثر الموضوعات التي دار حولها النقاش في السياسة الأمريكية.

«أمر خاص» (1992): تؤدي الممثلة سيسي سباسيك دور إمرأة تكافح من أجل إجهاضها في الستينيات.

«المواطنة روث» (1996): استغلال ظروف امرأة حامل في المعركة الدائرة بين مؤيدي حركة الإبقاء على حياة الجنين ومؤيدي حركة الاختيار بين الإجهاض والإبقاء على حياة الجنين.

29 مارس 1973: تغادر آخر القوات الأمريكية جنوب فيتنام، معلنة أول هزيمة في التاريخ الحربي للولايات المتحدة.

«صائد الغزلان» (1987): قصة بطولة المحاربين القدامى في فيتنام مع توضيح الآثار المدمرة للحرب.

لحظة كلاسيكية من فيلم المخرج أوتو بريمنجر «النصيحة والموافقة» (1962): والرجل الذي يظهر في المرآة هو عضو مجلس الشيوخ (تمثيل دون موراي) الذي يقع تحت التهديد بالإبتزاز لماضيه في الشذوذ الجنسي. وهو الوضع النقيض الذي سبق حالة مونيكا لوينسكي. ويعمل مهددوه سوياً من أجل سياسة تقدمية.

فيلم جون واين «البريهات الخضراء» The (1968) Green Berets، ذلك الفيلم السخيف الذي أثار موضوع الصراع. نجد حسب مخيلة واين الفاسدة، أن تشارلي لم يكن جاثما في الأحراش يأكل لحم الفئران، بل كان يقيم متنعما في قصر مهجور، حيث يمكن أن تزوره ماتاهاري على مضض لكي تغويه، حتى تتمكن وحدة من القوات الخاصة أن تدهم المكان فجأة. وما أن تخلصت هوليوود من خوفها من طرح موضوع فيتنام، حتى أصبحت أغلب الأفلام المتميزة التي تدور حول الحرب لا تتعرض لها على الإطلاق، وإنما تستخدمها كخلفية للموضوع فقط.. إن فيلم «سفر الرؤيا الآن» Apocalypse Now (1979) عبارة عن بانوراما شبه سيريالية عن قسوة الإنسان ووحشيته تجاه الآخرين، بينما يعرض فيلم «صائد الغزلان» The Deer Hunter (1978) تأملا في موضوع الرجولة، وفيلم «فصيلة من الجنود» Platoon (1986) عبارة عن قصة تعليمية.. وهكذا...

ثم ظهرت أفلام رامبو بطولة سلفستر ستالوني، وأفلام عن سجناء الحرب بطولة تشاك نوريس، وأغلبها أكثر سذاجة من فيلم «البريهات الخضراء» والطريقة التي استغلت بها هذه الأفلام الحالة العقلية في أعقاب حرب فيتنام («هل علينا أن ننتصر في هذه المرة يا سيدي؟») كانت هي التي أسهمت في



«سفر الرؤيا الآن» (1979): رحلة صاخبة إلى كامبوديا تكشف عن الأهوال التي يمكن أن يرتكبها الإنسان.
«فصيلة من الجنود» (1976): يؤدي الممثل تشارلي شين دور مجند عمره ١٨ سنة يشهد بنفسه كيف ينقلب الجنود الأمريكيون على بعضهم البعض.
30 يوليو 1974: اللجنة القضائية العليا تقر الاتهام الثالث والأخير بخيانة الوطن ضد الرئيس ريتشارد نيكوس، فيستقيل في 9 أغسطس 1974.



«كل رجال الرئيس» (1976): تخليد مهمة المحققين الصحفيين بوب وودوارد (تمثيل روبرت ريدفورد) وكارل بيرنستاين (داستين هوفمان) بوصفهما الشخصين اللذين أسهما في الإطاحة برئيس الدولة. وأدى هذا الفيلم إلى زيادة الإقبال على الالتحاق بمعاهد الصحافة بمعدل كبير.
نيكسون (1995): محاولة المخرج أوليفر ستون لإضفاء صفة إنسانية على الرئيس الذي هوجم من جميع الجهات.

السبعينات:
28 مارس 1979: أصيب المفاعل النووي في جزيرة ثري مايل في بنسلفانيا بحالة انصهار جزئي. وغادر آلاف السكان المنطقة.
«أعراض صينية» (1979): مخبر صحفي يحقق في حالة مفاعل نووي غير آمن. وتم عرض هذا الفيلم قبل حادث جزيرة ثري مايل بأسابيع قليلة.
«سيلكوود» (1983): تؤدي الممثلة ميريل ستريب دور كارين سيلكوود، الموظفة الحقيقية المكلفة بإطلاق صفارة التنبيه في مصنع الأجزاء النووية في أوكلاهوما، والتي ماتت في ظروف غامضة.

نجاح هذه الأفلام. والإجراءات التي قام بها تشاك نوريس وغيره في أفلامهم للبحث عن سجناء حرب فيتنام هي التي جعلت رجال الكونجرس يعتدلون في جلستهم ويلحظون ما يدور.

إن الأفلام السينمائية التي تحاول أن تلخص أو توضح في سياق النص، الخبرة الأمريكية مع الوصول إلى نتائج عميقة جادة، هي أفلام من مستوى أفضل. وأغلب الظن أن محبي الفيلم السياسي المثير «النصيحة والموافقة» Advice and Consent (1962) للمخرج أوتو بريمنجر، كانوا يتثاءبون خلال الأحداث التي انتهت إلى اتهام الرئيس كلينتون بخيانة الوطن، فقد سبق لهم أن شاهدوا ذلك من قبل، بتمثيل وحوار أفضل. وإن كانت الحبكة في واقع الحياة تختلف، إلا أنها مازالت القصة القديمة نفسها.

أم أنها الأغنية الحزينة نفسها. والشيء الذي تحب أن تفعله هوليوود بأي أغنية حزينة هو أن تقدمها ثانية بطريقة أفضل. ولهذا السبب ظهر فيلم مثل «فورست جامب» Forrest Gump (1994) وهو فيلم مليء بالإحساس بالذنب ولكنه اعتذار غير مقنع بشكل مريع عما تم في الستينيات. وما أكثر إنجازات فورست جامب وخطاياه أيضا. لقد تمكن هذا الفيلم، عن طريق سحر المؤثرات الرقمية، أن يمر بأحداث عقدين من السنوات للرئيس ريجان ومن سبقه من الرؤساء (حتى نيكسون يبدو هنا لطيفا بطريقة إيجابية). ويوحي الفيلم بأن المغني إلفيس بريسلي لم يكن في إمكانه أن يرسي خطواته بنفسه، وبأن بطل الستينيات المغني لينون لم يكن قادرا على أن يقدم لوحده أغنية مثل «تخيّل». ويصف الفيلم الحركة المعادية للحرب كوسيلة عظيمة لتفريغ

• فيلم «ألوان» (1988)

بقلم: كورتيز سليوا

* مؤسس جماعة مقاومة الجريمة المسماة «الملاك الحارس» والمضيف في أحاديث الإذاعة في مدينة نيويورك.

ظهر فيلم «ألوان» Colors مباشرة قبل أن تسجل لوس أنجلوس أعلى معدلات ارتكاب الجرائم في الولايات المتحدة. وعقب العرض العام للفيلم وقعت فجأة حوادث إطلاق نار متعاقبة أثناء التحرك بالسيارات، في أماكن مثل ميسوري. وكأن فيلم «ألوان» موجة لم تكتف بأن تصيب الأماكن السكنية الرئيسية، بل أصابت أيضا المدن الصغيرة. لقد أصبح فيلما تؤمن به الجماهير، مثل فيلم «العرض السينمائي المرعب روكي» The Rocky (1975) Horror Picture Show. لقد بدأ الصبية يهتمون بأن يصبحوا أفراد عصابات ويؤدون الفيلم مرة تلو الأخرى ويرددون حواره. لقد أرادوا أن يعيشوا الفيلم نفسه. لقد بدا الفيلم بالنسبة للصغار وكله حيوية وانتعاش، لأنه يضم كل العناصر: اللقطات السريعة في حركتها، والتصوير الممتاز وموسيقى راب rap تفوق الخيال.

ويقول المخرج دينيس هوبر إن فيلمه يوضح كيف أن العصابات تضر المجتمع. وأنا لا أصدق كلمة واحدة مما قال. إنه فيلم من نوع «كيف تفعل» من أجل أن تطلق النار أثناء مرورك بسيارتك. هناك مشاهد في الفيلم تمجد هذا الموت والدمار، بينما لا توجد أقل إشارة سلبية لذلك.

ويحدث أحد المشاهد التي كان لها وقع كبير، عندما يمر أفراد العصابة في سيارتهم أمام منزل أحد الخصوم. نرى المختص بإطلاق النار منهم وهو يستعد داخل السيارة بينما يدخن أصدقاؤه سجائر الحشيش. ثم نرى ذلك الفتى وتعلو وجهه ابتسامة عريضة — وكأن ما يقوم به أمتع من ممارسة الجنس — عندما يدع الرصاصات تتطاير.



الثمانينيات:

4 نوفمبر 1980: تم انتخاب الممثل وحاكم كاليفورنيا السابق رونالد ريجان الرئيس رقم 40 للولايات المتحدة.

«كنوت روكن، لاعب فريق أول أميريكان» (1940): أدى قيام ريجان بدور لاعب الكرة جورج جيب في هذا الفيلم، إلى أن أصبح شعار حملته الانتخابية فيما بعد «اكسب واحدة من أجل الجيبر».

«بوب روبرتس» (1992): رسالة بحث المخرج توم روبنز عن مبادىء السياسة ضد الصورة المصنوعة.

يونيو 1981: نشرت مراكز التحكم في الأمراض أول تقرير لها عن المرض الذي عرف بعد ذلك باسم الإيدز.

«الرفيق القديم» (1990): الحياة في تجمعات الشذوذ الجنسي خلال





الحياة العائلية

«بتلات زوزو!» يقولها جيمس ستيوارت عندما يتمكن من العودة مبتهجاً إلى أفراد أسرته في نهاية فيلم «إنها حياة رائعة» (1946، الصورة السفلى إلى اليسار). ولم تكن الأمور وردية بالنسبة لمثل جيمس دين في فيلم «ثائر بلا قضية» (1955، الصورة اليسرى)، ويعود جزء من التفسير الفرويدي الذي يقدمه الفيلم إلى ضعف شخصية الأب (تمثيل جيم باكوس). إن الانتقال من فيلم «إنها حياة رائعة» إلى «ثائر بلا قضية» وإلى أفلام أخرى مثل «الخريج» (1967) و«ناس عاديون» (1980)، بسيط ولكنه شاسع، فبدلا من الاحتفاء برب الأسرة، نجدها تعرض أمامنا قلق الأبناء واضطرابهم، كما في حالة داستين هوفمان في دور بنجامين برادوك (على الوسادة العائمة في الصورة العليا)، وتيموثي هاتون في دور المعذب كونراد جاريت (الصورة السفلى الى اليمين).



الجبناء (ومن حسن الأمور أن الفيلم لم يتعرض لحركة الحقوق المدنية)، وهكذا. ونرى خلال الفيلم كله الممثل توم هانكس الصريح بغباء، وهو يتألم ولكنه صادق وثابت طوال الوقت، ويعرف دائما ما هو الصواب لأنه لا يعرف غيره، ويخلص لامرأة بكل إنكار لذاته، بينما تستسلم هي لكل تجاوزات الثقافة المضادة (وينتهي بها الأمر بأن تموت من جراء هذا).

يا له من إنجاز تذكاري خالد، أيا كانت الزاوية التي تنظر إليه منها. إن فيلم «فورست جامب» مثل باقي الأعمال السينمائية الفنية، عبارة عن آلة تدمر التاريخ، وترسي مكان الممثل توم هانكس كشخص يكفر عن كل هذه الذنوب. إنه يموت أو يعاني نتيجة



الفترة التي ظهر فيها مرض «سرطان الشذوذ». ويشير عنوان الفيلم إلى التعبير الرقيق عند نعي من يحب رجلا شاذا.

«فيلاديلفيا» (1993): يؤدي الممثل توم هانكس دور محام يفصل من عمله لأنه مريض بالإيدز، مما ساعد على عرض الموضوع أمام الرأي العام.

22 يناير 1987: عندما ووجه ر. باد دوير أمين خزانة ولاية بنسلفانيا بتهمة الفساد قتل نفسه بالرصاص على شاشات التليفزيون.

«شبكة التلفزيون» (1976): محطة إرسال تلفزيوني تدفع معلقها على الأخبار إلى الانتحار أمام المشاهدين على الشاشة لكي تعزز مستواها بين المحطات المنافسة، في هذا الفيلم الذي ينقد وسائل الإعلام.

مجال الفيديو (1983): من إخراج ديفيد كروننبرج عن تضخم عصر الفيديو المقبل، حيث يزداد الخوف من تحكم وسائل الإعلام إلى أقصى مدى من التأثير على عقول المشاهدين.

«أنا لا أدمر الشركات، بل أمنحها حريتها.. والطمع، قد تكون هذه هي الكلمة المعبرة، جيد والطمع أمر سليم. والطمع يعطى. والطمع.. يصل بنا إلى جوهر طريق التطور». قالها الممثل مايكل دوجلاس في فيلم «وول ستريت» (1987).

19 أكتوبر 1987: يراقب أخصائيو وول ستريت انخفاض المتوسط الصناعي «دو جونز» 508نقاط، مما يعيق سوق المضاربة ومفهومها.

«وول ستريت» (1987): يقوم الممثل مايكل دوجلاس بدور سيد الكون ويقوم تشارلي شين بدور وسيط (سمسار) البورصة المبتدىء الذي يحتويه تحت جناحه، في هذا الفيلم الذي ساعد في التجاوزات التي حدثت في أعوام الثمانينات.

التسعينيات:

15 يناير ــ 28 فبراير 1991: حرب الخليج. تنهمك الولايات المتحدة في الهجوم الجوي والبري ضد العراق.

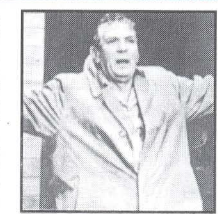
«شجاعة تحت النيران» (1996): يفحص إدوارد زويك في هذا الفيلم ضغوط القتال وأخطاء القيادة الفاشلة.

«ثلاثة ملوك» (1999): يتلاعب عدد من الجنوب الأمريكيين بالأطماع الشخصية والمسؤولية الأخلاقية قرب نهاية حرب الخليج.

11أكتوبر 1991: كلارانس توماس المرشح للقضاء العالي

أخطاء جيل بيل كلينتون. نراه في فيلم «فيلادیلفيا Philadelphia (1993) يتلقى الصدمة لأن ذلك الجيل لم يهتم بمرض الإيدز، وفي فيلم «أبوللو 13» Apollo 13 يقدم صفعة للجيل نفسه لعدم اكتراثه ببرامج الفضاء، وفي فيلم «الكبير»Big (1988) يقول للمهنيين من سكان مدن أمريكا أنه لا مانع من اللعب ولكن عليهم إن آجلا أو عاجلاً أن ينضجوا، أو يعودوا إلى مساكنهم. وهو في فيلم «إنقاذ الجندي ريان» Ryan Saving Private (1988) يتعرض فجأة وبلا عدالة للموت، لا من اجل إنقاذ ريان، بل من أجل كل مرة يضطر فيها أي شخص ممن ولدوا بين 1946 و1958 للاستماع للقصص المملة التي يكرر روايتها أحد الأعمام عن الحرب العالمية الثانية وهو جالس إلى مائدة العشاء يوم عيد الشكر. ولا يمكن حتى للممثل جيمس تيوارت - الذي يذكر اسمه دائما كلما ذكر اسم توم هانكس - أن يتحمل مثل هذا العبء. وإذا كانت الشخصيات التي يمثلها توم هانكس تسوء أحوالهم في نهاية أفلامه، فإن المتفرجين يشعرون بالارتياح عندئذ. وهذا بطبيعة الحال لن يجعل المتفرجين يشعروا بأي رغبة في الانطلاق لتغيير أي شيء.

وهكذا نجد أن الأفلام السينمائية لا تخلق بالضرورة تغييرات جذرية في روح العصر. أما التغييرات التي يمكن أن يقال إن الأفلام أحدثتها فهي تغييرات غير ودية. ويمكنك أن تجادل فيما إذا كان فيلم «بوني وكلايد»Bonnie and Clyde (1967) كان بداية لمجموعة من الأفلام التي تمجد الجريمة وعمل رجال العصابات، وهذا هو السبب في أن صور عائلة كورليوني في فيلم «الأب الروحي» The Godfather (1972) معلقة بلا خجل في



يرد على اتهامه بالمضايقات الجنسية ضد الموظفة السابقة أنيتا هيل، أمام اللجنة القضائية لمجلس الشيوخ.
«من التاسعة إلى الخامسة» (1980): فانتازيا عن الانتقام من المضايقات الجنسية: ثلاث نساء عاملات في أحد المكاتب يخطفن رئيسهن المتباهي برجولته ويقمن بتعذيبه.
«إفشاء الأسرار» (1994): امرأة عدوانية تأمل في بعض الأفعال الجنسية من جانب مرؤوسها الرجل.
إبريل 1992: تجتاح المظاهرات والاضطرابات مدينة لوس أنجلوس بعد تبرئة رجال البوليس البيض من الاعتداء الوحشي على الزنجي رودني كينج.
«افعل الصواب» (1989): يفحص المخرج الزنجي سبايك لي منطقة في بروكلين تستعد للانفجار في أكثر أيام العام سخونة.



● فيلم «كرامر ضد كرامر» (1979)

بقلم: راؤول فيلدر

*** محامي الطلاق الذي كان موكلا عن روبين جيفنز وكارول تشاننج وغيرهما.**

كان الطلاق أحد الموضوعات الساخنة في أمريكا عندما بدأ عرض فيلم «كرامر ضد كرامر» Kramer versus Kramer. لقد حان وقت التغيير، وإلغاء معاملة الطلاق وكأنه وصمة عار. وكانت هناك ثلاث حركات تجتاح أمريكا في ذلك الوقت: إحداها تطالب بطلاق خال من الأخطاء، وتطالب الحركة الثانية بتقسيم الممتلكات، وتطالب الثالثة بالمساواة بين الأمهات والآباء في حالات الحضانة والرعاية. وانفجر فيلم «كرامر ضد كرامر» في الساحة في الوقت نفسه الذي كانت تتم فيه مناقشة هذه المطالب عبر الدولة كلها. وكانت نيويورك في الواقع هي المكان الأخير الذي أصدر قوانينه في هذا الصدد يوم 19 أكتوبر 1980.

ولقدجعل هذا الفيلم تصورات التلفزيون للأبوة، مثل أفلام «خطوبة والد إيدي» The Courtship of Eddie´s Father (1962) و«أبنائي الثلاثة» My Three Sons تبدو وقد أفلست من الناحية الفكرية. لقد أجبرنا فيلم «كرامر ضد كرامر» على مواجهة حقيقة غير سارة للحياة، حقيقة لم تعد قاصرة على ناس «آخرين» في المدينة المجاورة. لقد كان مرآة لنا. وعندما ظهر هذا الفيلم، قال لي كثيرون، وأنا متأكد أن هذا ما قالوه أيضا لمحاميي الطلاق: «كرامر هذا، هو أنا. لقد أعدت تشكيل حياتي مع ابني وابنتي، وضحيت بعملي»، وهم يخشون الآن أن ينزع منهم الابن.

لقد غير فيلم «كرامر ضد كرامر» نظرتنا نهائيا إلى الطلاق وما يعقبه. لقد ناقش فكرة أن الأم هي الشخص المفروض أن يتولى رعاية الأبناء، وكذلك فكرة أن الطلاق هو مسألة صواب أم خطأ، براءة أم ذنب. لقد ساعد الفيلم في تغيير هذه المفاهيم إلى الأبد، لأنك فهمت موقف الزوج وفهمت موقف الزوجة، ولأنك فهمت أيضا عدم صلاحية القانون في التعامل مع مشاكل القلب، التي هي الطلاق نفسه.

يستغني المخرج أوليفر ستون في فيلمه الغاضب «مولود في الرابع من يوليو» (1989) عن الكبح الذي سيطر على أحداث فيلم آخر هو «أحسن سنوات حياتنا» (1946) الذي يدور حول مرحلة ما بعد حرب مختلفة. ويبدو أن صدمة فيتنام تتطلب هذا الغضب.

جميع قاعات البيتزا عبر كل أمريكا. واستمراراً لهذا الجدل هل ننسى الأفلام الكلاسيكية في الثلاثينيات، مثل فيلم «قيصر الصغير» Little Caeser (1931) وفيلم «عدو الشعب» The public Enemy (1931) وكذلك أول فيلم باسم «الوجه ذو الندبة» Scar face (1932) ؟ وبهذه المناسبة يمكن للمرء أن يؤلف كتابا عن تأثير الفيلم الذي أعاد إخراجه بريان دي بالما عن الفيلم الأخير نفسه في عام 1983، على ثقافة الهيب هوب hip - hop في أيامنا هذه.. وهل ننسى فيلم «ملائكة ذوو وجوه قذرة»؟

ومرة أخرى، لو لم يكن فيلم «إنقاذ الجندي ريان» قد ظهر، هل كان الهجوم الدقيق الحالي على الخبير بات بوكانان المرشح للرئاسة (نعم، ألمانيا هي التي بدأت بإعلان الحرب على الولايات المتحدة) وكذلك الانتقاد الجنوني على تورط الولايات المتحدة في الحرب العالمية الثانية يصلان إلى هذه الحدة

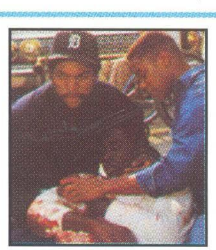


«أولاد في العصابة» (1991): نضال بعض الشبان في جنوب وسط لوس إنجلوس تحت إغراء العنف والعصابات.

3 نوفمبر 1992: تم انتخاب ويليام جيفرسون كلينتون الرئيس رقم 42، وسط توجيه اتهامات كثيرة له بالخيانة الزوجية.

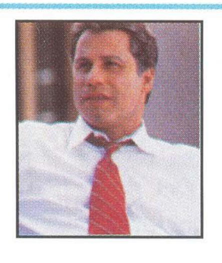
«ألوان أساسية» (1998): يعتمد هذا الفيلم على قصة الكاتب جو كلاين. يتابع الكشف المتستر هنا عما دار أثناء حملة بيل كلينتون الانتخابية، ما حدث مع المرشح جاك ستانتون (تمثيل جون ترافولتا) أثناء كفاحه من أجل الوصول إلى المنصب.

19 إبريل 1995: تدمر قنبلة داخل عربة نقل مبنى ألفريد ب. موراه الفيدرالي في مدينة أوكلاهوما، وتقتل 168 شخصا، مما يعد أسوأ عمل إرهابي داخلي في تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية.



«الفجر الأحمر» (1984): فانتازيا للمراهقين. يواجه الشباب الأمريكي غزوا روسيا. وهو الفيلم المفضل لدى تيموثي ماكفى قاذف القنابل.

«ملفات X»: يجد المتخصصون في نظريات التآمر في الفيلم التلفزيوني «ملفات X» (1998) منفذا ثقافيا. وتبدأ النسخة السينمائية من هذا الفيلم بانفجار في مبنى فيدرالي في مدينة تماثل أوكلاهوما.



والصخب؟ وإذا نظرنا من خلال عدسة فيلم «إنقاذ الجندي ريان» فإننا نرى أن الحرب عبارة عن جحيم حقيقي، كما نرى أيضا أن الأسباب التي دعت إلى اشتراكنا فيها هي مائة في المائة أسباب قوية شجاعة نقية ومحترمة. إلا أنها في الواقع ليست كذلك، ولم تكن كذلك أبداً. وعندما كنا نتابع المحلل الإعلامي جوناثان آلتر يمكن أن يكون بهذه الشدة في إنتقاده لو لم يكن فيلم «انقاذ الجندي ريان» وكتاب توم بروكاو «الجيل الأعظم» قد طالبا باحترام الحرب الطيبة الأخيرة وعدم انتقادها.

ومن المثير للاهتمام بالمثل، أن نفكر في مدى تأثير فيلم الحركة الناجح خلال هذا الخريف «ثلاثة ملوك» Three Kings (1999) على أفكار البوب pop (يا له من تقابل لكلمتين متناقضتين)؟ ويوضح الفيلم حرب الخليج بسخرية من تزييف لمحاكاة لسخرية من تزييف (كما قد يصفها الممثل الكوميدي المخرج وودي آلان)، كما يرد اسم جورج بوش عدة مرات خلال الفيلم بوصفه المرتكب الرئيسي للتزييف المذكور. وإذا كانت خطايا الأب تنتقل حقيقة إلى الابن، وإذا نفذت رسالة فيلم «ثلاثة ملوك» إلى قلوب المشاهدين، سيكون لهذا حتماً أثر سيىء على جورج بوش الابن. ربما يلزمنا الآن أن نتفق على موعد آخر نلتقي فيه لبحث هذا الموضوع في منتصف نوفمبر 2000.



16 ديسمبر 1998: تلقي الولايات المتحدة قنابلها على العراق في المساء الذي يسبق يوم التصويت على اتهام الرئيس كلينتون بالخيانة الوطنية، مما يثير الشكوك في أن هذا العدوان قد تم تنفيذه للفت أنظار الأمريكيين بعيداً عن الإجراءات الخاصة بالكونجرس.
الكلب يهز ذيله (1997): يقترح المخرج باري ليفينسون من خلال سيناريو هذا الفيلم كيف أن مساعدي الرئيس (تمثيل آن هيتش ور وبرت دي نيرو وداستين هوفمان) يثيرون حرباً مفتعلة لكي يبعدوا انتباه المواطنين عن الفضيحة الجنسية التي تدور في مكتبه بالبيت الأبيض.
الألفية الجديدة: تقود المصائب القومية وأجهزة التنصت والحماس الديني والإحساس بالعظمة إلى التخوف من انتهاء العالم مع نهاية القرن العشرين.



«يوم الاستقلال» (1996): يتحد العالم ضد التهديد بالدمار من جانب أجسام غريبة شريرة.
«وقع عميق» (1998): يقوم نجم مذنب بمهمة تدمير الكرة الأرضية، حتى يتصدى له روبرت دوفال مضحيا بنفسه في سبيل إنقاذ كل البشر.
«أرماجيدون» (1998): أي المعركة الفاصلة بين الخير والشر. يصلنا من أعلى ما يسبب مزيدا من الموت. ويتصدى بروس ويليز ليوقف الكوكب المغير عن مواصلة شروره.
«نهاية الأيام» (1999): يصل الشيطان في الساعة التي تسبق نهاية الألفية، حين يواجهه أرنولد شوارزنيجر وحده لينقذ العالم.



● فيلم «جاذبية مميتة» (1987)

بقلم: كانديس بوشينل

*** ترأس عمودها الصحفي «الجنس والمدينة» الأساس لمسلسل HBO.**

كان الموضوع الذي طرقه فيلم «جاذبية مميتة» Fatal Attraction هو الإغراء الذي حدث في بيئة مكاتب الموظفين في الثمانينات. وكانت النساء غير المتزوجات يدخلن مجال العمل المكتبي في أعداد كبيرة، ويقمن بالمهام التي كان من المفروض تقليديا أن يقوم بها الرجال. وتقوم هنا الممثلة جلين كلوز بشخصية المرأة التي مرت بأسوأ الكوابيس التي يمكن أن تمر بها المرأة العاملة.. وكانت في الواقع خلف مظهرها الرجالي غير متوازنة. كما يسجل الفيلم أيضا الخوف الداخلي عند الرجال من النساء اللاتي يتصرفن كالرجال من الناحية الجنسية، حتى يصل بهم الأمر إلى عدم القدرة على التصرف حيال ذلك.

وفي الوقت نفسه يلمس فيلم «جاذبية مميتة» ظلما اجتماعياً معينا كانت النساء تعانين منه في ذلك الوقت، ألا وهو فكرة أن الرجال يمكنهم أن ينطلقوا ويفعلوا ما ياؤون دون أي عاقبة. ويعترف الفيلم بفشل النساء مع الرجال من أمثال الشخصية التي أداها الممثل مايكل دوجلاس - أولاء غير الجديرين بالثقة والذين لا يتحملون المسؤولية في حياتهم الجنسية، والذين يتصرفون بلا مسؤولية على الإطلاق تجاه زوجاتهم وأبنائهم. ومع هذا فالفيلم يقدمه على أنه هو الضحية، ولا تعتدل الأمور إلا في النهاية عندما تقوم الزوجة الباقية بالبيت لقتل تلك المرأة غير المتزوجة التي تهدد وضعها.

ولكن لا يتم هذا قبل أن تنهك المرأة الرجل جنسيا. لقد أصبح ذلك المشهد كلاسيكيا في التو، كما أصبح اصطلاح «التي لا ترتوي جنسيا» جزءا من قاموس ألفاظنا المتداولة. ومازلت أسمع رجالا يستخدمون هذا الاصطلاح يصفون به المرأة التي تنام مع رجل ثم تفقد تحكمها العاطفي، أو المرأة التي ينطلق عدم توازنها العاطفي [illegible] المواقف الجنسية. إن أخشى ما يخشاه الرجل هو أن تكون [illegible]تي ينام معها من النوع الذي لا يرتوي جنسياً. وأعتقد أنه يمكنك من عدة اعتبارات أن تطلق هذا الاصطلاح على مونيكا لوينسكي.

منفى على الشارع الرئيسي

كاتب روسي يمرن يده في رواية أمريكية بارعة

بقلم: جوناثان دي

ترجمة: محمد عيد إبراهيم

يثبت المنفى غالبا أنه موقف مثالي للروائي من السهل أن يجعله رومانتيكيا. بالنسبة لمؤلفين ذوي حساسية متنوعة مثل هنري جيمس وصمويل بيكيت، جوزيف كونراد وسلمان رشدي، فإن الغربة قد تخدم في تمهيد الحدود الاجتماعية والنفسية المؤدية إلى الحرية المتخيلة، وقد تعين بالنسبة لهؤلاء الكتاب وللعالم ذلك الاستلاب نصف المؤلم ونصف المنتصر زمانا ومكانا يحس بهما معظم الفنانين العظام. وفي الحقيقة، بالنسبة لأي عدد من الروائيين اللامعين، فإن حكاية صعودهم إلى مستوى العظمة تعني بالدقة حكاية تخليهم عن الوطن، من مقولة جيمس «لقد استحوذت على العالم القديم - أستنشقه. إني أقدره!» إلى صيحة المعركة الشهيرة لجيمس جويس والتي وجهها في حال تنكره الواهية بشخصية ستيبان ديدالوس: «لن يخدمني ذلك حيث لم أعد أعتقد فيما كنت أدعوه وطني، أرض آبائي أو كنيستي: وسأحاول أن أعبر عن نفسي بمزاج معين للحياة أو الفن بمقدار ما يسعني من الحرية على طول المدى مستخدما لدفاعي الأذرع الوحيدة التي أسمح لنفسي باستخدامها - الصمت، النفي، والبراعة».

العنوان الأصلي للمقال: Exile on main Street ونشر في مجلة Harper's Magazine عدد نوفمبر 1999.

لكن لو كان المنفى سلاحا في الواقع لكان استخدم تاريخيا بدرجة كبيرة ضد الكتاب ومن قبلهم، لأنه يمضي دون أن نقول إن هذه التوديعات محض إرادية. كما أن انزياحات هؤلاء الكتاب المبنية على نحو خاص لا تعني اختيارا معدلا بالتحديد - شخصيا، سياسيا، جماليا - بين النظر للأمام أو التطلع للخلف. ولننظر، على سبيل المثال، إلى الموجة الكبرى الأولى من رجال الأدب المطرودين من الاتحاد السوفييتي أخيراً إلى أمريكا مثل فلاديمير نابوكوف الذي تشير روايته «لويتا» في شكل ساحر - بمزية دقيقة من لعبة الكاتب التي تعانق الأسلوب الشعبي المتناقض وثقافة الدهماء بموطنه الجديد - إلى كونها واحدة من الأعمال القليلة التي يمكن للمرء أن يتوصل إليها بشكل صحيح في جدل يخص الرواية الأمريكية البارعة كمثل مضروب. بينما الرحيل الفني المشابه لجيل الحرب الباردة قد بعث لنا ألكسندر سولجنتسين الذي تعزز رسوخه المتحفظ على قدرية بلاده فحسب بنزوحه الجسدي عنها.

أو فلنأخذ حالة فاسيلي أكسينوف ابن المؤرخة السوفييتية الكبيرة وكاتبة السيرة يفيجيني جنزبرج (الذي قضى طفولته في منفاه الطويل في سيبيريا حيث حكم على أمه فيه بالإعدام وقد تذكر ذلك في روايته «الحريق»)، وكان أكسينوف قد بنى شهرته على رواية عامية تدعى «تذكرة إلى النجوم»، نشرها في بداية أعوام خروتشوف المتساهلة نسبيا. وصار رائد الروائيين بجيله، لكن ذلك لم يسعد السلطات التي عانت من مذهبه الشكوكي طويلا. ففي رحلة إلى كاليفورنيا عام 1981 أبلغ أحد الصحفيين أكسينوف بأن جنسيته السوفييتية قد سحبت منه، ووجد نفسه في الواقع أمريكياً. استقر مرة أخرى في واشنطن بمنطقة د.س، واستمر في الكتابة على نحو جيد ومثمر في الأعوام الخمسة عشر التالية، لكن على النقيض من سولجنتسين (وكان نابوكوف أيضا وللسبب نفسه في مستهل أعوامه بالمنفى) فإن أكسينوف كان يتحدى التغير في ظروفه ببساطة بالاستمرار في كتابة روايات روسية بكل شروطها اللغوية والموضوعية - روايات منقطعة إلى حد كبير عن جمهورها الروسي المفترض وغريبة أيضا عن الجمهور الأمريكي الجديد. ونتيجة لذلك فإن الاهتمام العام به في أمريكا قد تحول عنه، حتى بعدما صار عمله أشد نضجا وأكثر طموحا. ومنذ خمس سنوات حين نشر أكسينوف روايته العلامة الباهرة - «أجيال الشتاء» نظر البعض إليها كجزء واحد من مجموع جزأين يشملان التاريخ السوفييتي منذ 1925 حتى وفاة ستالين 1953، وهي رواية ذات قيمة مفترضة يمكن أن نعول عليها في استلهام «الحرب والسلام» لكن في القرن العشرين. وكان الصمت مثل مثلث برمودا الرهيب أضفاه بعض من النقاد الأمريكيين ليغمر إطلاق هذه البطولة التي أنجزت كنتيجة موازية لذلك في «بطل الشتاء».

لكن نفور أكسينوف من هجر هويته كروائي روسي يبدو الآن أمرا مبدئيا أو محوريا يترفع عنه كثيرا كنوع من احترامه لعملية الاستيعاب نفسها. وبعد ثمانية عشر عاما من رحيله إلى أمريكا، واثني عشر عاما بعد الطرد (ذكرى عذبة عن سنين منفاه أطلق عليها «بحثا عن وليد كئيب») صرح أن «أحد الأحلام الأمريكية هي الرواية الأمريكية»، وفي هذا الشهر نشر «النمط العذب الجديد» وهي أول رواية لأكسينوف تعتاد على موطنه الجديد في المعنى والمبنى. إنها تتحدى بشكل رائع الرواية الكوميدية - الطموحة، المرحة، والمدهشة دائما.

تفتتح رواية «النمط العذب الجديد» بوصول مخرج المسرح السوفييتي الشهير ألكسندر زخاروفيتش كورباتشي إلى مطار كينيدي. وفي اليوم الأول من منفاه الاضطراري عام 1982، نزل كورباتشي من الطائرة أمام حشد شغوف من المصورين والصحفيين، لكنه اكتشف أنهم جميعا هناك لا لاصطياد عملية وصوله إلى أمريكا، بل ارتقاب للاعب تنس مشهور تصادف قدومه على الرحلة نفسها. استقل كورباتشي الطائرة باسمه العائلي، ومع هبوطه منها صار غفلا من اللقب، وظل يتجول عاجزا حتى تعرف عليه لاجئ زميل - سائق تاكسي - تصادف أنه أخذ المخرج الشهير إلى شقته الصغيرة في برايتون بيتش ثم دعاه ليقيم معه بغير حدود.

لو فكرنا بعد مشهد البداية المتجانس هذا (بأثر لا ينكر من شكل السيرة الذاتية في اختياره البطل هكذا) لعرفنا ما نتوقعه - كوميديا سمكة تقليدية خرجت من الماء، ربما، تقترن بتصوير أسلوبية «لوليتا» للمشهد الأمريكي - ولعلمنا أننا سنخطئ حتما فيما يرمي إليه أكسينوف. تنحو «النمط العذب الجديد» تدريجيا، من بنيتها الكوميدية المتواضعة، إلى شكل رواية مبتكرة رائعة حتى أن كل توقعاتنا في النهاية تنقلب رأسا على عقب . في ذلك الوقت يبدأ الكتاب الاصطدام بذروته السريالية كما نلحظ في فصوله الأخيرة - فلنقل، في الوقت الذي يرى فيه عميل سوفييتي سابق يحاول بلغة الطير مطاردة مجموعة من النعام يتم ترتيبها للذبح في ولاية أمريكية تدعى أوشيكورنيا - وهي مقصد أكسينوف أن يبتدئ روايته على أساس من عالم صريح قد يجلب للأذهان بشكل استعادي ملاحظة جون شيفر عن دور الاحتمالية في الأدب: لو أن القارئ «يعتقد بحق أنه يقف على بساط، فيمكنك أن تسحبه من تحته» كما يقول شيفر.

في موسكو، أكد كورباتشي (أو «ايه زد» كما يشير إليه أكسينوف مرارا) سمعته كمخرج فرقة هجائية طليعية عرفت باسم «بوفون»، وكانت تعمل بشكل ساخر قبل أن يتعقبها للخروج من البلد المخابرات الروسية، وكان يتأمل ذلك الانهيار الجمالي في ماضيه - وعلى وجه الخصوص ذلك التكيف المرحلي لقصة الحب الكبيرة بين دانتي أليجيري ومحبوبته بياتريس التي كان يعبدها الشاعر ثم فقدها، وفيما بعد خلدها في «الفردوس». هذه القصة غلفت حياة كورباتشي منذ رحيله المفعم إلى موطن كاتبين سوفييتيين عجوزين باهرين «من عمالقة المعرفة» كانا لا يدهشان زائرهما فحسب بمجرد تذكر بهيمي عن أيام أخماتوفا القديمة وخلبنيكوف، بل عن عصر النهضة الإيطالي. إنها المتعة والإلحاح اللذان يناقش بهما هذان الرجلان حياة دانتي وأعماله فيوسعان من آفاق كورباتشي الفكرية - حتى وهو يفشل في مراقبة الدليل على خبرة الشعراء القدماء الواسعة:

حاول أن يستقي سلوكيات المثقفين القدماء منهم، ولم يكن هناك تخمين دائم بأن الانطباع العميق قد ترك أثره على مثل هذه السلوكيات بالمنفى والمعسكرات - مثل لعق الرجال الضاري لملاعقهم.

هذان الرجلان اللذان «كانا يتكلمان بهدوء تام عن المشهد الأدبي بفلورنسا في القرن الثالث عشر» لم يعتبرا دانتي مجرد عبقرية مفردة بل عضو في ستيلنوف وهي مدرسة الشعر الإيطالي التي تركت أثرا باقيا على الأدب برفضها التقاليد المنمطة المصقولة لصالح البساطة والإخلاص في تصوير المشاعر البشرية. ينشد المنتمي لهذه المدرسة أن يجلب الشعر إلى علاقة أقرب مع اللغة كما تحكى، ومع الحياة كما تعاش، وكان

تأثير هؤلاء الثوريين يجهد في تقديم ما أسموه «النمط العذب الجديد».

لم يكن «إيه زد» الوحيد الذي يستقطر الإلهام من جهود دانتي إذن في حقن الصيغة المبتذلة بحياة جديدة. وكان أكسينوف أيضا بعد« النمط العذب الجديد» وزواجه الأدبي القسري من المقدس والمدنس («من هو إذن» تقول عشيقة البليونير السكيرة، «الذي يجعلني أصرخ مثل أوروبا المخطوفة؟») امرءاً بإمكان دانتي أن يتعرف على روحه. ولم تكن هذه الروح هي المصدر الوحيد للنسب بين الأديبين وبخصوص دانتي، خشية أن ننسى، فقد كان في عمر السابعة والثلاثين منفيا عن الحياة ببلده فلورنسا بسبب أنشطته السياسية.

ومن أحد الجوانب، كان هو الصوت الكوميدي النشط الذي يهل على زهرة كاملة عبر مجرى النمط العذب الجديد، هو ببساطة عودة إلى نغمة حماسية تتميز بها معظم أعمال أكسينوف قبل روايات «الشتاء» الأشد كآبة (لو جاز للمرء أن يسمى رواية تاريخية «كئيبة»، فهي تختتم بتناسخ ستالين إلى خنفساء ذكر). لكن تلك الحماسة المنقوعة، في ذلك اليوم، بالوعي الذاتي للمؤلف المتحدي بشكل عجيب - كانت نوعا من التضفير لغرائز قوية نحو نزعة المساواة وترقية الذات - والتي تحول الصوت إلى شيء أمريكي معروف.

هذه الفكرة المثالية الفلوبيرية للمؤلف غير المرئي - ظلت بعيدة عن حيوات شخصيات، كالله المفارق للكون - لم تكن غريبة عن طبع أكسينوف. فهو يشير لجعل وجوده محسوسا على كل صفحة تقريبا، لا بطريقة حية ما بعد روائية بل بروح صدق كلي بسيطة. هل في أي رواية أخرى، على سبيل المثال، يمكنني استدعاء مجيء جملة كهذه: «كم هي حمقاء، فكرت ميريل سلامانكا - (أول ذكر لها جاء في القسم الرابع بالفصل الثالث...)». يقحم أكسينوف نفسه مباشرة في السرد كشخص ثالث في عدد من المناسبات، ومن أحد الزوايا يقاطع الحدث في نصف المشهد ليصف لنا المنظر من نافذة قرب طاولة الكتابة. وأحيانا تبدو متعته في الكتابة وكأنه على ما يبدو ليس باستطاعته أن يقيم بعيدا عنها: يبدأ أحد الفصول هكذا «1990 نهاية أبريل. حر الصيف. غروب الشمس المبكر. الأنماط التلغرافية».

إن «النمط العذب الجديد» رواية لامعة بدرجة كبيرة، ومن أهم المعالم المحببة فيها تلك الطريقة التي تضع بها تلك الإلماعات على كمها، فتلفت الانتباه بيقظة ضمير إليها، خشية أن يعتم الاتصال بالخبث بين الكاتب والقارئ. الفكرة، على سبيل المثال، أن هناك نوعا من التوازي بين أسفار دانتي عبر العوالم الأخرى ورحلة كورباتشي عبر هذه الرواية التي أنقذها من الغطرسة الزائدة حقيقة أن الشخصيات المختلفة «تتذكر» للأبد وتتلو عفويا مقاطع كاملة من «الكوميديا الإلهية». ولم تكن هذه الإلماعات دائما أدبية: هنا، على سبيل المثال، وصف لأكسينوف بمدخل فصل ثانوي - هيتيان الأرستقراطي المدعو البارون شابومانج:

بدا أنه مفارق لجزء من حكمة القرن العشرين المعروفة جيدا: «لن تتمكن أن تصبح نحيفا للغاية أو ثريا للغاية». وكانت الظاهرة الغريبة هي لونية وجهه الضعيف المتفسخة، من الظلال البنفسجية الداكنة تحت عينيه وفي خديه الغائرين إلى لون بذلته الزنبقي الرقيق. وكانت الطريقة التي تجمع رأسه نحو نقطة حادة قد جعلت البارون يبدو مثل سن القلم الصلب رقم 86، الذي يستخدم هذه الأيام في فن الخط.

إن ازدهار هذه الكلمات السبع الأخيرة يقول

كثيرا عن روح كتابة أكسينوف. وتبدو هذه الجملة مرحة للغاية، وشجاعة من الكاتب أن يلقي بها - أو أن الأمر ليس في الحقيقة أن يلقي بها، بل أن يقاوم جدل أن يحررها - غريبة وموسوعية، جانبا. ورغم أن الحظ ليس جزءا من أي نوع للشكل الرمزي للرواية، فهو ببساطة تفصيل بصري يتذكره المؤلف نوعا ما وهو جالس إلى طاولته يبتدع شخصية البارون شابومانج. تمتلئ الرواية بلحظات مثل هذه، حين يدور التلميح الثابت وحشيا حتى أنه يبدو وسيلة أضعف في كتابة الروايات عن التطلع للعالم.

تبدأ المغامرة الأمريكية لكورباتشي بشكل سيئ: فإن الـ «كي جي بي» ترسل زوجته السابقة لتتجسس عليه، ويغلي الغيط داخل شقة صديقه سائق التاكسي الضيقة بالفعل. وفي أحد المساءات كان يترنج عبر ميدان تيمز بنوع من اليأس الوجودي الهاذي الذي هو عماد الروايات الروسية («فجأة صدمه الحس بأنه قد لا يكون من بين الأحياء»)، فرفع بصره ليرى يافطة «حروف محترقة ضخمة تقف أمام سماء داكنـة» ،يافطة تقول: ألكسندر كورباتشي. لم يكن هذا استدعاء من الرب، رغم ذلك، إنه يافطـة نيون على شركة بيع مصنوعات أمريكيـة مشهـورة، وتصادف أن مؤسسات كان له اسم بطلنا نفسه.

وماذا بعد، يبدو أنهم كانوا أقارب بعيدين، وهذه حقيقة ظهرت للنور مع هاجس وقت الفراغ المستحدث للبليونير الحالي ستانلي كورباتشي، وهو يبحث عن شجرة عائلته. وعليه، يجد «إيه زد» نفسه مع عائلة أمريكية جديدة ضخمة، فيصير ثريا من جراء ذلك، فتذهله تلك الجاذبية المصطنعة لهذا الولع الأمريكي الكامل بالأنساب:

«لابد أن أخبركم أن الشعب السوفييتي منغمس تماما بعادة الحفر في تواريخ عائلاتهم. يريد الناس الاحتفاظ بأنسابهم في الظلام، لا الكشف عنها - لا يخبر أحد متى يثب «عدو الناس»: الكاهن، الضابط القيصري، المزارع الثري، ورجل الأعمال الصغير. لم يكن أي من أصحابي يتتبع انحداره أمام جده. وقد خلقت الثورة نوعا من الحائط المهول في التاريخ الروسي، كأنه حاجز مؤقت. كل شيء على الجانب الآخر منه مثل أيام نبوخذ نصر».

(هذا الجانب الكوميدي يستعير حدة خاصة بحقيقة أن ألكس - مثله مثل أكسينوف نفسه - هو يهودي سوفييتي، أخفى عنه والداه هذه الحقيقة الخطيرة سرا وفي تكتم حتى اكتشفها حين بلغ الرابعة عشرة).

واتخذ «إيه زد» طريقه إلى لوس أنجلوس، عامل أسقف ثم منادي سيارات. ورغم أنه كان يزور كورباتشي مرارا والذي التحق ساعتها بالميريلاند، إلا أنه لم يقبل مساعدة مالية - وهو قرار أصبح له أثر بالغ حين فشل غرامه مع بنت ستانلي، نورا منصور. إن نورا، بالإضافة لكونها ابنة عم ألكس الرابعة كانت متزوجة، لكن هاتين الحقيقتين لم تقدما إعاقة كبيرة أمام غرامهما مثلما فعل نقص المال لديه، وقبل مرور وقت طويل أضاف ألكس إلى دخله الهزيل تعامله مع المخدرات في مكان بعيد عن جراج الموقف.

لكن نورا تملقت ألكس للعودة إلى عالم المسرح بتعيينه مديرا مقيما بجامعة بنكرتون في فرجينيا، حيث كانت تدرس مادة الآثار فيها، بأسلوب أمريكي حقيقي، وصاحب ذلك أخبار اهتمامات الناس بعودته المتواضعة إلى المسرح مصحوبة بدفعة تأييد من قريبه المشهور أخيرا والذي أحدث طنينا كان يكفي لجلب عروض مباشرة له ذات ميزانية كبيرة من هوليوود. إن حلمه الطويل بدانتي البشري قد استضاء أخيرا،

قبل الوصول لذلك، رغم أن «إيه زد» كان لابد أن يرجع إلى موسكو عصر الجلاسنوست ليقف على متاريس البيت الأبيض الروسي أيام الضربة السوفييتية المجهضة غير المتوقعة ضد جورباتشوف.

إن تقدم الفانتازيا، على مدار هذه الأحداث، كان زائدا، حتى دون أن يعرف المرء تماما متى حدثت، لذلك اتخذت «النمط العذب الجديد» دربا مفككة ابتعدت بها عن حدود الواقعية. ترحل نورا عن الرواية لوهلة لتركب مكوكا فضائيا. وفي نزاع داخلي بالسرد يسرع كورباتشي في نمط العراب لمعركة بالبنادق خارج مطعم على الجانب الشرقي المنخفض من مدينة مانهاتن، أثناء ما قتل 18,493 مواطنا أمريكياً، كما قيل لنا. وفي الوقت الذي نصل فيه إلى المشاهد القليلة الأخيرة، يرفع أكسينوف الموقف إلى النقطة التي تيأس فيها نورا من الكلام مع ألكس لكن دون أدنى فكرة عن أي مكان هو فيه على الطائرة، وكان يطلب مكالمة بـ 13 رقما عشوائيا، يرد ألكس على الطرف الآخر. وكان الحوار، على غير طريقة هيمنجواي بالضبط، يبدأ نمطيا بشكل حماسي: «لقد تمت تغذيتي أخيرا بإنجليزيتك نصف الأطلسية وتقييداتها. واحتفظ بحق التلويح متعجبا بملء برميل في أرض أسلافي!».

إن «أرض أسلافي» يقصد بها إسرائيل. وفي الفصول الأخيرة تصطدم الرواية بمحورها الأمريكي - الروسي عن طريق الأخبار غير المتوقعة التي ترصد نورا في حفر أثري بإسرائيل، تتعثر في مقبرة الجد الأول لكورباتشي. وبشكل أخلاقي تبين لنا نوعا ما كل شخصية أن اليهودي وغير اليهودي متشابهان، في الأرض المقدسة لصالح ذلك الكشف الذي تنتهي به الرواية. إنه يهدف تماما للحفاظ على روح «النمط العذب الجديد» حتى أن هذه المقبرة القديمة التي أغلق عليها لم تكن تحوي بالضبط ما كان المرء يتمنى أن تحتويه.

تميز هذه الصفحات النهائية ذروة التقارب التي كان ينشئها أكسينوف عبر الرواية أجمعها - وحدة العناصر المضطربة ظاهريا من العبث والصوفية الجدية. وفي اللحظات التي تسبق ذلك الجانب الشرقي المنخفض معركة بالبنادق، على سبيل المثال، ينهض ستانلي كورباتشي من موقعه لدى المائدة ليخاطب عائلته المفترضة وأصحابه عن موضوع أصل وقدرية اليهود:

لسوف تبدأ منشأ جديدا، قال الرب لإبراهيم، وتأسيس ذلك العهد... يعني أن شعبنا لم يأت للوجود نتيجة عملية عرقية طويلة الأمد بل نتيجة وحي صوفي. إن الفكرة غير الأرثوذكسية تميل للبوح بنفسها هنا: قد يكون مفهوم اليهودية ليس غير مسألة روحية أكثر منه مسألة عرقية؟ وكان ابراهيم مرتدا قد هجر بلاده وشعبه ليجد وطنا جديدا ويبدأ مع شعب جديد؟ وربما تنتهي هذه العملية خلال أربعة آلاف سنة؟ لماذا نظل نرحل دائما لمكان ما: إلى فلسطين، ثم مصر، ثم بابل، ثم روما، أفريقيا، أسبانيا، أوروبا، روسيا، أمريكا، وبعدها فلسطين مرة أخرى؟

حين نصل إلى السؤال عن الهجرة القسرية نجد أن أكسينوف بمعنى آخر يتبنى وجهة نظر مطولة - أطول وجهة نظر مفترضة، حقا. وبالنسبة إليه، فإن رحيل يهودي مثل ألكس كورباتشي عن روسيا - ولربما هو فاسيلي أكسينوف - ليس أمر تحرك مرتهن سياسي أو حتى استشهادا فتيا بل هو مجرد لحظة تفرغ لا نهائية عن ذلك «الوحي الصوفي». لقد قام بحل المأزق الفني وربما الشخصي لمنفاه ليس بعناق النزعة الأمريكية بل بوضع رحلته الأمريكية في سياق أكبر من التاريخ البشري، خاصة التاريخ

اليهودي - والذي نرى أنه أوسع من التاريخ الأدبي، سلسلة من الألم والانتصار على المنفى. وليس عبثا استخدام اللقب «إيه زد» كشكل من عنوان للمؤلف جميم وشامل.

وتجد هنا «النمط العذب الجديد» لأكسينوف تعبيرها الأمثل عن هذا الطموح المتزامن ووجهة النظر هذه المتواضعة، لأن استعاراتها الواضحة تشتمل على نوع من العبادة السلفية. وهي تناسب تماما الوضع الألفي بالهرولة الكونية، كما أن هناك القليل للغاية عن ذلك - وربما أكسينوف نفسه هو أول من يوضح ذلك بشكل عبقري غير مسبوق. إن مداخل المؤلف المتحدية في النص تعتبر قديمة مثلما كان ديدرو، ويذكرنا التصعيد المذهل للسريالية عبر العنف في الفصول الختامية بـ «النكتة اللانهائية»، لكن الدين الحقيقي يعود إلى «دون كيخوتة» أو «كنديد». وفي الحقيقة، فإن الاستراتيجية السريالية الكاملة جديرة بالملاحظة ليس لكونها تسمح لأكسينوف بتوسيع مجال اللعب لابتكاراته الخاصة بل لأنها أصلا طريقة لتكريم الماضي. الرواية الواقعية هي عموما العهد الحالي بشكل نسبي لديدرو، سيرفانتس، فولتير. وليست الرواية إعادة تخليق ملازمة للحياة بل هي عالم من اللعب الفكري، معمل للاحتمالات. وهنا، كذلك، يمكننا التعرف على دانتي ساخر، حيث إن «النمط العذب الجديد» هي جزئيا دعوة للعودة إلى شكل قديم - كان للتروبادور في القرن الحادي عشر بمدينة بروفنس، «كل هذا الانهمار، هذا التودد العجيب المطوق بالفروسية» الذي يجرؤ على الكتابة بحوار ينحدر من اللاتينية البذيئة».

في ضوء هذا التناقض الظاهري - الذي هو تصميم لمستقبل يعتمد على إعادة قراءة منتظمة للماضي - يبدو أن أسلوب النثر لدى أكسينوف نفسه استراتيجية تستميل حلم البداية لدى كاتب أمريكي بإكراه أن ينظر نحو اتجاه الوطن. إن بحثه عن مثال «أمريكي» أدى به للعودة إلى دانتي بواسطة بيلي، جوجول، رابليه، كما يندفع تهور شخصياته المتزايد عبر مكابدات تاريخية غير موقعة في حس بالرعب من الماضي.

في إحدى نقاط أمور عشقهما، «في الفراغات التي تتنفس بين المقاطع اللولبية» يدخل ألكس ونورا في نقاش بدرجة غير متوقعة عن عمل الفيلسوف الروسي نيكولاي فيدوروف. يحاول ألكس أن يعدد لها:

«نتوقع من كل جيل حي - «أطفال الهواء» - أن يعمل على بعث الموتى جميعا، لعودة الأشياء الكونية والخفية للحياة بواسطة العلم والتقنية. هذه هي الفكرة المبدأ: التغلب على عداوة الطبيعة عبر بعث الآباء».

من منفاه الافتراضي الخاص، كتب ذات مرة هنري جيمس إن الروائي لابد أن يطمح إلى مشهد «مكتب مقدس». وتنقسم حياة أكسينوف بين بلد فيه ماضيه الذي هو آلة طيعة للقوة وبين بلد غر حتى أنه (كما كتب عن مانهاتن) إلى وقت قريب كانت مجرد غابة واضحة سيئة» ووجد إيمانه في مشهد يمتلئ رعبا بدرجة ملائمة عن شساعة التاريخ الإنساني. وبتحويل القصة عن فنان منفي، هو ألكس كورباتشي، من صورة خاصة للحرب الباردة والظرف البشري، أجري أكسينوف فعلا فنيا للتحدي متواضعا تماما وواثقا من نفسه مثل «لا خدمة» لستيفان ديدالوس. وفي بعثها الرمزي لآبائها غير الأدبيين - حتى عندما تنبش شخصياته أدبيا نفسها - فإن «النمط العذب الجديد» تستعرض مشهدا عن المقدس يمكن للقليل من الروايات الأمريكية الأخرى التوصل لمثله.



بقلم: ديفيد ويلتش*

ترجمة: د. شعبان عبدالعزيز عفيفي

يقول جوزيف جوبلز Josef Goebbels، أشهر مثال لرجل الدعاية سيىء السمعة: «الدعاية كلمة متهمة ظلماً ومفترى عليها بشدة وكثيراً ما يساء فهمها، ويستعملها الشخص العادي غير المتخصص للدلالة على شيء وضيع بل وكريه. وهذه الكلمة دائماً ما تترك مذاقاً مراً. وقد قال جوبلز ذلك عندما كان يتحدث عقب تعيينه مباشرة وزيراً للإرشاد القومي والدعاية في أول حكومة شكلها هتلر في مارس 1933، وهو الدور الذي كان عليه أن يؤديه أكثر من غيره لتأكيد هذا «المذاق المر» واستمراره.

العنوان الأصلي للمقال:
Powers of Persuasion ونشر في مجلة History Today عدد أكتوبر 1999.

* أستاذ تاريخ أوروبا الحديث ومدير مركز دراسة الدعاية بجامعة كنت في كانتر بري (بريطانيا). وأحدث مؤلفاته كتاب سيصدر قريباً بعنوان: «ألمانيا والدعاية والحرب الشاملة 1914 - 1918»

إلا أن جوبلز أضاف قائلا:

«إذا أمعنت النظر في أسباب الدعاية باللغة السرية فستتوصل إلى نتائج مختلفة: وعندئذ سيزول الشك في أن مسؤول الدعاية هو الشخص الذي لديه أكبر إلمام بالنفوس. وأنا لا أستطيع أن أقنع شخصاً واحداً بضرورة شيء ما مالم أعرف نفسية هذا الشخص، وما لم أفهم كيف أعزف على أوتار نفسه من أجل أن أفهمها».

ومن المفارقات أن جوبلز أخذ على عاتقه مهمة القيام بتخليص الدعاية من مثل هذه المفاهيم الخاطئة، ذلك أن السبب في ارتباط الدعاية في أذهان الناس بمثل هذه السلبيات يعود إلى حد كبير إلى الدعاية النازية. ومن المترادفات الحديثة للدعاية: «الأكاذيب» و«الخداع» و«غسل المخ». ويعتقد الكثيرون أن الدعاية سرطان في جسد الدولة يجب تجنبه مهما كان الثمن.

ولكن هل الدعاية هي حقا كذلك؟ إن الدعاية في حد ذاتها ليست بالضرورة شيئا خبيثا. وقد حاول الحكام عبر التاريخ أن يؤثروا في الطريقة التي ينظر بها المحكومون إلى العالم.

والدعاية ليست مجرد ما يفعله الجانب الآخر بينما جانبك أنت شخصيا يركز على «الإعلام» أو «الإعلان» publicity. ولم تشعر الأنظمة الدكتاتورية الحديثة بالمرة بضرورة أن تنأى بنفسها عن كلمة «الدعاية» كما فعلت الأنظمة الديمقراطية. ومثلما كان للنازيين وزارة للدعاية كان لدى السوفييت لجنة للدعاية تابعة للحزب الشيوعي، وكان لدى البريطانيين وزارة للإعلام، كما كان في الولايات المتحدة الأمريكية مكتب للإعلام الحربي.

ويعود أصل كلمة propaganda (أي الدعاية) إلى حركة الإصلاح الديني في أوروبا* Reformation. وقد وجدت الكنيسة الكاثوليكية نفسها في صراع من أجل الإبقاء على قبضتها وهيمنتها على الدول غير الكاثوليكية وتوسيع دائرة نفوذها فيها. وقام الباب جريجوري Gregory الثالث عشر (حوالي 1572 - 1585) بتشكيل لجنة من الكرادلة وكلفهم مهمة نشر المذهب الكاثوليكي وتنظيم الشؤون الكنسية في البلاد غير الكاثوليكية. وبعد مرور جيل من الزمن، وفي 1622، جعل البابا جريجوري الخامس عشر هذه اللجنة لجنة دائمة على هيئة مجمع مقدس لنشر المسيحية (de propaganda fida) وإدارة البعثات التبشيرية في الخارج وكانت تمول من حصيلة «ضريبة الخاتم» ring tax التي كانت تفرض على كل كاردينال يتم تعيينه. وهكذا كان أول مجمع رسمي للدعاة عبارة عن هيئة مكلفة بتحسين عملية نشر مجموعة من المعتقدات الدينية، وأصبحت كلمة «الدعاية» تطلق على أية منظمة تؤسس لنشر مذهب ما، ثم أطلقت على المذهب نفسه الذي يجري نشره، وأطلقت أخيراً على الأساليب المتبعة في الدعوة والنشر.

وأثناء الحروب الأهلية في إنجلترا كانت الدعاية تتم من خلال منشورات ورسائل إخبارية مطبوعة توزع بصورة منتظمة كأداة مساندة للعمليات الحربية، وكان جيش كرومويل Cromwell معنياً بنشر المعتقدات الدينية والسياسية بنفس قدر عنايته تقريباً بالنصر في ميدان القتال. وقد تزايد استخدام الدعاية بصفة مستمرة، وخاصة في أوقات الصراعات العقائدية، كحرب الاستقلال الأمريكية والثورة الفرنسية. وعلى سبيل المثال، قامت الفصائل «الجيروندية»* Girondist بتوزيع منشورات بين صفوف الأعداء تدعوهم إلى الهرب من الخدمة العسكرية مقابل منحهم مكافآت. وفي المائة عام التي تلت الحروب النابليونية وحتى اندلاع الحرب العالمية الأولى لم تشهد أوروبا أية حروب ثورية، ولذلك لم تكن هناك حاجة إلى دعاية قوية

---

* قيام الكنيسة البروتستانتية وانفصالها عن الكنيسة الكاثوليكية في روما في القرن السادس عشر - (المترجم).

* كانت تلك الفصائل تابعة للحزب الجمهوري الحاكم أثناء الثورة الفرنسية (1791 - 1793)، وسموا كذلك لأن زعماء الحزب جاؤوا من منطقة جيروند - (المترجم).

ومكثفة على المستوى القومي إلا في حالات قليلة. وفي الفترة من 1914 إلى 1918 استخدم كلا الطرفين الدعاية على نطاق واسع كسلاح من أسلحة الحرب، الأمر الذي أدى إلى تحويل معناها إلى شيء سيىء وضار. وقد أثبتت الحرب العالمية الأولى أنه لم يعد من الممكن تجاهل الرأي العام كعامل جوهري وحاسم في رسم سياسة الحكومة. كما أدرك المسؤولون أن الروح المعنوية عامل مهم في الحرب، وبدأت الدعاية تبرز في بريطانيا كأداة رئيسية للتحكم في الرأي العام، واستمرت هذه العملية في التصاعد إلى أن بلغت أوجها بإنشاء وزارة الإعلام في 1917، التي تولاها قطب الصحافة اللورد بيفربروك Beaverbrook، كما أنشئت إدارة مستقلة للدعاية المعادية في «كرو هاوس Crewe House» أشرف عليها اللورد نورثكليف Northcliffe، خصم بيفربروك.

ومن خلال الرقابة المشددة والحملات الدعائية المنظمة بدقة أمكن تسخير الصحافة والأفلام والمنشورات والملصقات والتنسيق فيما بينها بطريقة لم يسبق لها مثيل لنشر الموضوعات الموافق عليها «رسميا».

وقد ظل الإجماع الوطني في بريطانيا في زمن الحرب صامدا وقائما، ويرجع الفضل في ذلك إلى حد ما إلى مهارة الحكومة في استخدام الدعاية والرقابة، إلا أنه بعد انتهاء الحرب بدأ عدم الثقة في الظهور في أوساط المواطنين العاديين الذين أدركوا أنه كان يجري التعتيم عن عمد على الأوضاع في جبهات القتال خلف الشعارات الوطنية ومن خلال «الدعاية عن وحشية العدو» التي كانت تنقل صورا ملفقة ومتكررة عن الفظائع التي كان يرتكبها. كما شعر المواطنون أنهم خدعوا لأن تضحياتهم لم تؤد إلى «الأرض الجديدة بالأبطال» التي وعدوا بها. وأصبحت الدعاية مرتبطة بالأكاذيب، وتم إلغاء وزارة الإعلام. ونظرت الحكومة نفسها إلى الدعاية على أنها خطيرة من الناحية السياسية وغير مقبولة من الناحية الأخلاقية في زمن السلم. وكانت الدعاية على حد قول المسؤولين في العشرينيات: «هي كلمة طيبة ضلت طريقها - والذي أفسدها هو اللورد نورثكليف الراحل». وكانت كراهية الدعاية عميقة لدرجة أنه عندما حاولت الحكومة أثناء الحرب العالمية الثانية «توعية» المواطنين بشأن معسكرات الاعتقال النازية نظر الكثيرون بعين الشك إلى تلك المعلومات باعتبارها «دعاية» ولم يصدقوها.

وقد وفرت الدعاية البريطانية في الحرب العالمية الأولى مصدرا خصبا للألمان للقيام بدعاية مضادة لمعاهدات السلام في فرساي وجمهورية فيمار Weimar*. وقال هتلر في كتابه «كفاحي» Mein Kamph:

«في عام 1915 بدأ العدو دعايته بين صفوف جنودنا، وابتداء من 1916 أصبحت هذه الدعاية مكثفة أكثر فأكثر، وفي بداية 1918 تضخمت وتحولت إلى غيوم عاصفة. وبإمكاننا الآن أن نلمس آثار هذا الإغواء التدريجي، وقد تعلم جنودنا أن يفكروا بالطريقة التي أراد العدو لهم أن يفكروا بها».

وادعى هتلر أن الجيش الألماني لم يهزم في ميادين القتال وإنما استسلم لتحطيم روحه المعنوية التي كانت تغذيها الدعاية البريطانية الماهرة، وبذلك قدم شرعية تاريخية لأسطورة «الطعنة من الخلف». وبغض النظر عن الدور الحقيقي الذي لعبته الدعاية البريطانية - أو البلشفية - في انهيار ألمانيا فإن الكثيرين كانوا يعتقدون أن تجربة بريطانيا في الدعاية في فترة 1914 - 1918 كانت ناجحة للغاية وقدمت مثالاً حذت حذوه حكومات أخرى. وقد أشاد هتلر نفسه بالبريطانيين عندما كتب قائلا:

«لم تدرك ألمانيا أن الدعاية سلاح بالدرجة

* الجمهورية الألمانية التي تأسست بعد الحرب العالمية الأولى وأطاح بها هتلر في 1933، سميت كذلك نسبة إلى مدينة فيمار التي وضع دستور الجمهورية فيها. وتقع هذه المدينة في وسط ألمانيا - (المترجم).

الأولى بينما استخدمه البريطانيون بمهارة فائقة وتدبير بارع».

ولم يكن مستغربا أن يكون من بين أول القرارات التي اتخذها هتلر عقب توليه السلطة في 1933 إنشاء وزارة للدعاية وتعيين جوبلز وزيرا لها.

وكان الزعيم النازي يرى أن وظيفة الدعاية هي لفت أنظار الجماهير إلى حقائق وعمليات وضروريات معينة «وبذلك توضع أهميتها للمرة الأولى أمام أنظارهم»، وبناء على ذلك يجب أن تكون الدعاية بسيطة وأن تركز على أقل عدد ممكن من النقاط وأن تتكرر كثيرا، مع التأكيد على الجوانب العاطفية كالحب والكراهية. وانتهى هتلر إلى رأي مفاده أن استمرارية الدعاية وتقديمها بالأسلوب نفسه على الدوام يمكن أن يؤديا إلى نتائج «تكاد تفوق فهمنا». وعلى عكس النازيين، كان البلاشفة يميزون بين الإثارة والدعاية. ففي روسيا السوفييتية كانت الإثارة معينة بالتأثير على الجماهير من خلال الأفكار والشعارات، بينما كانت الدعاية تستخدم في نشر الأيديولوجية الماركسية - اللينينية. ويعود هذا التمييز إلى بليخانوف Plekhanov، واضع النظريات المنشفية* Menshevik، الذي كتب ما يلي في 1892:

«رجل الدعاية يقدم الكثير من الأفكار لشخص واحد أو لعدد قليل من الأشخاص، وأما المثير أو المهيج فيقدم فكرة واحدة أو عددا قليلا من الأفكار، ولكنه يقدمها للجماهير كلها».

وعلى النقيض من ذلك، لم يعتبر النازيون الدعاية مجرد أداة للوصول إلى الموالين للحزب بل وسيلة لإقناع جميع الألمان وتلقينهم المبادئ والأفكار وغرسها في أذهانهم.

وكانت أنشطة وأعمال الدعاية الألمانية في عهد جوبلز أكثر تطورا وتقدما عما كانت عليه في فترة 1914 - 1918. ومن بين الأساليب التي استخدمها إقامة محطات إذاعة وهمية «للطابور الخامس» موحيا بأنها تذيع من داخل بريطانيا، والاستعانة ببريطانيين موالين للنازي لإذاعة دعاية من برلين. وقد ردت بريطانيا على ذلك بإقامة إذاعة «الدعاية السوداء»، وكان بعض العاملين فيها من اللاجئين اليهود والمنفيين الألمان المعادين للنازية.

وبعد 1945، وضعت الدروس المستفادة من استخدام الدعاية في الحرب العالمية الثانية كجزء من «ثورة اتصالات» أكبر. وقام أساتذة العلوم السياسية وعلماء الاجتماع بوضع نظريات عن طبيعة البشر والمجتمع الحديث - في ضوء قيام المجتمع الذي تسوده النزعة الاستهلاكية، والأنظمة الشمولية والقمعية. وقد نظر إلى الأفراد على أنهم متشابهون ومن السهل قيادتهم والتأثير عليهم، بينما النظرة التشاؤمية إلى المجتمع الكبير شددت على الشعور بالاغتراب في مكان العمل وتراجع الدين والروابط الأسرية والتدهور العام في القيم الأخلاقية. كما اختزلت الثقافة إلى الحد الأدنى من الصفات المشتركة وذلك لأغراض الاستهلاك الجماهيري، كما اعتبرت الجماهير عموما لا مبالية بالسياسة وغير متحمسة لها وإن كانت ميالة إلى التعصب العقائدي ومعرضة للتلاعب بها من خلال الاستمالة والتأثير.

وبناء على ذلك تغيرت النظرة إلى الدعاية: وأصبح ينظر إليها الآن على أنها «وصفة سحرية» أو «حقنة تحت الجلد» تتغلل إلى أفكار الجماهير وتتحكم في آرائهم وسلوكهم.

وقد عارض عالما الاجتماع الأمريكيان هارولد لاسويل Harold Lasswell ووالتر ليبمان Walter Lippman هذه النظرة القاتمة وقالا إن الدعاية في داخل إطار المجتمع الكبير المنقسم إلى مجموعات صغيرة ليست سوى آلية لدغدغة الرأي العام ووسيلة للضبط الاجتماعي. وقد قام عالم الاجتماع الفرنسي جاك إيللول Jacques Ellul أخيراً بتطوير هذا الرأي وقال إن المجتمع التكنولوجي قد أثر في الناس

---

* إشارة إلى جناح معارض للبلاشفة في الحزب الاشتراكي الديمقراطي الروسي قبل ثورة 1917 - (المترجم).

وتحكم فيهم لدرجة أنهم يشعرون الآن «بالحاجة إلى الدعاية». ووفقا لهذا الرأي فإن الدعاية أكثر ما تكون فعالية عندما ترسخ الأفكار والمعتقدات الموجودة أصلا. وهكذا حل نموذج أكثر تعقيدا محل فكرة «الحقنة تحت الجلد». ويسلم هذا النموذج بتأثير وسائل الإعلام، إلا أنه يدرك في الوقت نفسه أن الأفراد يبحثون عن أشخاص من طبقتهم أو جنسهم ممن يقومون بتشكيل الآراء وذلك لتثبيت أفكارهم واتجاهاتهم. ويتفق معظم الكتاب اليوم على أن الدعاية تثبت بدلا من أن تغير، وأنها أكثر ما تكون فعالية عندما تتمشى مع الآراء والمعتقدات القائمة لدى الأشخاص المستهدفين منها.

وهذا التحول في الاهتمام يبرز عددا من المفاهيم الخاطئة الشائعة عن الدعاية. ويعتقد الكثيرون أن الدعاية لا تعني أكثر من كونها فن الإقناع ولا تهدف سوى إلى تغيير الأفكار والاتجاهات، إلا أن الدعاية أكثر من ذلك معنية بترسيخ الاتجاهات والمعتقدات القائمة وذلك بهدف تحسينها والتركيز عليها. والمفهوم الخاطئ الثاني هو أن الدعاية لا تضم إلا أكاذيب. والواقع أن الدعاية تتعامل مع أنواع مختلفة من الحقيقة تتراوح بين الكذب الصريح والحقيقة المنتزعة من سياقها، مرورا بأنصاف الحقائق. وأثناء الحروب والصراعات، كحرب الخليج، أعاد المسؤولون في بريطانيا إلى أذهان الشعب البريطاني ما حدث في دنكرك أو الهجوم الجوي الخاطف والمفاجئ* Blitz أو «روح حرب فوكلاند»، ووجهوا إليه هذا السؤال: «من الذي يحكم بريطانيا» أثناء الاضطرابات العمالية؟، وأكدوا له أنه يمكن خفض التضخم «بجرة قلم»، ووعدوه بعدم زيادة الضرائب «طالما ظلت هذه الحكومة في السلطة» وأن «الجنيه الذي في جيوبكم» لم ولن تخفض قيمته. وبدأ المسؤولون منذ 1997 في حث الناس على النظر إلى أنفسهم على أنهم يعيشون في «بريطانيا الهادئة» (Cool Britannia)، فالدعاية أبعد ما تكون عن الورم الخبيث، بل هي جزء أساسي من العملية السياسية.

عندما قرر حلف الناتو إعلان الحرب على سلوبودان ميلوسيفيتش - "هتلر الجديد" - حرص على تبرير أسباب تلك الحرب بالتأكيد على "الأهداف الإنسانية" لحملة القصف الجوي التي شنها وعلى دقة الأسلحة التي يستخدمها.

ويمكن تعريف الدعاية السياسية الحديثة على أنها المحاولة المتعمدة للتأثير في آراء الفئة المستهدفة من خلال نقل الأفكار والقيم لإقناعهم بهدف محدد، وهي مصممة بصورة واعية من أجل مصلحة القائمين على الدعاية ورؤسائهم من السياسيين، سواء بطريق مباشر أو غير مباشر. والدعاية وفقا لهذا التعريف تختلف عن الإعلام - الذي يسعى إلى نقل الحقائق بصورة موضوعية - وعن التعليم، الذي يطمح إلى تفتيح أذهان الطلبة. وهدف الإعلام هو عكس ذلك: إقناع الفرد أو الجماهير الموجهة إليهم بوجهة نظر واحدة وسد الطريق أمام أية خيارات غيرها.

كما أن الدعاية محدودة في تأثيرها. وقد بحثت الدراسات الحديثة «مقاومة» الدعاية أو «المناعة» ضدها. وعلى المدى القريب قد تضع الدعاية الجمهور المستهدف منها في موجة حماس. إلا أنها تصبح أقل

---

* الذي شنه الألمان على بريطانيا في 1940.

فعالية على المدى الأبعد لأن هذا الجمهور لديه الوقت والفرصة للتشكيك في افتراضاتها ومسلماتها. وعلى حد ملاحظة جوبلز فإن «الدعاية تصبح أقل فعالية وتأثيرا بمجرد أن نحس بها». وإذا كانت الدعاية عقلانية أكثر من اللازم فقد تتعرض لخطر أن تصبح مملة، وإذا كانت عاطفية أو حادة أكثر من اللازم فقد تبدو سخيفة ومدعاة للسخرية. ولكي تنجح الدعاية وتسير على أكمل وجه، كما هو الحال في الأشكال الأخرى للتفاعل بين البشر، يجب أن توازن بين العقل والعاطفة.

وقد وصفت الرقابة على أنها النقيض للدعاية والأداة اللازمة المساندة في آن واحد. إلا أنها أداة ضعيفة وغير فعالة. وهناك أشكال أكثر تطورا للدعاية، ومنها سرقة التاريخ: أكبر محطة للقطارات في لندن اسمها ووترلو، والميدان الرئيسي بها اسمه «الطرف الأغر» Trafalgar، وفي باريس توجد محطة «أوسترليتس» وجسر «واجرام». ويمكن أن تتخذ الدعاية شكل مبنى أو علم أو عملة معدنية وكذلك قنوات الاتصال الأكثر وضوحا. وصور رؤساء الدول على طوابع البريد أو العملات المعدنية تذكر الجميع وفي كل مكان بقوة أنظمتهم وشرعيتها والطابع الشخصي لها. وكما يرى جوبلز فإنه «في الدعاية، كما هو في الحب، كل ما هو ناجح فهو مسموح به».

والدعاية إما أن تكون ظاهرة وعلنية أو خفية ومستترة، بيضاء أو سوداء، صادقة أو كاذبة، جادة أو ساخرة، عقلانية أو عاطفية. ومسؤولو الدعاية يقيمون الظروف والفئة الموجهة إليها الدعاية ويستخدمون كل الأساليب التي يرون أنها الأنسب والأكثر فعالية. ودائماً ما تستخدم الدعاية أحدث أساليب الاتصال، ففي الحرب العالمية الأولى استخدمت الصحافة، وفي الحرب العالمية الثانية استخدمت نشرات الأخبار في الإذاعة والسينما، وأما الحروب التي جاءت بعد 1945 فقد استخدم فيها التلفزيون بالكامل. وفي الحرب التي قامت بشأن كوسوفو أدرك كلا الجانبين أهمية التلاعب بالأنباء لمصلحة كل منهما، وفضلا عن ذلك، فإن أحدث ما ظهر في مجال الاتصالات وأكثره تقدما - وهو الإنترنت - قد استغل في نشر الدعاية. وعندما قرر حلف الناتو إعلان الحرب على الصرب - أو بالأحرى على سلوبودان ميلوسيفيتش، هتلر الجديد - حرص على تبرير أسباب تلك الحرب بالتأكيد على «الأهداف الإنسانية» لحملة القصف الجوي التي شنها وعلى دقة الأسلحة التي يستخدمها. وكثيرا ما كرر جامي شيي Jamie Shea، المتحدث الرسمي باسم الناتو، عبارة: «قضيتنا عادلة». كما استغل ميلوسيفيتش وسائل الإعلام لأغراض الدعاية، وسمح لمراسلي هيئة الإذاعة البريطانية BBC وشبكة CNN الإخبارية بالاستمرارية في نقل الأخبار من بلجراد على أمل إحداث انقسام في الرأي العام في الغرب بإذاعة قصص عن مدنيين أبرياء قتلوا في الضربات الجوية لحلف الناتو. وحيث إن أكثر الدعاية فعالية وأشدها تأثيرا هي تلك التي يمكن التحقق منها وتأكيد صحتها، فقد وضع الناتو في موقف دفاعي للرد على الهجوم أو الانتقادات في الحرب الدعائية عندما اضطر للاعتراف بصحة بعض الادعاءات الصربية عن وقوع ضحايا من جراء القصف الجوي. ولم يكن الصراع في كوسوفو سوى أحدث حرب تعززت فيها الأهمية المحورية للدعاية في الحرب، تلك الأهمية التي من المؤكد أن تتزايد في ظل عولمة الإعلام.

وكتب إي. هـ. كار E. H. Carr في 1939 يذكرنا بأن: «ممارسة القوة على الرأي لا تقل أهمية بالنسبة للأغراض السياسية عن القوة العسكرية أو الاقتصادية وترتبط بهما ارتباطا وثيقا. وكان فن الإقناع يشكل دائما جزءا لا غنى عنه من عدة أي زعيم سياسي». وإذا أمكننا أن نزيل من الدعاية ما علق بها من شوائب، فسندرك مدى أهميتها كجزء له قيمته الحقيقية في العملية السياسية برمتها. ونحن ربما في حاجة إلى المزيد من الدعاية، وليس إلى الحد منها، وذلك لحث الناس على المشاركة في العملية الديمقراطية.

بورتريه لنجم يأفل

ترجمة: أحمد خضر

لم يتلاعب التاريخ بمصير رجل مثلما فعل مع الرئيس التشيكي فاتسلاف هافل. فالثورة المخملية التي أطاحت بالنظام الشيوعي في تشيكوسلوفاكيا في نوفمبر 1989 خلقت فراغا سياسيا كان لابد من ملئه. وفجأة وجد الكاتب المسرحي المنشق نفسه في منصب رئيس الجمهورية. وفي الأيام الأولى لرئاسته، بدا هافل وكأنه ممثل هاو يلعب دورا غريبا في إحدى مسرحيات العبث التي كان يؤلفها. لكن العالم الذي مل السياسيين المحترفين وجد في هذا الرجل ضالته المنشودة. وهكذا كان يجد الترحيب الرسمي والشعبي أينما ذهب، بل إنه واحد من الزعماء العالميين القلائل الذين خطبوا أمام جلسة خاصة لمجلسي الشيوخ والنواب معا في الولايات المتحدة. وفي هذه الخطبة التاريخية، بدا هافل فيلسوفا من طراز فريد، حكيم آخر الزمان الذي جاء يبشر بعالم جديد يوحد الجنس البشري تحت راية العدل والحرية.

لكن الأيام لها منطقها الخاص الذي لا يرحم. وهكذا يجد هافل نفسه بعد أكثر من عقد من الزمان في السلطة يعيش مأساة من صنع يديه. فكيف حدث هذا؟ لنقرأ معا هذا الملف!!

العنوان الأصلي للمقال: Capitalism Attempts to Escape the Logic of ونشر في مجلة London Review of Books عدد 28 أكتوبر 1999.

(1)

لا مفر من منطق الرأسمالية

بقلم: سلافوي زيزيك

ربما تكون حياة فاتسلاف هافل قد بدت في إحدى اللحظات وكأنها قصة نجاح منقطعة النظير، الملك الفيلسوف، رجل يجمع بين السلطة السياسية ومكانة أخلاقية كونية لا تقارن إلا بمكانة البابا، أو الدالاي لاما أو نلسون مانديلا. وكما في نهايات قصص الحب الخيالية، عندما يكافأ البطل عن معاناته بالزواج من الأميرة، تزوج هافل من ممثلة سينمائية جميلة. إذن لماذا اختار جون كين «تراجيديا سياسية في ستة فصول» عنوانا فرعيا للكتاب الذي ضمنه سيرة حياة فاتسلاف هافل؟

في السبعينيات، عندما كان هافل كاتبا تشيكيا منشقا غير معروف نسبيا، لعب جون كين دورا حاسما في تحويله إلى شخصية معروفة في الغرب: كان ينظم عملية نشر كتابات هافل السياسية وأصبح صديقا له. وقام أيضا بالكثير من أجل إحياء مفهوم «المجتمع المدني» كساحة لمقاومة الأنظمة الاشتراكية البائدة. ورغم العلاقة الشخصية المباشرة، جاء كتاب كين أبعد ما يكون عن سير حياة القديسين hagiography فهو يقدم لنا «هافل الحقيقي» بكل ضعفه وتقلباته المزاجية. وهو يقسم حياته إلى ست مراحل: سنوات الدراسة الأولى في ظل النظام الستاليني، كاتب المسرحيات والمقالات في الستينيات، هزيمة آخر المحاولات الكبيرة لبناء «الاشتراكية ذات الوجه الإنساني» في ربيع براغ عام 1968، سنوات الانشقاق والاعتقال التي وصلت إلى ذروتها ببزوغ نجمه بوصفه أبرز المتحدثين باسم مجموعة الميثاق 77، ثم الثورة المخملية، وأخيرا سنوات الرئاسة. وعبر صفحات الكتاب نتعرف على الكثير من «نقاط الضعف الخفية» التي لم تؤثر سلبا على صورة هافل البطولية، الأمر الذي يضفي المزيد من الوضوح على إنجازاته. فقد كان والداه من «رأسماليي الثقافة» الأثرياء (أصوله البرجوازية). وكانت له دائما عاداته التي لا تدعو إلى الثقة (ولعه بالعطور وموسيقى الروك، والسهر الدائم)، وعرف أيضا بخياناته الزوجية الكثيرة، على الرغم من «رسائل السجن» الشهيرة التي كتبها لزوجته أولجا ابنة الأصول العمالية. (عندما أطلق سراحه من السجن في عام 1977، أمضى أسابيع الحرية الأولى برفقة إحدى عشيقاته). وفي الثمانينيات، كان قاسيا لا يرحم في تثبيت صورته باعتباره المنشق التشيكوسلوفاكي الأكثر أهمية ــ عندما كان يظهر على الساحة منافس محتمل له كان يطلق حملة إشاعات تربط بين خصمه وأجهزة المخابرات. وعندما أصبح رئيسا، كان يستخدم دراجة نارية من تلك المخصصة للأطفال في التنقل عبر ممرات القصر الرئاسي العملاق.

ومع ذلك، فإن مصدر مأساة هافل ليس هو التناقض بين الشخصية العامة و«الشخص الحقيقي»، ولا هو فقدانه التدريجي لسحره الجماهيري ــ الكاريزما Charisma في السنوات الأخيرة. فهذه الأشياء تتعلق بحياة كل سياسي

ناجح (باستثناء هؤلاء الذين نعموا بوراثة السلطة وهم في سن صغيرة). ويقول كين إن حياة هافل تمثل «تراجيديا سياسية كلاسيكية» لأنها «ارتبطت بلحظات.. النصر الذي أفسدته الهزيمة»، ويشير إلى أن «كل مواطن في جمهورية الرئيس هافل ينظر إليه اليوم نظرة أقل شأنا من تلك التي كان ينظرها إليه قبل عام مضى». غير أن القضية الحاسمة هي التناقض بين صورتيه العامتين: صورة المنشق البطل الذي مارس ودعا إلى «العيش في الحقيقة» في ظل عالم الاشتراكية القمعي، وصورة الرئيس الحداثي الذي ينغمس (دون أي تناقض مع آل جور) في مساجلات «العصر الجديد» الرامية إلى إضفاء المشروعية على التدخلات العسكرية لحلف الناتو. وكيف لنا أن نجمع بين صورة المنشق الفرد الضعيف بسترته المجعدة وأخلاقياته التي لا تعرف المهادنة، الذي يقاوم كل السلطات الاستبدادية المتسلطة، وصورة الرئيس الذي يهذر حول المبدأ الإنساني ونهاية النموذج الديكارتي، ويذكرنا أن حقوق الإنسان منحها الخالق لنا، ويصفق له الكونجرس الأمريكي لدفاعه عن القيم الغربية؟ هل هذا المشهد المحبط هو النتاج الحتمي لـ«حقيقة» هافل وللمنشق البطل. وبعبارات هيجل، كيف لـ«الضمير النبيل» المعصوم أخلاقيا أن يتحول تدريجيا إلى «ضمير متدن» خنوع؟ وبالطبع فإنه بالنسبة لواحد من ديمقراطيي طريق ما بعد الحداثة الثالث الغارقين في أيديولوجيا «العصر الجديد»، لا يوجد هنا أي تناقض: فهافل ببساطة يواجه قدره، ويستحق الإشادة لعدم تدهور قوته السياسية. لكن ليس هناك من مفر من الاعتراف بأن حياته قد تحولت من السمو إلى المهزلة.

والواقع أن يلعب شخص واحد كل هذه الأدوار المختلفة. الطالب الشاب المغرور في مطلع الخمسينيات، وعضو الدائرة الضيقة التي خاضت نقاشات سياسية متقدة ونجحت بشكل ما في تجنب أسوأ سنوات الإرهاب الستاليني. وكاتب المسرح الحداثي الانتقادي الذي كافح من أجل ترسيخ مكانته في فترة ذوبان الجليد في أواخر الخمسينيات والستينيات. دخوله الأول إلى التاريخ – في ربيع براغ – الذي كان أيضا مصدر إحباط كبير بالنسبة لهافل. المحنة الطويلة في سنوات السبعينيات ومعظم الثمانينيات، عندما تحول من كاتب مسرحيات انتقادية إلى شخصية سياسية محورية. ثم معجزة الثورة المخملية وصعود هافل كسياسي بارع أدار مفاوضات انتقال السلطة وانتهى به الأمر رئيسا للجمهورية. وأخيرا هناك هافل التسعينيات، الرجل الذي أشرف على تفكيك تشيكوسلوفاكيا والذي يناصر اليوم إدماج الجمهورية التشيكية الكامل في البنية الاقتصادية والعسكرية الغربية. وكان هافل نفسه قد صدم من سرعة وسهولة التحول – صورت كاميرا تلفزيون لقطة شهيرة له كانت ملامح وجهه فيها تنطق بعدم التصديق أثناء حضوره حفل العشاء الرسمي له وهو رئيس للجمهورية.

ويسلط كين الضوء على مشروع هافل السياسي، وهافل الذي يصفه هنا يتسم أحيانا بسذاجة غير عادية، مثلما حدث في يناير عام 1990عندما حيا المستشار كول قائلا: «لماذا لا نقيم حزبا واحدا كبيرا، حزب أوروبا؟ وهناك تشابه كبير بين الفاتسلافين اللذين هيمنا على السياسة التشيكية في العقد الأخير: فالملك الفيلسوف ذو الشعبية الجارفة، رئيس الملكية الديمقراطية، يجد صنوا ملائما في فاتسلاف كلاوس، رئيس وزرائه، التكنوقراطي البارد المدافع عن ليبرالية السوق الكاملة والذي يستبعد أي حديث عن التضامن أو المجتمع.

في عام 1974، زار بول ثيرو فيتنام، بعد اتفاقية السلام وانسحاب الجيش الأمريكي ، لكن قبل سيطرة الشيوعيين الكاملة على البلاد. وقد وصف

الوضع هناك آنذاك في كتابه سوق السكة الحديد الكبير The Great Railway Bazaar . كان هناك نحو مائتي أمريكي مازالوا يعيشون هناك ـ كانوا هاربين من الجيش وغير موجودين من الناحيتين الرسمية والقانونية ويعيشون مع زوجاتهم الفيتناميات في أكواخ بائسة، ويحصلون على رزقهم من التهريب أو من جرائم أخرى. وقد أصبح هؤلاء الأفراد على يد ثيرو رمزا لموقع فيتنام في سياسة القوة الدولية. وبدأنا نتكشف من خلالهم تدريجيا الطبيعة المعقدة للمجتمع الفيتنامي. وعندما يكون جون كنج في قمة تألقه، فإنه يكشف لنا المقدرة ذاتها على أن يستخلص من التفاصيل الصغيرة السياق الكوني لما كان يجري في تشيكوسلوفاكيا. أما أضعف مقاطع الكتاب فهي تلك التي حاول فيها التعامل بعمق أكبر مع طبيعة «الأنظمة الشمولية» أو التداعيات الاجتماعية للتكنولوجيا الحديثة. وبدلا من أن يصور التناقضات الداخلية للأنظمة الشيوعية، قدم لنا الكليشيهات المحفوظة عن «هيمنة الأنظمة الشمولية».

وقرب نهاية الكتاب، يتلمس كنج فكرة «جسدي الملك» القديمة، ويشير إلى الأهمية المماثلة لجسد الزعيم في الأنظمة الشيوعية. وهو يقول إن النظام السياسي في العصور القديمة كان يعتمد على هذه الأجساد المقدسة، بينما النظام الديمقراطي، حيث مركز السلطة فارغ افتراضا، أمام الصراع التنافسي. لكن هذا التناقض يعجز عن تفسير تعقيدات «الشمولية». ولا يعود هذا إلى عداء كين المباشر للشيوعية، ولكن لأن موقفه الليبرالي ـ الديمقراطي قد حال بينه وبين رؤية المفارقة المرعب للنظام الستاليني.

عندما أصيب لينين بالجلطة الأولى، التي فاجأته في مايو 1922، أدى ذلك إلى شلل الجانب الأيمن من جسده وعجزه عن الحديث لبعض الوقت. وقد أدرك أن حياته السياسية الفعالة قد انتهت وطلب من ستالين أن يمده ببعض السم حتى يقتل نفسه، فرفع ستالين الأمر إلى المكتب السياسي، الذي صوت ضد رغبة لينين. وكان لينين قد افترض أن الموت هو خياره الوحيد بعد أن أصبح غير ذي نفع للنضال الثوري ـ لم تطرأ فكرة الاستمتاع الهادىء بالشيخوخة على ذهنه أبدا. واعتبر أن إقامة جنازته باعتبارها حدثا عظيما في الدولة التي أسسها فكرة مثيرة للاشمئزاز. لم يكن هذا تواضعا، لكنه ببساطة لم يكن يكترث لمصير جسده، واعتبره أداة يجب استغلالها إلى أقصى درجة ثم تنبذ عندما تصبح لا طائل منها.

غير أن جسد الزعيم أصبح مع الستالينية «جميلا في ذاته». وفي مقالته «حول إشكالية الجمال في الفن السوفييتي»، التي صدرت في الخمسينيات، قال الناقد السوفييتي نيدوشيفين: «بين كل المواد الجميلة في الحياة، يجب أن تشغل صور زعمائنا العظام المكانة الأولى.. فالجمال السامي لزعمائنا... هو أساس اقتران الجميل والحقيقة في فن الواقعية الاشتراكية». وليس لهذا علاقة بالخصائص الجسدية للزعيم، لكنه يتعلق أساسا بالنموذج المجرد. فالزعيم في الواقع مثل السيدة في شعر الحب في البلاط الملكي ـ بارد وناء وغير إنساني. والزعيم في النموذجين اللينيني والستاليني مستلب تماما، لكن في اتجاهين متعاكسين: الزعيم اللينيني يظهر ذرائعية ذاتية Self - instrumentalisation * بينما في حالة الزعيم الستاليني، يعامل «الشخص العادي» كملحق للصورة العامة والفتشية fetishised. ولا يدعو للعجب هنا أن الصورة الرسمية في العهد الستاليني كانت تتعرض لعمليات تعديلات مستمرة، ومع عدم الإتقان الواضح، كانت

---

* بمعنى أن جسده ليس سوى وسيلة لتحقيق الهدف الأسمى - المترجم.

تبدو تقريبا مقصودة، وكأن تمثالا خشبيا قد حل محل الشخص الحقيقي بكل صفاته الجسدية والإنسانية. وهناك إشاعة تقول إن الرئيس الكوري كيم إيل يونج قد مات فعليا في حادث سيارة منذ عامين وأن بديلا له يمثل شخصيته في الاحتفالات العامة التي قلما يحضرها، حتى يتسنى للجماهير تلمس ملامح الصورة التي تعبدها. وهذا ما يؤكد على نحو قاطع أن «الشخصية الحقيقية» للزعيم الستاليني تظل دائما غير ذات صلة. وهافل بالطبع نقيض ذلك: فبينما يختزل الزعيم الستاليني إلى مجرد تمثال خشبي يمجد في صورة طقوسية، تظل كاريزما هافل كاريزما «شخص حقيقي». والمفارقة أن «عبادة الشخصية» الحقيقية لا يمكنها أن تزدهر إلا في ظل الرأسمالية.

والواقع أن مقال هافل «قوة من لا قوة للهم»، الذي كتبه في عام 1978، كان ثاقب البصر في استقرائه لكيفية عمل الاشتراكية على النطاق المحلي، على المستوى اليومي. حيث إيمان الناس العميق بالأيديولوجيا الحاكمة ليس هو المهم، لكن المهم هو اتباعهم الطقوس والممارسات التي تكتسب الأيديولوجيا من خلالها وجودها المادي. وضرب هافل المثال ببائع خضار، رجل بسيط لا يكترث إطلاقا بالأيديولوجيا الرسمية. وهو يتبع القواعد على نحو ميكانيكي: في الأعياد الرسمية للدولة يزين واجهات محله بالشعارات الرسمية مثل «عاشت الاشتراكية»، ويشارك في المسيرات الشعبية الرسمية دون حماسة. غير أنه يتذمر سرا من الفساد ومن عجز «الممسكين بالسلطة»، ويجد خلاصه في ترديد المأثورات الشعبية (مثل «السلطة مفسدة» إلخ)، وهو ما يمكنه من تبرير موقفه أمام نفسه ومن الاحتفاظ بمظهر كاذب للكرامة. وعندما يحاول أحدهم ضمه إلى نشاط للمنشقين يحتج قائلا: «من أنت لتورطني في أشياء قد تستخدم ضد أطفالي؟ هل أنا من سيصلح الكون؟».

وأشار هافل إلى أنه لو كان هناك آلية سيكولوجية تفعل الأيديولوجيا الشيوعية فإنها لا تعتمد على الإيمان بالعقيدة، لكن على الإحساس بالجرم المشترك: ففي فترة «التطبيع» التي أعقبت التدخل السوفييتي عام 1968، عمل النظام التشيكي، بطريقة أو بأخرى، على إفساد أخلاقيات الأغلبية الساحقة من الجماهير، من خلال إجبارهم على انتهاك قيمهم الأخلاقية ذاتها. فعندما يبتز شخص لإجباره على التوقيع على عريضة ضد أحد المنشقين (مثل هافل، على سبيل المثال)، فإنه يعرف أنه يكذب ويشارك في حملة ضد رجل صادق أمين، وقد كانت تلك الخيانة الأخلاقية تحديدا هي التي تمنحه صفة المواطن الشيوعي. ولا ينطوي مفهوم «العيش في الحقيقة» عند هافل على أي ميتافيزيقيات: فالمقصود منه هو فعل التوقف عن المشاركة، أن يكسر المرء الحلقة المفرغة لـ«الجرم المشترك». إنه يغلق كل طرق الهروب الزائف، بما في ذلك السعي إلى اللجوء إلى «متع الحياة اليومية الصغيرة». فأفعال عدم الاكتراث ــ على سبيل المثال السخرية في الجلسات الخاصة من الطقوس السلطوية ـ هي الوسائل ذاتها التي من خلالها يعاد إنتاج الأيديولوجيا الرسمية.

وبالتالي فإن المؤمن «الصادق» بالأيديولوجيا الاشتراكية يصبح خطرا محتملا على النظام أكثر حتى من شيطان. وهو ما يتبين من مثالين من خارج تشيكوسلوفاكيا. المثال الأول هو شخصيتا إيفالد إلينكوف (1924ــ 1979) وألسكي لوسيف (1893ــ 1988)، وهما نموذجان للفلسفة الروسية في ظل الاشتراكية. فلوسيف هو مؤلف آخر كتاب ينشر في الاتحاد السوفييتي السابق (1929) ويرفض صراحة الماركسية (وصف المادية الديالكتيكية بأنها «هراء واضح»). وبعد فترة وجيزة

في السجن، سمح له بممارسة عمله الأكاديمي ثانية، بل وعاد إلى إلقاء المحاضرات أثناء الحرب العالمية الثانية ـ وكانت صيغته للانسحاب هي الانسحاب إلى تاريخ علم الجمال. وتحت غطاء تفسير مفكري الماضي، خاصة أفلاطون والأفلاطونيين الجدد، تمكن من تسريب معتقداته الشخصية، بينما كان في مقدمات كتبه يقدم ولاء زائفا للأيديولوجيا الرسمية مع استشهادات من خروشوف وبريجنيف. وبهذه الطريقة نجح في البقاء رغم كل تقلبات الشيوعية، وأشيد به بعد عام 1989 باعتباره ممثلا للإرث الروحي الروسي الحقيقي. ومن ناحية أخرى، كان إلينكوف، الديالكتيكي الفذ والخبير بهيجل، ماركسيا لينينيا مخلصا. وكان يكتب بحماس نصوصا متفردة، وسعى إلى الارتباط بالماركسية كفلسفة جادة وليس كمجموعة من المقالات الرسمية. لكنه لم يجد القبول: فقد أسيء تفسيره وانتهى منتحرا.

أما المثال الثاني فهو «إشتراكية الإدارة الذاتية» اليوغوسلافية والمفارقة الجوهرية التي انطوت عليها. فأيديولوجيا تيتو الرسمية كانت تحض الناس باستمرار على أن يملكوا زمام حياتهم خارج هياكل الحزب والدولة، بينما كانت وسائل الإعلام الرسمية تنتقد لا مبالاة الأفراد وانسحابهم نحو الشخصي. غير أن التنظيم والتمفصل الحقيقي للمصالح كانا أكثر ما يخيف النظام. فبين سطور خطابها الدعائي، افترضت الحكومة أن مناشداتها يجب ألا تؤخذ حرفيا، وأن ما تريده فعلا هو موقف نفعي إزاء أيديولوجيتها. إذ إن الكارثة الأكبر بالنسبة للنظام كانت ستحدث لو تعامل رعاياه بجدية مع استراتيجيته وتصرفوا استنادا إليها.

وكان هافل ثاقب البصيرة على نحو خاص في إدانته الرياء المتأصل للماركسية الغربية وللمعارضة الاشتراكية في البلدان الشيوعية. خذ على سبيل المثال الغياب شبه الكامل للمجابهة النظرية مع الستالينية في أعمال مدرسة فرانكفورت، مقارنة بتصديها الدائم للفاشية. وكان المبرر الجاهز دائما أن مفكري مدرسة فرانكفورت لم يريدوا معارضة الشيوعية علنا خوفا من أن تصب انتقاداتهم في خدمة أدعياء الحرب الباردة في البلدان الغربية حيث يعيشون. لكنه مبرر غير كاف على نحو واضح: فلو وضعوا أمام خيار واحد وسئلوا عن موقفهم إبان الحرب الباردة لاختاروا الديمقراطية الليبرالية الغربية (كما فعل ماكس هوركهايمر في بعض كتاباته الأخيرة). والواقع أن الستالينية كانت إحدى الموضوعات المؤلمة التي صمتت عنها مدرسة فرانكفورت ـ فالصمت بالنسبة لأعضائها كان هو السبيل للحفاظ على تضامنهم الضمني مع الديمقراطية الليبرالية الغربية، دون أن يفقدوا قناع اليسار الراديكالي الذي لبسوه.

فانحيازهم المطلق للنظام الغربي يعادل موقف «المعارضة الاشتراكية الديمقراطية» في جمهورية ألمانيا الديمقراطية. ومع أن أعضاء المعارضة كانوا ينتقدون حكم الحزب الشيوعي، إلا أنهم سلموا بالموقف الأساسي للنظام: أي أن جمهورية ألمانيا الاتحادية كانت دولة فاشية جديدة، الوريث المباشر للنظام النازي، وبالتالي يتعين الدفاع بأي ثمن عن وجود جمهورية ألمانيا الديمقراطية باعتبارها حصن مقاومة الفاشية. وعندما كان النظام الاشتراكي يتعرض لتهديد حقيقي، كانت المعارضة تسانده علنا (على سبيل المثال موقف بريخت من مظاهرات عمال برلين الشرقية عام 1953، أو موقف كريستا فولف من ربيع براغ). لقد ظلت المعارضة مؤمنة بإمكانية إصلاح النظام فعليا، لكنها زعمت أن الإصلاح الحقيقي سيحتاج إلى بعض الوقت واعتقدت أن التفكيك السريع للاشتراكية سيؤدي فقط إلى إعادة ألمانيا إلى الفاشية ويخنق يوتوبيا «ألمانيا الأخرى» التي مثلتها

جمهورية ألمانيا الديمقراطية، رغم كل فظائعها وإخفاقاتها.

ولهذا السبب لم يثق مثقفو المعارضة أبدا في «الجماهير». ففي عام 1989، عارضوا الانتخابات الحرة واثقين من أن أغلبية الجماهير ستختار، إذا ما منحت الفرصة، النزعة الاستهلاكية الغربية. ويقول هاينر ميلر إن الانتخابات الحرة قد أتت بهتلر إلى السلطة. وهي اللعبة نفسها التي لعبها العديد من الاشتراكيين الديمقراطيين الغربيين، فقد شعروا أنهم أقرب إلى «الشيوعيين الإصلاحيين» من المنشقين ـ كان الأخيرون يسببون لهم الحرج نظرا لكونهم عقبة أمام عملية الوفاق الدولي. وكان من الواضح بالنسبة لهافل أن التدخل السوفييتي في عام 1968هو الذي أبقى على أسطورة ربيع براغ الغربية: تلك الفكرة اليوتوبية القائلة إن التشيكوسلوفاك لو كانوا تركوا وشأنهم لكانوا أنجبوا بديلا فعليا للاشتراكية الحقيقية والرأسمالية الحقيقية. وواقع الأمر أنه لو لم تتدخل قوات حلف وارسو في أغسطس 1968لما كان هناك من سبيل آخر أمام القيادة الشيوعية سوى فرض القيود ولظلت تشيكوسلوفاكيا بلدا شيوعيا تماما، أو التحول إلى مجتمع رأسمالي غربي «طبيعي» (حتى لو اتسم بنكهة اشتراكية ديمقراطية اسكندنافية).

وأدرك هافل أيضا زيف ما أسميه «الاشتراكية السلبية» لليسار الأكاديمي الغربي. فهؤلاء اليساريون ليسوا مهتمين بالنشاط ـ بمجرد الخبرة «الصادقة». وسمحوا لأنفسهم بالاستمرار في عملهم الأكاديمي مرتفع الدخل في الغرب ـ بينما استخدموا الآخر الذي أضفوا عليه طابعا مثاليا (كوبا، ونيكاراغوا ويوغسلافيا تيتو) كمادة لأحلامهم الأيديولوجية: فهم يحلمون من خلال الآخر لكنهم يديرون ظهورهم اليه إذا كان سيؤثر على شعورهم بالرضا الذاتي من خلال هجران الاشتراكية واختيار الرأسمالية الليبرالية. لكن ما يثير الاهتمام هنا هو الافتقار إلى الفهم بين اليسار الغربي ومنشقين مثل هافل. ففي عيون اليسار الغربي، كان المنشقون الشرقيون شديدي السذاجة في إيمانهم بالديمقراطية الليبرالية ـ فبرفضهم الاشتراكية، يلقون بالوليد مع ماء الاغتسال. وفي عيون المنشقين، كان اليسار الغربي يعاملهم بترفع، متنصلا من القسوة الحقيقية للتوتاليتارية. أما فكرة أن المنشقين كانوا مذنبين على نحو ما لأنهم لم ينتهزوا الفرصة الفريدة لتفكك الاشتراكية من أجل ابتكار بديل صادق للرأسمالية فقد كانت محض رياء.

وفي تحليله للنظام الاشتراكي، كان هافل مدركا دائما أن الديمقراطية الليبرالية الغربية كانت أبعد ما يكون عن تحقيق مثل المجتمع الصادق «والعيش في الحقيقة» التي عارض هو ومنشقون آخرون الشيوعية باسمها. وبالتالي فقد جوبه بمشكلة أن يقرن رفض التوتاليتارية بالحاجة إلى تقديم رؤية نقدية للديمقراطية الغربية. وكان حله أن يحذو حذو هيدجر وأن يرى في العنجهية التكنولوجية الغربية، وفي رقصة الإنتاجية المتزايدة المجنونة، التعبير عن مبدأ أنطولوجي ترنسندنتالي transcendentalontological * أكثر جوهرية ـ «إرادة الحكم»، «المنطق الذرائعي» ـ الواضح بالمثل في المحاولة الشيوعية للتغلب على الرأسمالية. وهي الحجة ذاتها التي استند إليها أدورنو وهوركهايمر في ديالكتيك التنوير، الذي هندس أولا التحول القدري من التحليل الاجتماعي السياسي الملموس إلى التعميم الفلسفي الأنثروبولوجي، والذي من خلاله لم يعد «المنطق

* الأنطولوجيا هي علم الوجود، أو بعبارة أرسطو هي «علم الوجود من حيث هو موجود» وموضوعها هو الأشياء بالذات، والمعرفة الترنسندنتالية هي معرفة لا للموضوعات، بل لطبيعة وشروط معرفتنا لتلك الموضوعات ـ المترجم.

الذرائعي» هو أساس العلاقات الاجتماعية الرأسمالية الملموسة، بل يتموضع بدلا من ذلك باعتباره أساسها شبه الترنسندنتالي. وفي اللحظة التي يقر فيها هافل بمبدأ هيدجر الفلسفي أو شبه الأنثروبولوجي، تفقد الستالينية خصوصيتها، وديناميتها السياسية الخاصة، وتتحول إلى مجرد نموذج آخر لهذا المبدأ (الذي طرح في ملاحظة هيدجر، في كتابه مقدمة للميتافيزيقا، أن الشيوعية الروسية والنزعة الأمريكية سيصبحان على المدى البعيد، «ميتافيزيقا الشيء ونفسه»).

ويحاول كين أن ينقذ هافل من هذا المأزق من خلال التأكيد على الطبيعة الملتبسة لدينه الفكري لهيدجر. فمثله مثل هيدجر، رأى هافل في الشيوعية نظاما حديثا تماما، كاريكاتيرا ضخماً للحياة الحديثة، مع نزعات عديدة تتقاسمها مع المجتمع الغربي ـ العنجهية التكنولوجية وسحق الفردية الإنسانية داخلها. غير أنه على عكس هيدجر، الذي استبعد المقاومة الفعالة للإطار الاجتماعي التكنولوجي («الله وحده هو الذي يمكنه أن ينقذنا» على حد تعبيره في حوار نشر بعد وفاته)، آمن هافل بالتحدي «من أسفل» بالحياة المستقلة لـ«المجتمع المدني» خارج إطار سلطة الدولة. وقد ذهب إلى أن «قوة من لا قوة لهم» تكمن في التنظيم الذاتي للمجتمع المدني الذي يتحدى «المنطق الذرائعي» الكامن في الدولة والأجهزة التكنولوجية للهيمنة والتحكم.

وفي رأيي أن في فكرة المجتمع المدني تنطوي على إشكالية مضاعفة. الأمر الأول يتمثل في أن التناقض بين الدولة والمجتمع المدني يعمل ضد الحرية والديمقراطية وفي مصلحتها في آن معا. ففي الولايات المتحدة، على سبيل المثال، تقدم الأغلبية الأخلاقية نفسها (وتنظم نفسها على نحو فعال) باعتبار ها مقاومة المجتمع المدني المحلي للتدخلات الدائمة للدولة الليبرالية ـ وأفضل مثال على ذلك استبعاد الداروينية من المقررات الدراسية في كنساس. وبالتالي وبينما كانت تشير الحالة المحددة لفكرة المجتمع المدني في ظل المجتمع الاشتراكي السابق إلى فتح مساحة أمام مقاومة السلطة التوتاليتارية، فإنه ليس هناك سبب جوهري ينفي أنها تفتح أيضا مساحة أمام الفرقاء السياسيين والأيديولوجيين الذين عارضوا الشيوعية، بما في ذلك القوى القومية وحركات المعارضة ذات الطبيعة غير الديمقراطية. وهذه هي التعبيرات الحقيقية للمجتمع المدني ـــ فالمجتمع المدني يعمل على فتح الساحة أمام الصراع المفتوح، وهي الساحة التي يمكن لهؤلاء الفرقاء أن يمفصلوا أنفسهم فيها، دون أي ضمانات لأن ينتصر الجانب «التقدمي» في هذا الصراع.

أما الأمر الثاني فهو أن فكرة المجتمع المدني كما آمن هافل بها ليست تطويراً لفكر هيدجر. فجوهر التكنولوجيا الحديثة عند هيدجر لم يكن منظومة المؤسسات، والممارسات والمواقف الأيديولوجية التي يمكن معارضتها، لكنه أفق شديد الأنطولوجية يحدد كيف نعرف كينونتنا اليوم، وكيف يكشف الواقع ذاته أمامنا. ولهذا السبب فإن هيدجر كان سيرى أن فكرة «قوة من لا قوة لهم» تثير الشكوك، لأنها تسقط في منطق الرغبة في السلطة الذي تسعى لإدانته.

والواقع أن فهم هافل أن «العيش في الحقيقة» لا يمكن تحقيقه من خلال الرأسمالية، واقتران ذلك بفشله الجوهري في فهم أصول منبعه النقدي، قد دفعاه نحو تحيزات عمرية. ومع أن الأنظمة الشيوعية كانت في معظمها فشلا ذريعا، وولدت الإرهاب والبؤس، إلا أنها في الوقت نفسه قد أفسحت المجال أمام الطوباوية، التي سهلت سقوط الشيوعية ذاتها. وقد عجز المنشقون المعادون للشيوعية من أمثال هافل عن فهم أن المنطقة نفسها

التي وجهوا منها انتقاداتهم وإدانتهم للإرهاب والبؤس كانت قد افتتحتها وأبقت عليها محاولة الشيوعية الهروب من منطق الرأسمالية. وهذا ما يفسر إصرار هافل المتواصل على أن الرأسمالية في صورتها التقليدية الوحشية لا يمكنها أن تلبي الآمال السامية لنضاله ضد الشيوعية ـ الحاجة إلى تضامن إنساني حقيقي إلخ. وهذا ما يفسر بدوره اتهام فاتسلاف كلاوس ــ صنو هافل البراجماتي ـ لهافل بأنه «اشتراكي».

بل إن الأيديولوجية الستالينية الأكثر توتاليتارية هيمن عليها الغموض على نحو جذري. إذ بينما كان عالم السياسة الستالينية يتسم بلا شك بالرياء والإرهاب، فإن الأفلام السوفييتية العظيمة في أواخر الثلاثينيات (مثل ثلاثية جوركي) كانت تلخص تضامنا حقيقيا بالنسبة للمشاهدين في سائر أنحاء أوروبا. وفي فيلم خالد عن الحرب الأهلية، يكتشف أن أما وابنها الشاب يعملان كجاسوسين للثورة المضادة. وتبدأ مجموعة من البلاشفة محاكمتها، وفي بداية المحاكمة يطالب بلشفي عجوز بإنزال أقصى عقوبة بها، لكن ماذا حدث بعد ذلك. بعد اعترافها بجريمتها، ترى المحكمة (وهي سوفييت غير رسمي للجنود البلاشفة) أنها قد غرر بها وتورطت في نشاط معاد بسب ظروفها الاقتصادية الصعبة، ويحكم عليها بأن تصبح عضوا كامل الأهلية في المزرعة الجماعية الاشتراكية الجديدة، وأن تتعلم القراءة والكتابة وأن تحصل على التعليم المناسب، وأن يقدم لابنها، الذي كان مصابا، الرعاية الطبية المناسبة. وتتفجر المرأة المذهولة بالبكاء، عاجزة عن فهم أسباب رأفة المحكمة بها، وهنا يتمتم البلشفي العجوز: «نعم إنها عقوبة قاسية، لكنه مجرد حكم». وبغض النظر عن مدى خداع مثل هذه المشاهد، وبغض النظر عن مدى بعدها عن «العدالة الثورية»، فإنها كانت مع ذلك شاهدا مؤثرا على منطق جديد للعدالة، ومنحت المشاهدين بالتالي معايير أخلاقية جديدة للتعامل مع الواقع.

ويبدو هافل الآن عاجزا عن إدراك أن معارضته للشيوعية ذاتها تعود على الأرجح إلى البعد الطوباوي الذي ولدته وحافظت عليه الأنظمة الشيوعية. وهكذا يصبح بوسعنا أن نفهم المهانة الهزلية المأساوية التي تعرض لها هافل بعد أن نشر آخر مقالاته في الصحيفة الأمريكية New York Review of Books تحت عنوان «كوسوفا ونهاية الدولة الأمة». وقد حاول فيها أن يقول إن قصف حلف الناتو ليوغوسلافيا قد وضع حقوق الإنسان في مكانة أعلى من حقوق الدولة، وإن هجوم تحالف الناتو على جمهورية يوغوسلافيا الفيدرالية دون تفويض مباشر من الأمم المتحدة لم يكن عملا عدوانيا غير مسؤول، ولم ينطو على عدم احترام للقانون الدولي. وفي رأي هافل أن الدافع وراء الهجوم كان على النقيض من ذلك هو احترام للقانون الدولي. لكنه القانون الأسمى من ذلك القانون الذي يحمي سيادة الدول. فقد انطلق الحلفاء من احترام حقوق الإنسان، كما يمليها الضمير والمعاهدات الدولية.

وذهب هافل أبعد من ذلك في دفاعه عن «القانون الأسمى» عندما زعم أن «حقوق الإنسان، والحريات الإنسانية، والكرامة الإنسانية تضرب بجذورها عميقا في مكان ما خارج العالم المدرك.. وبينما الدولة هي من صنع الإنسان، فإن البشر من صنع الله». وبدا وكأنه يقول إن قوات الناتو قد سمح لها بانتهاك القانون الدولي لأنها تصرفت كأداة مباشرة لقانون الرب الأسمى ــ حالة واضحة من الأصولية الدينية. ويعد مقال هافل مثالا نموذجيا لما أطلق عليه أولريك بيك، في مقال نشره مؤخرا في صحيفة Die Suddeutsche Zeitung، اسم «الإنسانية المعسكرة» أو حتى «اللاعنف المعسكر». والواقع أن مشكلة هذه المقاربة ليست فقط في كونها متناقضة بطبيعتها، مثل مقولة أورويل «الحرب

215

سلام» * فتدخل الناتو لا يستقيم حتى مع حجة دعاة اللاعنف الليبراليين بأن «المزيد من القنابل والقصف لا يمكن أن يأتي بسلام (غني عن القول إنه أمر غير صحيح). ولا يكفي حتى التأكيد، كما يفعل الماركسيون، على أن أهداف القصف لم يتم اختيارها وفقا لاعتبارات أخلاقية، لكن حددتها الأهداف الاقتصادية وأهداف الجغرافيا السياسية. لكن المشكلة الرئيسية لمزاعم هافل هي أنها طرحت التدخل باعتباره قد تم من أجل خاطر ضحايا الكراهية والعنف، وبالتالي فإنه مبرر من خلال الجاذبية اللاسياسية لحقوق الإنسان العالمية.

وكان ستيفن إرلانجر قد نشر تقريرا حول معاناة ألبان كوسوفا في النيويورك تايمز حمل عنوان «امرأة كوسوفية واحدة رمز للمعاناة». وقد عرف هذه المرأة منذ البداية بأنها ضحية للظروف لا حول لها ولا قوة، ليس لها أية هوية سياسية، اختزل وجودها في صورة معاناة مجردة. وبالتالي فإنها أبعد ما تكون عن أية شبهات سياسية ـ لم تكن كوسوفا المستقلة ضمن أولوياتها، كل ما كانت تريده هو إنهاء تلك البشاعات:

هل كانت تؤيد كوسوفا مستقلة؟

قالت ميلي: «تعرف، أنا لا أكترث إن كانت ستكون مستقلة أم لا. أنا فقط أريد انتهاء كل هذا، وأن أشعر بالسعادة ثانية، أشعر بالسعادة في بلدتي وفي منزلي ووسط أصدقائي وعائلتي».

وقد استند تأييدها لتدخل الناتو إلى رغبتها في إنهاء البشاعات:

إنها تريد حلا يأتي بالأجانب هنا «ومعهم بعض القوة». وهي لا تكترث بهوية هؤلاء الأجانب.

وهي متعاطفة مع كل الأطراف:

قالت لي: «هناك مآس عند الجميع. أشعر بالأسف للصرب الذين قصفوا وماتوا، وأشعر بالأسف لشعبي. لكن قد يكون هناك الآن نهاية، حل لمصلحة الجميع. إنه أمر رائع».

والواقع أن ميلي حالة نموذجية للضحايا الذين هرع الناتو لمساعدتهم: فهي ليست مواطنا سياسيا له أهداف واضحة، لكنها مواطنة لا حول لها ولا قوة، إنسانة تتعاطف مع كل الأطراف التي تعاني في النزاع، وجدت نفسها محصورة وسط جنون صدام محلي لن يتوقف إلا بتدخل قوة أجنبية خيرة.

والمفارقة الكبرى لقصف الناتو لصربيا ليست تلك التي يرددها باستمرار معارضو الحرب الغربيون: إن الناتو، من خلال محاولته إيقاف التطهير العرقي في كوسوفا، سيطلق العنان لعمليات تطهير عرقي على نطاق أوسع وسيقود إلى الكارثة الإنسانية ذاتها التي أراد درءها. فالمفارقة الأعمق هي أيديولوجية الإنسان ـ الضحية: فعندما تدخل الناتو لحماية الضحايا الكوسوفيين، أكد في الوقت ذاته أنهم سيبقون ضحايا قاطني بلد مدمر، سكانه مسالمون ـ ولم يشجعوا لكي يصبحوا قوة سياسية عسكرية فعالة قادرة على الدفاع عن نفسها. وهنا تتبدى المفارقة الجوهرية للإنسان ـ الضحية: الآخر الذي يتعين حمايته يظل كذلك طالما بقي ضحية (لذا أمطرونا بسيل من صور الأمهات والأطفال والعجائز الكوسوفيين وهم يروون قصصا مروعة عن معاناتهم)، وفي اللحظة التي يبدأ بالتصرف فيها وكأنه ليس بضحية، كأن يرد الضربات التي وجهت إليه، فإنه يتحول فجأة وعلى نحو سحري إلى آخر إرهابي، أو أصولي أو مهرب مخدرات. والواقع أن أيديولوجية الإنسان ـ الضحية الكونية هذه، أي تعريف الإنسان بأنه «شيء قابل للإيذاء»، تناسب تماما الرأسمالية الكونية اليوم، رغم أنها تبقى في معظم الأوقات خفية عن عيون الرأي العام.

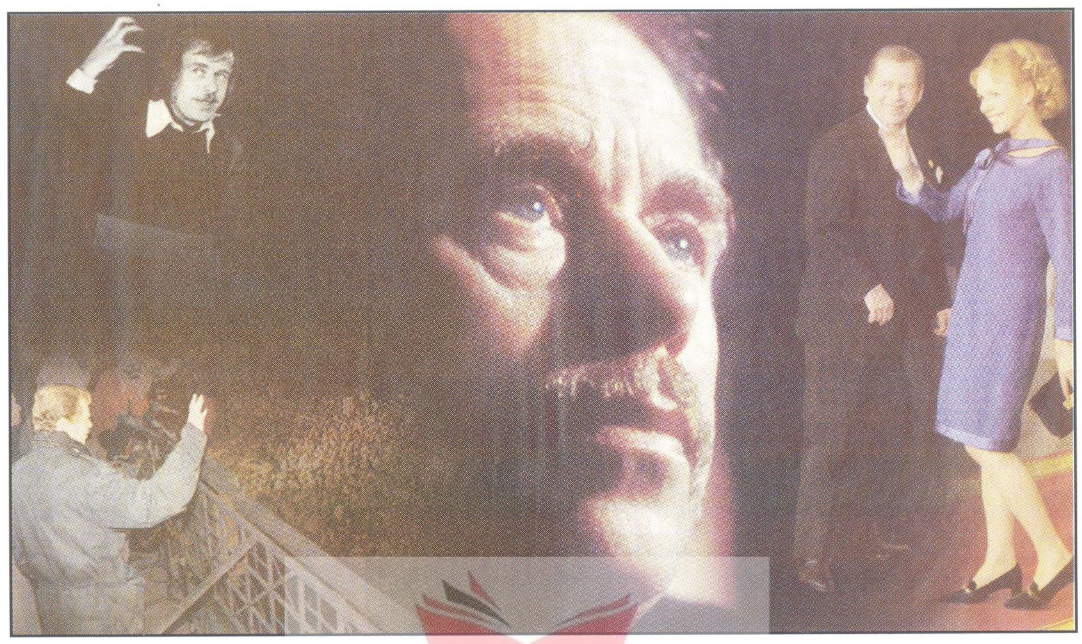
وقد أشاد هافل بقصف حلف الناتو ليوغوسلافيا باعتباره الحالة الأولى لتدخل عسكري في بلد كامل السيادة يتم ليس من أجل مصلحة اقتصادية ـ استراتيجية معينة وإنما لأن ذلك البلد كان ينتهك حقوق الإنسان الأساسية لجماعة عرقية.

ولكي نفهم هذا الزيف علينا أن نقارن النزعة الأخلاقية الجديدة بالحركتين التحرريتين العظيمتين اللتين أطلقهما المهاتما غاندي ومارتن لوثر كنج. فهاتان الحركتان كانتا موجهتين ليس ضد جماعة معينة من الناس، وإنما ضد ممارسات (عنصرية، استعمارية) ممأسسة ملموسة، وانطوتا على موقف إيجابي شامل أبعد ما يكون عن إقصاء «العدو» (البيض، المستعمرين الإنجليز)، يخاطب إحساسه الأخلاقي مطالبا إياه بالقيام بشيء يستعيد من خلاله كرامته الأخلاقية ذاتها. أما الشكل السائد للنزعة الأخلاقية «الصحيحة سياسيا» اليوم فهو مثل الحقد والبغض عند نتشه: الإيحاء الزائف للسياسة المتنكرة، وافتراض موقف «أخلاقي» لا سياسي من أجل صنع قضية سياسية أقوى. وهو صورة معدلة من نظرية هافل حول «قوة من لا قوة لهم»: يمكن التلاعب بقوة من لا قوة لهم كخدعة من أجل اكتساب المزيد من القوة، بالطريقة نفسها التي يتعين بها اليوم على المرء، من أجل أن يصبح لصوته مرجعية، أن يضفي المشروعية على ذاته باعتباره ضحية (فعلية أو محتملة) للسلطة.

لكن السبب الرئيس لهذه النزعة اللاسياسية الأخلاقية هو تراجع المشروع التاريخي ـ السياسي الماركسي. فمنذ عقدين فقط كان الناس لايزالون يناقشون المستقبل السياسي للبشرية ـ هل ستسود الرأسمالية أم ستحل محلها الشيوعية أو شكل آخر من أشكال «الشمولية»؟ ـ بينما كانت الحياة الاجتماعية تتواصل بشكل أو بآخر بر غم قبولها الصامت بهذا. واليوم، يمكننا بسهولة تخيل فناء الجنس البشري، لكن يستحيل تخيل تغير جذري في النظام الاجتماعي ـ حتى لو اختفت الحياة من على الأرض، فإن الرأسمالية ستبقى قوية بشكل أو بآخر. وفي ظل هذا الوضع لم يكن بوسع اليساريين المحبطين، المقتنعين تماما بأن تغيرا جذريا في النظام الرأسمالي الليبرالي الديمقراطي لن يعود ممكنا بعد الآن، والعاجزين عن التخلي عن ارتباطهم العاطفي بالتغيير الكوني، سوى استثمار طاقتهم السياسية الزائدة في موقف أخلاقي متشدد.

وفي اجتماع عقد مؤخرا لقادة القوة الغربية مكرس لمناقشة «الطريق الثالث» قال رئيس الوزراء الإيطالي ماسيمو داليما إنه ينبغي على المرء ألا يخاف بعد الآن من كلمة «اشتراكية». ولابد أن كلينتون انفجر في الضحك، تبعه بلير وشرودر. وهذا يقول الكثير عن الطريق الثالث، الحافل بالإشكاليات ـ وأولها أنها تفضح غياب الطريق الثاني. فالطريق الثالث ظهر إلى الوجود في اللحظة ذاتها التي تداعت كل البدائل الأخرى، على الأقل في الغرب، بدءا من النزعة المحافظة عتيقة الطراز وحتى الديمقراطية الاجتماعية الراديكالية في وجه الانتصار الكاسح للرأسمالية الكونية ومفهومها للديمقراطية الليبرالية. أما الرسالة الحقيقية لـ«الطريق الثالث» فهي أنه لا يوجد طريق ثان، ولا يوجد بديل للرأسمالية الكونية، وبالتالي، وفي صيغة زائفة ساخرة لنفي النفي الهيجلي، فإن الطريق الثالث يعيدنا مجددا إلى الطريق الأول والوحيد. الرأسمالية الكونية ذات الوجه الإنساني.

هذه إذن هي مأساة هافل: فقد أصبح موقفه الأخلاقي الحقيقي لغوا ذا طابع أخلاقي معدل على نحو ساخر لخدمة زيف الرأسمالية. وانتهى إصراره البطولي على فعل المستحيل (أي مقاومة النظام الشيوعي الذي بدا لا يقهر) إلى خدمة هؤلاء الذين يزعمون بـ«واقعية» إن أي تغيير حقيقي في عالم اليوم بات من المستحيلات. والواقع أن هذا التراجع لا يعد خيانة لموقفه الأخلاقي الأصلي، لكنه الامتداد الطبيعي له. وهنا يتبدى الدرس الكبير لمأساة هافل في قسوته التي لا ترحم: فالأساس الأخلاقي المباشر للسياسة يتحول إن عاجلا أو آجلا إلى كاريكاتيره الساخر ذاته، أي تبني الشرور نفسها التي عارضها في البداية.



■ في اتجاه عقارب الساعة من اليسار: هافل الكاتب المسرحي المنشق في 1979، رجل الدولة المخضرم، مع داجمار في البيت الأبيض في العام الماضي، وأخيرا يحيي الجماهير في ميدان فانتسسلاس عام 1991.

انكشاف الثائر المخملي

صحة عليلة، وزوجة فضولية... والأسوأ من هذا أن هافل قد تحول من شاعر رؤيوي إلى سياسي بائس. فكيف تحول نجم الثورة المخملية إلى مأساة من صنع يديه؟

ترجمة: جون كين*

في 16نوفمبر 1996، شخص طبيب فاتسلاف هافل الخاص، ميخال سرف، حالة رئيس الجمهورية التشيكية بأنه يعاني من ذات الرئة Pneumonia. وقد وصف له علاجا لم يجد نفعا. وتفاقمت أعراض المرض ـ الحمى، والارتجاف واهتزاز الرؤية ـ فما كان من صديقته الجديدة، الممثلة داجمار فشكرنوفا، إلا أن أقالت الطبيب، الذي كان صديقا مقربا من هافل منذ ما قبل الثورة المخملية. وفي أفضل

Havel unravelled ونشر في ملحق عدد ١٩ سبتمبر 1999 من جريدة observer

مستشفيات براغ، اتصلت بمجموعة من الأطباء، الذين أمروا له ببعض المسكنات وأجروا فحصا سريا على رئتيه بأشعة إكس.

لكن المرض لم يأت أبدا في الوقت المناسب، ولم يكن هافل استثناء من هذه القاعدة. فوسط المفاوضات الحاسمة حول دخول الجمهورية التشيكية إلى حلف الناتو، كانت صحته الطيبة ضرورة عملية، ورمزا في الوقت ذاته لقدرة الجمهورية التشيكية على التواجد بقوة في المفاوضات. لذا قرر الأطباء إبقاء أزمته الصحية سرا. وعندما فحصوا رئتيه بأشعة إكس، أرسلوا صور الأشعة للمتخصصين الآخرين وعليها اسم كبير حراس الرئيس. وكانت البقع السوداء واضحة على رئته اليمنى، وكان لابد من رأي آخر، الذي جاء في هذه المرة من الدكتور بافل بافكو أبرز أساتذة الجراحة في براغ، وكانت توصيته عدم تضييع أي وقت وإجراء جراحة فورية.

وقبل دقائق من إجراء الجراحة، وكأنه قد حكم عليه بالإعدام، دخن هافل ووزير الصحة سيجارتين تحت أضواء كاميرات التلفزيون وأمام مائة صحفي تزاحموا على التقاط الصور الأخيرة للرئيس قبل اختفائه داخل غرفة العمليات. وقد استمرت العملية أربع ساعات، أزال خلالها بافكو وفريقه الطبي ورما خبيثا طوله أكثر من نصف بوصة مع النسيج المحيط به. وبعدها وضع هافل، الذي أصبح الآن برئة ونصف فقط، في وحدة العناية المركزة، يفصله ستار عن المرضى الآخرين.

ومنذ هذه اللحظة، ستنقسم الآراء حول ما كان يجري وحول كل التفاصيل لأن هؤلاء القريبين من هافل بدأوا يختلفون حول ما ينبغي القيام به. فبعد العملية بوقت قصير، انتقل الالتهاب الرئوي إلى الرئة اليسرى لهافل. وزاد نبضه زيادة جنونية، واستدعى بافكو طبيبا آخر وست ممرضات وجهازا للتنفس الصناعي، وأجرى له عملية شق رغامي ـ أي إحداث شق في القصبة الهوائية عند الحلق حتى يتمكن من التنفس. وفور قيام الطبيب بإجراء العملية الجديدة بدأ قلب هافل يصاب بالاضطراب. وفجأة توقف جهاز التنفس الصناعي ـ لم يتضح من كان المسؤول عن حدوث ذلك هل هو الخلل الفني أم إهمال العاملين؟ ـــ ولولا فشكرنوفا، التي دخلت إلى وحدة العناية المركزة ووجدت هافل يختنق، لكان قد مات.

وبعد التطورات المتلاحقة لدراما الحياة أو الموت هذه، فقد الجميع الثقة. واستدعت فشكرنوفا قسا زار هافل ثلاث مرات. أما إيفان شقيق الرئيس، الذي بات مقتنعا بأن طاقم الرئيس لم يعد على مستوى المسؤولية، فقد استدعى طبيبا مستقلا يثق فيه. وهو ما شجع فشكرنوفا على تناول الهاتف والاستنجاد بأطباء من الخارج. وكان الطبيب الثالث عشر هو الجراح الأمريكي البارز روبرت جنسبرج، الذي استدعي إلى براغ خلال الليل. وألقى جنسبرج نظرة على هافل قبل أن يأمر العاملين في المستشفى برفع جهاز التنفس الصناعي. وقام بتنظيف حنجرة هافل والقصبة الهوائية ثم أعلن لفريق الأطباء المتناحرين أن حمى المريض ستتراجع، وأنه في طريقه للتعافي والشفاء. وقد ثبت أنه كان على حق.

ومع إقلاع طائرة جنسبرج في طريق عودته إلى نيويورك بعد ذلك بيومين، اجتاح الجمهورية التشيكية جدل علني حاد حول ما جرى. وتساءل الناس: لماذا حملت صور أشعة هافل اسم كبير حراسه؟ ولماذا سمح له بالتدخين حتى قبل ثوان من دخوله غرفة العمليات؟ ولماذا استدعي قس ليكون إلى جوار فراشه؟ ولماذا تركت الأوضاع في أفضل مستشفيات براغ لتسوء وتخرج عن سيطرة الجميع؟ ولم تجد هذه التساؤلات إجابات مباشرة، وترددت إشاعات أن هافل، الذي عاد إلى المنزل للنقاهة في 27 ديسمبر يعيش في حالة إحباط عميق بسب منعه قسرا من التدخين والكحول.

وسياسيا لم تتحسن الأمور أيضا. فبعد ثمانية أيام من خروجه من المستشفى، صدم هافل أصدقاءه والرأي العام التشيكي بزواجه من فشكرنوفا في حفل خاص، لم يدع إليه حتى شقيقه إيفان. وقد حذره بعض أصدقائه المقربين من القيام بهذه الخطوة. لكنه رد عليهم بأنه بات

مقتنعا بأن فشكرنوفا قد أنقذت حياته.

وكان هناك على ما يبدو الكثير من الطاقة الليبيدوية المتدفقة. فقد قال هافل إنه أحب منذ البداية طريقة تحديقها فيه، وإنها أيضا وجدت الجانب البوهيمي في شخصيته جذابا للغاية. وفي اليوم التالي لزواجه ـ والذي تم في احتفال لمدة 20 دقيقة يوم 4 يناير 1997 في قاعة بلدية جيفكوف في براغ، وهي القاعة نفسها التي تزوج فيها زوجته الأولى أولجا قبل ثلاثين عاما، وجه هافل خطابا إلى الأمة ـ ضمن برنامج خطاباته المنتظمة ـ قال فيه: «أعتقد أننا سنكون سعيدين. كما إنني أؤمن بشيء آخر، وهو أن هذه المرحلة الجديدة ستساعدني من نواح عدة على أن أكون رجلا أفضل مما كنت».

لم يكن هافل يشير إلى أخطائه في الماضي، ولكنه قال الكثير عن أولجا، التي ماتت بالسرطان قبل ذلك بعام: «كانت أولجا رفيقه دربي طوال خمسة وأربعين عاما تقريبا. وقد كانت وستظل جزءا من روحي غير قابل للتعويض. وقد تزوجت داشا (داجمار) لا لأعوض أولجا، لكن لأننا ببساطة نحب بعضنا البعض ونريد العيش معا».

وأراد هافل من زواجه في مكان زواجه السابق نفسه أن يكون رمزا للاستمرارية. بل وأشار إلى دعم أولجا لاقترانه بزوجته الجديدة (ابنة الثلاثة والأربعين)، وقال: «أولجا قالت إنه يتعين علي أن أتزوج ثانية. وقد رفضت ذلك حينئذ وكنت عازما أن أمضي بقية حياتي وحيدا. كانت أولجا مقتنعة بأنني لا يمكنني العيش وحيدا، وبأنني لا يجب أن أفعل ذلك. وقد كانت على حق، وهو ما أكدته الحياة ذاتها عندما منحتني الحظ لألتقي بداشا».

وبدا هافل النحيف مشرقا في الصور التلفزيونية. لكن بغض النظر عن حجم السعادة الشخصية التي أتى بها الزواج، فإنه سرعان ما أطلق تأثيراته السلبية سياسيا على هافل. وكما قال أحد مستشاري الرئيس المقربين لاحقا فإنه: «حتى لو كانت داجمار فشكرنوفا ملاكا، فإن الزوجين الجديدين لن يقفا على أقدامهما ثانية».

وأصبح الرأي العام فعلا قلقا ولا يمكن التنبؤ به، بل وأظهر إشارات انتقامية غريبة. وبدأ هافل يشبه الملك طيب القلب في قصص الأطفال التشيكية الذي وضع العسل على أنفه من أجل إطعام نحلته المحببة، لكن صدم بقسوة عندما قامت النحلة الناكرة للجميل بقرصه.

وبعد زواجهما بثلاثة أشهر، أخبرت زوجته الجديدة مجموعة من الأطفال والصحفيين الذين كانوا يزورون القصر الرئاسي في قلعة براغ أن شخصيتها الروائية المفضلة الآن هي السمكة الذهبية (التي أطلقها الصيادون بعد أن لبت لهم ثلاث رغبات) لأنها كانت تريد: «أن ألبي كل رغبات زوجي». ونظر هافل إليها مبتسما. وقد أظهرت دولة السياسة الجنسية في الجمهورية التشيكية نفسها وكأنها تسبق ببضع خطوات التمثيل، الذي نظر إليه على نطاق واسع على أنه أقرب إلى الغثيان. بل وقال البعض إنه يمثل مشهدا فجا في واحدة من مسرحيات هافل الأكثر عبثية. وسلطت الملاحظة الضوء على التعاطف الشعبي العميق والمتواصل مع أولجا. وأكدت أيضا على أن زواج هافل الثاني ـ أو «رئاستنا» كما أسماه في برنامج تلفزيوني ـ سرعان ما أصبح موضوعا سياسيا.

وكانت أولجا قد رفضت من حيث المبدأ أن تلعب الدور السياسي للسيدة الأولى، وفضلت أن تشغل نفسها بمشروعات ترمي إلى مساعدة المحتاجين اجتماعيا. لكن داشا فشكرنوفا بدت، على النقيض من ذلك، متشوقة إلى دورها السياسي. بل إن بافل ريختسكي، رئيس لجنة الشؤون الدستورية والقانونية في مجلس الشيوخ، وجه انتقادات حادة لطموحاتها الساذجة. وذكرها بأن: «زوجة الرئيس ليس منصبا، وهو بالتأكيد ليس منصبا دستوريا».

وسرعات ما جاء الرد من فشكرنوفا المفتقرة إلى العمق. ففي بيان معد سلفا نشرته صحيفة ملادا فرونتا دنيس، قالت فشكرنوفا: إن كل قرار من قراراتي له دلالة سياسية، ويمس بشكل أو بآخر، اهتمامات ومكانة رئيس الدولة، ويمس

بالتالي الدولة ذاتها».

والواقع أن متاعب هافل السياسية قد تعمقت بسبب دعمه لحماقات داشا العلنية. وكان هناك الكثير من هذه الحماقات، بما في ذلك انفجارها في الصحفيين في مؤتمر صحفي بسبب عدم اتفاقهم معها حول حق زوجها «في عطلة نهاية الأسبوع، مثله مثل أي موظف آخر». وبدأت على الفور تتداول النكات البذيئة حول شخصها وحول حالة زوجها الصحية وقدرته على الحكم.

وسرعان ما أجبرت داشا لاحقا على تعلم أن هناك زواجا بين السياسة المعاصرة والتغطية الإعلامية لحياة كبار المسؤولين، وأن المسافة القديمة بين ما يجري على المسرح وفي الكواليس قد تلاشت تماما. وكلما حاول نجم السياسة أن يحافظ على خصوصياته بها أصبحت حياته أكثر انكشافا أمام أجهزة الإعلام. وهكذا بدأت الصحف الشعبية توجه انتقادات جارحة إلى ملابسها المبهرجة التي صممها بيت فرساتشي للأزياء. وقال البعض إنها تبدو كمضيفات الطيران، وإنها ينبغي أن تفقد بضعة كيلوجرامات من وزنها، وإنها تبالغ جدا في وضع طلاء الشفاة الأحمر الفاقع. وتلمظ آخرون من طريقة طلاء أظافرها، ومن تسريحة شعرها. وصور هافل في صحيفة شعبية رخيصة على أنه رفيق لغانية شقراء. وشكا مراقبون محايدون من أن الرئيس أصبح سريع الغضب بشكل غير عادي وبات متقلب المزاج ربما بسبب الأدوية التي يتناولها.

وازدادت الأمور سوءا بسبب فقدان هافل شبه الكامل لكل اتصال مع معارفه وأصدقائه وأفراد عائلته ـ حتى أن شقيقه قال لأصدقائه إنه اليوم يأسف لأنه يراه مرة واحدة في العام، بينما كان يراه وهو في السجن في المرات الأربع التي كان يسمح بها القانون كل عام.

وخلال عام 1997 بدأت تتردد في براغ كل أنواع القصص المسمومة حول هافل. ورغم أن مصداقيتها كانت غير مؤكدة، فإنها أجهزت على البقية الباقية من كاريزما هافل. وفي الجلسات الخاصة للصحفيين الأجانب، كان يتردد دائما أنه يتحدث الآن كسياسي وليس كشاعر، أو ككاتب مسرحي أو كفيلسوف ينتقد العالم الحديث. وعززت هذه الآراء، بغض النظر عن دقتها، الإحساس الأعمق بأن السلطة الرئاسية قد قوضت أسلوب هافل الأدبي الخلاق.

وأصبح الكل ـ وليس فقط هؤلاء الذين ركلوا سياسيا إلى أعلى أو إلى أسفل ـ يشتكي من عزلة الرئيس. ويقول صديق له منذ أيام دراسته في مدرسة الملك جورج في بوديبرادي: «منذ عدة أيام كنت أصف سيارتي في ديجيفتسة عندما رأيت موكب الرئيس يمر فجأة بصافراته المدوية في الشارع الرئيسي. وكان هافل في طريق عودته إلى بيته بعد انتهاء إحدى مهامه الرسمية، لكن استعراض الأضواء الساطعة والصافرات المدوية كان لا يصدق. كنا نسخر أيام الشيوعية من هذا الاستعراض الفارغ للقوة، لكن سلوكه هذا أسوأ بكثير».

وخلف هذه الشكاوى كان يكمن إحساس بأن هافل يعاني الآن من مرض آخر ـ وهو ذلك المرض الذي يصيب السياسيين الذين يفقدون القدرة على معرفة أين يضعون الحدود، ومتى ينسحبون بهدوء من السياسة، ومن يعجز منهم لأي سبب عن ذلك فإن حياته السياسية عادة ما تنتهي إلى مأساة.

وبعد انقسام تشيكوسلوفاكيا في خريف 1992، تشبث هافل بالرئاسة، وقال لأصدقائه إن الجمهورية التشيكية تحتاج لشبه ملك ليكون رمزا للاستمرارية. والآن يبدو هافل وكأنها خائف ببساطة من ترك السياسة، وكأن ذاته العليا تعتمد في وجودها على الاحتفاظ بالمنصب.

وبدأ المزيد والمزيد من المواطنين يشعرون أنها رئاسة ضعيفة. ويشعر الحكماء بأن حياة هافل ككاتب للدراما قد دمرت إلى الأبد. وخلال زيارته لجامعة أوكسفورد في خريف 1988، قال هافل إنه يريد العودة لكتابة الدراما، وإن يكتب «مسرحية عبثية». لكن الحقيقة المخزنة أن هافل حتى لو كان لايزال يمتلك الوقت والرغبة، لن يمكنه العودة إلى عالم المسرح دون أن تطارده المشاكل.

وبدأ مواطنون آخرون يقولون إن الرئاسة أثبتت الكثير جدا من الإرادة والقليل جدا من العزوف عن السلطة، وإن الأمر لم يعد له علاقة بالأخلاق والنزعة الأخلاقية. والأسوأ من هذا أن أعدادا متزايدة من الناس، ومن كل طبقات المجتمع، بدأت تتحدث عن أن الرئاسة أصبحت منعزلة عن الجماهير، على عكس ما حدث تماما في الأشهر الأولى التي أعقبت الثورة.

ويقول منتقدو هافل إن القلعة (مقر القصر الرئاسي في قلعة براغ) بدلا من أن تقترب من الناس، أخذت في الابتعاد عنهم منسحبة نحو عالمها الخاص تاركة إياهم خلفها أو تحت أقدامها، كما حدث في رواية كافكا الشهيرة، حيث يتعذر الوصول إلى القلعة على نحو متزايد.

ويقول أحد زملائه المقربين السابقين منتقيا كلماته: «لم يعد ممكنا التأثير على نوايا القلعة. فهافل يحدد أولوياته بدقة وبحزم بحيث لا يمكن لك التأثير عليها. وهو محاط بحاشية ملكية: رجال ونساء وظيفتهم الوحيدة خدمة الملك».

ويذهب بعض أشد منتقديه إلى ما هو أبعد من ذلك. وهم يقولون إن الوظيفة الكريهة لحاشية القلعة هي التأكيد على بديهياته وأحكامه. وقد أصبح بالتالي متشرنقا داخل كلماتهم، وابتساماتهم، ورنات أصواتهم وبياناتهم الصحفية. وأصبح أفراد الحاشية مرايا لحقيقته، بل ولتفاهاته، وهو ما فعلوه للأسف لكل الملوك. وأصبحت المرايا عاجزة عن أن تعكس أي حقيقة أخرى. وهكذا فإن الملك، الذي بدأ يصنع مرآة لمراياه، سرعان ما أصبح يعيش في بيت للمرايا.

وكان صديق هافل القديم والمفكر البولندي البارز آدم ميخنيك قد توقع حدوث كل هذا.

وقد قال في وقت سابق، مشيرا إلى هافل: «إن الزعيم الكاريزما ينجح بداية في الاستحواذ على سلطة ميتافيزيقية تقريبا. وجدارته بالسلطة تنبع من الماضي، فهو من صنع المعجزات، وهو الذي أطاح بالدكتاتورية وحقق الديمقراطية. لكن كاريزما الزعيم سرعان ما تتآكل في ظل الظروف الديمقراطية. فالمعجزات لن تتحقق ثانية، وزعيم حركة مناهضة الشيوعية يتحول إلى رجل عادي يتسم بالضعف الإنساني.. وفي هذه المرحلة يصبح الزعيم الكاريزما كاريكاتيرا لنفسه».



● داجمار وهافل، براغ 1997.

وقبل فترة وجيزة من احتلاله لمنصب رئيس الجمهورية التشيكية، وجه ميخنيك رسالة لهافل أكد فيها على النقطة نفسها: «فاتسلاف، ما أروع التحليق فوق التصفيق والهتاف. لكن ماذا ستفعل، وكيف ستشعر، عندما يتوقف التصفيق ويبدأ الفحيح والهسيس؟» وهو سؤال وجيه لم يعد بوسع هافل الإجابة عنه الآن. وهكذا بدأت مأساة براغ تدريجيا في الانكشاف. ولأول مرة تسمع أصوات تتحدث عن أن دور هافل كشبه ملك ربما شارف على الانتهاء، وأن بلده سرعان ما سيشق طريقه من دونه. وكما يقول صديقه ونائب وزير الخارجية مارتين بالوش: «إن هافل كان هو الرجل الذي تمكن من خوض هذه المسرحية الإعجازية، وكانت التضحية أن يقوم بدور البطولة».